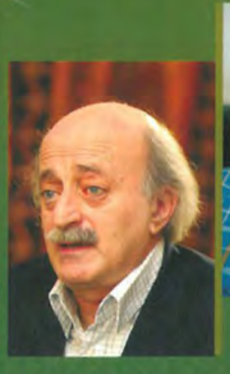
غسان شربل

facebook.com/musabaqat.wamaarifa

أين كنت في الحرب؟

اعترافات جنرالات الصراعات اللبنانية







أبو عبدو البغل

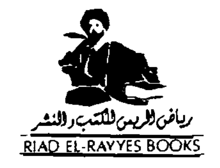


غسان شربل

أين كنت في الحرب؟

اعترافات جنرالات الصراعات اللبنانية

إيلي حبيقة ـ سمير جعجع
وليد جنبلاط ـ ميشال عون


رياض الريس للكتب والنشر
RIAD EL-RAYYES BOOKS

Where Were You during the War?

Confessions by Generals of Lebanese Conflicts

Elie Hobeika - Samir Geagea - Walid Jumblat - Michel Aoun

Ghassan Charbel

First Published in January 2011

Copyright © **Riad El-Rayyes Books S.A.L.**

BEIRUT - LEBANON

elrayyes@sodetel.net.lb - www.elrayyes-books.com

www.elrayyesbooks.com

ISBN 9953 - 21 - 492 - 1

All rights reserved. No part of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording, or otherwise, without prior permission in writing of the publishers.

الطبعة الأولى: كانون الثاني (يناير) ٢٠١١

لشراء النسخة الإلكترونية:

www.arabicebook.com

تصميم الغلاف: هوساك كومبيوتر برس

المحتويات

مقدمة

لبعض الأيام دويّ لا ينسى. ربما لقدرتها على اغتيال رجل ودولة. وشطب زعيم ومعادلات كان يمثلها أو يرسي دعائمها. وربما لقدرتها على تغيير مصائر أفراد وجماعات. ودفع البلد ـ المسرح في اتجاه آخر. ١٤ شباط/فبراير ٢٠٠٥ كان من قماشة تلك الأيام. اغتيل رفيق الحريري واغتيلت معه أشياء كثيرة. لم يحن الوقت بعد لإعداد جردة نهائية بالخسائر. عملية الاغتيال أعادت إطلاق الحرب في لبنان وعليه. اقتلعت ركائز الاستقرار. ربطت لبنان أيضاً بالتوتر السني ـ الشيعي القائم في الإقليم منذ اقتلاع نظام صدام حسين في ٢٠٠٣ والطريقة التي أعدم بها في نهايات العام ٢٠٠٧. وكما كان شطب صدام ونظامه أكبر من قدرة العراق على الاحتمال كان شطب رفيق الحريري أكبر من قدرة لبنان.

كان القمر ساهراً فوق دجلة. قال صديقي العراقي: «أشعر أنني بلا وطن وأن كل التضحيات ذهبت سدى». راودتني رغبة في أن أجيب: «وأنا أيضاً بلا وطن وأشعر أن دماء جميع الشهداء ذهبت سدى». خجلت ولم أعترف.

والحقيقة أنني أشعر بأنني صرت بلا وطن. يزورني هذا الإحساس الغريب المؤلم كلما حاولت النوم وبغض النظر عن اسم المدينة والفندق. في فيينا أو أربيل. في صنعاء أو الرياض. في نيويورك أو القاهرة. لست رجلاً عاطفياً ولا شاعري الطباع. ولست مصاباً بخيبة شخصية من وطني. غادرته قبل عقدين وأعمل في مكتب جميل هادئ في عاصمة جميلة هادئة. ومنذ مغادرتي أصبت بهاجس دائم وهو استطلاع احوال المريض اللبناني. زرته باستمرار والتقيت جميع اللاعبين على مسرح حروبه. كل الذين أمروا بإطلاق النار أو أبرموا هدنات أو اتفاقات سلام. وكانت الحصيلة كمية ضخمة من التسجيلات والأوراق والملاحظات. وعلى رغم ما حفلت به الفترات الماضية من أوقات عصيبة يراودني إحساس أن لبنان يتخبط حالياً في المرحلة الأخطر وربما كان عليه أن يختار بين خيارات انتحارية أو ينصاع لها. إن لبنان ما بعد اغتيال الحريري والمحكمة الدولية يمكن أن يفضي في النهاية إلى لبنان لا يشبه روح لبنان.

أشياء كثيرة قتلت في ذلك اليوم. معادلات وتوازنات ومعها لغة الاعتراف بالآخر والإنصات إلى مخاوفه والسعي إلى الالتقاء معه في منتصف الطريق. وها نحن نعيش أزمة بين المكونات. خلاف عميق بين السنة والشيعة ينذر بمواجهة

مديدة و«عرقنة» مفتوحة على كل المخاطر وسط انحسار واضح لدور المسيحيين. وليس سراً أن التعايش في عواصم المنطقة لن يكون ممكناً إذا تعذر في بيروت التي شكلت بطبيعتها مختبراً للتعايش.

لم يحن الوقت بعد للكتابة عن السنوات الخمس الأخيرة. سنوات القتل والغضب والمشاعر المسنونة والاتهامات والثارات وحملات التضليل والتهويل. أدت العواصف المتلاحقة إلى تغييرات عميقة في المواقع والتحالفات والقراءات والخيارات والانقسامات حول موقع لبنان في المنطقة والعالم وحول توزيع المواقع داخل لبنان. أدت إلى إعادة إطلاق الحروب اللبنانية وكل أنواع المخاوف وأعادت لبنان ملعباً لنزاعات إقليمية تختلط فيها حروب الأدوار والطموحات النووية والحساسيات المذهبية.

لم يعلّمني وطني إلا الخوف. الخوف منه والخوف عليه. أخاف كلما جنحت طائفة كبرى إلى خيار لا تستطيع المعادلة الهشة احتماله. ومن القدرة على تكرار الرهانات الباهظة. وعدم الاتعاظ من حمامات الدم. وقدرة اللبنانيين على المغامرة بوطنهم كأنهم يمتلكون وطناً آخر. أخاف من موهبة استجلاب التدخلات ومحاولة الاستقواء بها ثم التحول بيادق في ألعابها. من انتصارات سرعان ما تتحول انتصارات على الوطن لا انتصارات فيه.

أخاف كلما زغرد الرصاص في تشييع شهيد. كلما لمعت في العيون شهوة الثأر. كلما توترت الأعصاب الطائفية والمذهبية وانتفخت. كلما ولد قوي وادعى أنه منقذ وحاول

فرض لونه وشطب ألوان الآخرين. أخاف من دم يراق ولا يخلص. من دم يعمق الإقامة في النفق. كلما اقتربت الطائرة من مطار بيروت أسمع بكاء الشهداء. بكاء من سقط على حدود الوطن ومن سقط على حدود الطائفة أو المذهب. من دافع عن شارع أو شجرة. أقول الشهداء ولا أستثني واحداً منهم. كلهم من شعبنا أو شعوبنا. كلهم أبناء جمهورية اللحم المتطاير. حين تبقى الأرض بلا دولة يغتال الشهداء كثيراً. وتتضاعف شراهة المقابر.

أحفر في منجم الحرب وأعود خائفاً. التهمت أعمارنا وبددت الأبناء. ينكسر قلبي حين يبادرني مقيم بالقول إنني أحسنت بالابتعاد. وأن الذين فروا أنقذوا أبناءهم من بلد الاشتباكات التي لا تنتهي. والنزاعات التي لا تكمن إلّا لتتجدد وتزداد ضراوة فيزداد البلد تفككاً وتتعمق الغربة بين المكونات. أخاف من بلد يحتاج للعيش العادي إلى معتدلين في الداخل والخارج ولا يعثر عليهم. من بلد متهور في منطقة مجنونة.

أحفر في منجم الحرب. أحاول استدراج اللاعبين إلى الكلام. علناً نقرأ. علنّا نتعظ ونندم. إنها حكايات الحرب. قد تكون مفيدة لمن عايشوها أو لمن ولدوا بعدها. أو لصحافيين شبان يسارعون إلى إصدار الأحكام قاطعة من دون قراءة تاريخ أوجاع المريض اللبناني. أخاف من الأقوياء أو المجروحين الذين يقتحمون المختبر اللبناني الحساس ويتلاعبون بالمقادير والمصائر.

طالت الآلام وتكاثرت الجروح. لكل طائفة قوافل من

الشهداء وشهيد كبير وأحياناً أكثر. ذاكرة الناس مزروعة بالجنازات من المختارة إلى طرابلس وإهدن مروراً ببكفيا. ولا يصح أن ننسى بيروت أميرة الشهداء وعاصمة الجنازات. أحفر وأخاف. دخل وليد جنبلاط المسرح حاملاً نعش والده. دخله سليمان فرنجية حاملاً نعوش عائلته. دخل عمر كرامي حاملاً نعش شقيقه. دخل سامي الجميل حاملاً نعش شقيقه وعمه معاً. دخل سعد الحريري نادي الأقطاب حاملاً نعش رفيق الحريري.

هزّ اغتيال الحريري المشهد اللبناني بعنف غير مسبوق. رأينا جنبلاط يستجمع القوى لتتشارك في اتهام «النظام الأمني اللبناني ـ السوري» ما تسبب في انطلاق انتفاضة أدت إلى انسحاب القوات السورية من لبنان. حاول السيد حسن نصرالله في ٨ آذار/مارس قطع الطريق على هذه الانتفاضة، لكن قوة إطلالته ومضمونها ساهما في زيادة اشتعالها. ولا يمكن عزل هذه التطورات عن القرار ١٥٥٩ لمجلس الأمن الذي ولد من تفاهم بين الرئيسين جاك شيراك وجورج بوش وشكل رسالة قاسية لسورية و«حزب الله». كما لا يمكن عزلها عن الاتهامات التي أطلقت بعد صدور القرار وملامح الاصطفافات التي راحت تتبلور بعد التمديد للرئيس إميل لحود. وفي خضم الغضب الذي أثارته جريمة الاغتيال سيلفظ شيراك خلال تقديم التعازي في قريطم عبارة بالغة الخطورة هي «المحكمة الدولية».

سيتقدم جنبلاط الصفوف بعد ذلك. وسيذهب في خلافه مع سياسة سورية في لبنان أبعد مما ذهب كل خصومها القدامى أو الجدد. وكانت الاغتيالات المتلاحقة تصب

الزيت على نار الاتهامات والمرارات. وبعد الصدمة الميدانية التي نفذها «حزب الله» في شوارع بيروت في ٧ أيار/مايو ٢٠٠٨ سيتغير مصير جنبلاط مجدداً. لم يكن أمامه غير التراجع عن قاموسه واتهاماته ليتمكن في السنة التالية من العودة إلى سلوك طريق بيروت ـ دمشق ولقاء الرئيس بشار الأسد.

غيّر الاغتيال مصير سمير جعجع. فعلى دوي التغييرات التي أحدثها الاغتيال أقر مجلس النواب عفواً شمل جعجع وآخرين. وليس سراً أن مثل هذا العفو عن جعجع، الذي أمضى ١١ عاماً في السجن بعدما حكم عليه بالسجن المؤبد في قضيتي اغتيال رشيد كرامي وداني شمعون، ما كان ليصدر من دون زلزال يخلط الأوراق والمواقع. خرج جعجع وسرعان ما احتل موقعه في «ثورة الأرز».

غيّر الاغتيال أيضاً مصير العماد ميشال عون. ولولا الاغتيال لما كانت عودة عون تمت في الظروف التي تمت فيها. عاد عون وبعد وقت غير بعيد بدأ السباحة إلى الضفة الأخرى ليتحول حليفاً ثميناً لـ«حزب الله» وسورية. ويمكن القول إن هذا العسكري الذي لا تعوزه القدرة على اجتذاب الأنصار وانتزاع التصفيق تصرف كسياسي بارع وتمكن من تقاضي ثمن مرتفع لانتقاله إلى موقع الدفاع عن سلاح المقاومة وموقع الهجوم على المحكمة الدولية.

لاعب رابع لم يتح له أن يشهد الزلزال لأنه اغتيل قبل ثلاثة أعوام من موسم الاغتيالات الطويل. إنه إيلي حبيقة. كنت

في منزلي في بيروت حين سمعت دوي انفجار. خرجت إلى الشرفة فرأيت الدخان يتصاعد من شارع قريب في الحازمية. بعد قليل تلقيت اتصالاً من صديق أبلغني فيه أن حبيقة قتل في الانفجار. كان ذلك في ٢٤ كانون الثاني/ يناير ٢٠٠٢.

بين الرجال الأربعة قصص دامية مكلفة. تقاتل جنبلاط وجعجع على صخور الجبل في ١٩٨٣. وتقاتل جنبلاط وعون بشراسة قرب سوق الغرب. وأطلق عون من قصر بعبدا حربين منهكتين للجمهورية: سمى الأولى «حرب التحرير» ضد ما كان يسميه «الاحتلال السوري»، وسميت الثانية «حرب الإلغاء» لأنها استهدفت إخضاع ميليشيا «القوات اللبنانية» والسيطرة على «المنطقة الشرقية» لضمان الموقع الأول في الجمهورية. وتقاتل حبيقة وجعجع في شوارع «الشرقية» وقبل عون بعقدين سلك حبيقة طريق بيروت ـ دمشق. وحاول حبيقة اغتيال جنبلاط أكثر من مرة وحاول اغتيال جعجع الذي حاول اغتياله أيضاً.

إنها قصة أربعة رجال شاركوا في الحرب وفي فصولها الأكثر قسوة. رأيت عون قائداً للجيش وحاورته رئيساً لحكومة العسكريين وبعدها في المنفى، ثم التقيته بعد عودته إلى لبنان. والتقيت حبيقة المطرود من المنطقة الشرقية ثم حاورته بعدما عاد نائباً ووزيراً قبل أن يخسر مظلته وعمره. والتقيت جنبلاط قبل اتفاق الطائف وبعده وقبل انعطافاته وبعدها. والتقيت جعجع على الثلوج في الجرد وفي معقله السابق في غدراس وكذلك في سجنه وبعد خروجه منه. تشابكت مصائر الأربعة وساهموا كل من موقعه في إنهاك

الجمهورية الأولى أو قتلها. حاورتهم في التسعينيات في إطار محاولتي جمع بعض الروايات عن الحرب قبل تواري اللاعبين.

روى إيلي حبيقة قصته في الحرب. قال إن بشير الجميل اغتيل قبل يومين من موعد سري كان سيجمعه في جرود العاقورة بمسؤول سوري رفيع. وتحدث عن اغتيال بشير. وربط بين مجازر صبرا وشاتيلا و«الشرارة» التي كانت إسرائيل تطلبها لتبرير اجتياح بيروت. وقال إن خلوة في قصر لرفيق الحريري خارج باريس أطلقت رسائل بينه وبين دمشق وأدت إلى توقيع «الاتفاق الثلاثي». وأكد أن عون كان شريكه في ذلك الاتفاق وأنهما اتفقا على افتعال حادث أمني في المتن خلال زيارة الرئيس أمين الجميل لدمشق. وتحدث عن الهجوم الذي شنه جعجع وأدى إلى إسقاط الاتفاق. وكشف أنه أبلغ عون برغبته في تنفيذ اقتحام للمنطقة الشرقية فنصحه الأخير باختيار مكان لا يصطدم فيه بالجيش لكن الاختراق فشل بعدما تولّى الجميل إصدار الأوامر لوحدات الجيش بصده.

نفى حبيقة أن يكون قد خدع عون بعد «حرب التحرير» و«حرب الإلغاء». وقال إن الجنرال أرسل إليه موفداً حاملاً سؤالاً وحيداً وهو «هل تستطيع أن تفتح لي خطاً مع حافظ الأسد؟». وقال إنه أطلع عون وبناء على طلب مسؤول سوري على الخطة المشتركة للجيشين السوري واللبناني لإطاحته قبل تنفيذها تفادياً لإراقة الدماء لكن عون فضل الخروج بعد بدء المعركة.

ذات مرة اشترط إغلاق آلة التسجيل للتحدث بصراحة مطلقة. سألته عن عملية اغتيال فنفى ضلوعه فيها وفوجئت به يقول «أنا مشكلتي أنني أعرف كثيراً، ربما أكثر من المسموح، أحياناً يتحول ما تعرفه عبئاً عليك». وصف «مجزرة إهدن» بأنها «مأساة للموارنة والبلد» وقال إنه لم يكن قريباً من مسرح المجزرة. سألته عن تفجير كنيسة سيدة النجاة التي كانت المدخل لاعتقال سمير جعجع فأجاب: «يقولون سمير». استغربت استخدام كلمة يقولون فقال: «لا أملك معلومات دقيقة».

كنا نتحدث عن الاغتيالات وفوجئت به يقول: «أنا حطيت المحشاية (المتفجرة) لوليد جنبلاط». ضحكت وقلت له: «لكنه اتهم أمين الجميل؟». رد ضاحكاً: «أمين لا يفهم في الأمن ولا علاقة له بالاغتيالات. تعرف أنني أكرهه. لكن الحقيقة أنه كانت لأطراف كثيرة مصلحة في اتهامه لأسباب سياسية». سألته إن كان قد أرسل سيارات مفخخة خلال الحرب فرد مبتسماً «في الحرب لا ترسل باقة ورد لمن يرسل إليك سيارة مفخخة. الحرب قذرة بطبيعتها».

في المختارة وبعباراته القصيرة وأسلوبه الصريح تحدث وليد جنبلاط عن قصته في الحرب وأين كان فيها. قال إنه اتخذ قرار «حرب الجبل» بالشراكة مع دمشق وموسكو وأن قوافل الذخيرة كانت تمتد أحياناً من حمانا إلى دمشق. لم يخف أنه «تلقى بارتياح» خبر اغتيال الرئيس بشير الجميل. وأنه شعر بعد الانتصار في حرب الجبل بأنه ربما أخذ بثأر بشير جنبلاط من بشير الشهابي معتبراً بشير الجميل امتداداً للأخير. وقال إن جولات الحرب كانت قاسية لكنه لاحظ

أن الجولة الأقسى كانت في مواجهة عون الذي استفاد «من سخاء صدام حسين». وعن لقاءات الحوار الوطني في جنيف ولوزان قال: «كافيار وسومون ...تبهدلنا». وتحدث عن محاولات قام بها حبيقة لاغتياله وكشف أن مسؤولين سوريين أبلغوه بأنه كانت لـ «أبو هيثم» الذي اعتبره مزروعاً في حزبه علاقة باغتيال الشيخ صبحي الصالح. وقال إن قاتل الشيخ حليم تقي الدين درزي. وقال «إن هذا السلام لا يستحق تلك الحرب» مؤكداً أنه لم يكن مقتنعاً بـ«الاتفاق الثلاثي» ومكرراً أن «غباء القيادة المارونية مطلق».

في مقره السابق في غدراس روى سمير جعجع قصته مع الحرب وفيها. تحدث عن الرصاصات الأولى. وعن «أحداث إهدن» و«حرب الجبل» والانتفاضات داخل «القوات» ومعركة إسقاط «الاتفاق الثلاثي» وعلاقته بأمين الجميل وولادة حكومة العسكريين برئاسة عون و«حرب الإلغاء» معتبراً «أن التعامل مع الجنرال يشبه الجلوس على برميل البارود».

كانت المدينة تشيع جورج حاوي حين دخلت الطبقة الأرضية في مقر وزارة الدفاع في اليرزة لأحاور من وراء الزجاج أشهر سجين في تاريخ لبنان المستقل واسمه سمير جعجع. لم يسمح حارس السجن بقلم أو ورقة وكان علي أن أحفظ الحوار الذي استمر عشرين دقيقة لأسجله في اليوم التالي في «الحياة». لولا زلزال الحريري ربما كان جعجع لا يزال في السجن.

يتضمن القسم الرابع من الكتاب حلقات كتبتها غداة عملية

إخراج عون من بعبدا وضمنتها حواراً أجريته معه في القصر. أما حوارات «ميشال عون يتذكر» فقد نشرتها سابقاً في كتاب «لعنة القصر» الذي شمل أيضاً حوارات مع الرؤساء الياس الهراوي ونبيه بري ورفيق الحريري.

في المنفى كان عون يحلم بالعودة. ويوم كان الحصار الإعلامي محكماً حوله كنا ممن ساهموا في كسره احتراماً لحقه في شرح موقفه ومخاطبة مؤيديه. بدا عون مظلوماً في منفاه. كان عنيفاً في دفاعه عن السيادة. وعنيفاً في تمسكه بدور الجيش اللبناني على كل أراضي الوطن. وكان عنيفاً في حملته على الفساد والوراثة السياسية. يوفر المنفى للمنفي فرصة نقاء لا يوفرها الانخراط على أرض الوطن في لعبة معقدة وأقل إشراقاً.

الغرض من هذه الحوارات التي كانت قد أخذت طريقها إلى القارئ في التسعينيات مساعدة من يرغب في قراءة الحرب ومعرفة بعض محطاتها السياسية أو الأمنية. لم تخضع الحوارات لأي عملية تشذيب أو تجميل. لست معنياً أصلاً بأي عملية تلميع أو إدانة لهذا الشخص أو ذاك. ولعل الحياد الصارم هو ما أتاح التحدث إلى مختلفين ومتقاتلين استقبلوني في مكاتبهم ومنازلهم.

تغيّرت بعض مواقع المتحدثين بعد هذه الحوارات. وشهد لبنان تغييرات عميقة بفعل صعود «حزب الله» وتحرير الجنوب واغتيال الرئيس رفيق الحريري وانسحاب القوات السورية من لبنان و«حرب تموز» وإنشاء المحكمة الدولية. عاش لبنان دائماً وسط الأخطار لكنه يعيش اليوم ما يمكن

وصفه بالمرحلة الأخطر. هدف العودة إلى قراءة الحرب السؤال ما إذا كان اللبنانيون سيتمكنون ذات يوم من إبرام تسوية حقيقية تغلق الملعب اللبناني في وجه مغامرات الداخل وتدخّلات الخارج. إن الاحتفاظ بروح لبنان مهمة شاقة تجعل من قيام الاستقرار فيه مهمة شبه مستحيلة.

على مدى عقدين بحثت عن اللاعبين في حرب لبنان. التقيتهم في مكاتبهم ومنازلهم وأحياناً خلال أسفارهم. التقيت أيضاً مساعديهم ومواطنين عاديين شاركوا في حروبهم أو كانوا في صفوف ضحاياهم. لم أتوهم أنهم سيعترفون بكل شيء. لكنهم اعترفوا أحياناً بما يساعد على فهم قصة الحرب وقصتهم فيها. أجريت هذه الحوارات في التسعينيات في إطار سلسلة «يتذكر». لم تكن فكرة الكتاب واردة آنذاك. وحين قررت إعادة نشرها في هذا الكتاب لم اخضعها لأي تشذيب أو تعديل. لا يدعي هذا الكتاب أهدافاً من نوع التأريخ أو تقديم الرواية الأخيرة. إنه كتاب صحافي يحاول إطلاع القارئ على روايات رجال أثرت قراراتهم ذات يوم في امنه واستقراره ومصير بلاده.

لقد وجهت إلى من التقيتهم سؤالاً بسيطاً موجزه: أين كنت في الحرب؟ وتحاشيت الاستنتاجات وإصدار الأحكام. ولعل هذا الموقف هو ما مكنني من لقاء «جنرالات» الطوائف والمناطق والميليشيات بلا استثناء. يبقى عزيزي القارئ أن أطرح السؤال عليك: أين كنت في الحرب؟ وهل تعاملت مع المقيمين في الجانب الآخر من خط التماس بوصفهم أعداء؟ وهل ابتهجت بسيارة انفجرت في أحيائهم وقذيفة استهدفت منازلهم؟ هل أدنت مجزرة وابتهجت

بأخرى؟ وهل استدرجك التوتر والخوف إلى التصفيق للارتكابات فساهمت عملياً في إطالة الحرب؟.

يبقى أنني حين اجريت هذه الحوارات في التسعينيات لم أكن أتوقع أن يكون العقد المقبل اكثر قسوة وأن يؤدي اغتيال الرئيس رفيق الحريري إلى إعادة وضع لبنان على خط الزلازل..

لندن أيلول/سبتمبر

غسان شربل



إيلي حبيقة

«تريدني أن أتذكر الحرب وأنا أريد أن أنساها. أنا لا أشتري لابني لعباً على صورة بنادق أو مسدسات لئلا يحب الحرب أو يسأل عن تجربتنا. طموحي أن لا يضطر جيل آخر إلى عيش التجربة المريرة التي عشناها».

هذا ما قاله رئيس حزب «الوعد» الوزير إيلي حبيقة مغلقاً الباب أمام مشاركته في سلسلة «يتذكر». تظاهرنا يومها بتفهم الأسباب ورحنا نكرر السؤال بين فترة وأخرى، ويكرر الجواب وطال امتحان الصبر... وها هو «إيلي حبيقة يتذكر».

يخشى الصحافي دائماً ألّا ينجح في دفع السياسي إلى قول كل ما يعرف. ونادراً ما يخشى أن يقول السياسي كل ما يعرف. وذاكرة إيلي حبيقة خزنة معلومات وأسرار فهو يعرف الكثير عن اللعبة واللاعبين وهو لاعب بارز في ملف الحرب والسلام.

لا يمكن فهم النظام الحالي في لبنان من دون العودة إلى «الاتفاق الثلاثي» الذي كشف بتوقيعه وسقوطه شروط عودة السلام إلى لبنان. وكان ذهاب حبيقة رئيس الهيئة التنفيذية لـ«القوات اللبنانية» إلى دمشق ليوقّع في ٢٨ كانون الأول/ديسمبر ١٩٨٥ اتفاق سلام مع رئيس حركة «أمل» نبيه بري ورئيس الحزب التقدمي الاشتراكي وليد جنبلاط، أشبه بمغامرة لأنه كان يعني انقلاباً كاملاً في الخيارات الداخلية والإقليمية لـ«القوات» والفريق الذي تنتمي إليه. وبعد أقل من عشرين يوماً سقط «الاتفاق الثلاثي» على دوي القذائف في «المنطقة الشرقية» التي سيرغم حبيقة على مغادرتها وتركها في عهدة القائد الجديد لـ«القوات» رفيقه اللدود سمير جعجع ورئيس الجمهورية أمين الجميل الذي ستؤدي معارضته الاتفاق إلى عطب دائم في علاقته مع دمشق.

وبعد ثمانية أشهر، وتحديداً في ٢٧ أيلول/سبتمبر ١٩٨٦، سيحاول حبيقة العودة عسكرياً إلى بيروت الشرقية لكن المحاولة فشلت ولم يتمكن من العودة إلا بعد إزاحة العماد ميشال عون من قصر بعبدا في ١٣ تشرين الأول/اكتوبر ١٩٩٠.

في هذا الحوار يقول حبيقة إن قصة «الاتفاق الثلاثي» بدأت برسالة وجهها إلى دمشق في ختام خلوة استمرت أياماً في منزل رجل الأعمال (آنذاك) رفيق الحريري في دوردان قرب باريس. وبعد سرد الوقائع التي أدت إلى التوقيع يقول إن سقوط الاتفاق يرجع في جانب منه إلى عدم تمكن «شريكه» العماد ميشال عون (قائد الجيش اللبناني آنذاك) من القيام بما وعد به. ويكشف أنه وصل خاسراً إلى باريس وقرر الهجرة إلى البرازيل حين أبلغه الحريري أن السيد عبدالحليم خدام نائب الرئيس السوري يسأل عنه، وسيذهب حبيقة إلى دمشق ومنها إلى زحلة. وبدل الهجرة

إلى البرازيل «سيهاجر» حبيقة لاحقاً إلى «الجمهورية الثانية» برلماناً وحكومات متعاقبة. وسيتحدث عن لقاءين عقدهما مع العماد عون في قصر بعبدا كاشفاً أنه زود الجنرال، بناء على طلب مسؤول سوري رفيع، تفاصيل العملية العسكرية التي ستستهدف إخراجه من بعبدا في محاولة لإقناعه بالخروج بلا خسائر.

سألنا حبيقة أيضاً عن بشير الجميل وما قاله الرئيس المنتخب بعد لقائه العاصف في نهاريا مع رئيس الوزراء الإسرائيلي مناحيم بيغن الذي خاطب بشير بقسوة وذكّره بأن «جيشي يحتل بيروت وجيشك لا يحتل القدس». وتحدث حبيقة عن الاتهامات التي وجهت في أعقاب اغتيال بشير إلى جهاز الأمن والمعلومات الذي كان يرأسه. وأشار إلى إعادة اعتقال قاتل الرئيس المنتخب بعد تهريبه من سجنه.

وروى حبيقة ما يعرفه عن أحداث صبرا وشاتيلا التي اتهم بالضلوع فيها وهو يؤكد أنه لم يكن فيها «لا مقرراً ولا منفذاً». وكشف علاقة هذه الأحداث بـ «الشرارة» التي كان الإسرائيليون يبحثون عنها لتبرير اجتياح أول عاصمة عربية.

وعن الديبلوماسيين الإيرانيين الذين اختفوا إبان الغزو الإسرائيلي للبنان يؤكد حبيقة أن جهاز الأمن في «القوات» لم يتسلم هؤلاء، وأن الأنباء عن قتلهم ودفنهم قرب المجلس الحربي في الكرنتينا شائعات سربتها قيادة «القوات» في عهد سمير جعجع.

ويتحدث عن اللقاء اليتيم الذي عقده مع جعجع في دارة الرئيس الحريري في قريطم وعن محطات سياسية وأمنية. ويعترف في الحوار بأن دولة المؤسسات لم تقم وأن القبائل اللبنانية تتحارب بأسلحة السلطة والاقتصاد والفساد.

■ كيف كان اللقاء مع عبدالحليم خدام؟

- حصل لقاء تعارف في يوم الوصول ولقاء آخر في يوم التوقيع. كان اللقاء جيداً. واللقاء مع أبو جمال سهل دائماً. في اللقاء الأول قال ما معناه إنه كان يشك في أن تصدر عن فريق «القوات» خطوة متقدمة في اتجاه الحل. الواقع أنه خيمت على كل اللقاءات آنذاك حصيلة التجارب بين القيادة السورية و(الرئيس) أمين الجميل ومحاولات الاتفاق المتكررة وما تخللها من مناورات. لهذا ربما كانت هناك علامة استفهام حول قدرة فريقنا على الثبات في موقفه والتزام ما يتعهده.

■ هل أبلغت الرئيس أمين الجميل قبل توجهك إلى دمشق؟

- كانت العملية علنية وفي تلك الفترة لم أعد أتصل بأمين.

■ هل التقيت سمير جعجع بعد عودتك؟

- نعم. كان كريم بقرادوني قد سبقني إلى زيارته فور عودتنا وأبلغه أن الأجواء لم تكن جيدة. هذا ما عرفته لاحقاً. أبلغه ما معناه أن حبيقة أبرم اتفاقاً مع السوريين ووضعك خارجه. في الفترة التي كنا نتفاوض فيها حول «الاتفاق الثلاثي» كان سمير يحاول، من تحت الطاولة، مد خيوط مع أمين بواسطة مخابرات الجيش (بقيادة العقيد سيمون قسيس). وبدأت عملية تنسيق بين جماعة سمير وفريق من المخابرات. وأرسل سمير في اتجاه أمين إشارات مفادها أنه لا يؤيد العملية التي تحدث. هنا نشأت علاقات بين جعجع وفريق من الكتائبيين المؤيدين للجميل وتحديداً ما كان

يسمى سابقاً «قوات الـ ٧٥» وإقليم المتن الشمالي الكتائبي. وضع سمير هذه العلاقة على نار خفيفة في انتظار حصوله على ضمانات وتأكده من حصته، وحين أبلغه بقرادوني أوحى إليه بأن وضعه ليس مضموناً قرر سمير السير في علاقته مع أمين.

■ التقيت الرئيس سليمان فرنجية في زغرتا قبل التوقيع، ماذا حدث؟

- كان اللقاء جيداً ولم نتحدث في موضوع جعجع. قلت له يا فخامة الرئيس أنت قمت سابقاً بمحاولة (وفاقية) ونحن نريد منك أن تساعدنا لإنهاء هذه الحرب ونريد دعمك. وقد أبدى الرئيس فرنجية حماسة، ولم تكن هناك مطالب أو شروط من جهتنا ولا من جهته. كانت المرة الأولى التي ألتقيه فيها. أجرينا اتصالاً بالسوريين وعبّرنا عن رغبتنا في الاجتماع بالرئيس فرنجية لإطلاعه على الاتفاق تفادياً لتكرار ما حصل في جنيف ولوزان أي لتفادي ظهور عوائق مفاجئة تفجر ما اتفق عليه. كان الرئيس فرنجية مهتماً بالتوجه العام وليس بالتفاصيل.

■ ألم تشعر بأن خصومك في «القوات» يعدّون لعمل عسكري ضدك؟

- كنا تحدثنا مع السوريين عن وجود بعض الحالات التي يمكن أن يساعدنا حلها على خفض التشنج. وطرحنا عليهم موضوع الموقوفين لديهم من «القوات» فأطلقوا سراحهم وأقمنا لهم احتفالاً حضره سمير وقطع قالب الكاتو. في ٣١ كانون الأول/ديسمبر خرجت من منزلي في أدما (كسروان) في طريقي إلى مكتبي في الكرنتينا. وكنت قبل ذلك قد اشتريت شقة وجاء من يقول لي

إن من الأفضل تسجيلها قبل بدء السنة الجديدة لتلافي دفع رسوم إضافية. وقررت يومها أن أتوقف في جونية لتسجيل الشقة وهذا ما حصل. توجه أسعد شفتري الذي كان رئيساً لجهاز الأمن والمعلومات حينها، وهو يقيم في المبنى نفسه الذي أسكنه، إلى مقر الجهاز بسيارة مشابهة لسيارتي وبقيت أنا في جونية لتسجيل الشقة. بعد انتهاء المعاملات ولدى وصولي مع صديق إلى منطقة ضبية لاحظت وجود ثلاثة أعمدة من الدخان في مكان بعيد، وسألت فكان الرد أنها من دخان القمامة في مكب برج حمود.

راودتني شكوك إذ كان شكل أعمدة الدخان لافتاً وقلت لهم أن يسألوا هل هناك عمليات أمنية. طلبنا جهاز الأمن فقالوا أن لا علم لديهم. بعد ثوان اتصلوا بنا من الجهاز وقالوا توقفوا حيث أنتم وعودوا إذ إن هناك عمليات أمنية. توقفنا وعدنا. وفي وقت لاحق توجهت إلى مكتبي وأجرينا تحقيقاً وتبين أنهم أعدوا لي كميناً فشاءت الصدف أن يقع أسعد الشفتري فيه. كان الكمين معداً بصورة محكمة كي لا ينجو أحد. وقتلت في الحادث والدة ستريدا زوجة سمير جعجع إذ تصادف وجودها في مكان قريب. فالمسلحون الذين رتبوا الكمين أمطروا بالرصاص كل السيارات المحيطة بسيارتي وقتلوا ركابها. نجا أسعد بالصدفة فقد كانت السيارة التي يستقلها مصفحة. أصيبت بقذيفة «آر.بي.جي.» في الصندوق فاشتعل وأصيبت بالرصاص. تصرف السائق بوعي وجرأة فقد كانت السيارة تشتعل لكنه تابع السير متجاوزاً الكمين واصطدم بالجسر الذي يتجه إلى المتن الشمالي. ولم يعد قادراً على المتابعة. فتح الشفتري والسائق الأبواب وصعدا في أول سيارة مرت وتوجها إلى مقر الجهاز. التصفيح أنقذ الشفتري من الرصاص

والشظايا ولكن لو أصابت القذيفة التصفيح لكان قد قتل. القذيفة أصابت مكاناً غير مصفح في الصندوق ولم تخترق الشظايا التصفيح.

كان الكمين عملية مشتركة بين أمين وسمير. وجاءت الإشارة من مجلة «المسيرة» التي تحدثت عن اغتيال «الاتفاق الثلاثي» أو مقتله على نهر الموت أي المكان الذي حصل فيه الكمين. عندها أوقفنا أعداد مجلة «المسيرة» فتصاعد الحديث عن لجم الحريات الإعلامية علماً أن «المسيرة» هي مجلة «القوات». أي أن فريقاً في «القوات» صار يتحدث عن القهر ومصادرة الحريات. زارني جعجع وقال لي: «يجب أن نحقق في الحادث، أكيد أن أمين الجميل وراء العملية التي تستهدفنا. يجب أن نتماسك ونتضامن». وكما يقولون حاول سمير أن يدفعني إلى النوم على حرير. لكن كل التقارير كانت تشير إلى علاقة له بالحادث.

■ **هل فكرت في اغتياله آنذاك؟**

- لا. كان السؤال ماذا نستطيع أن نفعل. أنا ذاهب إلى سلام مع أفرقاء كنا نتقاتل معهم فهل يجوز أن أدخل في حرب «أهلية» داخل الفريق الذي أذهب إلى السلم على رأسه؟ وجدت أن الطريقة الفضلى هي تسريع الأمور ليتمكن المشروع السياسي العام من احتضان الجميع وعندها سيتردد كثيرون في القيام بعمليات عسكرية أو أمنية لعرقلته. كان هذا خياري على رغم وجود توجه لدى مجموعة كبيرة من قياديي «القوات» وثكناتها إلى حسم الأمور عسكرياً وإلغاء الفريق الذي يستعد لعمل عسكري قبل أن يتوحد ويكمل استعداداته خصوصاً أنه كانت لدينا إمكانات.

حينذاك طرحت السؤال: لنفترض أننا حسمنا ضد سمير فماذا نفعل بأمين وهو رئيس للجمهورية ولديه الجيش؟ هل نقسم الشرقية شرقيتين أو ثلاثاً؟ وهل نشعل حرباً في الداخل وأين تقف؟ استنتجت أن الأفضل هو الاستمرار في الحركة السياسية. هنا لا بد من القول إنه لم يكن في استطاعتي الاستناد إلى شريكي في «الاتفاق الثلاثي» بسبب عدم حماسة جنبلاط للاتفاق وبسبب حدود المناطق آنذاك.

هنا ظهر جو تخويني ضدي يقول إن إيلي باع بشير الجميل وباع القضية، وبدأوا يروجون عن علاقة لي باغتيال بشير وأنني في الأساس عضو في الحزب السوري القومي الاجتماعي وزرعت في «القوات». راحت الشائعات تنتشر وبدأ العسكريون في «القوات» بطرح الأسئلة. لقد أقدمت أنا على خيار صعب وتحول جذري في العلاقة مع الطرف الآخر لكن ماكينة «القوات» لم تكن قادرة على اللحاق بهذا التحول فالماكينة تشبه القطار الذي لا يستطيع الدوران بسرعة.

ظهرت الصورة كأنني اخترت مع مجموعة خياراً يشكل افتراقاً عن الجسم الأساسي لـ «القوات». وحتى الفريق الذي كان معي كان موقفه ينطلق من تأييد لي أكثر مما هو تأييد مستند إلى الاتفاق ونصوصه. كانوا يقولون لي نحن عرفناك محارباً شجاعاً ومسؤولاً وفياً ومستعدون للسير معك إلى أي مكان تريد، لكن هذا لم يكن كافياً فخيار السلام كان صعباً ويستلزم تضحيات وقبول أشياء وحقائق جديدة. ولاحظت أن النقاش داخل «القوات» لم يكن حول خيار السلام بل هل إيلي حبيقة يمكن أن يخون أم لا.

بعد ثلاثة أيام أبلغني جهاز الأمن والمعلومات بعملية عسكرية يعدّها جعجع ضدي بالتنسيق مع استخبارات الجيش اللبناني. وقالوا لي إن استخبارات الجيش ستزود سمير شاحنات عسكرية واذا تعذر تأمين الشاحنات فإنهم يجمعون لوحات عسكرية لتسليمها إليه لضمان سرية العمليات. وذكروا أن مؤيديه في مقر قيادته في البربارة يطلون شاحنات بلون شاحنات الجيش ويثبتون عليها لوحات عسكرية. وقالوا إن العملية قد تحصل في غضون يومين بالأسلوب الذي حصلت فيه عملية الصفرا في ٧ تموز/يوليو ١٩٨٠ ضد ميليشيا حزب الوطنيين الأحرار، أي تتوجه قافلة مموهة وتصل إلى قرب المراكز القيادية فيقفز الشباب من الشاحنات لاحتلالها. وأبلغني الشباب أنهم أعدوا كمائن على الطرق لتدمير القافلة.

شعرت بأننا ننزلق نحو حلقة مفرغة. قلت لهم: «إذا أطلقنا أول رصاصة فمن يضبط آخر المشط؟». اتصلت بسمير جعجع فقالوا لي إنه ليس موجوداً وتوجه إلى (دير) القطارة للمشاركة في رياضة روحية. طلبت التحدث إلى مساعده وأبلغته المعلومات الموجودة لدينا. لا أذكر اسم من تحدثت إليه وربما كان نادر سكر. بعد نصف ساعة اتصل سمير بي فأبلغته المعلومات وقلت له إن العملية افتضحت وأُعدت الكمائن ضدها. وقلت له إن العملية ستؤدي إلى إراقة الدماء. فأجاب: «لا وجود لعملية من هذا النوع ولا يجرؤ أحد على التحرك من دون علمي، أنا في رياضة روحية وسأكلمك لاحقاً».

بعد ساعة اتصل سمير بي وقال لي: «جماعة الأمن عندك سيخربون بيتك، إنهم يعطونك معلومات شي طالع شي نازل. لدينا شاحنات نحمّلها أمتعة وفرشات للمقاتلين في الجبهة. إذا

كانت هذه معلومات الأمن تهانينا». قلت له: «ربما كنت على حق لكنني أردت إطلاعك على الأجواء التي أعيش فيها».

وعلى رغم شعورنا بأن الانفجار حتمي رحت أسعى إلى تفاديه. في ١٣ كانون الثاني (يناير) توجه الرئيس أمين الجميل إلى دمشق في محاولة أخيرة لإقناعه بالدخول في «الاتفاق الثلاثي» لكنه رفض وتبلغنا نحن من سورية أنه لم يمش. قال لهم سأفكر.

■ وحصل اشتباك في المتن خلال وجود أمين في دمشق؟

- نعم. كان لدي شريك كنت متكلاً عليه في موضوع «الاتفاق الثلاثي»، وهو شريك يفترض أن يمشي الاتفاق اذا وقف على رجليه. إنه ميشال عون.

كنتُ أستبعد الحسم العسكري بسبب وجود هذا الشريك. كان عون مطلعاً على تفاصيل الاتفاق والى أين نذهب، وكان مطلعاً أيضاً على تحركات استخبارات الجيش وبدايات التنسيق بينها وبين سمير. والحقيقة أن لقاءات سرية كانت تعقد ليلاً بيني وبين العماد عون مرة في حالات وأخرى في منزله وكان الواحد منا قريباً من الآخر. فالجانب العسكري في الاتفاق الثلاثي أعده عون وتسلمناه بخط الضابط فؤاد الأشقر وهو كان المسؤول عن أمن عون ومن أقرب الناس إليه وضابط التنسيق بيننا.

وقبل أن يتوجه أمين الجميل إلى دمشق تحدثت مع الجنرال. قلت له: أمين سيذهب إلى دمشق وسيعود. في حال عدم الاتفاق أعتقد بأنه لن تكون هناك زيارة ثانية وستتصاعد الأزمة إلى حد أن أحداً

لن يستطيع أن ينام في أي مكان من الأمكنة. سيحصل توتر وحذر داخل «القوات» وبين وحدات الجيش والاستخبارات وعلينا ضبط الوضع. الطريقة الوحيدة لضبط الموقف هي أن تنزل الألوية التي تثق بها مباشرة على الأرض. قال عون: «كيف أنزل هذه الألوية وماذا سيحدث بعد ذلك؟». قلت: «إذا مشى الاتفاق ولم يمش أمين نوحّد القوى ويمكن أن نصل إلى حدود تشكيل مجلس ثورة أو صيغة أخرى ولا يعود أمين رئيساً للجمهورية، فنحن يمكننا أن نرغمه على الاستقالة ويمكن أن نصعد إلى قصر بعبدا وتتسلم أنت القيادة في انتظار انتظام الأوضاع».

هذا الاجتماع عقد في حالات قبل يومين من توجه أمين إلى دمشق. قلت له: «القوات» لن تشتبك مع الجيش، إذا نزلت الألوية سترسم حدوداً بين الفريقين ونكمل مشروعنا. «قوات» سمير ستكون موجودة في الشمال وغير قادرة على الوصول إلى بيروت. الجيش موجود على الأرض ونحن موجودون في بيروت. وفي هذا الوضع لن يحصل اتصال على الأرض بين سمير وأمين وحين يشعر أمين بأننا معاً في مواجهته سيضطر إلى التسليم بالأمر الواقع. قال عون: كيف؟ قلت: ينزل جيشك على الطريق. فأجاب: أنا جيشي منتشر على الجبهات ولا أستطيع اتخاذ قرار بإنزال الجيش على الطريق فكيف أفرغ الجبهات؟ قلت: وماذا لو اخترعنا مشكلة أمنية كبيرة إلى درجة يصبح معها إنزال الجيش الحل الوحيد لضبط الوضع فهل تمشي؟ قال: نعم. فقلت: أمين سيكون في دمشق ولن يتمكن من إلغاء أمرك بإنزال الجيش، نحن نقوم بعمل عسكري محدود في المتن وتنزل أنت جيشك على الطريق. وإذا سألك أمين تستطيع أن تقول له أنا حميت جماعتك أو منعت الناس من الاقتتال؟ فقال: أنا جاهز.

اتفقنا على أن يتم انزال اللواءين الثامن والعاشر أي الأقل تأثراً بأجواء استخبارات الجيش.

■ هل نسقت مع سورية لتسهيل سحب الألوية من الجبهات؟

- لا، لم يكن هناك قرار بسحب الألوية من الجبهات. أعتقد بأن هذه الألوية كانت ألوية احتياط. خلال وجود أمين في دمشق نفذنا العملية في المتن، وعند الظهر سألناه هل أنت جاهز فقال جاهز. بدأ الجيش بالانتشار وانسحبنا. واعتبرنا حينذاك أن الأرض صارت في عهدة قوى حليفة وأن الخطر العسكري لم يعد داهماً.

في اليوم التالي خيم هدوء مشوب بالتوتر. جاءتني عناصر من الفريق المؤيد لسمير وقالت هذا هو أمر العمليات، في السادسة صباحاً ستبدأ التحركات. هناك عناصر في عين الرمانة مع أسلحتها وستهاجم العناصر الثكنات. اتصلت بكريم بقرادوني وسألته أين سمير؟ فأجاب: «بتعرفوا، قاعد مع الملائكة في القطارة». أجبته: لا أعرف مع من هو قاعد في القطارة مع الملائكة أم مع الشياطين؟ يا كريم هناك عملية عسكرية يتم تحضيرها. أجاب: سآتي لرؤيتك.

جاء كريم وكنا قد تأكدنا من المعلومات وضبطنا تحركات في بعض المناطق. قال كريم: يا إيلي جماعة الأمن يتسببون في خلاف الأخ مع أخيه وفي خلاف الشخص مع نفسه. ساعة خبرية من هنا وساعة خبرية من هناك. يا إيلي سمير ليس بهذا الوارد. ولأنك عقلاني أقول لك أنا أضمن بنسبة ٩٩ في المئة أن ليس هناك شيء. قلت له: أنا أضمن لك مئة في المئة أن العملية ستنفذ. لماذا نتسبب في إراقة الدماء. إذا كنتم لا تريدون «الاتفاق الثلاثي» فأنا

لا أستطيع السير فيه رغماً عن «القوات». اجمعوا الهيئة التنفيذية لـ«القوات» واطرحوا عليها استقالة رئيسها أو إقالته وإذا حصل ذلك فأنا مستعد للذهاب إلى منزلي وهكذا يذهب الاتفاق مع من وقعه.

قال كريم: «شو هالخبريات يا إيلي؟ لا هذه مطروحة ولا تلك مطروحة. الاتفاق وقّع وباركته سورية فهل يمكن إلغاؤه بهذه الطريقة؟ سمير لن يجن ويعرف انه لا يستطيع أن يدير ظهره لأمين». شعرت بأن كريم في وضع من اثنين: إما أن سمير لم يضعه في الجو وهو يفعل ذلك ويمكن أن يضحي بكريم، وإما أنه على اطلاع والطريقة الوحيدة للحصول منه على الخبر هي أن تؤذيه. إيذاء كريم كان يعني فتح المعركة. اعتقال كريم كان يعني إعطاء سمير مبرراً لبدء الاشتباك.

في تلك الفترة كنت قد انقطعت عن التوجه إلى منزلي في أدما وصرت أنام وايلي المر (نجل نائب رئيس الوزراء وزير الداخلية ميشال المر) في منزل لوالده في الأشرفية. في تلك الليلة وحوالي الثالثة فجراً قال لي إيلي المر، لنذهب إلى النوم. أجبته: المعلومات تذهب وتجيء، أنا أفضل البقاء في المكتب كي أرى كيف سيطلع الصبح علينا. وفي السادسة صباحاً بدأ تنفيذ الخطة وانهمرت النيران علينا من كل الاتجاهات. من المجلس الحربي نفسه ومن المتن ومن مواقع أخرى. قطعوا كل أجهزة الاتصالات وصبّوا كل نيرانهم على مكتبي.

تركز القصف على مكتبي كأنهم أرادوا الخلاص مني من دون التسبب في معركة شاملة. أعتقد بأن جعجع نفسه كان راغباً في التخلص مني من دون مواجهة واسعة مع الشكنات. كان يريد

إزاحتي ليرث «القوات» لكنه لم يكن راغباً على ما أعتقد في معركة طاحنة تضعفها إلى درجة يصبح معها أمين الطرف الأقوى. كان لدي في المكتب خط مباشر بيني وبين الجنرال عون. طلبته فرد. قلت له هل أنت في أجواء ما يجري؟ فقال نعم. قلت: ما لا أفهمه هو أن النار تأتي من عندك؟ فأجاب: لدينا بعض المشاكل، يبدو أن أصحابك دخلوا على الخط - وكان يقصد مخابرات الجيش. سنضبط المسألة خلال وقت قصير. في أي حال سمير لديه قافلة تحاول التوجه إلى بيروت لكنني لن أسمح لها بعبور النفق (في ضبية). أعطيت أوامر للواء الثامن بمنعها من عبور النفق. قلت: يكفي أن تمنع القافلة من التقدم في اتجاه بيروت ونحن يمكننا استيعاب الوضع خلال ساعتين.

■ من كان يهاجمك من المجلس الحربي؟

- وحدات بقيادة نادر سكر. المكتب الذي كنت فيه لديه حرس ولكن ليست لديه وحدات عسكرية مقاتلة. كانت لدينا وحدات موالية قريبة ولكن لم تكن لديها ذخائر تكفي لقتال يومين أو ثلاثة في مراكزها فالذخائر موجودة في المستودعات. بعد نحو ساعتين بدأ الهجوم الذي استهدفنا يخف وظهر نوع من خط الجبهة. عندها بدأنا هجوماً معاكساً لفك الطوق عن المراكز. لكن ذلك كان صعباً جداً لأنهم كانوا قد استولوا في بداية هجومهم على المواقع الحساسة وصارت استعادة كل موقع تستلزم عملية.

في هذا الوقت بلغتني معلومات أن القافلة التابعة لسمير وهي تضم دبابات وشاحنات عبرت النفق من دون صدام مع الجيش. وقفوا في وجه بعضهم ثم حصلت اتصالات وعبرت القافلة. اتصلت بالعماد عون وقلت له: أوقفنا الهجوم هنا ولكن يبدو أن القافلة

قطعت وستصلهم إمدادات. أجاب: لن يتوجه إلى بيروت، قلنا له (جعجع) أن يتوجه إلى إقليم المتن الكتائبي ليتحدث معنا من هناك. قلت: سمير قد يتوجه إلى هناك لكن العسكر التابع له قد يلتحق بالمهاجمين. فقال: إننا نجري اتصالات.

أثناء الاتصال سمعت قائد اللواء العاشر المرحوم فايز حرب يقول لعون: مون جنرال كلمتك على المحك. أعطني الأوامر وأنا أفتح الطريق. فأجابه عون: إننا نعالج الموضوع. ويبدو أن حرب كان مطلعاً على الموقف السابق لعون. لم أعرف ماذا كان يدور في قيادة الجيش في اليرزة لكنهم قالوا لي لاحقاً إن المهاجمين مستعدون لوقف النار إذا كنت مستعداً لأن تعلن لإذاعة «صوت لبنان» (التابعة لحزب الكتائب) وللصحف أنك تراجعت عن «الاتفاق الثلاثي» وسحبت توقيعك عليه. أجبتهم: أنا لن أفعل ذلك، أنا تصرفت وفق قناعتي وأنا عسكري مثلي مثل غيري فإذا أرادوا الاستمرار ليستمروا وليحدث ما يحدث.

بعدها تلقيت اتصالاً من ميشال المر الذي شارك في المفاوضات وكان ابنه محاصراً معنا. في هذا الوقت استأنفنا الاتصالات وتحسنت مواقعنا في الأشرفية وبدأنا إغلاق الثغر التي أحدثها الهجوم. لم تصل القافلة لكن كان هناك مناخ أنه إذا لم تنجح المفاوضات فإن القافلة ستشارك في الهجوم ضدي وبدا أن أمين أو بالأحرى استخبارات الجيش تشارك في وضع الشروط. حاولت التحدث إلى سمير في مقر إقليم المتن فلم يرد علي فأدركت أن الأمور سائرة إلى النهاية. آخر عرض جاءني يقول: إما أن تستمر العملية وإما أن تتوقف وتحضر وحدة من الجيش وتخرجكم من المجلس الحربي شرط أن لا تبقى في البلد.

■ تردد آنذاك أن مسؤولاً سورياً اتصل بعون طالباً ضمان سلامتك؟

- لا علم لي. قيل الكثير آنذاك. انا أروي لك ما عشته.

■ وافقت على مغادرة المجلس فماذا حصل، هل طلبوا الأموال والمعلومات؟

- كان أرشيف جهاز الأمن ضخماً جداً فأتلفناه، وكنا قد اتخذنا قبل فترة احتياطات لضمان عدم حصولهم عليه حرصاً على سلامة من كانوا على علاقة معنا. صوّرنا نسخة عن الأرشيف ووضعناها في مكان آمن. عندما وصلت قوة الجيش كنا قد أتلفنا كل شيء. كنت محتاراً فأنا لا أستطيع أخذ «القوات» بالقوة إلى السلم. وأثارت حملات التخوين شعوراً بالقرف لدي. صار همي سلامة المجموعة التي كانت معي. ونحن نغادر قال كثيرون من الشباب: لماذا نغادر ولا يزال لدينا ثلاثة آلاف شاب في الأشرفية، كل المشكلة بالنسبة إلينا هي الاوتوستراد الذي يفصل بين موقعنا والأشرفية. المهم أن نصل إلى الأشرفية ثم ننطلق منها. وكنت أجيبهم: لماذا نفعل ذلك؟ هل نخوض حرب جسور جديدة بين جسر الواطي وجسر الكرنتينا ونقيم خطوط تماس جديدة؟ لا أريد التسبب في وضع شبيه بالذي كان قائماً بين الكتائب والأحرار. وتوجهنا إلى وزارة الدفاع تواكبنا عناصر من الجيش.

عندما كنت في وزارة الدفاع بدأ الصراع على من سيتسلم «القوات». زارني بقرادوني وقال لي هناك مشكلة الصندوق الوطني، والأموال موجودة لدى بول عريس فأجبته: أنا سأغادر وأنت ترى من يغادر معي وهؤلاء كلهم من «القوات» وحين أغادر

افعلوا ما تريدون. قال: أليس من الأفضل أن تقوموا بعملية تسلم وتسليم وتحويل الحسابات؟ قلت: بول سيبقى يومين أو ثلاثة لإنهاء العملية ثم يقرر ماذا سيفعل وهل يبقى أم يذهب؟ قال: سمير لا يضع فيتو على أحد ولكن هناك بضعة أشخاص أزعجوه ومن الأفضل ألا يبقوا.

■ هل أصر على مغادرة أسعد الشفتري؟

- لا، كان يريد جهاز الأمن لكنه كان منزعجاً من بعض القيادات العسكرية التي وقفت ضده. قلت لكريم: لا أستطيع المناقشة وبالي مشغول، زوجتي وابني محاصران في أدما. قال: أنا أذهب وآتي بهما. ذهب كريم وعاد بهما. عدنا وجلسنا وسألته: بكرا شو، أنا سأغادر وأنتم ألغيتم «الاتفاق الثلاثي» ولكن ماذا ستفعلون؟ أجاب: أنا قرفان، أقدم سمير على خطوة انتحارية وسيأخذنا وسيأخذ المسيحيين إلى الهلاك، أنا سأجمع أغراضي وأسافر. هذا البلد لم يعد يطاق. المحاولة الجدية الوحيدة هي التي قمتَ بها ولن ينفع شيء بعدها.

تنازعتني أفكار كثيرة. حاولنا طي صفحة الحرب وإقامة السلام لكننا لم ننجح. في هذه الأحوال يفكر المرء في مصيره ومصير رفاقه. ورحت أفكر في المستقبل أيضاً فيما كان الشباب ينقلون إلي شكاواهم. هذا لا يعرف شيئاً عن زوجته وذاك لا يعرف شيئاً عن أمه. سقط الكثير من القتلى والرقم كان بالمئات. سقط قتلى على مداخل مكتبي.

كنا في ١٥ كانون الثاني/يناير وسبق ذلك التاريخ أسبوع من الأزمات. وفي رأس السنة كان الصندوق قد دفع الرواتب، وهو لم

يكن في الواقع مثل صندوق جورج أنطون لاحقاً، ففي أيامنا كانت الجبايات خجولة. بول عريس أخذ معه إلى فرنسا حوالي ٨٠٠ ألف دولار أي أننا أنقذنا من الحسابات نحو مليون دولار. يومذاك ظهرت شائعات أننا أخذنا ٢٠٠ مليون دولار والحقيقة هي مليون دولار بالكاد كانت كافية لثلاثة أشهر، إذ غادر معنا نحو ٢٠٠ شاب.

■ ألم توقّع أي ورقة؟

- لا. في اليرزة زارني فريق آخر من «القوات» يمثله فؤاد أبو ناضر (القائد السابق لـ «القوات») وطلب مني عدم تسليم الأموال إلى سمير، فقلت لهم: سأترك البقرة في الأرض وليستولِ عليها من يستولي. وهنا أريد أن أكشف حقيقة هي أنني غادرت البلد ولم أكن أنوي العودة. اعتبرت أنني فعلت كل ما أستطيع ولم أنجح.

التقيت ميشال عون في الوزارة فقال عندنا مشكلة: جبهة الدوار مهددة وجبهة سوق الغرب ولا عسكر هناك. جاء شباب وطلبوا مني التوجه إلى الأشرفية أو الحازمية فلم أوافق لأنني لم أكن راغباً في قتال بلا أفق يتسبب في سقوط المزيد من الضحايا. سافرت إلى قبرص في طائرة هليكوبتر ومنها إلى باريس. التقيت هناك رفيق الحريري فسألني عما حصل وقال: هل تريد أي مساعدة؟ فقلت: نعم، هل يمكنك مساعدة الشباب على الإقامة لفترة قصيرة في انتظار أن يتدبروا أمرهم؟ وتجاوب فعلاً.

■ وهل دفع لـ«القوات» قبل التوقيع لتشجيعها على خيار السلام؟

- لم يدفع بهذه الصورة. كان لدي مشروع، وهو تغيير الصبغة العسكرية لـ«القوات» وتحويلها مؤسسة إنتاجية. كان لدي مشروع

طموح. اشترينا قطعة أرض كبيرة في طرزيا (قضاء جبيل) وأردنا أن نشيد هناك بيوتاً للمقاتلين الراغبين في التحول إلى العمل الزراعي. وكنت قد طلبت من المسؤول عن سلاح المدرعات أن يدرس ماذا نستطيع أن نفعل بالمدرعات، هل نبيع الدبابات ونشتري جرارات زراعية أم يمكننا تحويلها إلى جرارات. هنا اتصلت برفيق الحريري وتستطيع القول إنه كانت للاتصال علاقة بـ «الاتفاق الثلاثي» كما تستطيع القول إن لا علاقة له بذلك. وقلت له إننا نحتاج إلى مليون ومئتي ألف دولار لتشييد ٦٥ مسكناً في طرزيا فرد: أنا جاهز. وسأل الحريري: هل ستعمرون ثكنة؟ فأجبت: لا إنها بيوت سكنية ونحن نحاول تحويل الآلة العسكرية إلى آلة اقتصادية. وتجاوب الحريري. وبعد خروجنا توجه شبان إلى إيطاليا وسواها من البلدان وبقي نحو ٢٥ شاباً فدبّر لهم الحريري مكاناً للإقامة في باريس. أما زوجتي وابني وزوجة أخي وابنه وزوجة أسعد شفتري وابنه وزوجة أحد الرفاق وأولاده الثلاثة، والمجموع أربع نساء مع أولادهن، فقد أعطاهم شقة في باريس ثم أقاموا في فيلا له في سويسرا نحو سبعة أشهر.

أمضيت أربعة أيام في باريس. وخلال زيارة للحريري كنا نتحدث فيها عن الأوضاع قال لي اتصل أبو جمال (عبدالحليم خدام) ويحب أن يتحدث إليك. فقلت: أنا خسرت المعركة. فقال: يريد أن يقول لك الحمد لله على السلامة. طلب الحريري أبو جمال وتحدثنا فقال لي: ما بدنا نشوفك؟ فقلت: أنا خسرت المعركة ولم أعد مسؤولاً عن «القوات»، أنا صرت ما حدا. فقال: في الصداقة ليس هناك ما حدا، أنت وضعت يدك في يدنا فتفضل لنقول لك الحمد لله على السلامة ثم سافر. وهناك بعض الأشياء نريد أن نخبرك بها وقد لا تكون على علم بها.

في هذه الأثناء كان ميشال المر قد لحق بنا إلى باريس فبحثت معه في الموضوع وسألني عن رأيي فقلت: نذهب في زيارة لياقة ونطلع على الأوضاع. توجهنا إلى دمشق والتقينا خدام. بعد الحمد لله على السلامة قال لي: أنا أعرف أنك تراجع حساباتك حالياً. فأجبت: أنا لا أراجع شيئاً أنا قررت أن أتحول إلى مزارع، سأقتني أبقاراً وقد لا يكون التعامل معها متعباً.

■ إلى أين كنت تنوي التوجه؟

- إلى البرازيل. قال لي أبو جمال: ربما كانت لديك شكوك في ما كنت تفعله وهل هو محق أم لا. فقلت: نعم. قال: أريد أن أطلعك على ورقة أرسلها إلينا كريم بقرادوني ويقول فيها ما معناه أن إيلي حبيقة كان يملك ٧٠ في المئة من «القوات» وأعطاكم مئة في المئة من الاتفاقات. نحن نملك مئة في المئة من «القوات» ومستعدون لأن نتناقش على ٨٠ في المئة من الاتفاقات. تعرف كريم يحب هذا النوع من المعادلات. سألته: ماذا يعني ذلك؟ أجاب: يعني أن الخط الذي كنت سائراً فيه هو الصحيح، والآن الشباب («القوات») يريدون فتح صفحة معنا ومناقشتنا. نحن ليست لدينا ثقة. كانت كل الأبواب مفتوحة لهم وكان كريم هنا وطرح علي أسئلة ورددت بأجوبة صريحة.

سألت خدام: ما قصة سمير جعجع وسليمان فرنجية؟ فأجاب: رددت على كريم بأننا سنتساعد على حل هذا الصراع. لم يطرح معي موضوع نيابة أو وزارة. سألني ما هو وضع سمير فأجبته: مثل وضع كل الناس، وإذا كانت أمامه عقبات أكثر من غيره نتعاون على إزالتها.

في الحقيقة كنت أفكر بزيارة لمدينة زحلة بعدما بلغتني أنباء عن ممارسات سمير ضد من كانوا إلى جانبي. ورأيت أن هؤلاء يحتاجون إلى من يتحدث إليهم ويطمئنهم. سألت أبو جمال: هل أستطيع الذهاب إلى زحلة؟ فرد: أكيد. قلت: سأذهب إلى هناك لرؤية الشباب وبعدها أرد على سؤالك عما سأفعل.

نزلت إلى زحلة وأبلغني الشباب بالاضطهاد الذي يمارس على من أيّدونا. وهنا أقول إن سمير جعجع كان السبب في عودتي إلى لبنان وتحديداً بسبب ما مارسه ضد مؤيديّ. كنت راغباً فعلاً في التوجه إلى البرازيل. لكنني شعرت بمسؤولية تجاه الشباب الذين يتعرضون للأذى بسببي. وقررت البقاء لمدة أسبوع ثم تبعه أسبوع وبقينا.

■ **إلى متى استمرت مساعدات الحريري لكم بعد خروجكم؟**

- أعتقد نحو سبعة أشهر.

■ **هل كان لديكم تمويل آخر؟**

- لا، لكن ميشال المر ساعدنا لفترة. بعدها بدأنا نستدين ونبيع بعض الأملاك. هناك أقارب لي باعوا منازلهم لنستطيع الاستمرار.

■ **قبل أن نتابع موضوع الاتفاق، ما هي قصة الديبلوماسيين الإيرانيين الذين اختفوا في ١٩٨٢؟**

- عندما حصل الاجتياح الإسرائيلي وبدأ بعض الناس يخرجون

من بيروت الغربية في اتجاه طرابلس والبقاع أعطى بشير الجميل توجيهات للمسلحين المرابطين على مداخل المنطقة الشرقية بالسماح بمرور المواطنين العاديين باستثناء الحزبيين والمسلحين الفلسطينيين. وحصلت حوادث عدة، أناس حاول أمين الجميل أن يمررهم فأعادهم بشير. في تلك الفترة اتصل جوني عبده (مدير استخبارات الجيش اللبناني آنذاك) ببشير وأبلغه أن ديبلوماسيين إيرانيين غادروا طرابلس وربما أضاعوا الطريق ودخلوا الشرقية واختفوا بعد عبورهم حاجز البربارة. اتصل بي بشير وقال لي: هل تعرفون شيئاً عن ايرانيين محتجزين؟ قلت: سنسأل. اتصلنا يومها بضابط الأمن في جبهة الشمال المسؤول عن حاجز البربارة (التابع لسمير جعجع) لنسأل عن الموضوع وكان الرد من جبهة الشمال: نعم حاول إيرانيون العبور فمنعناهم وعادوا إلى طرابلس. أبلغت بشير هذه النتيجة ونقلها إلى الرئيس الياس سركيس وتوقف الموضوع عند هذا الحد.

بعدها بدأت الأخبار تتحدث عن اختفاء الإيرانيين أو خطفهم وقتلهم. وترددت هذه الأخبار يوم كنت لا أزال مسؤولاً في «القوات» في الشرقية. سألت جعجع عنهم فأجاب: «لا أعرف جاؤوا وراحوا». كانت لدى جعجع سجون خاصة به. وكانت الجبهة الشمالية في «القوات» مستقلة عملياً بسبب الحساسيات الخاصة المتصلة بالوضع في الشمال. كان لهم جهاز أمن خاص وجهاز مالي خاص على رغم حصولهم على أموال من صندوق «القوات». قبل خروجي من الشرقية بدأنا اتصالات. جاء وفد من الصليب الأحمر ومنظمة العفو الدولية وزار السجون التي كان يحتجز فيها عدد من المتهمين بأحداث أمنية أو نشاطات عسكرية معادية. وكنا حينها قد بدأنا الاتصالات مع الصليب الأحمر

لترتيب نقل رسائل منهم إلى ذويهم.

بعد خروجنا من الشرقية قال لي الرئيس نبيه بري وكان يومذاك رئيساً لحركة «امل»: عندي مسؤول ايراني يحب أن يراك ليتحدث اليك في موضوع الإيرانيين المخطوفين. أجبته: ليس عندي ما أقوله في هذا الموضوع. أصر نبيه بري على عقد اللقاء. والتقيت المسؤول الإيراني فقال لي: تلقينا تقريراً من سمير جعجع يفيد بأنهم سلّموكم الإيرانيين المخطوفين وقد اغتيلوا لديكم. قلت له: هذه معلومات مغرضة فبيني وبين جعجع خصام. نحن لم نشاهدهم ولم يصلوا إلى المنطقة التي نُعدّ مسؤولين عنها. إذا كانوا موجودين اتصلوا بجعجع ليسلمكم الجثث على الأقل. وتردد لاحقاً أن الإيرانيين كانوا بين معتقلين أرسلوا إلى إسرائيل ولا أعرف مدى صحة ذلك.

■ ذكر أنهم دفنوا قرب المجلس الحربي وأحدهم على الشاطئ في الشمال؟

- هذه الأخبار سربتها «القوات» في أيام سمير جعجع.

■ من أين جاءت فكرة «الاتفاق الثلاثي»؟

- لا بد من العودة قليلاً إلى الوراء. كانت «القوات اللبنانية» طرفاً أساسياً في الحرب اللبنانية، وهذا يعني أنها يجب أن تكون شريكاً في السلام أو التسوية. وكي تتمكن من ذلك يجب أن يكون قرارها في يدها. عندما تولى أمين الجميل رئاسة الجمهورية ظهرت مشكلة جدية فهو بدأ يتصرف كأن «القوات» ورقة في جيبه يستطيع أن يلعبها في الاتجاه الذي تمليه مصلحته. يدفعها إلى التشدد حين يريد التملص من موقف معين ويصور أنه يرغمها على

الاعتدال في مواقف أخرى. وكان لدى أمين الشعور نفسه حيال حزب الكتائب الذي كان بزعامة والده بيار الجميل.

حصل تململ داخل «القوات» إذ كان هناك فريق يعتقد بأن على رئيس الجمهورية أن يتعاطى مع «القوات» كفريق سياسي أسوة ببقية الفرقاء، من دون أن يعني ذلك حكماً الصدام مع رئيس الجمهورية. وكان هذا الفريق يرى أن العلاقة مع الرئيس يجب أن تحكمها معايير التقارب أو التباعد، انطلاقاً من رؤية «القوات» للأحداث. هذا الفريق الذي كنت أنتمي إليه كان يضم أيضاً كريم بقرادوني وسمير جعجع وأنطوان بريدي وسجعان قزي، أي المجموعة التي كانت إلى جانب بشير الجميل وكانت لديها نزعة للتحرر من حزب الكتائب. الفريق الآخر كان يضم فؤاد أبو ناضر (ابن شقيقة أمين الجميل) ومجموعة صغيرة.

عندما انتخب بشير الجميل رئيساً للجمهورية بدأت «القوات» تعد نفسها للدخول في مشروع بناء الدولة، ورأت أن الحرب انتهت وعليها بالتالي ترك السلاح ودخول اللعبة السياسية. قتل بشير الجميل وعادت الحرب وصادر أمين قرار «القوات» وجعله ورقة في التجاذب مع الأطراف الأخرى. كان يُبرز «القوات» إذا كان الغرض تأجيج الصراع، ثم يضعفها إذا ظهرت أمامه احتمالات تسوية. وتزايد الشعور داخل «القوات» بضرورة استعادتها قدرتها على رسم خطها السياسي والتصرف كحالة مستقلة. وعلى هذا الأساس حصلت الانتفاضة في ١٢ آذار/مارس ١٩٨٥ ونجحت.

ومرة جديدة ظهرت التساؤلات داخل الفريق الذي استقل عن وصاية أمين: ماذا تفعل «القوات» وإلى أين تتجه؟ طبعاً كان هناك

من يرى أن على «القوات» العودة إلى ما كانت عليه في أيام بشير، على رغم أن الفترة الأخيرة من عهده شهدت تغييرات وإن لم تتبلور تماماً. وكان هناك من لا يزال يفكر في مشروع «لبنان المسيحي». والواقع أن تلك العودة كانت متعذرة فهناك تغييرات في الداخل فضلاً عن أن حالة بشير التقت فيها عوامل داخلية مع عوامل إقليمية ودولية. كان هناك اتجاه يزايد على أمين برفع شعار الوطن المسيحي واتجاه يدعو إلى إعداد «القوات» لدخول اللعبة السياسية، وكنت أنا من الفريق الذي رأى أن على «القوات» أن تراجع خياراتها وتعيد تقويم حساباتها وأن تفتش عن مخارج.

في تلك الأيام كانت هناك حكومة يشارك فيها كميل شمعون وبيار الجميل ونبيه بري ووليد جنبلاط. وكان هذا الوضع لافتاً: كل الأطراف حول طاولة مجلس الوزراء باستثناء «القوات اللبنانية»، وهذا يعني أنها موضوعة خارج الحوار الدائر بين الأطراف. وبدا واضحاً أن استبعادها أو بقاءها بعيدة لن يؤدي إلى شيء سوى محاولة أمين تحويلها ورقة تخدم مصالحه. هنا بدأت أفتش عن الطريقة التي يمكن أن تؤدي إلى إدخال «القوات» التركيبة السياسية. واتضح لنا أن عملية الدخول متعذرة ما لم يخترق الجدار المنتصب أمامها أو الحصار المفروض عليها. وبصورة أوضح لا بد من اختراق الجدار الذي كانت سورية قد وضعته. وبدأنا نفكر في إذابة الجليد لفتح الباب مع سورية تمهيداً لفتحه مع الأفرقاء اللبنانيين.

في الفترة التي كنت فيها مسؤولاً عن جهاز المعلومات في «القوات» جرت محاولة للاتصال بالمسؤولين السوريين ساعدنا فيها أشخاص كثيرون بينهم (اللواء) سامي الخطيب (النائب السابق).

■ لكنك التقيت السوريين في أيام بشير؟

- كان ذلك في العام ١٩٨١ إبان حرب زحلة، فقد التقى اللواء محمد الخولي بشير الجميل في القصر الجمهوري ثم التقينا في منزل جوني عبده الذي كان مديراً للمخابرات في الجيش. في الاجتماع الأول جاء الخولي مع سامي الخطيب وكان يومذاك قائداً لقوات الردع العربية، وعقد الاجتماع في حضور الرئيس الياس سركيس. وكنت أنا وزاهي البستاني مع بشير الجميل. في الاجتماع الأول سأل الخولي ماذا تريد «القوات اللبنانية» وكيف تنظر إلى العلاقات مع سورية؟

وأبلغ بشير أركان «القوات» أن اتصالاً حصل مع السوريين وقد تكون فيه فائدة، وقال إن السوريين طلبوا من «القوات» أن تحدد نظرتها إلى العلاقات السورية - اللبنانية وإلى مستقبل الوضع في لبنان. هنا اقترح جان ناضر (الذي قتل لاحقاً مع بشير) وربما جوزف أبو خليل الاستعانة بكريم بقرادوني. وقال ناضر إن كريم أفضل شخص يمكن أن يسأل عما يريده السوري وماذا يرضيه وماذا يمكن أن نقدم له، ونستطيع في ضوء مقترحاته إعداد ورقة عن تصورنا.

وأثار الاقتراح جدلاً وعارض فريق الاستعانة بكريم وقالوا إنه غير موثوق به. وأذكر أن بشير دافع عن الاستعانة بكريم وقال إن المطروح ليس إدخاله إلى «القوات» بل الاستفادة من خبرته في التعامل مع السوريين خلال السبعينيات وهو يستطيع أن يقدم أفكاراً حول ماذا يريدون وطريقة التعاطي معهم.

وأعتقد بأن كريم نصب يومذاك كميناً وقع بشير فيه. وخلاصة

القصة هي تصوره أن السوريين يريدون جزءاً من لبنان في البقاع والشمال وأنهم إذا وُعدوا بالحصول عليه يوافقون في المقابل على أن تأخذ «القوات» حصتها، اي حصة المسيحيين من أرض لبنان. طبعاً هذا التفكير موجود لدى بعض المسيحيين، وزادت «حرب السنتين» اقتناع بعضهم به، وكانت خريطة المنطقة المسيحية المفترضة تتمدد وتتقلص تبعاً لهوية المحاور وموازين القوى. مرة تمتد من عندقت في الشمال إلى جزين، مع اعتبار زحلة من ضمن الجبل، ومرة أخرى تتغير حدودها. وعندما انتخب بشير، وقبل ذلك على طريق الانتخاب، رفع شعار الـ ١٠٤٥٢ كلم مربعاً وتراجعت الخرائط الأصغر.

في الاجتماع الثاني كنت مع زاهي البستاني في غرفة جانبية. وراح بشير يقرأ للخولي، واذا بوجه الأخير يتغير. سألنا بشير بعد الاجتماع فقال: «نحن أعطيناهم الرسالة والآن علينا أن ننتظر الجواب». في اليوم التالي جاء الجواب عبر الإذاعة السورية في صورة حملة على «المشروع التقسيمي للقوات». وأعتقد بأن بشير لم تكن لديه آنذاك رؤية نهائية وواضحة لمشروع «القوات». كان يعرف ما لا يريده ولم يكن يعرف تحديداً ماذا يريد. كان يائساً من النظام القديم وربما الصيغة، لكنه لم يكن يملك تصوراً بديلاً.

■ **واتصالاتك أنت مع السوريين؟**

- إبان الأزمة المتعلقة باتفاق ١٧ أيار اللبناني ـ الإسرائيلي عام ١٩٨٣ كانت الفكرة لدينا أنه يجب العثور على منطق آخر غير المنطق الذي كنا نسير فيه، وكانت العلاقات الإسرائيلية ـ القواتية في عزها. طلبت يومذاك من ميشال سماحة استكشاف إمكان فتح خط مع السوريين، ورأينا أن مثل هذا الاختراق ضروري. تحرك

سماحة في ضوء علاقته بسامي الخطيب مستفيداً من علاقات قديمة أقامها اثناء عمله في الارتباط بين الكتائب والسوريين ونجحت المحاولة. وجاءت الرسالة من سورية على الشكل الآتي: لماذا تتخذ الكتائب و«القوات» موقفاً معادياً من العرب وسورية فيما العرب لا يريدون هذا العداء ولا سورية تريده؟ ولماذا اخترتم إسرائيل لتعادونا؟ إذا كنتم اخترتم الإسرائيليين لاعتقادكم بأنهم يدافعون عنكم في وجه الفلسطينيين فتذكروا من أنقذ عكار وزحلة وبكفيا، فالمبادرة السورية هي التي أنقذت هذه المناطق والبلدات وليس الإسرائيلي.

أعتقد بأن دير القمر كانت محاصرة أو على أبواب الحصار. قال السوريون اذا كانت إسرائيل هي الحليف فلماذا دير القمر محاصرة والقوات الإسرائيلية توزع السلاح على أفرقاء كثيرين وهي موجودة على بعد بضعة كيلومترات؟ نحن سنعطيكم دليلاً جديداً على حسن نياتنا وهو أن دير القمر لن تسقط وسنتدخل لحمايتها. إننا نعطيكم هذا الشيء لنقول لكم مرة أخرى إننا لا نضمر العداء للمسيحيين ولا للكتائب ولا لـ «القوات». أما إذا اخترتم التحالف مع إسرائيل ضدنا فإن سورية لا تستطيع إلا أن تدافع عن موقعها العربي ورؤيتها ومبادئها وتخاصمكم وتقاتلكم.

■ مع من كان الاجتماع؟

– مع مسؤول سوري رفيع. عدت إلى بيروت وأبلغت فادي افرام الذي كان قائداً لـ «القوات» بما حصل معي فظهرت شكوك. قلت له إن الرسالة التي سمعتها لم تكن عدائية والدليل أنني عبرت الحدود ورجعت. وأوضحت له أن الأجواء تدفع إلى الاعتقاد بأن الابواب ليست موصدة في وجهنا وأن الانفتاح ممكن. وعقدت

اجتماعاً ثانياً مع المسؤول نفسه وتبلغت فيه رسمياً أن سورية لن تسمح باجتياح دير القمر وتدميرها وأنها ستسعى إلى حل الموضوع. وفي الاجتماع الثالث كانت أجواء اتفاق ١٧ أيار مسيطرة على البلد وسمعت مجدداً السؤال: «لماذا تختارون الخصومة معنا وتذهبون إلى الإسرائيليين؟».

وجدت صعوبة في إقناع قيادة «القوات» بما يجري. وقلت لهم إننا لا نتعاطى مع طرف محلي أو مع فريق صغير. نحن نتعاطى مع دولة هي سورية وقد قدموا أدلة على نياتهم وهذه قصة دير القمر قد حلت. طبعاً كان هناك من يعتقد بأن الإسرائيليين هم الذين ضمنوا سلامة دير القمر لكنني كنت مطلعاً على الوقائع. لم تأخذ قيادة «القوات» الموضوع على محمل الجد وكانت العلاقة بينها وبين إسرائيل قائمة وشعرت بأن تسريب هذا الموضوع قد يؤذيني. جمدت إلى حد ما العلاقة مع قيادة «القوات» وقررت أن أفاتح أمين الجميل بما يجري. وذات يوم كنت عائداً من سورية فمررت على بكفيا وقلت لأمين أنا عائد من سورية وأحمل إليك رسالة. قال: كيف ذهبت إلى سورية ومن قابلت هناك؟ قلت: ذهبت مع ميشال سماحة وبإمكانه إبلاغك الرسالة.

كنت أعرف أن أمين الجميل لن يتقبل مني ما أقول لكوني من الفريق المخاصم له داخل «القوات». كان هدفي في تلك المرحلة تأمين اتصال مباشر بين الجميل والمسؤولين السوريين. وكانت الرسالة السورية مطمئنة، وبعدها دخل جان عبيد (الوزير والنائب السابق) على الخط لتأمين الاتصال المادي والإعداد لزيارة أمين الجميل لسورية.

وطلب الجميل من سماحة أن يكمل معه الطريق وأن أبقى أنا خارجاً، أراد فتح علاقة مباشرة مع السوريين من دون المرور بأحد من «القوات». بالطبع بقيت على علم بتفاصيل العملية ومجرياتها من دون أن أُظهر ذلك لأمين الجميل.

وعندما وصلت المرحلة إلى إلغاء اتفاق ١٧ أيار، زرت أمين الجميل وأبلغته أن يترك أمر «القوات» عليّ وألّا يخشى أية مشاكل أو صدمة على الارض إذا أُلغي الاتفاق. إذ كان أمين يصور للسوريين أن القوات متمسكة بالاتفاق وانها قد تقدم على أي عمل للخربطة، في محاولة منه للحصول على دعم يقوي موقعه ويضعف «القوات». وبعدما فتح أمين الخط وتركنا جانباً، انقطعت علاقتي مع السوريين وصارت مباشرة بين الرئيس الأسد والرئيس الجميل. ومن أسباب انقطاع العلاقة أيضاً انضمام ميشال سماحة إلى فريق الرئيس الجميل وعدم رغبة المسؤولين السوريين في «تجاوز» رئيس الجمهورية.

استمر هذا الانقطاع حتى الانتفاضة، وأول عمل قمنا به كان توضيح حقيقة أهدافنا وحمايتها من التشويه ومن الحملات التي رافقتها والتي صورت مجموعة المنتفضين على أنهم مجموعة عسكرية متشددة تسير في الخط الإسرائيلي وترفض أي حل وأي انفتاح على الفريق اللبناني الآخر وترفض الخيار العربي للحل.

أطلعنا المدبر الرسولي المطران ابراهيم الحلو على موقعنا وتوجهنا، وكذلك القيادة الروحية وأرسلنا رسالة إلى السوريين نقول فيها إن الانتفاضة ليست خطاً إسرائيلياً ضد التوجه العربي كما يحاول أمين الجميل تصويرها.

■ **من كانت القناة في هذه المرحلة؟**

- أرسلنا الرسالة إلى أحد المسؤولين السوريين الذي كان على علاقة بميشال سماحة، وعدنا أيضاً إلى جان عبيد وآخرين. وحاول أمين الجميل أن يعمل ضد هؤلاء فوصفهم بكل الأوصاف واتهمهم بالخيانة وبمساعدة الخط الإسرائيلي.

كان أمين يفاوض نبيه بري ووليد جنبلاط والسوريين معتبراً «القوات اللبنانية» في جيبه وأنهم أولاد و«كل ما اتفق عليه معكم، أحلُّه معهم»، وبدأت الأزمة عندما فقد أمين السيطرة على «القوات». وقتذاك أرسلنا رسائل مباشرة إلى الفريق الآخر عن استعدادنا للحوار من دون شروط مسبقة.

■ **هنا دعوت إلى اجتماع واتخذت قراراً؟**

- لا، الاجتماع الذي اتخذت فيه القرار نتج من معركة شرق صيدا. أما في تلك المرحلة فكان القرار إعادة تشكيل «القوات اللبنانية»، إلغاء تسمية قائد القوات ليصبح رئيس الهيئة التنفيذية للقوات لإعطاء القيادة الطابع الجماعي.

■ **في ١٢ آذار/مارس انتخبت رئيساً؟**

- كانت قيادة برأسين، إيلي حبيقة وسمير جعجع، وهذا ما سبّب مشكلة ظهرت فعلياً خلال أحداث شرق صيدا. فقد قرر سمير جعجع الانسحاب بعد يومين من المعارك على رغم معارضتي، لأنه لا يجوز الانسحاب من دون تأمين دخول الجيش والدولة لتحل مكان «القوات اللبنانية».

وقتذاك تصرف سمير جعجع بشكل آخر وأعطى اوامره بسحب العسكر من المنطقة فخلق هذا القرار مشكلة اجتماعية كبيرة بتهجير السكان نتيجة الرعب وليس نتيجة عملية عسكرية. وفي الوقت نفسه أرسل سمير جعجع وكريم بقرادوني رسالة إلى أمين الجميل يفوّضان إليه فيها التفاوض باسمنا واستعدادهما للموافقة على ما يوافق هو عليه. اكتشفت هذه الورقة وطلبت عقد اجتماع للمجموعة القيادية في «القوات اللبنانية» وطرحت عليهم الورقة وقلت لهم: لم نقم بالانتفاضة على هذا الأساس، وإذا كنا نريد التفاوض فنحن من يفاوض، وإذا كنا نريد الاتفاق أو المخاصمة فنحن من يتفق أو يخاصم، لم نقم بالانتفاضة لتغيير فؤاد أبو ناضر بآخر وتبقى ورقة «القوات» في جيب أمين الجميل، فأنا لن أقبل بهذا ولا يمكن أن تستمر القيادة برأسين أو من دون قيادة فعلية. وأنا أطرح هذا الأمر على التصويت وأرشح نفسي لرئاسة الهيئة التنفيذية. فوافق سمير جعجع وقال: انا أمشي بالموضوع. وهذا ما حصل، وعين جعجع رئيساً للأركان.

وافترضت أن التركيبة لا تزال ضعيفة حتى نعود ونفتح معركة داخل «القوات» لذلك يجب إيجاد حلول للجميع وألّا يكون سمير جعجع خارج التركيبة ورأيت أنه إذا نجحت العملية سيقبل سمير جعجع الواقع وينضبط فيه. تم ذلك بالإجماع. أما قصة الصوت الواحد فترتبط بالاتفاق الثلاثي لاحقاً.

■ **هذه حدثت في ٩ أيار/مايو؟**

– نعم، وهنا فقد أمين الجميل السيطرة كلياً على «القوات اللبنانية». وفي هذه المرحلة بدأت أحرر نفسي من الوجود الإسرائيلي فأقفلت مكتب واشنطن وطلبت من المسؤول عن

مكتب القدس العودة، فلبّى فوراً، وكان لا يزال هناك مركز للمخابرات الإسرائيلية في منطقة طبرجا فطلبت منهم الرحيل ولوحت بفتح الحدود الشمالية وإزالة حاجز البربارة فأتت المروحيات وأجلتهم خلال ٢٤ ساعة. الحقيقة أنهم عندما أقفلوا مركزهم في ضبية استعاضوا عنه بمكتب سري في طبرجا وعندما أبلغتهم أن «القوات اللبنانية» لم تعد في الاتجاه الذي كانت فيه وطلبت منهم الرحيل، غادروا المكان.

بعد مواقف إيجابية اتخذناها تجاه سورية والفريق الآخر قررت سورية أن تعرف ماذا نريد وهل نحن جديون؟ وبدأوا بالبحث معنا في الملف الذي كان يبحث مع أمين الجميل.

■ **كيف كنتم تتفاوضون وعبر من؟**

- تبدأ الحركة عادة بالإعلام وبوسائل مستترة ونقل رسائل، ثم دخل رفيق الحريري على الخط.

■ **كانت هذه المرة الأولى التي تلتقي فيها رفيق الحريري؟**

- نعم، لم يكن هناك أي اتصال، وقد التقيته في بيت ميشال سماحة في الأشرفية سنة ١٩٨٥.

■ **ماذا كان رفيق الحريري يريد؟**

- كان يقول إن اتجاهنا الجديد صحيح، أما إذا كنا غير جديين فلا لزوم للدخول فيه لأننا نكون في الطريق إلى إحراق البلد للمرة الثانية، أما إذا كنا جديين فربما كان باب الخلاص وتنتهي الحرب

من خلاله، ولكن يجب ترتيب العلاقة مع رئيس الجمهورية. لم أعد أذكر التفاصيل بدقة. هكذا بدأت العملية ودخل ميشال المر على الخط مع جوني عبده وآخرين.

■ **ماذا كان دور جوني عبده؟**

- كان معنا في الفريق المفكر، عندما بدأنا التفاوض حول النقاط كنا نلتقي ونبحث في ما يمكن أن نقدمه إذا طلب منا هذا الأمر وما لا يمكن أن نقدمه.

■ **هل التقيت جوني عبده في جنيف؟**

- التقيته في جنيف وفي فرنسا وفي أمكنة أخرى. خلال التفاوض على الاتفاق الثلاثي حاولنا ضم بعضهم إلى خط التفاوض كالرئيس شمعون الذي كان في الجو وكان يطلع على أجزاء من المفاوضات.

■ **ما هي قصة الاجتماع في منزل الحريري في بلدة دوردان بفرنسا؟**

- صحيح. كان الاجتماع مهماً. كان هذا أول اتصال لفتح الباب وإعلان النيات، بماذا تقبل «القوات اللبنانية» أن تبحث وما هي رؤيتها للحل عموماً والعلاقات بين اللبنانيين ومع سورية.

■ **من شارك في خلوة دوردان؟**

- شارك جوني عبده وميشال سماحة وجان غانم ورفيق الحريري بالطبع.

■ **هل بلورتم تصوراً؟**

- يومذاك سألت جوني عبده ما المطلوب لتقف الحرب لندخل في الحل، فقال: المطلوب لا تستطيع أن تحققه. فأنت لا تستطيع تغيير المعادلة من موقعك الحالي، العملية خطيرة. قلت له: دعني أقدر الخطورة، ما هو المطلوب؟ بحثنا في الموضوع وتبين أن المطلوب هو ما يبحث مع أمين الجميل. وهي أمور بحثت في أيام الرئيس الياس سركيس وفي أيام الرئيس سليمان فرنجية. وقال لي: المطلوب من الرئيس الجميل سيُطلب منك فهل أنت مستعد؟

تحدثنا عن العلاقات المميزة بين لبنان وسورية علماً أن «القوات اللبنانية» جاءت من موقع مناقض، وكان مستغرباً أن يوافق رئيس «القوات» على البحث في علاقات مميزة مع سورية. سألته هل يمكن أن تنتهي الأزمة من دون هذه الأمور؟ فأجاب: لا. فقلت: نحن اذاً أمام حل من اثنين: إما استمرار الأزمة وإما القيام بنقلة نوعية تفتح لنا ثغرة في الجدار للتحاور مع الفريق اللبناني الآخر ومع السوريين، فقال نعم. سألته أيهما أسهل؟ فأجاب: الخيار لك إذا كنت تستطيع احتمال ذلك. فقلت: أستطيع وخياري الانفتاح والتحاور. عندها أعددنا الرسالة وبعثنا بها.

■ **كيف كان رفيق الحريري يتصرف وبأي صفة؟**

- كطرف لبناني وسيط. كان على علاقة جيدة مع سورية وكان راغباً في دخول «القوات اللبنانية» على الخط، معتبراً أن من شأن ذلك أن يفتح باب الحل. لقد جرب الحريري ذلك من قبل مع الرئيس الجميل وربما مع الرئيس سركيس.

■ **هل كانت للحريري علاقة مع بشير الجميل وهل التقاه؟**

- بحسب معلوماتي لا، لم تكن بينهما علاقة ولم يلتقيا.

■ **ماذا بعد وصول الرسالة؟**

- حركت الرسالة الجو مع السوريين وطلبوا توضيحاً فبعثنا برسالة ثانية عبر القناة نفسها، أي الحريري والمجموعة التي كانت معه. بعد الرسائل اقترحوا (السوريون) عقد لقاء مع الأطراف اللبنانية الأخرى برعاية سورية فأوفدنا ميشال سماحة الذي شارك مع (الوزير السابق) محمد عبدالحميد بيضون وأكرم شهيب في اجتماع مع عبدالحليم خدام نائب الرئيس السوري، ثم اجتمعوا فيما بينهم.

بدأ سماحة ينقل إلينا اجواء اللقاءات وجرت عملية بحث وتفاوض وإعداد مشاريع.

■ **متى ذهبت إلى دمشق في إطار عملية «الاتفاق الثلاثي»؟**

- حين ذهبت إلى التوقيع.

■ **ألم تلتق خدام قبل ذلك؟**

- لا.

■ **ولا نبيه بري ووليد جنبلاط؟**

- لا.

■ **حصلت عملية أخذ ورد، ماذا جرى في «القوات»؟**

- كنا كلما حمل ميشال سماحة صيغة نعقد لقاءً، خصوصاً في حضور سمير جعجع وكريم بقرادوني. كنا نجري مشاورات في المواضيع المطروحة. أما في شأن الفقرة المتعلقة بالجيش في مشروع الاتفاق، فقد التقيت قائد الجيش العماد ميشال عون في منزل (الوزير) ميشال المر. قلت له نحن لا نستطيع أن نلتزم من عندنا خصوصاً في ما يتعلق بالعلاقات المميزة والموضوع العسكري من دون أن تعطينا رأيك، هذا هو المعروض علينا وضع ملاحظاتك بهذا الشأن. أرسل لنا رأيه في موضوع الجيش وأرسلناه بدورنا إلى سورية وقلنا لهم هذا هو أقصى حد نستطيع القبول به. فوافقوا على ورقتنا من دون تعديل. والواقع أن عون أعد تصوراً كتبه الضابط فؤاد الأشقر وأرسلناه، وهو نفسه ما ظهر في الاتفاق الثلاثي.

وطرح آنذاك موضوع المثالثة ضمن المناصفة أي تساوي حصص الشيعة والسنّة والموارنة في إطار المناصفة بين المسيحيين والمسلمين وذلك في مجلس الوزراء ومجلس النواب. اعترض سمير جعجع على هذه النقطة ورآها بمثابة إضعاف للموارنة. وكان ردي أن الموارنة ليسوا طائفة خارج المسيحيين وأن عليهم أن يلعبوا دورهم مع المسيحيين الآخرين مثل الأرثوذكس والكاثوليك وغيرهم. طرح هذا الموضوع في اجتماع الهيئة التنفيذية لـ «القوات» واعترض سمير، فقلت لنطلب اذاً من رفاقنا غير الموارنة الخروج من الاجتماع إذا كنا لا نثق بقدرتهم على الدفاع عن لبنان بالمستوى نفسه. وكان بين الحضور جورج قسيس وكريم بقرادوني وطوني بريدي وجورج فريحة. وشرحت موقفي. حصل خلاف على هذه النقطة تخطيناه لاحقاً.

كانت هناك عملية مواكبة دائمة من كريم بقرادوني وسمير جعجع للاتفاق. وأكثر من ذلك أطلعنا الرئيس كميل شمعون على ما وصلنا إليه وذهب إلى أبعد مما كنا نتصوره. أنا لم تكن لديّ علاقات ودية معه. ذات يوم اتصل بي مرافقه عبده جابر، وكانت السابعة صباحاً، وقال نحن في طريقنا إليك. وصلوا إلى منزلي في أدما وكان والدي موجوداً فقال له الرئيس شمعون: أنا جئت أهنئك. ابنك بطل. إنه يعد اتفاقاً سيخلصنا. وقال لي: إذا نجح هذا الاتفاق معك تكون قمت بعمل بطولي.

بعد يومين أو ثلاثة صدر موقف سلبي من الرئيس شمعون فاتصلنا به وقلنا له نحن أطلعناك وأعطيتنا موافقتك ووصفت ما نقوم به بأنه عمل بطولي، فقال: حين أبلغتموني كنت مصاباً بوجع في معدتي ولهذا رحت أجيبكم بنعم ولم أستوعب.

عندئذٍ شعرنا بأن عملية التفاف بدأت بواسطة سمير جعجع وأمين الجميل وربما السفير الأميركي ريجينالد بارثولوميو، مع العلم أن السفير الاميركي كان قد اتصل بي وسألني ماذا نفعل فأطلعته فقال إذا استطعتم التوصل إلى اتفاق من هذا النوع فهذا يعني أنكم تشاركون في بناء لبنان المستقبل بغض النظر عن المضمون والتفاصيل لأن ما تقرأه اليوم ولا يعجبك قد تقرأه من زاوية أخرى بعد عام. وقال أهنئكم. بعد ٤٨ ساعة اتصل السفير الأميركي ليقول إن الرأي الذي أعطانا إياه هو رأيه الشخصي ولا يمثل رأي الإدارة الاميركية، وهنا شعرنا بأن شيئاً ما بدأ يتغير.

■ متى بدأ التوتر بينك وبين سمير جعجع؟

- من موعد الصعود إلى الشام للتوقيع، كان جعجع يعقد لقاءات

مع المجموعات العسكرية في «القوات» ويقول إنه ليس على اطلاع على ما يجري في دمشق وإنني قطعت المال عن العسكر في «القوات» وحولته إلى جهاز المخابرات.

■ **ألم تفعل ذلك؟**

- لا. صارحته يومذاك وسألته عن سبب هذه الشائعات؟ فقال إن بول عريس المسؤول في الصندوق الوطني لـ «القوات» لم يدفع فواتير معينة. فقلت له لنفترض أنه تأخر هذا الشهر فماذا فعل الشهر الماضي وقبله؟ ألم يدفع؟ لماذا كنت تعدّ التأخير طبيعياً قبل أشهر ومجرد مشكلة سيولة وتعطي التأخير اليوم طابعاً سياسياً؟ وقلت له أيضاً أنت تعرف إن قطع المال عن العسكر يدفعهم إلى النقمة على الجهة التي قطعته وأنا لست في وارد الدخول مع العسكر في خلاف. أريد أن أعرف هل أنت معي أم ضدي؟ فأجاب: أنا معك ومستعد حتى للتوقيع.

دار هذا الحوار في مكتبي وكان بقرادوني حاضراً. كان لديّ في المكتب لوح كبير أكتب عليه ثم يخرج اللوح بنسخة عما كتب عليه. قلت له لنكتب: أنت توافق على كل ما نقوم به من مفاوضات مع السوريين ومع الأفرقاء اللبنانيين. فقال: سجل لي نقطة اعتراض على المثالثة ضمن المناصفة. فأجبت: نكتب مع اعتراض على هذه النقطة إنما إذا جُمد الاتفاق برمته بسبب هذه النقطة فماذا نفعل؟ هل نقبل بها أم نفرط الاتفاق. فقال: كيف نفرط الاتفاق؟ نقبل بها شرط ألا يكون الاتفاق ملزماً للمجلس النيابي وأن يناقش في المجلس. قلت له: دعنا نحدد الأدوار. دورنا نحن أن ننهي الحرب. ودور المجلس النيابي أن يناقش هذا الاتفاق. إذا كانت هناك نقاط نعترض عليها نستطيع

بعد التوقيع عليه أن نتحرك في المجلس النيابي لمعالجة هذه النقاط. قال سمير: وافقت وسجلنا ذلك. فسحبنا نسخة من الحوار ووقع عليها سمير ووقعت أنا كما وقّع كريم وكان طوني بريدي حاضراً.

قبل الذهاب إلى التوقيع بيوم واحد دعينا إلى بكركي وكانت آنذاك في عهدة المدبر الرسولي المطران ابراهيم الحلو. كان الاجتماع موسعاً وحضره الرئيس شمعون والنواب الموارنة والرهبانيات وشخصيات عدة، وكان سمير حاضراً وفادي افرام (القائد السابق لـ «القوات»). جلس الرئيس شمعون نحو عشر دقائق ثم قال أنا لديّ ملاحظة فعدد النواب في الاتفاق كبير وأقترح أنه بدلاً من أن يكون العدد ١٩٨ نائباً أو ما يشبه ذلك يجب خفضه إلى ١٢٨ أو ١٠٨. وقال إنه متعب وغادر الاجتماع. كان المونسنيور اغناطيوس مارون يدوّن المحضر.

تحدثت في اللقاء وقلت نحن توصلنا إلى حل ولنقل إن هناك فريقين: الفريق الشرعي (المشارك في الدولة) والميليشيا أي «القوات اللبنانية». الفريق الميليشياوي قرر وقف الحرب وإبرام اتفاق مع فريق ميليشياوي آخر. دعونا نَعدّ هذا الاتفاق بمثابة الخطوط الرئيسية للسلام في لبنان وهو يلزم «القوات» ولا يلزم أحداً غيرها. إذا كنتم ترون أن الاتفاق يتضمن نقاطاً يجب تعديلها فدوركم كنواب أن تسعوا إلى تعديلها في مجلس النواب لأن المشروع ينص على أن المراجع الدستورية هي التي ستبت الاتفاق في النهاية. أنا لا أرى ضرورة للخوف أو الرعب. نحن قررنا أن نتوقف عن لعب دور الزعران. وهنا وقف أحد النواب، ولا أريد أن أذكر اسمه، وقال: «لا يحق لكم أن تفتحوا الحرب ساعة تريدون وأن تنهوها ساعة

تريدون». فأجبته: أنا مستعد لأن أقدم استقالتي من «القوات» وأسلمك إياها فتفضل أنت وقاتل. أنا كـ «قوات» لم أعد أريد أن أرى مشردين أو مهجرين. لا أريد سماع كلام عن كرامة المسيحيين بينما هم مشردون نبحث لهم عن مأوى ومستقبل أولادهم غير معروف.

هنا وقف سمير جعجع وقال: «أنا مستعد لاعطاء إيلي حبيقة كل شيء شرط ألا يذهب للتوقيع، ماذا يريد أنا حاضر. هذا أمر خطير». رددت على سمير بالقول: «أنا لديّ دور كمسؤول عن القوات. ودوري موضع اعتراف منكم كلكم وهو حماية المسيحيين والدفاع عنهم. أنا أرى أنه بالطريقة التي نتبعها لم تعد لدينا القدرة على حماية المسيحيين. وأكبر دليل على ذلك إقليم الخروب والشوف وعاليه والمتن الأعلى وشرق صيدا وربما حصل المزيد. هل نتوقف عندما يصبح المسيحيون في فلوريدا؟ إما أن ندخل السلم ونشارك في بناء الحل ونحن لا نزال قادرين على الوقوف على رجلينا وإما أن يبنى السلم وعظامنا مطحونة. السلم آتٍ حكماً إلى لبنان. هذا البلد لا يستطيع الاستمرار إلى ما لا نهاية في التخبط وفي حروب داخلية. نحن لا تزال لدينا إمكانات. ما زلنا قادرين على الرد بنعم أو لا. لا تزال لدينا ماكينة سياسية وعسكرية واقتصادية وإعلامية فلندخل الحل السلمي ونحن بهذا الوضع لئلا يمشي الحل السلمي على جثثنا.

لم يتحدث أحد بعدما قلت أيضاً إنني ذاهب إلى سورية غداً للتوقيع. إذا اتخذتم موقفاً جماعياً معارضاً لذهابي، وأقول لكم هذا الكلام أمام المدبر الرسولي، فلن أذهب لكنني سأستقيل من موقعي وليتسلمه سمير أو غيره. انا أريد التصرف وفق قناعاتي. فإما أن

أذهب وأوقع وإما أن تطلبوا مني عدم الذهاب فأمتنع عن الذهاب وأستقيل. عندها قال لي المدبر الرسولي: الله يكون معكم، بركتنا معكم والله يوفقكم اطلعوا. اتفقنا على المجموعة التي ستطلع. الرئيس الياس الهراوي كان حاضراً. لو اتخذت بكركي آنذاك موقفاً رافضاً لما ذهب الذين ذهبوا.

لحظة خروجنا استوقفني الآباتي بولس نعمان وقال لي: أنت وسمير هنا، صحيح هناك خلاف في الرأي لكن الأخطر هو أن يصل الخلاف إلى الدم. أقسما على الإنجيل أن الدم لن يسيل مهما بلغ الخلاف. أقسمنا على الإنجيل في غرفة جانبية. يومذاك قلت للآباتي نعمان: أقسمنا لكنني أؤكد لك إنو بدو يصير دم... وفي اليوم التالي توجهنا إلى دمشق.

■ توجهتم إلى دمشق لتوقيع «الاتفاق الثلاثي» ماذا حدث وماذا كان شعورك؟

- قبل توجهنا إلى دمشق حصل تشنج داخل «القوات» مع اقتراب الاستحقاق. تردد الكلام في تلك الفترة على تصويت داخل قيادة «القوات» روجت وسائل الإعلام أنه جاء متكافئاً وأن صوتي هو الذي رجح الكفة باعتباري رئيس الهيئة التنفيذية لـ «القوات»، وقالت إن التصويت دار على التوقيع وعدمه، وهذا غير صحيح. كل الهيئة التنفيذية كانت موافقة على الاتفاق لكن التصويت حصل على نقطة واحدة منه وهي المثالثة ضمن المناصفة (أي تساوي الشيعة والسنّة والموارنة في إطار التساوي بين حصتي المسلمين والمسيحيين). شرحت موقفي وهو أن توقيع الاتفاق لا يعني تعديل الدستور لأن التعديل من اختصاص مجلس النواب، فيما الاتفاق هو بين أفرقاء متحاربين سيحاولون إقناع النواب

بتأييده. حصل التصويت على هذه النقطة بالذات وانتهى فعلاً بزيادة صوت واحد هو صوتي. عارض المثالثة ضمن المناصفة سمير جعجع وكريم بقرادوني وجورج عدوان أي الموارنة تقريباً.

توجهنا إلى دمشق وكانت الهواجس الشخصية لسمير حاضرة. قبل الذهاب سألني بقرادوني ما هو مستقبل جعجع؟ فأجبته: سمير مثل إيلي، نحن نذهب كـ «قوات» فأي اتفاق يشمل الجميع. قال: كيف نضمن حقوق سمير، أنت تعرف، هناك مشكلته مع آل فرنجية وهذه ستبقى عالقة وبالتالي ستمنعه من دخول الحكومة أو تولي مراكز وهذا يعني أنه سيعامل كالعنزة الجرباء. أجبته: صحيح أننا سنوقع على اتفاق يتضمن بنوداً وتعابير، لكن هناك حركة سياسية وسنتضامن كفريق ولن نسمح باختراقنا، فإذا شكلت حكومة واشترطوا استبعاد سمير لنا حق الرفض ولسنا فريقاً ضعيفاً. وبدا كريم كأنه ذهب لاستمزاج رأي القيادة السورية في هذه النقطة بالذات وكأن سمير أرسله لهذا الغرض أي الحصول على ضمانات شخصية.

وصلنا إلى دمشق وذهب بقرادوني ليلاً والتقى عبدالحليم خدام وطرح معه موضوع سمير وحين عاد لم يكن مرتاحاً. سألته فأجاب: لا يزالون يطرحون موضوع الخلاف مع فرنجية ويشددون على ضرورة حصول مصالحة بين آل فرنجية وسمير. فقلت: وماذا يعني ذلك؟ أجاب: صعبة. فقلت: ماذا تفعل؟ قال: لم يبق أمامنا غير أن نمشي في الاتفاق.

في اليوم التالي جلسنا إلى الطاولة ووقعنا. كانت المرة الأولى التي ألتقي فيها وجهاً لوجه نبيه بري ووليد جنبلاط. كان جو جنبلاط

مكهرباً، وخلال التوقيع قال: «ربما ينفذ تيمور (نجل جنبلاط) هذا الاتفاق». في أي حال لم يكن التوتر مستغرباً فقد كان أول لقاء مباشر بين متقاتلين. بري كان متحمساً للاتفاق لكن جنبلاط لم يكن كذلك.

استقبلنا الرئيس حافظ الأسد ونحن الفريق الذاهب مما كان يسمى المنطقة الشرقية. أثار كريم موضوع الهواجس فقال له الرئيس الأسد: «يا كريم تقولون إن لديكم هواجس وإن سورية تريد ضم لبنان أو فرض وحدة عليه. لو كان هذا الشيء حقيقياً لقبلنا العرض الذي قدمته لنا «الجبهة اللبنانية» قبل سنوات. جاءني هذا العرض من الرئيس كميل شمعون ومن الشيخ بيار الجميل وهو يشمل وحدة فيدرالية أو كونفيديرالية. أجبت يومذاك أن الوحدة أو اي شكل من أشكال جمع الشعوب لا يتم بالفرض بل بالرضى. أنتم كنتم تتحدثون تحت ضغط الوضع الأمني والمواجهة التي كانت دائرة بينكم وبين المقاومة (الفلسطينية). هذه العروض لم تكن وليدة قناعة. سأقول لكم نحن في حزب البعث عقيدتنا وحدوية. وسأقول لكم إن سورية يمكن أن تبرم وحدة مع إريتريا وأن يبقى لبنان إلى آخر المطاف لأن للوحدة علاقة بنضج الشعوب وليس بمصالح الأنظمة. هذا أمر لا نرفضه (الوحدة) لكنه يتطلب نضجاً وحين تتحدثون إلينا في هذا الأمر بمنطق ناضج نفكر في هذا الأمر وندرس هل هذا ممكن أم لا. آن للحرب أن تنتهي وأن يتسلم المسؤولية جيل جديد».

وكان بين الحاضرين فؤاد بطرس وخليل أبو حمد وميشال المر والياس الهراوي وميشال إده ومخايل الضاهر وميشال سماحة وجورج عدوان وجان غانم وغيرهم. وأستطيع أن اؤكد أن التمثيل

كان واسعاً بالنسبة إلى المسيحيين.

■ **في تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٨٥ استهدفت عملية تفجير اجتماعاً لأركان «الجبهة اللبنانية» في دير عوكر. هل كان لجهاز الأمن في «القوات» علاقة بعملية التفجير؟**

- سمعت اتهامات من هذا النوع. كانت العملية انتحارية، ولم يسبق أن حدثت عمليات انتحارية داخل المنطقة الشرقية. وأصابع الاتهام اتجهت آنذاك إلى احدى الجهات الأصولية.

■ **في ١٠ آب/أغسطس ١٩٨٦ حصل نوع من التمرد داخل «القوات» نجح سمير جعجع في السيطرة عليه. ماذا حدث وماذا فعلتم؟**

- لم يكن سمير جعجع يثق إلا بالمحيطين به وهم في الأصل مجموعة شمالية. هذا الأمر أثار حساسيات داخل «القوات» بين الشماليين وغير الشماليين، خصوصاً أن العناصر التي جاءت معه من الشمال لم تكن معروفة من قبل المقاتلين على الجبهات وهؤلاء كانوا في المقابل يعرفون رفاقهم الذين صاروا في زحلة وهم من القيادات القديمة لـ «القوات». دار صراع بين المجموعتين وكان أمين الجميل قد بدأ في هذا الوقت يحاول قضم مواقع سمير. قبل العاشر من آب/أغسطس اتصل بنا مسؤولون من ثكنات ووحدات وقالوا يجب أن ننتفض على سمير ونزيحه وأن تعودوا أنتم. حدثت اتصالات عدة. وهنا دخل على الخط فؤاد أبو ناضر ومعه مجموعة تحضر انقلاباً على سمير. من هذه المجموعة كان رفيق قديم لي اسمه الدكتور الياس الزايك الذي اغتالوه لاحقاً في الأشرفية. أنا لم أكن مؤيداً لحركة ١٠ آب/أغسطس وطلبنا من المسؤولين العسكريين

الذين اتصلوا بنا أن ينتظروا إشارة منا. خلال التحضيرات اشتعل شيء على الأرض من دون تحضير مسبق. أحد المسؤولين واسمه مارون مشعلاني تسرع وقام بانتفاضة صغيرة. وبدت الأرض كأنها غاز ينتظر شرارة. حركة المشعلاني أشعلت الوضع. نحن طلبنا من المجموعات التي كانت على اتصال معنا ألا تتحرك لأن النتائج غير مضمونة. غلبت الحماسة واحتل المنتفضون ثكنات وهرب جعجع إلى الشمال ومنعوه من العودة وأقاموا حاجزاً عند نهر ابراهيم. واتصلوا بنا قائلين: مبروك حضروا حالكم للرجعة. وكنا نقول لهم تمهلوا القصة لم تنته بعد. هنا تدخل أمين ووضع (ابن شقيقته) فؤاد أبو ناضر جانباً ووضع يده في يد سمير وفكّك العملية وسلّم القيادة مجدداً إلى سمير. وحصلت لقاءات بين سمير وفؤاد وفريقيهما في بيت الكتائب في الصيفي، وفي نهاية أحد اللقاءات وبينما كان فؤاد متوجهاً من الصيفي إلى منزله وقع في كمين نصبته مجموعة تابعة لسمير فأصيب وكاد أن يقتل. وأعتقد بأن أمين الذي كان يراهن على إزاحة سمير لمصلحة فؤاد شعر بأن الأرض ستعود الينا وليس إلى فؤاد فاختار التعاون مع سمير. وبعدها كاد أمين أن يقتل إذ قاد طائرة هليكوبتر إلى مقر سمير في القطارة ليعتذر له واصطدمت الطوافة بأحد خطوط الكهرباء.

أثار ما حدث مخاوف سمير وضاعف لديه الشعور بأنه غير مقبول، فزاد من ممارساته التعسفية ضد من شاركوا في حركة ١٠ آب أو تعاطفوا معها. بدأت المضايقات غير دموية وفي صورة تشكيلات ومناقلات. حصلت بلبلة في «القوات» فشعرنا بأننا إذا تأخرنا في القيام بعمل للعودة سنفقد كل المواقع المتعاطفة معنا. كانت لدينا خطة أصلاً فأخرجناها وبدأنا العمل عليها ونفذناها في ٢٧ أيلول/سبتمبر أي بعد أسابيع فقط.

■ **ماذا حدث في ٢٧ أيلول؟**

- مرة جديدة تحدثنا إلى الجنرال عون وقلنا له إننا نُعدّ شيئاً وسندخل لمهاجمة سمير. لم أتحدث إليه مباشرة بل بالواسطة. وكان الجواب: «أوكي في استطاعتكم الدخول ولكن من المكان الذي لا وجود للجيش فيه لأنكم إذا حاولتم الدخول عبر نقاط للجيش ستصطدمون به». كان لدينا بعض الخطط فغيّرناها لتفادي الصدام مع الجيش ولعدم إحراج الجنرال. عثرنا يومذاك على موقع في الجبهة أي في خط التماس لا يتمركز الجيش فيه وكان ذلك في جبهة الأسواق التجارية، وهي صعبة لأن الاستحكامات فيها بنيت على مدار سنوات.

■ **هل دخلت مع العناصر التابعة لك عناصر من تنظيمات أخرى؟**

- أبداً. نحن خرقنا الجبهة وتركنا فيها عناصر لتمنع المسلحين من التنظيمات الأخرى من دخولها لأن دخولهم كان سيحدث مشكلة. سقط لنا في العملية ستة شهداء ثلاثة منهم بنار عناصر من خارج الشرقية تنتمي إلى «حزب الله».

■ **من كان على علم بالتوقيت؟**

- الجنرال عون. أطلعناه على العملية بعد البدء بتنفيذها. السوريون كانوا على علم لأنهم وفّروا لنا فرصة الدخول من الجانب الآخر من خط التماس. تمت إزاحة مقاتلي «أمل» و«حزب الله» وفتحنا ثغرة نحو ٥٠٠ متر في منطقة السوديكو ودخلنا منها. وصل المقاتلون في سيارات مدنية مقفلة.

■ هل دخلت الأشرفية أثناء العملية؟

- لا. كنت أدير العملية وكان همي ألا يسقط قتلى. دخل الشباب إلى مواقع في الجبهة بينها مدرسة الكوادر التي تخرج ضباطاً في «القوات» وأوقفنا نحو مئة عنصر من الضباط الموالين لسمير. جمعناهم وقلنا لهم ستذهبون إلى منازلكم فور انتهاء العمليات.

■ حاولتم احتلال «صوت لبنان»؟

- اقتربنا من «صوت لبنان» وكان هناك حراس شماليون للمبنى حصل اشتباك معهم فطلبت من الشباب أن يتوقفوا وأن يتابعوا في اتجاه المراكز العسكرية. لأني لم أكن أريد تدمير «صوت لبنان» ولأن أي اشتباك في موقع الإذاعة سيلحق أضراراً بها وبسكان البناء الذي توجد فيه وبسكان الأبنية المجاورة.

■ أين كان مقر قيادتك؟

- في شقة في فردان.

■ لماذا فشلت العملية؟

- حلق طيران في الفضاء فقلنا إن الجيش يحاول التأكد من هوية العناصر المهاجمة. بعدها بدأ القصف علينا من مراكز الجيش ثم لاحظنا أن قوافل دبابات للجيش اللبناني تتحرك في اتجاهنا. أرسل جعجع دبابات لكننا سيطرنا عليها واقتربنا من المجلس الحربي ووصلنا إلى شركة الكهرباء.

■ هل كانت عناصر في الداخل على علم مسبق بموعد العملية؟

- لا، كنا نخاف أن تكون مخترقة. الحقيقة أن مجموعات قليلة تابعة لنا اخترقت خط الجبهة في عاليه وتوجهت إلى الأشرفية وفتحت الثغرة من الجهة الشرقية من خط التماس ودخلنا. أي أنهم وصلوا إلى الموقع وسيطروا عليه فجأة من دون اشتباك وإطلاق نار. لم يحصل إطلاق نار إلا لدى وصولنا إلى «صوت لبنان».

■ هل كانت هناك اتفاقات تقضي بتوفير مساندة مدفعية لكم؟

- لا.

■ كيف فشلت العملية؟

- بدأ الجيش يتدخل. وأبلغني الشباب أن اللواء العاشر قطع نهر الكلب وأن المغاوير يستعدون للنزول إلى الأشرفية وأن الشرطة العسكرية تتحرك. تعرضت مراكزنا للقصف وتلقيت اتصالات من ثكنات «القوات» في عين الرمانة والفياضية تسألني ماذا نفعل. عندما بدأت طلائع الجيش تصل إلى الأشرفية طلبت من الشباب أن ينسحبوا، فنحن لا نريد الاشتباك مع الجيش وإذا أراد السيطرة على المنطقة فليكن.

■ ماذا حققت في ٢٧ أيلول، هل أكدت أنك موجود وقادر على اختراق الجبهة؟

- لم يكن هذا هو الهدف. لولا تدخل الجيش لأخذنا المجلس الحربي وغيّرنا الأوضاع. حركة ١٠ آب/أغسطس كان لها دلالات.

أنا رأيت أن الجنرال عون قد يكون أمسك بالجيش هذه المرة أفضل. اتصلت لاحقاً بالجنرال عون، بواسطة أحد الأشخاص، وسألته ماذا حدث ولماذا تدخلت ضدنا خلافاً للاتفاق علماً أننا اخترقنا كما طلبت من مكان لا وجود للجيش فيه؟ وجاء رد عون: أنا لم أتدخل، الرئيس الجميل توجه إلى غرفة العمليات وراح يصدر أوامره شخصياً بوصفه القائد الأعلى للقوات المسلحة.

■ تقصد أن سمير جعجع لم يكن له دور في إحباط عملية ٢٧ أيلول؟

- جاء لاحقاً بعدما انتهى كل شيء وتسلّم الجيش المواقع وأقفل الجبهات.

■ هل رآها السوريون انتكاسة لك؟

- لا.

■ هناك من يقول إنك وُعدت بمساندة مدفعية ولم تحصل؟

- هذا غير صحيح ونحن لم نطلب ذلك أصلاً. كان أول ما فعلناه لدى دخولنا الاستيلاء على مواقع المدفعية لـ «القوات» في الأشرفية واستخدمناها.

■ في أيلول ١٩٨٨ هل كنت مؤيداً لترشيح مخايل الضاهر؟

- نعم. مخايل الضاهر كان معنا في «الاتفاق الثلاثي» ولم تكن توجهاته بعيدة عنا وكنت مؤيداً له بقوة.

■ **هل كانت هناك أسماء أخرى؟**

- كان هناك من يطرح اسم ميشال الخوري حاكم مصرف لبنان. وأعتقد بأن الرئيس الحريري طرح هذا الاسم.

■ **هل كان اسم عون وارداً للرئاسة؟ تحدث الوزير محسن دلول عن خط له كان مفتوحاً مع الشام.**

- نعم كان هناك خط مفتوح. تردد اسمه وقيل إنه لو قدم نفسه لرئاسة الجمهورية ربما كان المرشح الأرجح. قبل فترة قصيرة من خلو مركز الرئاسة في ٢٣ أيلول كان المطروح أن يشكل الرئيس سليم الحص الحكومة الانتقالية ويدعو إلى انتخابات رئاسية. ولو أظهر عون أنه مهيأ للانفتاح والحوار أعتقد بأنه كان سيطرح جدياً ونحن كنا ندعم هذا التوجه ونعمل له ولم يكن البحث مقطوعاً.

■ **عقدت اجتماعات مع العماد عون أثناء وجوده في قصر بعبدا، ما قصة تلك الاجتماعات؟**

- رأيته مرتين خلال وجوده في بعبدا وقبل عملية ١٣ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٩٠ (إزاحة عون من بعبدا) لكن الاتصالات معه كانت قائمة قبل ذلك.

■ **هل صحيح أنك ضللته عشية العملية؟**

- لا. الصحيح هو التالي: قبل ١٣ تشرين الأول بنحو شهرين تلقيت اتصالاً من شخص مقرّب جداً من عون، زارني في شقة كنت أسكنها في الرملة البيضاء وقال إن الجنرال يريد أن تساعده في فتح خط على الرئيس حافظ الأسد. فقلت له: هناك باب إذا

فتحه الجنرال يمكن أن يصل إلى الرئيس الأسد. قال: ما هو الباب؟ قلت: اتفاق الطائف، إذا كان مستعداً للسير في هذا الخط أعتقد أنه يستطيع أن يصل نظراً إلى ما له من موقع. قال: الأمر مطروح للبحث. سألته: ماذا يعني ذلك؟ أجاب: يعني ليست لدينا مواقف مسبقة. قلت: نحن نسمع مواقف واضحة تعبر عن رفضكم. قال: ضع هذا الكلام جانباً وضع في حسابك أن الجنرال مشى في اتفاق الطائف. هل هناك إمكان لمباحثات؟ قلت: لا أستطيع التحدث بلسان غيري، ما أستطيع أن أقوله هو نصيحة خلاصتها أن يعلن الجنرال أنه يقبل باتفاق الطائف ثم يبدأ البحث. قال: أعتبرها كذلك. قلت: لا أستطيع أن أعدّها كذلك، هذا الكلام صادر عنك ولا أستطيع نقله بهذه الصورة. الأجواء ليست سهلة فهناك حرب تحرير ومواقف متشددة. تصعد الآن إلى بعبدا وتبلغ الجنرال أنني أريد سماع الكلام منه. وتفادياً للإحراج أقبل سماعه منك ولكن بعد أن أسمع أنه قربك.

غادر الشخص إلى بعبدا وطلبني في الهاتف وسمعت صوت الجنرال قربه أي أن الحوار يدور على مسمعه. قال الشخص: نحن موافقون. فقلت: أريد أن أكون واضحاً لئلا يحدث نقل غير مفيد للكلام. سأذهب أنا وسأعرض ما يلي: الجنرال لديه قبول بمبدأ الطائف ويمكن أن يكون لديه بعض المواضيع التي يريد التحاور في شأنها. هل أنتم على استعداد للحوار؟ وإضافة إلى ذلك فإن الجنرال يطلب لقاء مباشراً مع الرئيس الأسد لأنه يقول إن الضمانات التي يعطيها الرئيس الأسد لمخاوفه هي ضمانات يقبلها وإنه حين يجلس مع الرئيس الأسد ستحل كل الاشكالات... واضح؟ فرد الشخص: واضح. قلت: سأكتب هذا الشيء، وأرسله إليك.

أنا لم أتوجه إلى دمشق. أرسلت فاكساً إلى أسعد الشفتري الذي كان في زحلة وقلت له اذهب وأطلع أبو جمال على الفاكس واسأله عن الجواب. فطلب أبو جمال أن أذهب أنا فذهبت وأخبرته بما جرى من دون زيادة أو نقصان، وقلت له ربما كانت هناك تطورات وأنا مستعد للذهاب والاجتماع مع الجنرال لنتحدث مباشرة في الموضوع. قال: هل تعتقد بأن الأمر يؤدي إلى نتيجة؟ فقلت: لست قادراً على التقويم. فقال: جرّب.

توجهت ليلاً من بوابة المتحف إلى قصر بعبدا. سلمنا على الجنرال وتبادلنا القبلات. أخرجت ورقة من جيبي وقلت له هذا ما يفترض أن يكون طرحك والجواب عليه هو لا بأس، وليحدد الجنرال الضمانات التي يطلبها وشروطه. تطلع عون في الورقة وقال: لكننا لا نزال حيث كنا. فقلت: بالنسبة إلى ماذا؟ قال: لا نزال نتحدث في الطائف. قلت: يفترض أن هذا العرض جاء من عندك وهو ما أبلغني إياه الشخص المقرب منك وهو وراء الباب فإما أن تناديه لنتأكد وإما أن نعدّ الموضوع منتهياً وتصبح على خير. قال: اقعد، أحسب أننا مشينا في الطائف فهل يبقى الياس الهراوي رئيساً للجمهورية؟ قلت: أنا لا أستطيع أن أجيب عن هذه الأسئلة لكنني سأقول لك تقويمي للأمور. للطائف غطاء عربي ودولي. الياس الهراوي رئيس جمهورية معترف به دولياً ولا تستطيع أن تلغيه. انطلاقاً من هذه الواقعة تستطيع أن تكمل لكنك لا تستطيع إلغاءها.

دخلنا في جدل طويل حول النقاط المقبولة وغير المقبولة. في النهاية قلت له: أريد أن أكون واضحاً، لا أنت ولا غيرك يستطيع التغيير اليوم في اتفاق الطائف. إنه تركيبة استثمرت فيها أطراف كثيرة

إقليمية ودولية ولا تستطيع أنت سحب استثماراتهم لأنك لا تريد أن تمشي فيه. تستطيع أن تمشي وأنت اليوم القوة الكبرى على الأرض على الأقل في الشرقية. تستطيع أن تقول أريد موقعاً في الدولة. قال: وسمير جعجع أنا لا أقبل به. قلت: ضع شرطاً أنك لا تقبل بسمير. قال: ماذا يحدث؟ قلت: لا أعتقد بأن أحداً يهتم بسمير اهتماماً شديداً لا محلياً ولا إقليمياً. قال: أنا ماذا تطرحون علي؟ تطرحون أن أتنازل عن كل سلطاتي في مقابل سلطة جزئية بينما يحافظ غيري على كل سلطاته، لا يكون التفاوض هكذا. قلت: لا أستطيع إعطاءك ما تطلبه فالمسألة ليست معي. قال: نعم. قلت ماذا نفعل؟ أنا يفترض أن أحمل جواباً. قال: دعني أفكر وسنعطيك الجواب. قلت: أنا لن أبلغ أحداً أنني التقيتك في انتظار الجواب.

عدت ولم أبلغ أحداً. وبعد يومين حصل اتصال فتوجهت إلى قصر بعبدا عبر ضهور الشوير. عاد البحث ليتكرر وظهرت مجدداً عقدة رئيس الجمهورية. دعا إلى تشكيل حكومة وإبرام اتفاق ومفاوضات حول طاولة. قلت له: الطاولة عقدت والاتفاق أبرم، أنت تتعرض لحرب استنزاف يشنها سمير جعجع، وهناك نقمة لدى المحيطين بك بسبب حروب كانوا في غنى عنها، وعلى رغم ذلك لا تزال شخصاً يرغب الآخرون في التحاور معه لأنك تمثل الجيش ولأن العلاقة معك تسهل العملية برمتها. أنا أنصحك بالاستفادة وبدخول العملية. أنصحك ضد مصلحتي السياسية. أنت لديك قاعدة شعبية كبيرة يمكن أن تطغى على كل السياسيين. قال: دعني أفكر وسأتصرف وفق قناعاتي. قلت: «الأمر متروك لك ولكن إذا أخذت الخيار الذي أخاف أنا أن تتخذه أطلب منك مسألة: إذا قررت أنت الانتحار فلا تطلب من

ضباطك وجنودك أن ينتحروا». وبعد الوداع غادرت قصر بعبدا.

■ **وبعد ذلك؟**

- استمرت الاتصالات لكنني لم أزر قصر بعبدا. وطُلب مني لاحقاً أن أبلغ الجنرال عون أن العملية العسكرية التي تستهدف إزاحته جدية تماماً وأن عليه أن يرسم خياراته في ضوء هذا الواقع. جاء الطلب من مسؤول سوري قال لي: أبلغ الجنرال عون حتى أمر العمليات. العملية العسكرية ضده صارت حتمية لظروف كثيرة وهذا أمر العمليات، حجم القوة التي ستدخل وفي أي ساعة. فلينظر إلى الواقع ويقوّم وضعه جيداً فيستنتج أنه سيخسر. أبلغه هذه المعلومات.

بعثت بأمر العمليات إلى الجنرال لكن ضابطاً لديه قال له إن المقصود هو التهويل. وفي خط موازٍ كانت هناك اتصالات مماثلة من أطراف آخرين مع العماد عون كلها تصب في الاتجاه نفسه وكانت تنتظر مثلنا موقفاً إيجابياً منه يسمح ببدء الحل السلمي من دون اللجوء إلى المدخل العسكري.

■ **وفي ١٣ تشرين الأول عدت إلى المنطقة الشرقية وأعلنت قيام «حزب الوعد»؟**

- نعم. كان ضرورياً أن نتحدث عن حزب الوعد الذي كنا قد أعددنا له لأننا لم نكن راغبين في العودة بالطريقة القديمة أي «القوات اللبنانية».

■ **اهتممت يومذاك بإنقاذ عائلة عون؟**

- ساهمت في نقلها إلى السفارة الفرنسية.

■ **قيل إنك رددت له الجميل في مقابل إنقاذك خلال معركة «الاتفاق الثلاثي»؟**

- قيل الكثير وتعرف التفسيرات في لبنان.

■ **لماذا توجهت إلى قصر بعبدا فور عودتك إلى الشرقية؟**

- كانت لدي خيارات عدة أصعبها اثنان: ماذا نفعل حين تحدث العمليات العسكرية. هل نمتنع عن التدخل؟ أنت تعرف ماذا يحدث حين ينهار نظام في منطقة ما. تحل الفوضى. وكنا نعرف أن فترة زمنية ستمر قبل استتباب الأمور مجدداً. توقعنا حصول سلبيات. جمعت القيادة وتحدثت مع الشباب على الأرض. قلت لهم غداً إذا فشلت المفاوضات مع الجنرال عون يمكن أن يحصل عمل عسكري ستلغى بنتيجته حدود. هل ندخل ونحاول أن لا تفلت الأمور كثيراً أم نبقى في الخارج في انتظار ارتفاع الصراخ؟ هناك من قال ندخل ونجلس مع أهلنا هناك، وهؤلاء الشباب كانوا أصلاً في الشرقية. وقال فريق آخر يجب أن ندخل. قلنا لهم غداً ستستهدفنا اتهامات التخوين وأننا ضد الناس هناك، ولكن إذا لم ندخل هناك ثمن مرتفع سيدفعه أهلنا وأقاربنا. في النهاية اتخذنا قرار الدخول.

دخلنا وتوجهنا إلى القصر لأن المجموعة التي كنا فيها كانت متجهة إلى القصر. ثم توجه كل شخص إلى حيه وبدأنا بتنظيم الأمور. استمرت الحالة نحو ثلاثة أيام أو أربعة وبدأ الجيش اللبناني ينظم الأمور ويمسك بالأرض.

وصلت إلى قصر بعبدا وإذا بهم يخبرونني أن ثمة عائلات مدنية لا تزال موجودة فيه. كان قائد العملية اللواء (السوري) علي ديب. سألناه عن المدنيين فقال: ساعدوهم في الذهاب إلى منازلهم. نقلنا الذين كانوا موجودين ونقلت عائلة الجنرال بسيارتي إلى السفارة الفرنسية.

■ وهنا بدأت مرحلة جديدة؟

- بدأت مرحلة بشعة. بعد دخولنا أبلغني الشباب أن مجموعات من «القوات اللبنانية» (التابعة لسمير جعجع) نزلت من الأشرفية بعدما زالت الجبهة التي كانت قائمة هناك مع الجيش الموالي لعون لأن وحدات الجيش اللبناني التي دخلت المنطقة الشرقية آنذاك لم تكن قد انتشرت بعد في فرن الشباك وعين الرمانة. نشأ نوع من الفراغ هناك. أبلغني الشباب أن عناصر «القوات» تنوي على ما يبدو اعتقال مؤيدين لعون في عين الرمانة. قلت لهم أبلغوهم، من دون الاصطدام معهم أن هذا الأمر ممنوع وغير وارد. وخلال مشادة جرت بين شبابنا وتلك العناصر مرت دورية تابعة للواء السادس فتراجعت عناصر «القوات» إلى الأشرفية. هنا بدأت حرب باردة وبدأ التحضير لعمليات اغتيال وتفجير في فرن الشباك والأشرفية. ونفّذوا بعض العمليات ضدنا منها تفجير مركزين تابعين لنا في فرن الشباك وعين الرمانة، واغتيال أحد الرفاق في الأشرفية. وكنا قد بدأنا فتح مراكز تنظيمية واجتماعية في العديد من المناطق. فالقوات كانوا يريدون إزاحة عون للسيطرة على المنطقة الشرقية بكاملها وليس للقبول بدخول أي طرف آخر. عندها شعرت بأننا سندخل مجدداً في دوامة عمليات أمنية دامية فيما الناس منهكون بعد «حرب التحرير» و«حرب الإلغاء». عندئذٍ أعطيت أوامري

بإقفال المراكز كلها.

■ **في تلك الفترة اغتيل رئيس حزب الأحرار المهندس داني شمعون. هل لديك ما تقوله في هذا الموضوع؟**

- قال القضاء كلمته ولن أزيد.

■ **ما قصة الاجتماع بينك وبين سمير جعجع في منزل الرئيس الحريري في قريطم؟**

- سألني الرئيس الحريري هل أنا مستعد للاجتماع بسمير فقلت له أن لا مانع لدي. وفي اليوم نفسه أرسل يسألني هل تمر علي مساء. لم يقل لي إن سمير سيأتي لكنني توقعت ذلك. وصلت إلى منزل الحريري فرأيت سمير ومعه زاهي البستاني ونادر سكر. جلست مع سمير في غرفة جانبية.

■ **كيف كان اللقاء؟**

- كان سمير حميماً وكنت أنا بارداً بعض الشيء. سألني هل عرف السوريون أنك جئت لتراني، وهل طلبوا منك ذلك؟ قلت له: لا ليسوا على علم.

■ **وهل صحيح أنهم لم يكونوا على علم؟**

- في أي حال لم يطلعوا مني. وقلت لسمير: «إذا كنت تعتقد بأنني أنقل إليك رسالة من أحد فأنت مخطئ. أنا آت لأراك لأن المنطق الذي يجمعنا حتى الآن هو أن حياتك تعني موتي وحياتي تعني موتك، وهذه المسألة لا أريد أن أورثها لابني ولا أريد أن تورثها أنت لأبنائك». قال سمير: «اختلفنا وكان ذلك خطأ.

وستريدا (زوجة جعجع) تقول لي دائماً كيف اختلفت أنت وإيلي وكنتما صديقين حميمين؟».

راح سمير يحرف الحديث في اتجاه عاطفي ويقول كانت أيام، أنت أخطأت في حقي وأنا أخطأت في حقك. قلت له أنا لا أقول إن أحدنا قديس، أنا أقول إنني أريد أن أراك لأنني لا أريد أن أقرأ تقارير عنك. أريد أن نتحدث لنرى هل نستطيع أن نعيش معاً على الأرض نفسها من دون أن يرسل أحدنا الآخر إلى القبر. ربما لن أضع يدي في يدك ما حييت لكن هذا لا يعني أن تكون عدوي كل الوقت. وحتى لو كنا في جبهتين متواجهتين هناك خصومة سياسية فلماذا يكون هناك عداء؟ أنا أسير في مبدأ أن الشخص الذي يقرر العيش في سلام يجب أن يعيش في سلام وأنا أريد السلام مع الجميع. هذا منطق، إذا مشينا فيه كلنا، له قوانينه. لا أحد يلغي الآخر. أنا اتخذت خياراتي وأريد أن أسألك انت أين؟ مشيت في الطائف فهل أنت مقتنع وماضٍ فيه إلى الآخر أم أنك تناور؟ قال: لماذا نحكي في السياسة. قلت: كما تريد. قال: ما رأيك في أن نتكلم في هذا الموضوع ذات مساء تأتي مع زوجتك وأنا مع زوجتي ونتعشى ونتحدث. قلت: ما زلنا بعيدين عن صداقة من هذا النوع وإذا حدثتني بهذا المنطق يجب أن تتحدث بالمنطق نفسه بالنسبة إلى جورج سعادة (رئيس حزب الكتائب) وأمين الجميل والجميع.

هنا شتم جعجع سعادة وقال: هذا أنا صنعته ووضعته حيث هو (في قيادة الحزب). وحمل على عون. قلت له: لا تستطيع أن تعادي ايلي وتصادق جورج وتصادق إيلي وتعادي جورج. هذه القصص نعرفها. يبدو أن كل ما تريده من اللقاء معي هو تحييدي

في معركة انتخابات رئاسة الكتائب. اسمع يا سمير: الكتائب كتائب و«القوات» قوات و«الوعد» وعد. أنت لديك مؤسسة فانجح فيها ولماذا تمد يدك إلى ممتلكات غيرك؟ الكتائب لديهم مؤسستهم. اترك جورج سعادة وليخض معركته ضد كمال قرداحي مثلاً أو غيره. أنت ممنوع عليك أن تربح من الموقع أو من المنطق الذي أنت سائر فيه. تريد أن تظهر لنا أنك حبّوب، أظهر لنا ذلك وأنت قائد «قوات». قال: «لن أسمح لجورج سعادة بالبقاء في الكتائب». قلت: وأنا لن أتركك تأخذ الكتائب. أنا جئت لأراك ولأشكل قناعات وقد شكلتها». وانتهى اللقاء.

لدى خروجي سألني الحريري. شو الجو؟ فأجبته: كل الذي يريده هو وضعي على الحياد ليتمكن من الحلول مكان جورج سعادة.

■ **هل ساهمت في تأمين فوز سعادة ضد جعجع؟**

- نعم.

■ **كم استمر اللقاء؟**

- نحو ساعة تقريباً.

■ **ما قصة محاولة اغتيالك في مطرانية زحلة للروم الكاثوليك؟**

- حاول سمير مرات عدة اغتيالي. هناك محاولات لم تنجح. على طريق مكتبي في تلال زحلة كان هناك طريق لا بد من سلوكها. وضعوا متفجرات في قنوات تحت الأرض وقد كشفناها وأوقفنا الفاعلين. حصلت محاولة لاغتيال أسعد شفتري وأخرى

لاغتيال جوزف الأسمر. وحصل تفجير قرب مركز قيادتنا.

■ في زحلة كنتم في اجتماع في المطرانية؟

- كنا أنا والمطران أندره حداد وإيلي الفرزلي (نائب رئيس مجلس النواب سابقاً) وخليل الهراوي (نائب سابق). اتصلوا بي وقالوا نريد أن نعقد اجتماعاً للبحث في مشاكل داخلية في زحلة. خلال الاجتماع رن الهاتف لدى المطران وسمعته يقول: «نعم هو موجود عندي هلق بقللو». سألته مع من تتكلم فقال مع الأب سميح. قلت له «يا سيدنا اتفقنا أن لا نكشف ذلك. أنا أعتذر لكنني لن أبقى هنا». نهضت ودوى الانفجار وكان عبارة عن عبوة موضوعة في السقف والمنفذ هو الأب سميح. هبط السقف علينا فالمتفجرة زنتها ٢٥ كيلوغراماً. الآخرون لم يطمرهم الردم أنا طمرني وأصبت بجروح. خرجت في سيارة إسعاف إلى المستشفى في دمشق. لم أكن مصاباً بجروح بالغة وأعتقد بأنها كانت في أيلول/ سبتمبر ١٩٨٧ وفي موعد قريب من ذكرى اغتيال بشير.

■ وأنت حاولت اغتيال جعجع في مسية؟

- أبلغني الشباب أن ثمة إمكاناً للوصول إلى سمير جعجع. كانت لدي شكوك وكان شكي في محله لأن الفريق الذي كان يعمل معهم كان ولاؤه مزدوجاً. كشف سمير القصة قبل حدوثها لكنه أرسل موكبه كي تستمر ثقتنا بالفريق المزدوج الولاء الذي يعمل معنا.

■ قتل بشير الجميل في العام ١٩٨٢ وتردد آنذاك أنك أخضعت للتحقيق؟

- هذه شائعات، ومصدر إطلاقها، حسب كل المعلومات، أمين الجميل.

فبعد اغتيال بشير أوقفنا أشخاصاً مشبوهين واستجوبناهم وكانت الشبهة الأكبر تدل على حبيب الشرتوني الذي كان من بين الأشخاص الذين أوقفناهم إثر الانفجار. إذ كانت لدينا معلومات عن أحد الأشخاص من آل الشرتوني ولم نكن نعرف الاسم الأول له، وبعد التوقيف تبين أنه حبيب وكان يسكن في الطابق العلوي لبيت الكتائب. وبعد أقل من ٤٨ ساعة من التحقيق أصبح الاتهام كله موجهاً إلى حبيب الشرتوني، وخلال ثلاثة أيام بدت الصورة واضحة حين بدأ الشرتوني يروي قصته مع التفجير. في هذا الوقت كانت الشائعات والأخبار عن اختراقات تنمو وتتكاثر، وبدأت أشعر أن هذه الشائعات لم تكن بريئة بل على العكس كانت موجهة وهادفة لإلصاق التهمة بي.

ولئلا تقتصر اعترافات حبيب على الأقوال فقط التي يمكن أن تنقض لاحقاً، ركزت على الإثباتات الحسية، وكنت مهتماً شخصياً باستجوابه، فبعدما اعترف بقيامه بالتفجير سألته بواسطة ماذا حدث التفجير، أجاب بواسطة جهاز لاسلكي موضوع داخل حقيبة «سامسونايت»، قال إنه رماها في أحد براميل النفايات في الأشرفية قبالة أحد المطاعم هناك. أرسلت عناصر لاستطلاع المكان والبحث عن الحقيبة، فجاء الجواب بعد أقل من ساعة أن لا وجود لأي حقيبة وأن البراميل فارغة. سألنا بلدية بيروت عن الوقت الذي تم فيه إفراغ البراميل ومكان وضعها فقيل إنها تمت قبل ٢٤ ساعة ووضعت في مكب الكرنتينا، فتوجهت إلى المكب مع مجموعة من الرفاق وبدأنا عملية بحث شملت أكثر من ٢٠٠

طن من النفايات لكننا لم نعثر على الحقيبة. فعدت إلى حبيب الشرتوني وعند دخولي مكان احتجازه بادرني بالقول: «لم تجدوها أليس كذلك؟ أنا لم أضعها في المكان الذي ذكرت بل في أسفل درج البناء الذي اعتقلتموني فيه». فقلت سنحاول مرة ثانية وطلبت من أحد الرفاق أن يذهب إلى البناء للتأكد. فتدخل الشرتوني وقال لي: «اسمع لا عداء بيني وبينك؟ هذه الحقيبة مفخخة إذا فتحت تنفجر». فجلسنا معه واستوضحناه طريقة تفخيخها فزودنا بالمعلومات وذهبت مجموعة من خبراء المتفجرات عندنا وأحضرتها كما هي، لأننا شككنا في أن تكون معلوماته غير صحيحة فتنفجر في المجموعة التي ذهبت لإحضارها.

وفي الوقت الذي توجهت فيه المجموعة لإحضار الحقيبة اتصلنا بأحد ضباط الشرطة القضائية كي يرسل لنا خبراء في الأدلة الجنائية لرفع البصمات والتعرف إليها، فمن ناحية لم نكن نملك مثل هذه الخبرة ومن ناحية ثانية أردنا أن يكون هناك شهود على مسار التحقيق.

أحضرت الحقيبة وتم فتحها وتفكيك المتفجرات داخلها بوجود الشرتوني الذي كان يبتسم في تلك اللحظات. وبدأ ضباط الأدلة الجنائية عملهم فاكتشفوا بصمات على جهاز التفجير تبين أنها بصمات الشرتوني، كما اكتشفوا بصمات لغيره على البطارية كانت داخل الحقيبة.

استكملنا الملف وأبلغنا صولانج زوجة بشير بتفاصيله، فأبلغت بدورها أمين الجميل الذي طلب أن يتسلم الشرتوني لأنه يريد التحقيق معه بنفسه. فطلبت منا صولانج ذلك وكان لها ما أرادت

وسُلّم الشرتوني إلى أمين الذي لم يكن بعد قد أصبح رئيساً للجمهورية.

تسلم أمين حبيب الشرتوني ووضعه في مكان خاص بالقرب من بيت الكتائب في بكفيا. وفي اليوم التالي وردتنا معلومات من أحد العناصر التابعة لأمين تفيد أن هناك قراراً بتصفية الشرتوني على أن يعلن في ما بعد أنه توفي أثناء التحقيق. هنا أحسست أن هناك مخططاً لإضاعة التحقيق كلياً ومعه تضيع المسؤولية وتخفى الحقيقة. وهذا ما بدأ يثبّت مخاوفي من الشائعات التي تم ترويجها في ذلك الحين.

توجهت فوراً إلى منزل صولانج في بكفيا، وكانت لا تزال تستقبل المعزين، وأطلعتها على المعلومات التي لديّ والمخاوف التي تراودني إزاءها، وطلبت أن يحضر أمين لنتباحث في الأمر. فحضر أمين وقلت له إن حبيب الشرتوني يتعرض للتعذيب وهناك خطر على حياته فإما أن تضع حداً لذلك وإلا فنحن نطالب باسترجاعه. نادى أمين المسؤول الأمني التابع له وسأله عن حقيقة ما يجري فنفى ذلك، لم أكتفِ بما سمعت وطلبت رؤية الشرتوني وأمام إلحاحي وعندما شعر أمين بضغط مني خصوصاً أن صولانج شاهدة على الحديث وافق وذهبت لرؤية الشرتوني، ولما شاهدته مضرجاً بالدماء علا صراخي فوعدني أمين بتحسين ظروف توقيفه.

تركت بكفيا وعدت إلى مكتبي في الكرنتينا وطلبت من مساعديّ أن يتابعوا المعلومات عن وضع حبيب وكانت لديّ قناعة أن الأمور لن تقف عند هذا الحد. وفي اليوم التالي تلقيت معلومات مؤكدة مفادها أن الخطة تبدلت وسيصار إلى تهريب الشرتوني من

السجن، عندها أرسلت على الفور مجموعة إلى بكفيا وكان في نيتي استرجاعه هذه المرة.

وصلت المجموعة إلى مكان سجنه فوجدت السجن خالياً وعند استفسارها أجيبت بأن لا علم عند أحد ويبدو أنه فرّ.

ضربنا طوقاً سريعاً حول بكفيا وكان الشرتوني على وشك الوصول إلى دير مار الياس ولا يلزمه سوى دقائق لاجتياز خط ضهور الشوير. اعتقلته إحدى مجموعاتنا وأعدناه ولم نسلّمه إلى أمين الجميل إلا لاحقاً بعدما أصبح رئيساً للجمهورية وبعدما فتح القضاء ملف اغتيال بشير الجميل، وبموجب محضر تسلم وتسليم.

■ كمسؤول عن الأمن ألم تتوقع أن يتعرض بشير لمحاولة اغتيال؟

- هذا الموضوع كان هاجسنا الدائم، ومحاولات الاغتيال التي تعرض لها بشير كانت بالعشرات، وكنا نعلم أن الطريقة الوحيدة لحفظ أمن بشير هي أن نأسره في نظام أمني ضيق وهو أمر كان مستحيلاً مع شخصية بشير الذي يرفض مثل هذه الأساليب.

شخصية بشير كانت مختلفة عن شخصية المسؤولين الذين يرضخون للمخاوف الأمنية. كان يرى أن لا شيء يمكن أن يطاله. وأن النظام الأمني يحدّ من حرية حركته وعلاقته مع الناس وشعبيته. عندما انتخب بشير رئيساً للجمهورية أحسست بشيء من الراحة، فكونه رئيساً يوجب عليه أن يرضخ لنصائح أجهزة الدولة، من مخابرات الجيش والأمن العام، فهي ستكون مهتمة بتنسيق تحركاته، لكنه لم يفعل. وأذكر هنا أن الرئيس الياس

سركيس واجهه مرة بقوله «أمنك ليس ملكك وأنت اليوم رئيس للجمهورية وهذا القصر قصرك فأتمنى عليك أن تعقد اجتماعاتك فيه وأن لا تغادره». لكن بشير لم يستجب لرغبة الرئيس سركيس وأصر على متابعة الأسلوب الذي اعتمده، فأحياناً كان يقود سيارته وكنّا نرسل من يراقبه من بعيد ليضمن سلامته أو ليساعده إذا ثقبت عجلة السيارة، وحين كان يلاحظ ذلك كان يأمر الشباب بالمغادرة. كان من الصعب حصره.

■ ما قصة زيارته للطائف قبل انتخابه، ثمة من يقول إن شخصية لبنانية لعبت دوراً في ترتيبها؟

- لا علم لي بدور من هذا النوع. أعتقد بأن الأميركيين لعبوا دوراً في ترتيبها. إذا نظرت إلى الظروف الصعبة آنذاك تستنتج أن زيارة من هذا النوع تحتاج إلى جهة دولية مؤثرة لترتيبها. توجهنا إلى قبرص في طائرة هليكوبتر ومنها في طائرة سعودية إلى الطائف وعدنا بالطريقة نفسها. التقى بشير وزير الخارجية السعودي الأمير سعود الفيصل (الوزير والسفير السابق) وعلي الشاعر. ذهبت أنا وزاهي البستاني مع بشير. تركز الحديث في جزء كبير منه على مصير المخيمات الفلسطينية التي أصر بشير على نقلها إلى البقاع. وقد اهتمت السعودية بمصير المخيمات وتوفير ضمانات لسكانها.

■ هل كنتم تريدون شخصاً آخر غير أمين الجميل للرئاسة؟

- كما قلت كان بشير هدفاً للاغتيالات ومسؤولاً تصعب حمايته جداً، فهو كثير الحركة من جهة ويستخف بالإجراءات الأمنية من جهة ثانية، وكان يقول دائماً «حياتي هي قدر من الله». ففي

جلسات عدة كان رفاقه يسألونه عن هذا الأمر، ويقولون له إن عليه أن يهتم بحماية نفسه، لأنه إذا حدث مكروه له فسينهار كل شيء، وكان دائما يجيب اذا حصل أي شيء من هذا فإن في القوات مئة بشير. وعندما كان يُسأل عن أمين يجيب: أي شخص إلا أخانا. وكانت القوات تعيش مع الفريق المحيط ببشير ما يشبه حالة الخصومة مع أمين، كانت الصدامات بين فريق بشير وقاعدة أمين كثيرة، وكان الحذر هو المسيطر على العلاقة بينهما.

عند اغتيال بشير عقد اجتماع في المجلس الحربي الكتائبي بين قيادة القوات أي مجموعة بشير، وبين أمين الجميل الذي حضر بصحبة جوزف أبو خليل، لتدارس الأوضاع بعد اغتيال بشير، كان جو الاجتماع وكأنه يراد منه ما معناه مات الملك عاش الملك، وكنّا فريق القوات لا نزال تحت الصدمة ولم تكن لدينا خيارات كثيرة، وعندما عرض جوزف أبو خليل أمين مكملاً لمسيرة بشير لم نعترض حينها، لكن من دون أن يصدر عن أحد منّا أي تعليق، فكلنا يتذكر رفض بشير لهذا الخيار.

■ ما هي قصة مجزرة صبرا وشاتيلا، وما علاقتك بها، وما صحة ما تردد؟

- سأقول لك أولاً ما هو الجهاز الذي كنت مسؤولاً عنه، أنا أردت تسمية الجهاز جهاز المعلومات بينما يفضل اللبنانيون تسمية أخرى هي المخابرات، أنا كنت أقصد التسمية لأنني أرى أن أي قرار لا يستند إلى معلومات دقيقة يكون قراراً خاطئاً. أنشأت جهاز معلومات وبالتالي فإن دور الفريق العسكري في هذا الجهاز كان يقتصر على حراسة المراكز التابعة له. لم تكن في الجهاز أو تحت إمرتي وحدات عسكرية مقاتلة بل مجموعات أمنية محدودة العدد

والمهام. لا أقول إننا لم نكن ننفذ عمليات أمنية أو إننا لم ندخل هذا الشق من العمل لكن الأكيد هو أننا لم نكن نملك قوات عسكرية.

حصلت عملية صبرا وشاتيلا بعد مقتل بشير الجميل وكان همي الأساسي أن أكشف الحقيقة أي أن أعتقل من قتل بشير. بين الاغتيال واعتقال المنفذ وتبيان الحقيقة هناك نحو أسبوع لم ننم فيه أكثر من ساعة في اليوم، وقد تركز اهتمامنا على كشف عملية الاغتيال.

عرفت بقصة صبرا وشاتيلا من أمين الجميل شخصياً. أراد أمين الاطلاع على مسار التحقيق في اغتيال بشير فزرته في بكفيا في البيت. كان لديه اجتماع مع (المبعوث الأميركي) موريس درايبر فدخلنا غرفة الطعام للتحدث، قال أمين إن الرئيس صائب سلام اتصل به وقال له إن أحداثاً تجري في بيروت وإن مجازر تحصل وإن مسلحين يشاركون فيها. وأضاف أمين: ستخربون بيتي وسيفوز كميل شمعون بالرئاسة. وتابع نقلاً عن سلام: ألم ننته بعد؟ خلصنا من المشاكل القديمة. إنكم لا تتركون للصلح مكاناً. فقلت لأمين: لماذا تبلغني هذا الكلام؟ أنت تعرف أنني لست مسؤولاً ولا صاحب سلطة إصدار الأوامر.

أنا لم أكن على علم بما يجري فقد كان هاجسي أن أكشف اغتيال بشير، خصوصاً بعدما نمي إليّ أن أمين بدأ يتساءل ويروّج أمام أوساطه عن مسؤولية جهاز الأمن والمعلومات، قائلاً: «من يعرف بتحركات بشير غيرهم ومن يستطيع الوصول إليه؟» وبيني وبين أمين علاقة خالية من الود أصلاً.

بعدها بدأ الحديث أن إيلي حبيقة كان في صبرا وشاتيلا وأدار العملية العسكرية وأن هناك من التقط صوراً لي هناك. في الحرب اعتدنا على اتهامات من هذا النوع وتعاملت في حينها مع الاتهام الجديد بعدم اكتراث كما كنّا نتعامل مع الاتهامات السابقة. صبرا وشاتيلا صارت بعد ذلك موضوعاً كبيراً أكبر من شائعات، موضوعاً يهتم الإنسان بتوضيح الحقائق في شأنه، خصوصاً أن الإسرائيليين اتهموني مباشرة بالعملية. وعندما راجت الأخبار كنت لا أزال مسؤول المعلومات في القوات وفكرت في ما يجب أن أفعله، هل أعلن أمام الصحف أنني لم أشارك وأنا محاط بالعداء من الإسرائيليين والجو الداخلي كما وصفت بعد اغتيال بشير، فآثرت حينها عدم الكلام، لأن خيارات التصرف كانت محدودة جداً.

■ **هل تجزم بأن عناصر الجهاز التابع لك لم يشاركوا؟**

- نعم لم يشاركوا.

■ **من نفذ صبرا وشاتيلا إذاً؟**

- يجب أن ترجع بضعة أشهر إلى الوراء. بعد بدء الاجتياح طلب الإسرائيليون من بشير أن يتسبب في إحداث شرارة (SPARKLE) تسمح لهم، للمرة الأولى، بالدخول إلى عاصمة عربية. قالوا له يومذاك إننا في كل الحروب التي خضناها لم يدخل جيشنا عاصمة عربية، ولدينا محاذير حيال دخول من هذا النوع لأنه يمكن أن يثير ردود فعل أميركية. طلبوا من بشير خلق الشرارة، فلم يكن راغباً ولا متحمساً ولم يكن يريد أن يدخل الإسرائيليون بيروت الغربية. وعندما ألح الإسرائيليون جمع بشير قيادة «القوات» وسأل ما هو الشيء الذي نستطيع أن نفعله بأقل

قدر ممكن من التورط ويعفينا من الضغط الإسرائيلي، فطرحت أفكار عدة ونوقشت، وفي النهاية قال لماذا لا نسترجع كلية العلوم في الجامعة اللبنانية في منطقة الحدث، فسأله أحد الحاضرين وإذا لم يقبل الإسرائيليون؟ أجاب: عندها سأقول لهم لا نستطيع أن نفعل أكثر من ذلك! صدرت الأوامر وتوجهت مجموعات عسكرية من «القوات» واسترجعت كلية العلوم. أبلغ بشير الإسرائيليين فقالوا هذا غير كاف. قال لهم: أنا لا أستطيع أن أفعل أكثر ولا أريد التورط. أنا أريد أن أكون رئيساً للجمهورية وإذا ذهبت أبعد فلن أجد نائباً مسلماً ينتخبني. وتوقفت العملية عند هذا الحد.

بعد اغتيال بشير كانت فكرة دخول بيروت لا تزال موجودة لدى الإسرائيليين. جاء وفد إسرائيلي والتقى قيادة «القوات» ولم أحضر أنا الاجتماع لأنني كنت أحقق مع حبيب الشرتوني (منفذ عملية اغتيال بشير). لن أدخل هنا في الأسماء. ضم الوفد الإسرائيلي آرييل شارون (وزير الدفاع) ورافائيل إيتان (رئيس الاركان) ومجموعة. قال الوفد الإسرائيلي إن الوقت حان للتسبب في «الشرارة» التي تبرر دخولنا بيروت. اجتمع الوفد مع الشيخ بيار الجميّل وقال له إن ثمة مخططاً سابقاً اتفق عليه مع بشير. لم يطلعوه على التفاصيل، وكان بيار الجميّل ضائعاً بسبب مقتل نجله، فاكتفى بالرد عليهم أن التزامات بشير قائمة. وهكذا كان ولم يعرف بيار الجميّل إلى أين ستؤدي القضية إذ إنهم لم يطلعوه على التفاصيل.

أعتقد بأن خدعة أساسية حصلت هنا. أُخذت مجموعات من «القوات» ووضعت في المطار ولم يتحدثوا معهم عن موضوع

المخيمات، بل عن دخول بيروت، وعرفنا أن الإسرائيليين استقدموا وحدات من العناصر التابعة لسعد حداد. وتبيّن لاحقاً أن الإسرائيليين أرادوا للعملية أن تأخذ طابعاً قواتياً وتصوير القوات في الظاهر على أنها من المشاركين. القوات لم تكن يومها قادرة على رد أي اتهام، فالمعارك تدور في أكثر من اتجاه والعلاقة مع الإسرائيليين قائمة ولا يمكن معرفة نتائج أي موقف تتخذه القوات أو أي قطيعة مع الإسرائيليين. فهناك جبهة خارجية وأخرى مع أمين، وفتح جبهة ثالثة هي رد الاتهام الإسرائيلي لا يمكن معرفة مدى انعكاساتها. فآثرت المحافظة على موقعها وتحصين ذاتها من دون فتح جبهات إضافية غير مضمونة النتائج.

■ لماذا إلصاق التهمة بإيلي حبيقة؟

- بعد اجتماع بشير الجميل مع مناحيم بيغن في نهاريا عاد بشير وجمعنا وطلب من جان ناضر الذي كان معه أن يخبرنا بما حصل، وغادر بشير مكان الاجتماع. فأخبرنا جان أن بيغن قال لبشير إن الوقت حان لتوقيع معاهدة دفاع مشترك. ورد بشير: «أنا صرت رئيس جمهورية لبنان ولم أعد رئيس ميليشيا وبالتالي فإن أي توقيع مني هو توقيع باسم الدولة اللبنانية. أنا سأشكل حكومة لتأخذ ثقة المجلس النيابي وسيطرح الأمر على الحكومة وكذلك على المجلس». هنا انفعل بيغن وقال له: «انتبه إلى ما تقول. إن جيشك لا يحتل القدس بينما جيشي يحتل بيروت». واستخدم بيغن عبارات قاسية ضد بشير وقال له: «أنتم اللبنانيين خصوصاً المسيحيين لا يمكن الوثوق بكم أو الركون إليكم».

عاد بشير متضايقاً وعدّ ما جرى مفصلاً أساسياً في حركته أو تحالفاته. لم يكن الجو كارثياً في اجتماع قيادة «القوات»، وثمة من

رأى أن للتصعيد علاقة بشخصية بيغن ويمكن معالجة الأمر مع شخص آخر.

في اليوم التالي طلبني بشير وقال: «أريد أن أفاتحك بأمر مهم: ما رأيك في أن نفتح خطاً على سورية». قلت: «أنا مع هذا التوجه». قال: «طيب نتكلم لاحقاً».

بعد ٢٤ ساعة قال لي: «إذا أردنا تأمين لقاء مع مسؤول سوري من دون معرفة الإسرائيليين كيف نفعل؟» قلت له: «لا أستطيع أن أجيبك مباشرة، هل تستطيع السفر إلى بلد أجنبي، قبرص أو اليونان أو فرنسا أو ألمانيا لأن أمنك يجب أن يكون مضموناً». قال: «فكر في الأمر وقدّر واعرف مدى خطورة هذه العملية». قلت له: «ما هو مستوى المسؤول إذا كان مجرد ضابط ارتباط نستطيع إدخاله إلى منطقتنا ونعقد اجتماعاً هنا». فقال: «هناك محاولة للقاء مع مسؤول سوري رفيع». سألته: «من يعرف هذا الأمر؟» فأجاب: «أنت وشخص ثان ويجب أن يبقى الأمر مقصوراً عليكما، هناك قطع رؤوس إذا كشفت المسألة».

درسنا كل الخيارات ووجدنا أن الأفضل هو عقد اللقاء على الجبهة الشرقية أي في جرود العاقورة حيث كانت توجد مواقع متقابلة لـ«القوات» والجيش السوري. قلت لبشير: «نسحب عناصر «القوات» هناك ونضع مكانهم حرسك الشخصي وتصعد إلى هذا المركز وتتقدم منه في اتجاه مقر اللقاء»: قال: «ممكن. ادرسوا هذا الموضوع وأنا سأعرض الفكرة». بعد يومين بالتحديد اغتيل بشير.

بعد نهاريا استقبل بشير شارون على ما أعتقد وحاول الأخير ترطيب الأجواء لكن بشير كان متشدداً وراح يقول «أنا لا أقفل

أمامي ١٢ باباً لأفتح نافذة» في إشارة إلى العلاقات مع العالم العربي. لا أعرف إذا كان دوري هذا قد تسرّب فكانت العقوبة الاتهامات المتعلقة بأحداث صبرا وشاتيلا التي لم أكن فيها منفذاً ولا مخططاً ولا صاحب قرار.

■ **اتهمت بأنك أرسلت سيارات ملغومة إلى المنطقة الشرقية بعد خروجك منها؟**

- دعني أقل لك ما فعلت. نعم حاولنا اغتيال سمير جعجع في مسيتا (قرب جبيل). عملية الدخول إلى الشرقية في ٢٧ أيلول/ سبتمبر هذه صحيحة وتحدثنا عنها. كل شيء آخر كذب، هل يمكن أن نرسل سيارات ملغومة لتنفجر بأهلنا؟! إحدى السيارات الملغومة التي اتهمنا بها انفجرت تحت منزل أهل رفيق لنا فهل يعقل أن نكون نحن من أرسلها. والسيارة التي انفجرت في جونيه أصابت أناساً من أقاربنا ووضعت أمام محل شخص يخصنا.

■ **وفي الغربية؟**

- كانت الحرب بيننا وبين الأجهزة الفلسطينية مفتوحة، مع جهاز أمن «فتح» خصوصاً «جهاز أمن المندوبين». كانت الحرب المخابراتية مفتوحة: يوجهون إلينا ضربات ونرد على الضربات بمثلها. كان الجهاز الأخطر بقيادة هواري. لم يقصّر بحقنا وردنا على الشيء بمثله.

■ **قال الرئيس نبيه بري إنكم قصفتم منزله بالمدفعية؟**

- هذا صحيح.

■ **وجنبلاط؟**

- هذا صحيح. وكان ذلك في فترة الحرب وكان الجميع طرفاً في المواجهة والعمليات العسكرية والأمنية مفتوحة. بالنسبة إلى الرئيس بري حدث ذلك في أيام «الاتفاق الثلاثي». أنا وافقت على إجراء مفاوضات شرط أن تكون في ظروف سلمية وليس تحت ضغط المدافع، واستخدمت تعبيراً مفاده أن الكلام يواجه بالكلام والمدفع يواجه بالمدفع. ذات يوم تعقدت المفاوضات في نقطة معينة. بدأت الراجمات بقصف الشرقية وعرفنا أن الراجمات تابعة لـ «أمل». اتصلت بميشال سماحة وقلت له: تكلم مع نبيه (بري). اتفقنا على أن نتحاور والتزمنا لكننا لا نستطيع أن نتحاور ونتقاتل في الوقت نفسه. هذا غير مقبول. اتصل به. في اليوم الأول لم يتغير شيء وكذلك في اليومين الثاني والثالث. اتصلت بميشال مجدداً وقلت له أن يتصل ببري مجدداً وأن يقول له إن كل شخص سيتحمل مسؤولية قراراته ولا مظلة فوق رأس أحد فليوقف العملية.

عقدنا اجتماعاً وأعطيت توجيهات هي التالية: المطلوب عدم إطلاق أي قذيفة عشوائية على الناس لأن هناك محاولة لاستدراجنا إلى ذلك. حددوا منزل رئيس حركة «أمل» وقصفوا المنزل.

■ **ومحاولة اغتيال جنبلاط؟**

- لم تنفذ قرب «الماندرين» في فردان ببيروت الغربية بسبب وجود المسؤول الأميركي موريس درايير وغسان تويني قربه.

■ **جنبلاط تحدث أيضاً عن التخطيط لاغتياله بصاروخ على طريق الشوف؟**

- كان جنبلاط مستهدفاً في تلك الفترة.

■ هل من شيء تقوله عن اغتيال داني شمعون؟

- لن أزيد على ما قاله القضاء. خلال المحكمة وقفنا وجهاً لوجه داخل القاعة. أنا وسمير جعجع.

قرر جعجع أن يستجوبني وأنا قررت خلال الاستجواب أن أحترم موقع الضعف الذي هو فيه. حين سألني القاضي ماذا تعرف عن عملية اغتيال داني شمعون، أدليت بما أعرفه وهو بمجمله ما ظهر في الصحف. قرر جعجع القيام بخطوة متقدمة واستنطاقي، وتعلمت الآن أن القانون يسمح للمتهم بذلك، وحاول أن يضعني في موقع المتهم. أنا كنت أفكر في تفادي المثل القائل: وقعت البقرة وتكاثر السلاخون. وصل به الأمر إلى حد القول إن العناصر «القواتية» التي نفذت العملية حرّكتها أنا، هذا كثير.

■ هل كان هناك شعور خاص عندما تبادلتما النظرات في المحكمة؟

- أنا لم أكن أحب حصول هذا الموقف، على رغم العداوة الكبيرة لم أشعر بكره. كان همّي أن أخرج من المحكمة، طريقته في المواجهة أو الخداع ذكرتني بطريقته القديمة.

■ ماذا تقرأ عادة؟

- تاريخ المنطقة القديم والحديث. أقرأ عن الأديان وكتباً فلسفية.

■ والرياضة؟

- غطس وتمارين وتزلج.

■ **هل تحمل مسدساً؟**

- أنا لم أحمل سلاحاً منذ ١٥ عاماً.

■ **لا مسدس قرب سريرك؟**

- لا سلاح في منزلي ولا أشتري لابني لعباً على شكل مسدسات أو بنادق.

■ **ابنك يحب فيك صورة الوزير أم المحارب؟**

- لا يعرف صورة المحارب ولا أريده أن يعرفها.

■ **ما هي أجهزة الاستخبارات التي كانت ناشطة يوم كنت في الشرقية؟**

- «جهاز أمن المندوبين» و«جهاز أمن ١٧» وكل الأجهزة التابعة لمنظمة التحرير وللأحزاب والقوى المسلحة المختلفة إضافة إلى جهاز المعلومات في «القوات اللبنانية» وجهاز الاستخبارات العسكرية التابع لأركان «القوات» وأجهزة مخابرات الدولة على اختلافها، كانت هناك عشرات الأجهزة الأمنية والمخابراتية. نحن أسسنا جهاز المعلومات واستخدمنا كتاباً للمسؤول الفلسطيني «أبو الزعيم» اسمه «المخابرات العسكرية» لتدريب عناصرنا عليه.

■ **ألم يكن لاستخبارات الجيش اللبناني دور في تنظيمكم؟**

- لا. رأينا أن أي فريق محلي سيدربنا سينجح في اختراقنا.

■ **استفدتم من خبرات غربية؟**

- نعم من خبرات معظمها أوروبية.

■ **تبادلتم معلومات مع «سي. آي. أي»؟**

- لا، كان التبادل مع أجهزة أوروبية غربية.

■ **هل حذرك والدك جوزف من الانخراط في الحرب؟**

- كان والدي ضد الانخراط في الأحزاب. والدي طيب بأطباعه، لم يدخل في خلاف مع أحد طوال عمره وهو متدين.

■ **هل أعطيتم الجنرال ميشال عون أسلحة أو ذخائر أم وقوداً فقط؟**

- لا أسلحة ولا ذخائر. والوقود لم يكن له. حصل نقص في المنطقة فطلبنا السماح بمرور المازوت لتسهيل أمور الناس.

■ **هل هناك شخصية أثرت فيك أكثر من غيرها؟**

- الإسكندر المقدوني. كانت تجربته مهمة ولافتة. اخترع اليونان الديموقراطية ووصلوا إلى درجة الانتفاض على الآلهة وتغيير طبيعتها فصار إله الانتقام إلهاً للخصب. الغلبة كانت للمنطق والديموقراطية والفلسفة والحكمة والشعر. الإسكندر قاد أنصاره بهذه الأفكار ودخل الشرق حيث اصطدم بالعالم الفوقي. أهم تجربة له كانت مع الفرس الذين رفضوه ملكاً عليهم، على رغم انتصاره، إلا إذا ارتقى إلى مستوى الألوهية. هذا يدلك على طبيعة هذا الشرق الذي سيستمر في تحدي نفسه خائفاً من التحدي الديموقراطي.

■ جاء إيلي حبيقة من الحرب، هل يصلح المحاربون لزمن السلام؟

– بإمكاني الكلام على إيلي حبيقة الذي يشترك مع أبناء جيله في تجربة الحرب. كُتب على هذا الجيل أن يجد نفسه فجأة في بلاد مهددة وممزقة وأن يشعر بالخوف العميق. خوف على الحاضر وخوف من المستقبل، فيما الدولة مفككة والأحزاب والمنظمات اختارت طريق الاحتكام إلى السلاح دفاعاً أو هجوماً. طبعاً لم تكن الحرب نتيجة حادث معين أو احتكاك عابر. كانت هناك تناقضات وتراكمات وظروف محلية وإقليمية ودولية. واختلفت ردود فعل أبناء الجيل الذي نتحدث عنه. هناك من اختار الهجرة وهناك من اختار انتظار نتائج الحرب وهناك من شارك فيها. أنا مثل كثيرين من أبناء جيلي ساهمت فيها مساهمة مباشرة ولم أعش على هامشها.

ربما من السهل بعد انتهاء الحرب القول إنها كان يجب ألا تقع. وربما من السهل انتقاد الكثير من الممارسات التي رافقت الحرب. لكنني أعتقد بأن السؤال الأهم يبقى هو كيف نبني السلم ونضمن عدم تجدد الحرب لئلا يكتب على أجيال اخرى أن تقدم الشهداء والمعوقين والمهجرين والأيتام.

جيلنا لم يكن مسؤولاً عن انزلاق البلاد إلى الحرب، ففي بدايته لم يكن في موقع القرار السياسي أو العسكري. الحرب فرضت نفسها على هذا الجيل واندفع فيها من مواقع مختلفة ومتناقضة. هذا قاتل من أجل السيادة وذاك من أجل التغيير وثالث خوفاً على طائفته أو منطقته. أنا دخلت الحرب لسبب وطني وانطلاقاً من إيماني بلبنانيتي أي بهويتي. تولّد لدي إحساس بأن الهوية مهددة ويجب الدفاع عنها، وكنت أرى آنذاك أن الخطر يأتي من الوجود المسلح

للمقاومة الفلسطينية على أرضنا ورفضه الخضوع للقوانين اللبنانية.

ومرت سنوات قبل أن أبدأ بملاحظة أن المشكلة ليست فقط بيني أنا المتمسك بهويتي، وبين الفلسطيني المتمسك بسلاحه بل هي أكثر تعقيداً. هناك المشكلة الطائفية ومشكلة الهوية القومية. والحقيقة أنني كنت لا أدري الفارق بين الكيانية اللبنانية والقومية العربية. يجب أن نعترف بأننا لم نكن نعي تماماً تعقيدات التركيبة اللبنانية وتشعبات الواقع اللبناني.

أحياناً تجبر الهزائم القائد العسكري على إعادة تقويم خططه. وأحياناً تجبر الخيبات والهزائم المقاتل العادي على طرح أسئلة لم يكن يطرحها من قبل. أسئلة عن جدوى الحرب وواقعية الأهداف وهل هناك وسائل أخرى للخروج من المأزق. هذه الأسئلة تؤدي إلى هز قناعات وترسيخ أخرى، كأن تدفعك إلى الخروج من المتراس لمواجهة الآخر ومحاولة التعرف إليه أكثر والبحث عن نقاط اللقاء. تدفعك إلى قراءة أوسع للمشكلة والحلول. طرحت الحرب عليّ هذه الأسئلة كمقاتل عادي وكمسؤول وكان خياري سلوك طريق السلام، وقد سلكته. ولهذا أرى نفسي اليوم صالحاً لزمن السلم وها أنا شريك فيه.

■ متى أطلقت الرصاصة الأولى مشاركاً في الحرب؟

- في ١٩٧٠ كنت تلميذاً في مدرسة الأخوة المريميين ولم تكن لديّ أي أفكار حزبية. كان لديّ منذ الصغر حس بالمواطنية. أحب الجيش ورؤية العسكر. مشاعر تنميها التربية المنزلية. كنت أسافر لزيارة والدي الذي يعمل في الكويت فأشعر بالفخر إذا رأيت الأرزة اللبنانية على متجر أو في «فرن الأرز» مثلاً. وإذا سمعت

فيروز أشعر بالانتماء، ولكن من دون أن أكون فريقاً في الصراع.

في تلك السنة توفي الرئيس جمال عبدالناصر وحصلت أمامي حادثة استفزت مشاعري. حدثت تظاهرات إثر وفاة عبدالناصر بينها واحدة نظمتها حركة «فتح» وانطلقت من النبعة إلى البرج مروراً بالجميزة حيث كنت أقيم. شاهدنا البزات الخضر وفرحنا للوهلة الأولى برؤية السلاح. لكن استوقفتني رؤية بعض المتظاهرين ينهالون بالضرب على دركي لبناني شاء حظه العاثر أن يكون في الطريق الذي سلكته التظاهرة. وفي طريق العودة تحولت التظاهرة إلى أعمال شغب. وأذكر أن المتظاهرين حطموا بلا سبب مدخل البناية التي نسكنها وأحدث ذلك ذعراً لدينا ولدى أبناء المنطقة الذين تعرضوا لممارسات مشابهة. كانت هذه الممارسات موضوع الحديث في المدرسة في الأيام التالية. وقال لي أحد رفاقي: «ما حصل خطير ولبنان سيطير. نحن طلاب الكتائب نعقد اجتماعات دورية في بيت الكتائب، لماذا لا تجيء وتشارك معنا إذا أعجبك الجو؟ نحن برنامجنا دعم الدولة والجيش».

هكذا ذهبت إلى اجتماعات خلية طلاب الكتائب. كنت صغيراً في السن ومتحمساً، خصوصاً عندما أقتنع. كان الجو أن لبنان معرض للخطر وأنه سيزول إذا لم يتحمل اللبنانيون مسؤولياتهم.

وجعلتنا الأجواء الملبدة في لبنان آنذاك نزداد اقتناعاً بما نسمع عن أخطار محدقة بالكيان اللبناني.

بعد أحداث أيلول/سبتمبر ١٩٧٠ في الأردن انتقل المسلحون الفلسطينيون إلى لبنان وتحولت المخيمات معسكرات وراح وجودها الفعلي يمتد فيما البلاد تعيش أجواء صدامات ١٩٦٩ وذيولها

و«اتفاق القاهرة» وعدم تقيد الجانب الفلسطيني بما جاء فيه. في مناخ المخاوف هذه طرح في الكتائب مشروع تكوين قوة كوماندوس تكون رمزاً للقوة والعنفوان والاستعداد للتضحية، وكان شعارها مؤلفاً من سيفين وأرزة كتائبية، وبدت كأنها اقتداء بمغاوير الجيش. انضم بشير الجميل إلى الفصيلة الأولى وتم اختياري للالتحاق بالفصيلة الثانية ربما لأنني كنت شقياً أكثر من اللازم في خلية الطلاب. بعد شهور حصل صدام ١٩٧٣ بين الجيش اللبناني والمنظمات الفلسطينية فزادت الأجواء تشنجاً. وفي ١٩٧٤ شاركت في أول معركة حصلت بين الكتائب و«فتح» في رأس الدكوانة وتل الزعتر، لكننا كنا هناك حرساً.

■ **أين كنت في ١٣ نيسان/أبريل ١٩٧٥ وماذا فعلت؟**

- في تلك المرحلة كنت أعمل موظفاً في البنك خلال النهار وأدرس ليلاً العلوم المصرفية والتجارية ونتابع التدريبات العسكرية في مجموعة كوماندوس اسمها الـ «ب.ج» (الحروف الأولى من اسم بيار الجميل مؤسس حزب الكتائب). كان عمري ١٨ عاماً فأنا من مواليد أيلول/سبتمبر ١٩٥٦. في ذلك النهار كنت مع عدد من الرفاق نسبح في مسبح «الريفييرا» في الأوزاعي عندما أبلغونا أن جوزف أبي عاصي قتل في عين الرمانة وأن اشتباكاً حصل مع مجموعة فلسطينية (حادثة البوسطة). توجهنا فوراً إلى البيت المركزي حيث أُعلن الاستنفار وقيل لنا: اجمعوا سلاحكم.

بالنسبة إليّ السلاح هو بندقية من نوع سلافيا اشتريتها بـ ٦٥٠ ليرة دفعتها بالتقسيط من راتبي في البنك. في تلك المرحلة لم نكن نشعر بأننا حالة مستقلة عن الدولة، بل كنا نرى أنفسنا فريقاً

داعماً للجيش اللبناني الذي شارك في ١٩٧٤ في إيصال أسلحة وذخائر إلى الكتائب لشعوره بأن الكتائبيين سيكونون إلى جانبه في أي مواجهة مع المنظمات الفلسطينية.

المهم أننا التحقنا في ١٣ نيسان/أبريل ببيت الكتائب المركزي في الجميزة وأحضر كل واحد البندقية التي كان قد اشتراها على حسابه. أعلنت حال الاستنفار. وتزايد التدهور السياسي الذي انعكس لاحقاً اشتباكات وجولات. الحقيقة أننا لم نشعر في ١٣ نيسان/أبريل بأننا في بداية حرب طويلة إذ كنا نعتقد بأن الأمور ستنتهي في غضون شهر أو شهرين.

■ هل ضمت مجموعات الكوماندوس أشخاصاً تولوا لاحقاً مواقع قيادية في «القوات اللبنانية»؟

- نعم ضمت فؤاد أبو ناضر وفادي افرام وأنا والياس الزايك (الذي اغتيل لاحقاً).

■ كنت مقاتلاً في «حرب السنتين»؟

- كان مركز عمليات مجموعتنا في الأسواق التجارية وأذكر أن فؤاد أبو ناضر أصيب في يده في شارع الحدادين. نفذنا صباحاً أنا وفؤاد عملية عسكرية. وليلاً كان يتفقد مراكز الحراسة، أطلق مقاتل كتائبي النار عليه خطأً وأصابه في يده. قاتلنا في الأسواق وفي معركة شكا وفي تل الزعتر، لكن أرض عملياتنا كانت في الأسواق والفنادق. كنا رأس الحربة كلما سقطت منطقة نستدعى على عجل. كنا نعمل بصورة متواصلة ولا ننام إلّا من شدة الإعياء. أُصبت إصابات عدة لكنها جاءت خفيفة.

■ **بأي شخصية سياسية تأثرت في تلك المرحلة؟**

- أقسمت اليمين الحزبية في ١٩٧٣. كان بيار الجميل هو الرئيس الرمز وكنا نعدّه قديساً ونظيفاً ونرى فيه تجسيداً لعنفوان المواطن اللبناني وكرامة الوطن. كان الواحد منا إذا أقسم بحياة الشيخ بيار وشرف الكتائب يشعر بأن القسم نهائي وملزم أياً كان الثمن. وفي مرحلة لاحقة صار بشير هو الرمز خصوصاً حين رفض التقليديين.

■ **هل لديك شعور بأنك كنت وجيلك ضحية حرب لم تصنعوها؟**

- نعم. لكن هذا الإحساس لم يكن موجوداً لدينا آنذاك.

■ **والآن؟**

- عندما بدأت الحرب كانت المخاوف طاغية. كان الواحد منا يشعر بأن عليه أن يقاتل دفاعاً عن بيته وعائلته وجيرانه. كلما سقطت بناية في الأسواق التجارية كنت أشعر بأن التهديد يقترب من بيتنا في الجميزة. يجب ألا نخفي الحقائق. الحرب فرضت منطقها على جيلنا ولم تترك مجالاً للسياسة وأسئلتها. كانت لدينا قناعة كاملة بما نقوم به وكنا على استعداد للموت من أجل أهدافنا وكنا نواجه خطر الموت مرات ومرات. تصوّر أن الواحد منا كان يخجل أن يأخذ استراحة حتى ولو هدّه التعب. وكنا نعدّ من يسافر جباناً وأنه تخلّى عن القضية. وعملياً كنا ننبذ هذا النوع من الناس. المرة الأولى التي بدأت الأسئلة السياسية تراودني كانت في ١٩٨٢.

■ **متى بدأت الصعود في الماكينة العسكرية؟**

– سنة ١٩٧٦ تشكلت «القوات اللبنانية» على الورق. في تلك السنة أوقفنا القتال بعد دخول الجيش السوري. ذات يوم اتصل بي فادي افرام وفؤاد أبو ناضر وقالا إن بشير الجميل يفكر في إنشاء مدرسة كوادر لضباط الكتائب وليس هناك من هو أفضل منك لهذه المهمة. وجدت الأمر حينها شرفاً عظيماً. وتبين لي لاحقاً أن المنصب عرض عليهما، لكن الأول كان يتابع دراسة الهندسة والثاني الطب فألقيا الحمل علي. كنت متحمساً ولم أفكر في وظيفتي أو دراستي. ذهبت إلى الأشرفية والتقيت الشيخ بشير. عرض علي الفكرة فقبلت.

أُعطيت مركزاً لبناء مدرسة الكوادر في المجلس الحربي وكان لا يزال على الشكل الذي تركته الدولة مثل كرنتينا. يومها أعطوني ١١٠ مقاتلين جاؤوا بهم من مختلف المناطق لإخضاعهم لدورات عسكرية. في ١٩٧٧ توليت أمر هذه المجموعة وبدأت الاستعانة بضباط من الجيش اللبناني كانوا يحبون بشير ويمشون في خطه. وبدأنا العمل.

طرحت فكرة دعم الضابط سامي الشدياق الذي كان موجوداً في عين إبل ولديه مشاكل. طُلب مني الذهاب إلى الجنوب لمساعدته فأخذت المجموعة وذهبت. بقينا ستة أشهر وكان اسمي خلالها «إدوار». اختلفت مع الإسرائيليين هناك وقصفت على إسرائيل بالدبابة فقالوا لي وجودك في الجنوب غير مرغوب فيه فرجعت إلى جونيه.

في ١٩٧٨ استدعيت مجدداً إلى الجنوب وحين عدت منه عينت في منصب مفوض جبل لبنان في المجلس الحربي الكتائبي الذي

كان بشير قد بدأ يحاول تأسيس نهج احترافي فيه وهو ما لم يفعله سلفه وليم حاوي. ذهبنا إلى الجنوب كما قلت وكنا نحو ٣٠٠ عنصر، وقيل إننا سنشارك في عملية، إلا أنها لم تحصل ولم نشارك، وعدنا. بعد أشهر حصلت معركة الأشرفية التي سميت حرب المئة يوم وكان سببها توقيف بشير الجميل على حاجز سوري واعتقاله وما استتبع ذلك من ردود فعل.

■ شاركت في «حرب السنتين» في معركة شكا، ما قصة هذه المعركة؟

- كان مركزنا في الأسواق التجارية. أبلغونا أن المسلحين الفلسطينيين اجتاحوا نفق شكا وبدأوا بقتل العائلات ولم يبق إلا مركز واحد في البترون. كنت مقاتلاً ولم أكن في القيادة. يومها اتصل أمين الجميل بابن شقيقته فؤاد أبو ناضر وقال له: «بدي ياكم تأخذوا المجموعة وتروحوا عالشمال». جمعنا أنفسنا وذهبنا إلى موقع في أحد المصانع هناك. كلفنا مهمة أولى هي الذهاب إلى أنفه والقيام بعملية هناك، ثم طلب منا مساندة الهجوم الشمالي في اتجاه أميون فذهبنا إلى عين عكرين وشاركنا في احتلال مواقع عدة في أميون وهناك انتهت مهمتنا وعدنا. بعدها جاء شباب من مجموعتنا، خصوصاً فؤاد وفادي وأنشأوا ثكنة وتعرّفوا إلى سمير جعجع وبدأوا تدريب المجموعات الشمالية أما أنا فعدت إلى بيروت.

■ انتقلت من مقاتل أو مسؤول عسكري إلى عالم الأمن؟

- سنة ١٩٧٨ حصلت حرب المئة يوم وبرزت فيها قائداً

عسكرياً. كنت في المجلس الحربي أقود العمليات وكان المجلس هو المركز الوحيد الذي بقيت فيه قيادة. كان عددنا قليلاً جداً (٣٠٠ عنصر) لم يكن هناك مسؤولون، بشير كان في هذه الحرب أما والده وشقيقه أمين فكانا في منطقة المتن. كان تقريباً في المعركة وحده، ومركزه في شركة الكهرباء، أما مركزي ففي المجلس الحربي. حينها تعرفت إلى ضابط يدعى ابراهيم طنوس (قائد الجيش لاحقاً) كان يساعدنا ويعطينا بعض الخبرات في إدارة العمليات العسكرية لأنه مع كل «شطارتنا» في القتال على الأرض كان هناك فراغ أو فراغات في تفاصيل «الإمرة العسكرية». تميزنا في تلك الفترة أنا ورفاقي ولعلني كنت الأبرز، وعندما انتهت تلك المعارك تسلمت قيادة عمليات المجلس الحربي الكتائبي فأصبحت ما يسمى رئيس الشعبة الثالثة (التنظيم والتدريب والعمليات والإدارة العسكرية).

هنا بدأت بتنظيم الوحدات العسكرية الكتائبية. وكانت الكتائب عبارة عن مجموعة من الميليشيات أقرب إلى الميليشيات الفوضوية منها إلى مجموعات عسكرية، بدأت بإنشاء ما سميناه الوحدات العسكرية وهي تابعة لإمرتنا المباشرة من دون المرور بالإمرة المركزية أو المناطقية التي كانت الهيكلية الكتائبية تفرضها، في حزب الكتائب، رئيس القسم الكتائبي كان هو الذي يأمر مفوض القوى النظامية، والمفوض يسميه رئيس القسم الكتائبي وبالتالي لم يكن الاحتراف موجوداً من الناحية العسكرية.

وعندما تسلمت عمليات تنظيم القوى العسكرية الكتائبية وإدارتها بدأت بتنظيم وحدات لا دخل لها بكل الهيكلية الكتائبية التقليدية، وسميت هذه الوحدات الوحدات المركزية وكانت تأتمر

مباشرة بإمرة المجلس الحربي الكتائبي. في ذلك الوقت كانت بين بشير والمكتب السياسي الكتائبي معركة كبيرة لرفضهم إعطاءه الصلاحيات التي كان يريدها وبالتالي الأرض (القاعدة) التي كان بشير يراهن على تحريكها. لم يكن يملك الإمرة المباشرة عليها، كان يحركها بالعلاقة العاطفية.

عندما بدأنا بإنشاء الوحدات المركزية الكتائبية أصبح للمجلس الحربي طعم آخر، ولون مختلف ووزن في قلب الحزب مختلف كلياً عن وزنه السابق. في تلك المرحلة حصلت مشاكل بين حزب الكتائب والجيش اللبناني، وكان الصراع كبيراً جداً بين بشير والرئيس الياس سركيس ونتيجة هذا الصراع كانت المواجهة بيننا وبين الشعبة الثانية التي كانت بقيادة العقيد جوني عبده.

وصلت الأوضاع إلى حد أننا اكتشفنا خطة لاغتيال بشير عن طريق أحد عناصر «القوات اللبنانية» وهو في الوقت نفسه أحد عناصر المكافحة في الجيش اللبناني، وبالتالي اتهمنا جوني عبده بمحاولة اغتيال بشير في ذلك الوقت. وتبين لاحقاً أن هذا الشخص كان يديره «أبو إياد». وكان اسمه الياس موسى. وكان هذا يمشي حاملاً السيف أمام بشير الجميل في المجلس الحربي أثناء الاستعراضات. عندما اكتشفنا هذه العملية قررنا اعتقال الياس موسى لاستجوابه. ولدى أخذه إلى كسروان للاستجواب أوقفني حاجز الجيش عند نهر الكلب وأخذوني إلى وزارة الدفاع حيث أوقفت ١٤ يوماً وحصلت وساطات انتهت بالإفراج عني. هذه الاحتكاكات التي كانت تحصل دائماً بين الجيش وبيننا هي التي أوصلتنا إلى التعرف إلى ميشال عون.

■ **هذه الحوادث أدت أيضاً إلى مقتل ضابط في الأشرفية؟**

- قزحيا شمعون، وأذكر أن مجموعته من المكافحة (الجيش) كانت آتية إلى منزل الوزير فؤاد بطرس في الأشرفية، فاعترضتها مجموعة من الشباب (القوات) كانت آتية من الأشرفية أو من المجلس الحربي، واختفى قزحيا شمعون، ثم حصلت معارك في عين الرمانة بين لواء الدفاع الأول أو الثاني وفي الحدث بين المكافحة والكتائب.

كان أنطوان نجم، وهو من الهيئة القيادية في المجلس الحربي، قد عرّفنا إلى ضابط اسمه ميشال عون قال عنه إنه يشاركه الأفكار نفسها، وكان نجم يراه من أفضل ضباط الجيش وأكثرهم قرباً إلى مشروع بشير الجميل. وبعد حادثة عين الرمانة استبدل قائد لواء الدفاع بميشال عون لأنه كان قريباً من بشير، وحينها أذكر أن المصالحة تمت بين الرئيس سركيس وبشير.

■ **في تلك الفترة اغتيلت مايا ابنة بشير؟**

- عملية اغتيال مايا ابنة بشير في الأشرفية، كان وراءها نزيه شعيا (كتائبي يعمل لمصلحة أبو إياد) ورزق الله موسى وهو شقيق الياس موسى وشخص ثالث من آل كازازيان، وهذه التفاصيل لم نعرفها ألّا في عام ١٩٨٢ بعد اغتيال بشير. المهم في هذه الحادثة أنه بعد ٣ أو ٤ أيام من العزاء جاء رئيس الشرطة الكتائبية ديب أنستاز وقال لبشير أنا عرفت بالعملية قبل ساعة من حصولها. وجاء رئيس الشعبة الثانية في المجلس الحربي كابي توتنجي وهو قريب لبشير، وقال عرفت بالعملية قبل ١٠ دقائق من حصولها، فامتعض بشير

وقال: «لقد عرفتم بالعملية قبل وقوعها، ومع ذلك وقعت، فهذا يعني أنكم لا تنسقون بعضكم مع بعض. أريد شخصاً ينسق هذا العمل كله. لقد أصبح عندي عسكر وإعلام وعلاقات خارجية ولا ينقصني سوى الاستخبارات. أريد واحداً ينسق عمل هذه الأجهزة الأمنية».

وفي ذلك الوقت اقترحت اسم أحد رفاقي وكان مسؤولاً عن إحدى الوحدات المركزية التي كنا نؤسسها، وكان متعباً من هذه المسؤولية. وقلت له إن هناك مسؤولية تريحك وأنت تنسق بين هذين الجهازين لأن الحاجة ملحة للتنسيق، وهناك حاجة لأن يكون شخص من فريقنا في هذا الموقع. وأبلغنا بشير أن فلاناً وافق على تسلم هذا الموقع، فقال بشير إنه سيجمع الشخصين معاً. لكن الشخص الذي اتفقنا معه نهض وقال لبشير: «أنا غير مستعد لأن أتحمل مسؤولية حياتك»، فغضب بشير غضباً شديداً وقال: «اتفقوا فيما بينكم قبل أن تأتوا إليّ. أنا مش ولد صغير عم تلعبوا معي، ساعة بتقولوا اتفقتوا وساعة ما اتفقتوا».

وكالعادة لم أكن في تلك الأيام أقدر العواقب ولم أكن أخاف، قلت له «ما دام الأمر كذلك فأنا مستعد لتسلّم هذه المسؤولية وأتخلى عن العمليات». وفي ذلك الوقت قررت أن أتخلى، وتخليت عن عملي كمنظم ومدير للعسكر وذهبت إلى شيء غير موجود وهناك اكتشفت أن التجاذب بين الجهازين الموجودين لن يسمح لي بالعمل إلّا إذا أنشأت جهازاً قادراً على استيعابهما. وهكذا كان.

■ **هل تشعر بارتياح في خيار السلام؟**

- خيار السلم ليس سهلاً لعله الأصعب. في السلم لا وجود لانتصارات. إنه تحدٍّ دائم وسط صعوبات كثيرة، خصوصاً في مجتمع كالمجتمع اللبناني لا تزال الخصائص القبلية تطغى على خصائصه الأساسية. السلم في لبنان ليس حالة سياسية وليس نابعاً من ارادة اللبنانيين، إنه حالة مفروضة عليهم. أستطيع القول عن هذه المرحلة إن حرب المدافع التي كانت قائمة لا تزال مستمرة، ولكن بوسائل أخرى، وإنّ منطق الحرب لا يزال قائماً وأي قبيلة تنتصر على أي قبيلة أخرى. في هذه الحرب تستخدم وسائل خطيرة جداً هي وسائل السلطة. ما حدث فعلياً هو أن القبائل تقاسمت ما يسمى الدولة اللبنانية. وهذه القبائل هي الطوائف. شهدت القبائل حروباً في داخلها أفرزت قيادات مسيطرة، لكن الحرب لا تزال مشتعلة. لا تزال هناك محاولات من جانب الذين خسروا موقعهم داخل القبيلة لاسترداد ما كان لهم.

حين نتحدث عن السلم يجب أن نحدد ما هو؟ هل نقصد بالسلم عدم تقاتل القبائل وإيجاد صيغة لتتعايش بوئام، أم السلم هو بناء الوطن اللبناني والدولة اللبنانية والهوية والمواطنية والقانون. إذا كان السلم يعني بناء الدولة فنحن على مسافة بعيدة من هذا الهدف. للأسف يشعر المرء أحياناً بأن ثمة تراجعاً في هذا المسار. أما إذا كان المقصود هو كيف تنتصر قبيلة على قبيلة بوسائل سلمية فهذا الصراع مستمر. والمقصود بالوسائل السلمية هنا المال والسلطة والقوانين والمراكز والتعيينات والاقتصاد وكيف يمكن تحويله من قبيلة إلى أخرى. هذا هو الواقع الذي نعيشه.

تسألني إذا كنت مرتاحاً في السلم، وأردّ بأننا لم نبلغه بعد بمعنى بناء الدولة. ويخيل للمرء أحياناً أننا نعيش إحدى الصيغ الجديدة

في الحرب الأهلية اللبنانية.

■ **أنت وزير في الحكم، لماذا لم تقم دولة المؤسسات التي يتغنى المسؤولون بها؟**

- دولة المؤسسات لم تبنَ. الدولة لا يمكن أن تكون حالة مستقلة عن الوطن. الدولة هي تجسيد للروح الوطنية. وإذا كانت المواطنية إحساساً أو مبدأ أو شعوراً فإن الدولة هي التجسيد لهذا الشعور وتبدأ بالقوانين المشتركة التي ترعى المجتمع ووسائل تعاطي المواطنين فيما بينهم. ليس هناك وطن بعد لتكون هناك دولة. هناك مجموعة أوطان. الدولة التي نتكلم عنها اليوم ليست الدولة اللبنانية. يمكن أن نسميها الدولة المشتركة بين الأوطان اللبنانية أو الأوطان المتعايشة على ما يفترض أنه جغرافية الوطن اللبناني. الدولة عملياً هي المؤسسة المشتركة لإدارة شؤون هذه الأوطان.

■ **هناك حديث متزايد عن الفساد؟**

- أكيد. الفساد ليس فساداً شخصياً أو فردياً. الفساد هو أحد الأسلحة المعتمدة لنصرة هذا الفريق على ذاك أو هذه القبيلة على تلك. من هو الفاسد ومن هو المفسود في هذه الدولة. إنه الإنسان المدعوم ولولا ذلك لطاله القانون وتعرض للحساب. وهو مدعوم لأنه يمثل أحد الجنود أو إحدى القيادات في هذه المعركة القبلية. إذا كان من طائفة معينة ويعمل لمصلحة قائدها، فمن المسموح له أن يخطئ وأن يرتكب أعمالاً غير صحيحة. الفساد في لبنان ليس فساداً أخلاقياً بقدر ما هو إحدى الوسائل التي تمكنك من تخطي القوانين لنصرة فريق على آخر.

■ **هل تعتقد بأن العلاقات المميزة مع سورية تحول**

دون قيام دولة لبنانية جدية؟

- لا، ما يمنع قيام الدولة اللبنانية هو المنطق القبلي السائد. العلاقات المميزة يفترض أن تعزز فرص بناء الدولة لأنها تساعد في إيجاد مناخ من السلم والاستقرار. هذا المناخ يسمح للفريق الراغب في التغيير، أي الانتقال من الأوطان إلى الوطن، بالعمل من دون المرور في حروب وصراعات وخضّات. لا أعرف إذا كان الانقسام موجوداً دائماً في تاريخ اللبنانيين. وحتى لو كان حقيقة تاريخية، موضوع الانقسام والفردية ووضع القانون في تصرف الأقوى ومنطق الانتصار على الأخ، فإن اللبنانيين عانوا على مدى ١٥ عاماً من المآسي. عانوا منها أيضاً في ١٨٦٠ و١٩٥٨ وحان أن يخرجوا من هذه الحالة وقد جاءتهم ظروف عدة لبناء شيء ثابت لا تهزه المسائل الفردية والطموحات الصغيرة.

التدخل السوري للجم الجنون اللبناني إيجابي، وكم كان مفيداً لو أن اللبنانيين عرفوا كيف يستفيدون منه لو كان هناك مخطط لبناء الدولة. يتحدثون عن الطائف ولنعدّه مشروعاً إصلاحياً. والحقيقة أن النواب اللبنانيين أقروا الاتفاق لكن كثيرين كانوا يرون أن ترجمة بنود الاتفاق قابلة للاجتهاد وتحويلها لخدمة هذه القبيلة أو تلك. ما جرى بعد وقف المدافع شهد الكثير من التكاذب أو المناورات وصارت المسألة أي قبيلة ستنتصر ومن سينتصر داخل القبيلة على اخوانه فيها. بدلاً من الإفادة من الاستقرار الذي وفرته سورية حاولوا الافادة من السلطة ومن النفوذ السوري لترجمة كل ذلك في معاركهم الداخلية ضمن القبيلة أو لتعزيز موقف قبيلتهم في مواجهة القبائل الأخرى.

■ **أفهم أنك تحمّل المسؤولين اللبنانيين مسؤولية قيام**

إدارة سورية شبه يومية للشأن اللبناني؟

- نعم. على رغم أن السوريين يحاولون في فترات ترك الأوضاع اللبنانية لتحلحل نفسها بنفسها. لكنهم يلاحظون بعد فترة أنها تزداد تعقيداً فيضطرون إلى التدخل. آخر مثال على ذلك أن لبنان قائم على ثلاثة رؤساء يُعزف النشيد لكل واحد منهم، لا يجتمع اثنان منهم بعد قطيعة شهور إلا إذا جاء مسؤول سوري لجمعهما. طبعاً ليس هو سبب الخلاف ولم يضع الزيت على النار بينهما. لقد حاول من بعيد أن يصالحهما لكنهما قررا ألا يتصالحا فاضطر إلى التدخل شخصياً ومباشرة لجمعهما.

■ **وضعك العائلي؟**

- متزوج من جينا ناشاتي ولي ولد اسمه جوزف.

■ **حين تحدق في ابنك هل تخشى أن يتحول محارباً ذات يوم وتتكرر المأساة مع جيله؟**

- نعم لديّ هذا الهاجس وهذا ما يجعلني مستمراً في المواجهة أي في العمل السياسي. في كثير من الأحيان يصل المرء إلى حالة من الرفض والثورة على الذات والقرف من الأوضاع السائدة. يجد أن إمكانية التغيير قائمة لكنه يصطدم بعقبات سخيفة لا يمكن تخطيها. هذا يدفعني إلى الخوف ليس على ابني وحده بل على مستقبل كل الجيل الذي ينتمي إليه. أخاف أن ينجرف ابني كما انجرفت أنا. الموقف الفردي لا يستطيع مقاومة التيار حين يشتد ويطغى.

أنا وضعت ابني في مدرسة غير دينية وفي منطقة غير مسيحية

لتكون تربيته مختلفة عن التربية التي تلقيتها، وليتعرف إلى لبنانيين من لون طائفي أو مذهبي آخر ويتصادق معهم. أحياناً ألاحظ، على رغم ذلك، أنه يطرح أسئلة عن الآخر المنتمي إلى دين آخر، وأرد عليه أنه التلميذ الذي يجلس قربك في الصف. أخاف من ضغوط الجو القبلي ولا أريد أن يفعل ابني ما فعلته أنا وأن يكرر تجربتي. يجب أن نتعلم من التجربة بدلاً من أن يكرر كل جيل تجربة سابقه ويدفع الثمن. جيلنا دفع غالياً. قتل كثيرون وجرح كثيرون وأصيب كثيرون بعاهات دائمة. إنها مسؤوليتنا نحن ألّا نترك لأبنائنا وضعاً ينذر بتحولهم إلى محاربين متقاتلين.

أنا دخلت الحرب وكان عمري ١٧ عاماً. لم أدخل لأنني من فئة اجتماعية معدمة واندفعت في ثورة على وضع استغلالي. أنا من عائلة متوسطة الحال قادرة على العيش في شكل طبيعي. ولم أدخل الحرب لأنني مصاب بعقد نفسية أريد تفجيرها. أنا ورفاقي كنا في المدارس والجامعات. دخلنا الحرب لأن مناخ الخوف والقلق على المصير أوجد تياراً طائفياً واسعاً وطاغياً لم نستطع البقاء خارجه فجرفنا. هذا التيار لم نخلقه نحن. إنه موجود منذ أيام الاستقلال وربما قبله لكنه انفجر على أيامنا وفي وجه جيلنا وأخذنا. لم تنفجر الأوضاع بسبب وجود زعران على الأرض، السبب أن الذين أنشأوا النظام أداروه بطريقة تنجب الانفجار والمتقاتلين. ما أحلم به هو ألّا تتكرر التجربة وأنا لا أحب أن أرسل ابني إلى الخارج ليدرس ويبتعد عن محيطه وليس ذلك من حقي فماذا عن أبناء الآخرين ومسؤوليتنا تجاههم؟ نحن نعرف سلبيات التجربة التي عشنا مراراتها، ولهذا السبب قد نكون الأقدر على البحث عن دواء.

مع زوجته جينا في مهرجان حزبي



حبيقة يصافح كميل شمعون وبدا ميشال المر والياس الهراوي

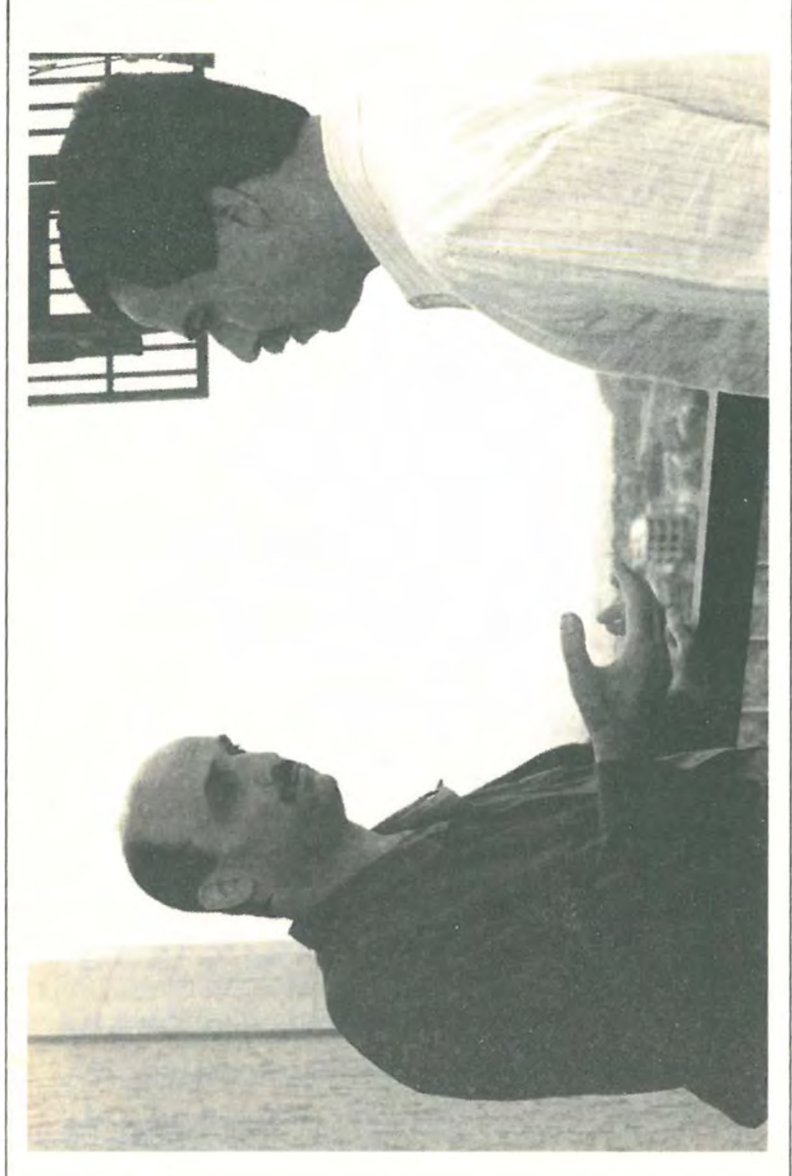
حبيقة في إهدن مع الرئيس سليمان فرنجية والدكتور جورج سعاده



وزيراً مع الرئيس إلياس الهراوي



حبيقة والوزير سليمان فرنجية في خلوة وزارية



سمير جعجع

تذهب الحرب ويبقى المحاربون. يذهبون إلى سلام لا يعكس انتصاراتهم ولا يبنى على هزيمتهم. سلام يتسع لهم من دون أن يشبههم. سلام يصلح لهم، فهل يصلح المحاربون للسلام؟

تذهب الحرب ويبقى المحاربون. فماذا يفعل السلام بهم؟ وهل يبنى بحطامهم وحطام حروبهم؟ بالذاكرة المثقلة والخيبات، أم بالمراجعة والرجوع إلى الثوابت وجاذبية النموذج الشرعي؟

إنها كيمياء المعادلة اللبنانية. لا تتسع لوهج الانتصارات الكاملة، ولا تتسع لمرارات الهزائم الساحقة. إنها هذا المزيج من الثوابت، مع الاعتراف بالمتغيرات. لقاء بين الواقعية وشيء من الأمر الواقع.

تنتهي الحرب وتبقى حاضرة في المحاربين. في ذاكرة الأيام الراعبة والدم المتروك على المتاريس. في مشاعر من ذهبوا إلى النار وعادوا. وفي ذكرى من أكلتهم النار وحولتهم إلى صور على

الحيطان يهجرها الشتاء كلما تكرر، وإلى حرقة في قلوب أمهات ينتظرن أولئك الذين لن يرجعوا أبداً.

جاء المحاربون من المأساة، ومددوا إقامتهم. جاءوا من الخوف الكبير، أو من وهم الانتصار الكامل. توزعوا على المتاريس، واستدرجتهم دورة الموت. قاتلوا واقتتلوا وقتلوا. أحبوا بعض المدينة ضد بعضها الآخر. وعشقوا شارعاً ضد الشارع المجاور، سقطوا دفاعاً عن شبر أو شرفة أو بناية. دافعوا عن الحدود الجديدة، وتناسوا الحدود. لكن الأوطان لا تبنى بالعشق الناقص. تتطابق مشاعرك مع خريطة الوطن أو تتحول فيه قاتلاً وقتيلاً.

ليسوا غرباء البتة. ولم تسقطهم المظلات. طلعوا من التاريخ الرجراج وصعوبات الجغرافيا. ذهبوا إلى حروبهم وانزلقوا إلى حروب أخرى. إلى حروب أكبر منهم.

لا يُصنع السلام ضدهم. يحتاج الغد إلى دمهم الحار. قبل أن يتحولوا إلى مأساة في الوطن كانوا مجرد أبناء لمأساة دولة ووطن. ألم يقتلهم الكبار أولاً حين أورثوهم دولة عاجزة لا تستحق التسمية؟ دولة لم تذهب إلى الحرب على حدودها، فاندلعت الحرب بين ضلوعها. دولة تنازلت وتنازلت، فصار الوطن ساحة في قاموس بنيه، وقواميس الآخرين. وما جدوى الحديث عما ارتكبوه هنا وهناك؟ أو ليست الجريمة الكبرى هي الانهيار الكبير الذي لم يصنعوه، والذي سهل للمخاوف وصيحات الثأر أن تخرجهم من مقاعد الدراسة إلى الثياب الخضراء وحروب الدفاع والانتصار والانتحار؟

تذهب الحرب. لكن السلام لا يبنى بالنسيان، ولا باعتبار الحرب حادثاً عابراً مهما كان فظيعاً.

لعل منطلق الحرب الجديدة هو تجاهل أسباب الحرب السابقة، وتصويرها وكأنها شبيهة بخروج قطار عن خطه وأنه تكفي إعادة العربات إلى الخط ليرجع السلام. حين أبرم البرلمانيون اللبنانيون اتفاق الطائف في تلاقٍ للإرادة اللبنانية مع قرار عربي ودولي بإحياء المؤسسات الشرعية في لبنان، شعرت بأن الحرب انتهت أو تكاد، وأن أي حروب جديدة لن تكون أكثر من حروب الساعة الأخيرة. وتساءلت عما سيقوله أي لبناني لأطفاله حين تنكفئ المدافع إلى الحفر، ويأكل الصدأ بنادق القناصة.

وكصحافي شعرت بأن بدايات السلام تتيح فرصة كتابة قصة الحرب. والسلام يبدأ بالرجوع من الحرب والتراجع عن أوهامها، أي بالقراءة العقلانية الهادئة، وهي الضمانة لعدم الوقوع مجدداً في منطقها المجنون.

كتب الكثير في هذه الحرب وعنها. لكن معظمه كتب على نار حامية أو من هذا الجانب أو ذاك من خطوط التماس. وكتب الكثير بمنطق الحرب وقاموس الحرب، فبرر ارتكاباتها وصفق لمجازرها. وتساءلت في نفسي لماذا لا نحاول تنشيط ذاكرة كبار اللاعبين وكبار المحاربين ليكتبوا بأنفسهم تاريخهم وتاريخ الحرب. وكنت أدرك سلفاً أن في رواية كل واحد منهم ما يحتاج إلى التدقيق أو التصويب وأن الصورة لا تكتمل إلا بتعدد الروايات والأصوات والمواقع. وهكذا بدأنا محاولة قراءة قصة الجمهورية المقيمة على خط الزلازل، وابتداءً من الأحداث الحارة التي أعقبت إبرام الاتفاق، أي من حروب الشرقية وعلاقتها بمصير الجمهورية.

لماذا سمير جعجع؟

عندما توصل البرلمانيون اللبنانيون إلى اتفاقهم في الطائف، وغاب

العماد ميشال عون عن اللقاء الأخير، قال لي رئيس سابق للحكومة: من الآن فصاعداً راقب سمير جعجع. سألته عن السبب، فأجاب: يبدو أنه أدرك حجم القرار العربي والدولي. فقلت له: والعماد عون؟ فأجاب: آمل أن لا يحاول اعتراض القطار. وعندما انتخب الرئيس الراحل رينيه معوض رئيساً للجمهورية في ٥ تشرين الثاني/نوفمبر، قال لي سياسي لبناني في باريس إن جعجع حاول عبثاً إقناع الجنرال بترك القصر للرئيس المنتخب. وعندما اندلعت حرب الشرقية في ٣١ كانون الثاني/ يناير عام ١٩٨٩، بدا واضحا أن «القوات اللبنانية» التي يتزعمها الدكتور سمير جعجع اختارت السير في اتفاق الطائف، وأن العماد عون يحاول «معالجة الاختراق». وقد تأكد ذلك لاحقاً، فبدأ الحوار بين «القوات» ودمشق، ووافقت «القوات» على الانسحاب من بيروت الكبرى. واستعدّت الشرعية اللبنانية لإشراك قادة الميليشيات الثلاث الكبرى في الحكومة الوفاقية، أو على الأقل من يمثلهم.

وتساءلت في نفسي عن السبب الذي دفع هذا الرجل الذي شارك في كل حروب الشرقية والجمهورية إلى اتخاذ قرار السلام الصعب.

لم تكن تربطني بالدكتور جعجع علاقة سابقة. وعندما اتصلت بأحد الأصدقاء لترتيب الموعد، تمنيت عليه أن يسأل الدكتور جعجع إذا كان الظرف يسمح بطرح كل الأسئلة بلا استثناء. وحين جاء الرد بالإيجاب، توجهت إلى مقر القيادة المؤقت حينذاك في غدراس، وراح الحكيم يتذكر.

حوار طويل امتد ساعات وساعات، تخللته اختلافات في وجهات النظر حول تحديد الكلمات وتسمية الأحداث. حملت إلى

الدكتور جعجع اتهامات خصومه له، وهي كثيرة وهم كثر. وأجاب عنها بلا تردد. فكان هذا الحوار الشامل.

تحدث عن «عملية إهدن» وعن «حرب الجبل» وعن «انتفاضة ١٢ آذار» و«الاتفاق الثلاثي» و«الليلة الأخيرة من عهد الرئيس أمين الجميل» و«حرب الشرقية». وفي نهاية الحوارات الطويلة سألته: هل ستأخذون أنتم والوزير جنبلاط والوزير نبيه بري الدبابات معكم إلى مجلس الوزراء؟ وهل يصلح المحاربون للسلام؟ فأجاب: السلام يكون بين المتحاربين، وهم الأكثر شوقاً إليه. وسألته عن مقدار تأييده للشرعية؟ فأجاب: «مئة في المئة، وكلما سارت متراً سرنا أمتاراً».

وعن اتفاق الطائف قال: «إننا ملتزمون به تماماً، ونطالب بتطبيقه حرفياً، لأن تطبيقه يضمن عدم تجدد العنف».

وماذا لو حصلت خلافات؟ فأجاب: «نحلّها بالحوار، فالمدفع لا يحل المشكلة».

لا يراودني شعور بأنني رجل سيئ الحظ. على العكس تماماً. ربما كانت المرحلة هي مرحلة سوء الحظ العام. إنها أجواء عسكرية وعنيفة. أجواء تفتيت وتقاتل. البلاد بأسرها غرقت في هذا المناخ الذي يفرض مستلزمات معينة على العاملين في الحقل العام. كلنا نعيش في هذا الإطار، وكأن الحرب لم تقع، أو كأنها غير موجودة. وحدهم الذين استقالوا من مصير الوطن ومصير الناس يمكنهم القول إنهم يعيشون خارج هذه الدورة العنيفة. لكن ماذا يفعل هؤلاء، وماذا باستطاعتهم أن يقدموا؟ مجرد استعراض بسيط

للأسماء التي طرحت على الساحة اللبنانية على مدى خمسة عشر عاماً تظهر تماماً أن كل اسم اقترن بحدث عسكري أو بعنف معين، أو بأحداث دولية، باستثناء الذين لم يفعلوا شيئاً. والأمثال كثيرة في هذا السياق. من كمال جنبلاط، إلى سليمان فرنجية، ومن كميل شمعون، إلى بيار الجميل. صحيح أنني بدوت كرجل عسكري، واقترن اسمي بأحداث عسكرية، لكن كميل شمعون كان رجلاً عسكرياً، وبيار الجميل أيضاً، وسليمان فرنجية. وأكثر من ذلك، ثمة مؤسسات دينية ارتبط اسمها خلال الأحداث بأعمال عسكرية وعنيفة، وحتى أسماء شخصيات فكرية وأدبية ارتبطت بمثل هذه الأحداث.

في حرب كهذه الحرب الطويلة تحدد نتائجها مصير دولة ومصير شعب، لا تستطيع الوقوف على الشرفة والتحديق إلى بلادك وهي تحترق. وليس من حقك بالتأكيد أن تتابع من بعيد عبر المنظار. ربما من السهل أن تتغنى بشعار أنك ضد الحرب، لكن هل تقبل أن يصنع المحاربون لك وطناً لا يشبه المواصفات التي لا بد من توفرها في الوطن والدولة؟

مجرد وجودك على هذه الأرض يجعلك جزءاً من هذا الصراع. وهذا الإطار العنفي لا يترك لك خيارات كثيرة. ولكي تنهي الحرب يجب أن تكون قوياً، ولكي لا يكون السلام ضدك يجب أن تكون مشاركاً في صنعه.

للأسف، وفي كثير من الأوقات، نكتفي بالحكم على ظواهر الأمور، ولا نكلف أنفسنا عناء الغوص في أعماقها لاستشراف طبيعتها الحقيقية، ولهذا نخطئ كثيراً. وللأسف أيضاً، وعلى رغم

مرارات الدروس التي أكدتها الحرب، لم نستطع، بعد، امتلاك هذه الروح النقدية التي تساعدنا على تخطي الشعارات لمناقشة الجوهر. على مدى خمسة عشر عاماً والإطار المحيط بالعمل السياسي إطار عسكري وعنفي، ولهذا، فكل أسماء الذين حاولوا إنقاذ الوضع، أو دفعه إلى التدهور، اقترنت بأعمال عسكرية، ولو بدرجات متفاوتة. ولهذه المسألة علاقة بالإعلام، وبرغبة المعنيين في توظيف اللعبة الإعلامية، وبقدرتهم أحياناً. ولنأخذ «أحداث إهدن» (١٩٧٨)، والتي كان اسمي أول الأسماء التي ظهرت بعدها. في هذه الأحداث كان هناك عدد غير قليل من العسكريين والسياسيين المعنيين بها. بعضهم أعلى مني رتبة وموقعاً، وآخرون مثلي، وقسم أدنى مني. لكن لماذا لم يبق إلا اسمي من تلك الأحداث؟ السبب بسيط جداً، فكل المعنيين بالعملية جربوا بعدها، بشكل أو بآخر، أن يبرروا حالهم، وأن يظهروا أنفسهم في صورة الأبرياء، وأن يغسلوا أيديهم. فيما كثيرون منهم كانوا سبب القرار. في المقابل، أنا لا أسجل على نفسي سلوكاً من هذا النوع، ولا أسمح لنفسي بمثل هذه الصغائر. أحداث كنا فيها، وبغض النظر عن الصواب أو الخطأ، وعن حسن النية أو سوء النية، لقد كنا هناك. لا يجوز مثل هذا التهرب. على الأقل، رحمة بمن قتلوا معنا، وتعذبوا معنا. أفضل ألف مرة أن يطولك التجني بسبب وفائك لدماء رفاقك، من أن تحصل على شهادة حسن سلوك لأنك تبرأت من دمهم. وأية صدقية تبقى لمن ينكر قراراً اتخذه ويتخلى عن مقاتل أرسله؟ قد تنجح هذه الألاعيب لبعض الوقت، لكنها لا تنجح كل الوقت. من المعيب أن يصل الجبن إلى هذا الحد، وأن يجرب كل واحد أن يدافع عن مصلحته أو صورته. في مثل هذه الشدائد يمتحن الرجال، وتمتحن القيم التي يحملونها، ومدى التزامهم بهذه القيم. أذكر جيداً كثيرين كانوا يسوقون عن أنفسهم صورة

الحمائم، وكأن لا علاقة لهم من قريب أو بعيد، بما جرى. بعضهم حاول استدرار عطف سليمان فرنجية، أو الآخرين من ذوي العلاقة بـ«أحداث إهدن». كثيرون غسلوا أيديهم مثل يوضاس، وحاولوا تبييض صفحتهم.

بصراحة أنا لست من هذه المدرسة. لقد كنت هناك، وأرى أن من الجبن ومن قلة الإيمان والالتزام أن يقوم المرء بعمل ثم ينكر ويجرب أن يغطي العمل الذي قام به. لم أفعل هذا رغم وجود من هم أعلى رتبة مني، وبكثير.

مثال آخر على ذلك. سمير جعجع هو أقل شخص له علاقة بـ«حرب الجبل»، وأقول أقل شخص على أرض الجمهورية. ماذا حصل حينذاك؟ دارت الأحداث ودارت، ثم بدا وكأني أنا المسؤول عما حدث في الجبل. ولأن وقت تسمية الأشياء بأسمائها قد حان، أقول: لقد كنت أول من عارض صعود «القوات» والكتائب إلى الجبل. أكبر المعارضين كنت أنا. أما لماذا كنت أول المعارضين، ثم صعدت إلى الجبل؟ فالمسألة مختلفة. عندما كان القرار سياسياً، كان رأيي ألّا نصعد إلى الجبل. ولكن عندما صعدت القوات والكتائب، وحدث ما حدث، كان لا بد من أن يكون لدى المرء الحد الأدنى من الوطنية، والحد الأدنى من الالتزام برفاقه، وبالناس، وبالأحداث. وسواء أكان القرار صحيحاً أم غير صحيح، فقد بدأت الأحداث.

ومن هذا المنطلق سارعنا لنرى كيف يمكن استدراكها، والحد من الخسائر.

لا أقول إنني كنت ضد الصعود إلى الجبل لأن الوقت مر على

تلك الأحداث، بل لإظهار الحقائق، ولأن هذا الموضوع أثير مرات ومرات. عندما وقعت أحداث الجبل لم أكن سوى مسؤول عسكري عن قطاع الشمال في «القوات». كان هناك رئيس للجمهورية (أمين الجميل)، وقائد للجيش من جهة، وقائد للقوات، ومجلس قيادة لها، وجهاز أمن واستخبارات، وهيئة أركان من جهة أخرى. كان بعد كل هؤلاء يأتي موقعي في سلّم «القوات»، وكمسؤول عسكري فرعي في الشمال. ومرة جديدة لم أحاول أن أتنكر لدماء من سقطوا. لم أحاول أن أبرر ما فعلت، لأني لا أعتقد أنني أضرمت الحرب، أو ارتكبت خطأ، أو أنني أشعر بالخجل مما فعلت. لست من قماشة الذين يفكرون بالنجاة بأنفسهم، أو بتحسين صورتهم على حساب كل شيءٍ آخر. أصحاب هذا الأسلوب لا يستحقون المشاركة في صنع القرارات أو المصائر. لقد فوجئت فعلاً، وعبر هذه السلسلة الطويلة من الأحداث، من «إهدن» إلى «الجبل» إلى «شرق صيدا والإقليم» إلى «انتفاضة ١٢ آذار» وإسقاط الاتفاق الثلاثي، و«حرب التحرير»، و«حرب إلغاء القوات». فوجئت بأن الهم الرئيسي لكبار المسؤولين هو تبرير أنفسهم، وإلقاء تبعة الأحداث على الآخرين.

ماذا حصل بعد حرب الجبل؟ لم يحاول المسؤولون إنقاذ ما تبقى منه، أو إعادة المهجرين إليه، وهما ما كنا نحاول القيام بهما. لقد أمضوا معظم الوقت يخططون لتحميلنا مسؤولية تهمة الجبل، أو جريمة الجبل. فنانون في التهرب والتنصل. وربما كانت هذه موهبتهم الوحيدة. لم أتحدث سابقاً عن هذه الأشياء، ولكن هذه المرة سأحكي. أعتقد أن الوقت حان لدحض الأكاذيب، وتصحيح الروايات. وما سأقوله ليس مجرد رواية، بل هناك ما يثبته، وفي المجلس الحربي محاضر تشهد على ذلك.

عندما طرح موضوع انسحاب الإسرائيليين من شرق صيدا والإقليم، عقدت عدة اجتماعات، كان فؤاد أبو ناضر يترأسها في بعض الأحيان، وفادي أفرام مرات أخرى. كان فؤاد يترأسها بصفته رئيساً للأركان، ثم صار لاحقاً قائداً لـ«القوات». ويومها طرح موضوع الإقليم بشكل جدي وقوي. وكان إيلي حبيقة (رئيس جهاز الأمن والاستخبارات) يشارك أيضاً، وكان من أكثر المتحمسين للبقاء في الإقليم، وللحرب. كما كان يشارك الياس الزايك، ونازو نجاريان، وأسعد سعيد، وسجعان قزي، وكريم بقرادوني، على أيام فادي أفرام، وبوسي أشقر، وأنا، و«عبّاس». وأظهرت الاجتماعات انقساماً: نازو، والياس الزايك، وحبيقة، وبوسي، كانوا متحمسين للبقاء؛ وأسعد سعيد وأنا من أكثر المعارضين لبقاء «القوات» والكتائب هناك. فؤاد أبو ناضر كان متأرجحاً، ولا يعرف ماذا سيفعل. ومن فرط المناقشات الحامية قرروا تشكيل لجنة من أسعد سعيد وأنا ونازو لنزور المنطقة، وندرس الوضع على الأرض. ذهبنا بحراً إلى الجيه (مرفأ عند شمال صيدا) وأمضينا يومين، وعقدنا اجتماعات مع عسكريين ومدنيين في مركز «القوات» في قرية.

استطلعنا الوضع ميدانياً، وعدنا إلى بيروت، وقد تأكدت قناعاتنا السابقة. وفي ضوء ما شاهدته، توصلت إلى استنتاج واضح مفاده أن علينا الانسحاب من هناك، وألّا نبقى دقيقة، ولا في صورة من الصور، وأن نسلم مواقعنا للجيش اللبناني في إطار الخطة الأمنية المطروحة لدى الانسحاب من منطقة نهر الأولي (حدود مدينة صيدا شمالاً). هذا ما كان يحصل، وهكذا كان موقفي. وخلافاً لرأيي، قررت الأكثرية البقاء هناك، ثم جاء لاحقاً من يحمّلني المسؤولية.

«لغم» أمين الجميل وقصة الجنرال

اتخذ القرار، ثم اندلعت الأحداث، وكنت لم أتسلّم بعد المنصب الذي أسند إلي، وهو قائد الوحدات المركزية. وسألت نفسي يومها ماذا علي أن أفعل؟ كنت معارضاً لقرار البقاء، لكنه اتخذ، والاشتباكات بدأت. هل أكتفي بإعلان معارضتي وأتهرب من القيام بأي دور قد ألعبه في تخفيف الخسائر؟ للأسف، جاء لاحقاً من يحملني مسؤولية سقوط تلك المنطقة. بعض الناس لا يستطيعون الخروج من دائرة الحسابات الصغيرة، حتى ولو كانت العاصفة تهدد باقتلاع كل شيء.

ولأن وقت كشف الحقائق حان، أذكّر هؤلاء بأنه خلال هجوم عنيف تمكن المقاتلون الفلسطينيون من السيطرة على رأس قرية «درب السيم»، ولم يكن أمامي غير أن أقود بنفسي الهجوم المضاد الذي نجحنا على إثره في استرجاع مواقعنا، وإبعادهم عن البلدة. الصور موجودة، وبعض من شاركوا في الهجوم موجودون أيضاً. في هذه الأثناء، كانوا يسوقون في الشرقية جملة تضليلات، شارك فيها خصوصاً إيلي حبيقة، وتحت شعار «هذا ما أوصلتنا إليه سياسة سمير جعجع». ولم يكن الوقت وقت كلام، وتصفية حسابات، وفتح جروح، ففضلت السكوت. ولأن الناس لا تلم أحياناً بكل التفاصيل، كان هناك من صدق. طبعاً، باستثناء أهالي الجنوب، وتحديداً أهالي المنطقة المعنية، لأنهم عايشوا الوقائع، وكنّا على اتصال دائم.

أنا سيئ الحظ؟ أبداً، أبداً، أبداً. أنا، وعلى العكس، أعدّ نفسي من أصحاب الحظ الجيد. لكن المرء لا يستطيع أن يختار كل

شيء. فنحن جيل جاءته الحرب في أول شبابه. لقد لفت الأحداث العسكرية والعنيفة لبنان من أقصاه إلى أقصاه، وتركت بصماتها على المؤسسات وتفكير الناس. كثيرون كان همهم الكبير إنقاذ صورتهم، متناسين الدم والتراب وما دفعه الناس. حتى الذين كانت سياساتهم من أسباب انفجار الحرب يحاولون التهرب من مسؤولياتهم، والحديث عن بقائهم خارج لعبة الحرب. لقد هالني فعلاً حجم المسافة بين الواقع والفكرة التي تتشكل في أذهان الناس عنه. بين الحدث وصورته في ذهن الكثيرين. هذا الأمر جعلني أخاف من أي شيء أقرأه في كتب التاريخ؛ لا بل إنه يدفعني إلى وضع علامة استفهام على ما نقرأه. فمن يدري؟ ربما كان كل ذلك لا يعبر تماماً عما جرى. فالخطأ وارد، وكذلك التزوير.

سيئ الحظ؟ لا. لكن الإنسان يقع أحياناً ضحية مجموعة مبادئ، أو قيم يؤمن بها. منذ البداية لم أكن من أنصار الحكي، ورأيت دائماً أن الكلام على ما أعرفه أمر سيئ. لست من هواة اصطياد السلبيات، وتظهيرها، ونقلها إلى الآخرين. ولست من مدرسة الشائعات، ومطابخ الحملات، والتذاكي والتشويه. ربما لا أتحدث عن وجوه إيجابية في شخص ما، وربما تحدثت، لكنني لا أتحدث أبداً عن الجانب السلبي. نظرت دائماً إلى هذه المسألة على أنها بضاعة الضعفاء، يروجون لها في إطار النميمة والحسد. واعتبرت دائماً أنه إذا قيض لهذا الأسلوب أن يحقق نجاحات أو مكاسب، فإنها ستكون عابرة بالتأكيد. التزوير لا يشطب الحقائق، وإن حجبها لبعض الوقت. والدجل لا يمكن البناء عليه. يستحيل أن يحترمك الذين يعملون معك إذا لم يكن خيط الصراحة والوضوح هو ما يربطك بهم.

وحتى خصومك لا يمكن أن يحترموك إلا إذا كان لديك سلّم قيم.

منذ بدء تسلمي لمسؤوليات سياسية، قبل سنوات، رأيت أن علي كمسؤول ألا أنساق إلى الأمراض التي نخرت مجتمعنا وحياتنا السياسية. لا يمكن بناء مجتمع بعقلية النميمة والنفعية والغدر. لم ألجأ إلى التشهير، ولا إلى كشف ما أعرفه. لم أشن حملات، ولم أخطط لتشويه صورة الآخرين. ولا أبالغ إن قلت لك إنني أعرف الكثير الكثير عن المواضيع التي تطرحها. أعرف تحديداً من أطلق كل رصاصة، ومن قتل فلاناً، ومن كان يلجأ إلى إشعال الأحداث كلما هدأت. أعرف كل ذلك، وكنت أرى أن على المسؤول أن يعي ما تعنيه كلمة مسؤولية، وألاّ يستنزف جهده ووقته في الحروب الشخصية والمهاترات، وألّا يكون إظهار الجانب السيئ في الآخرين هاجساً لديه. أعرف أنك ستتهمني بالمثالية، غير أني اعتقدت أن شيوع الاستهتار، وفصل العمل السياسي عن الأخلاق لا يعنيان أن علينا أن نندفع للانخراط في هذه المدرسة.

هذه الحروب الصغيرة على المواقع والأضواء ربما تصلح للأيام العادية، رغم اقتناعي أن معركة البناء في زمن السلم تفترض تماماً ما تستلزمه معركة الدفاع في زمن الحرب. وللأسف، هناك تراث من الممارسة السياسية الساقطة. عقلية دكاكين وسماسرة تنجب هؤلاء المتسلقين الذين لا يترددون في الإقدام على أي شيء، وفي استخدام أي وسيلة لتحقيق مآرب صغيرة ومخجلة. عدم انتمائي إلى هذا التيار الواسع جعلني في موقع الاتهام المستمر. حملات من كل اتجاه، لا تهدأ إلا لتتجدد. من أقرب الأصدقاء إلى أبعد الأعداء. اتهامات، اتهامات، اتهامات. وفي مواجهة ذلك، كنت

أراهن على الرأي العام، لشعوري أنه كان مرتاحاً لما أقوم به. وبكل ألم أكتشف أن الحسّ العام يحتاج إلى مساعدة، وأنه ليس قادراً على الدوام على التمييز نظراً لحجم التشويه المقصود. وهكذا، بدأت بتغيير عاداتي الجيدة - السيئة. بدأت أصوب الوقائع، لا خدمة لشخصي، وأنا ضميري مرتاح جداً، وما يهمني هو حكم الله والتاريخ، وليس حكم بعض السياسيين، والأفراد السطحيين. لهذا قررت أن أتكلم، حتى ولو حمل الكلام بعض السلبيات لبعض المسؤولين والأشخاص الآخرين. لهذا، سنحكي بلا تردد ولا تحفظ. من حق الناس أن يعرفوا ماذا جرى في تلك المحطات التي تسأل عنها. لا يجوز أن يبقى الناس أسرى روايات تفتقر إلى الأمانة أو الدقة. وللمرة الأولى أقول لك سنحكي كل شيء، وبالوقائع والأسماء.

أكيد أن لدي هاجس التاريخ، وربما أكثر مما تعتقد، وأكثر مما يتصور أصحاب الاتهام. أنا أعتبر أن ما أقوم به إنما ينطلق من مسؤولية معينة. وهذه المسؤولية لا بد أن تترجم في الجغرافيا والتاريخ. لهذا السبب يهمني التاريخ. «شو بدو يهمني غير التاريخ؟» المنافع المادية والمناصب والمراكز؟ أكيد التاريخ يهمني. وكون التاريخ يهمني لا يعني أنني أرى نفسي منقذاً. أنا أعتبر الإنسان صغيراً جداً، أي أنه أصغر من أن ينتزع لنفسه مثل هذه التسميات. الإنسان مهم، لكني نسبي جداً. وحيال العالم والكون والأحداث، وأمام قامة التاريخ، يصعب على الإنسان الذي يبدو في صورة قزم أن يعدّ نفسه منقذاً. هذا لا يعني التشكيك بقيمة الإنسان والفرد. لا يراودني أي شك في مسؤولية الإنسان، ولا في قوته وإمكاناته. لكن كل ذلك يجب أن لا يغرقنا في الأوهام. لا حاجة لسوق الأدلة على نسبية الإنسان. حبة رمل في عينيه تعميه.

وميكروب صغير يشلحه في الفراش لمدة شهر. خلل صغير في الخلايا، وهي تتكاثر وتتوالد، يكفي لقتل الإنسان. إذا كان هناك من يدرك محدوديته، فأنا أعرف محدوديتي. ولهذا لا يمكن أن أفكر بنفسي كمنقذ. ومع ذلك، أقول هذه الواقعية لا تنال من دور الإنسان، ولا من قيمته وقدرته على الفعل في الأحداث.

أما الانطلاق من ذلك للقول بأنني لهذا السبب لم أستطع التفاهم مع النجوم الذين كانوا موجودين على الساحة السياسية، وأنني لا أطيق المشاركة في القرار، فهو مفهوم من المفاهيم المقلوبة رأساً على عقب، وصورة روجها السياسيون الذين تعاطيت معهم. ما حصل هو العكس. منذ بدء اضطلاعي بمسؤوليات سياسية حتى الآن، كنت قادراً على الانسجام أو العمل مع الآخرين، لكن الآخرين لم يكونوا قادرين على الانسجام، لا معي ولا مع غيري. والسبب بسيط، لقد كان لدى الكثيرين شعور بأنني أقدر منهم، وأشد ارتباطاً بالناس، ولهذا السبب كانوا يخافون مني، ويشعرون بالعجز عن الانسجام معي. ولهذا فتشوا دائماً عن تحالفات أخرى كانت موجهة ضدي، ومبنية على هذه الحسابات. هناك أمثلة حسية على كل ما قلت. التعاون مع إيلي حبيقة. من الذي حاول أن يصادر القرار؟ أنا أم هو؟ قمنا معاً بالانتفاضة، واتفقنا على مبدأ القيادة الجماعية، وكل الذين كانوا معنا يعرفون القصة، لكن بعضهم جبناء، رفضوا كشف الحقائق. اتفقنا على القيادة الجماعية، وفجأة، وفي إحدى الجلسات، جاء حبيقة ليطالب لنفسه بمنصب رئيس الهيئة التنفيذية، وإلا لجأ إلى تخريب كل شيء. وافقت لكي لا نفتح الباب أمام مشاكل داخل «القوات». لم يكتف بذلك، أخذ الصندوق الوطني بكامله، وراح يحاول أخذ العسكر، علماً أني رئيس هيئة الأركان. لم يصادر قرار القوات، صادر قرار المنطقة

والطائفة، وألزم الجميع بالاتفاق الثلاثي. وفي الوقت نفسه، راح يقضي على أمين الجميل والشرعية، وما تبقى من القوات اللبنانية. لكن عندما تجاوز الخط الأحمر، أي عندما بدأ يهدد مصير المجتمع، تدخلت لإيقافه عند حده.

فكرة القيادة الجماعية كانت جدية. على الأقل من جانبنا، وهذا ما حصل في أول مراحل انتفاضة ١٢ آذار/مارس. قبلنا بالقيادة الجماعية، علماً أن الجهد الأساسي في نجاح الانتفاضة، وعلى الصعيدين السياسي والعسكري، بذل من جانب المجموعة التي كنت مسؤولاً عنها. لم تكن عندي مشكلة في التعايش مع حبيقة، وكنت أعرف أنه غير قادر على القيام بشيء على المدى البعيد. بينما كان الفريق الذي نعمل فيه يبني يومياً، ويظهر قدرة على تحقيق أهدافه، وبالوسائل السياسية. لم نختر المواجهة العسكرية، خلافاً لما يعتقده الكثيرون. لم نبادر إلى شهر السلاح، بينما لجأ إليه كل الذين خافوا من نهج جديد راح يؤكد نفسه. وحين يختار الآخرون اللجوء إلى السلاح، لا يبقى لك غير خيار وحيد هو المواجهة، وهذا ما حصل.

القصة مع أمين الجميل؟ هل هناك قصة تعايش أفظع من هذه القصة؟ لقد تحملنا الكثير من تشاطره وألاعيبه. إنني أسأل: هل هناك من هو أسوأ منه وأصعب؟ ومع ذلك، تعايشنا حينذاك ثلاث سنوات. لقد بذل جهد أكثر من استثنائي لترتيب تعايش مع رجل يصعب التعايش معه. خلال فترة التعايش هذه، جرّب مرات عدة أن يتخلص مني. مرات ومرات طلب من العماد ميشال عون إنزال الجيش للقضاء على القوات. عون كان يروي أن أمين طلب منه ذلك، وأنه رفض. طبعاً لم يقدم على الخطوة،

ليس لعدم اقتناعه بها، بل لأنه لا يريد أن ينفذها لحساب أمين الجميل. كان يريد تأجيلها لينفذها لاحقاً لحسابه الشخصي. لقد حاول أمين أن يلغينا سياسياً، «ويمكن جرّب أن يلغينا جسدياً مرات». وحتى قبل أن يترك قصر بعبدا، توّج مآثره بتركيبة اعتقد أنها ستلغينا عسكرياً.

ميشال عون فعلت المستحيل لأتعايش معه. لقد فعلت ما لا يفعل كي لا يحصل الاصطدام. أول تصريح إيجابي لحظة ولادة حكومته صدر عني على رغم معارضتي لهذه الحكومة. كنت أعرف أن أمين زرع لغماً كبيراً قبل ذهابه، وأنه يراهن على انفجار هذا اللغم لإغراق الشرقية في الدم. لم أترك وسيلة. وقدمت أكثر من تنازل للتعايش مع ميشال عون. ولكن ماذا تفعل بالجنرال؟ ماذا تفعل بهذا الجنرال؟ لا يقبل بأقل من القضاء عليك، وبالحرب العسكرية. فهل تربط محرمة بيضاء في عنقك، وتذهب إليه مستسلماً؟ هذا ما كان ليحدث، هذا لن يحدث أبداً.

جرّبت التعايش مع كل القيادات اللبنانية في الشرقية وخارجها، لكن التعايش معي لا يناسبهم، لأني أؤمن بالبناء الهادئ، وبفريق العمل، والجهد اليومي. من يعرف ماذا يريد، يمتلك مفتاح النجاح. ومن يبن كالنملة، قشة فوق قشة، وحجراً فوق حجر، يستطع التقدم. من يراهن على العمل الاجتماعي مع العمل السياسي، ومن يعتقد فعلياً بضرورة المؤسسات، تكن له الغلبة في النهاية. يريدون إقطاعات جامدة ونهائية، وهذا يتعارض مع منطق الحياة وسنة التطور. ولهذا، كانوا يسارعون إلى تحويل الخلاف السياسي إلى مواجهة عسكرية، وهذا ما حصل من الرئيس سليمان فرنجية الذي أقلقه جهدنا كشبان حزبيين خلال حرب السنتين، فبادرنا بالرصاص، إلى

ميشال عون الذي بادرنا بالمدافع. قصتنا مع الجنرال محزنة ومؤلمة.

انزعج من نشاطنا السياسي فأوقفناه. أصدر فرمان السيطرة على وسائل الإعلام، فاختار بعضها التمرد عليه. أقفلت وسائل إعلامنا كي أبتعد عن المواجهة. لم يقبل بنا حتى في صورة جثة بلا حراك. وربما كان خوف كل هؤلاء في محله. فالزمن لم يعد زمن زعامات عشائرية، وتجمعات حول أشخاص. إنه زمن المؤسسات والبناء والتخطيط. نحن لا نخشى أي مواجهة سياسية، واختلاف الرأي يجب ألا يؤدي إلى الاحتكام إلى السلاح. لكن عندما يبادر هذا الطرف أو ذاك إلى إطلاق النار لإلغائك، لا يبقى أمامك غير أن تضعه عند حده.

لست انقلابياً

اتهامي بسلوك نهج انقلابي ليس صحيحاً. الحقيقة كانت على العكس تماماً. الواقع الاجتماعي - السياسي الذي كان قائماً، ابتداءً من الشمال، وانتهاءً بآل الجميل في حزب الكتائب و«القوات»، كان مفروضاً بالقوة. حاولنا في الشمال ممارسة عمل حزبي ديموقراطي، فسارعوا إلى استخدام القوة. نحن لم نسلك طريق الانقلابات، لكن الواقع الاجتماعي - السياسي فرض علينا بعض الأحيان أن نواجههم بالوسائل نفسها. ببساطة، ممنوع عليك العمل السياسي والحزبي، فإما أن تستسلم بالكامل وترضخ، وإما أن تمارس حقك فتعرض نفسك لاحتمال قتلك على يد المسيطرين هناك من جماعة الرئيس سليمان فرنجية. والخيار الطبيعي هو أن تمارس حقك، وأن تستعد للدفاع عن نفسك. وفي حزب الكتائب نفسه، وفي عهد الدكتور إيلي كرامة لم يكن لك حق في خوض

انتخابات المكتب السياسي. أتذكر الضجة التي ظهرت يوم ترشحنا، خصوصاً أنها كانت المرة الأولى التي ترشح أحد لعضوية المكتب السياسي، من دون أن يكون على لائحة السلطة في الحزب. كنا ألفرد ماضي وكريم بقرادوني وأنا. كل ماكينة الحزب تحركت ضدنا، بمن في ذلك الشيخ أمين (رئيس الجمهورية) والشيخ بيار الجميل (رئيس الحزب). استدعوا كل الناخبين، ووزعوا التوجهات والتهديدات، ومع ذلك نجح واحد من لائحتنا في ذلك الوقت. لم أعتمد النهج الانقلابي. الوضع القائم كان وضعاً انقلابياً ضد كل ما يمكن تسميته حريات أو حقوقاً أو مساواة أو تكافؤ فرص. ثقل هذا الضغط حتم علينا في بعض الأحيان مجابهة هذا الواقع. حين يصبح عليك أن تختار بين إلغائك والدخول في مواجهة للدفاع عن مبادئك، فإنك تختار الثانية بالتأكيد. تسألني عما إذا كنت شعرت في صغري ومطلع شبابي بأنني قد ألعب دوراً في الشأن العام، وأجيبك بصراحة: نعم، ومذ كان عمري عشرة أعوام. وربما كانت أقرب إلى المشاعر التي تراود كثيرين. لكن هذا الاتجاه ترسخ لاحقاً. كان عمري نحو اثنين وعشرين عاماً، وفي عز نشاطي الحزبي الذي لم يكن موضع ترحيب وموافقة فعليين من أهلي. ذات يوم، دخلت مع والدي في مناقشة حادة. قال لي: ماذا تريد من الأحزاب؟ وماذا سيحصل لك بسببها؟ وقال: «بكرا بتموت بالحرب، وبدي إفهم شو بدك تعمل من ورا هالنشاط، ولوين بدك توصل؟». فأجبت: «بدي أعمل رئيس جمهورية». ولم أقصد المنصب تحديداً، بقدر ما كنت أريد تأكيد رغبتي في العمل في الشأن العام. وقبل اندلاع الحرب، وكنت أتابع دراسة الطب، كان همي الانتهاء من الطب العام للتخصص لاحقاً في ميدان معالجة السرطان. وكنت أشعر أننا لو تابعنا أبحاثاً جدية، وعلى مدى سنين متواصلة، فإننا سنصل إلى

طريقة العلاج قبل أن يستشري السرطان في الجسم، وربما إلى طرق لشفاء المريض حتى بعد الانتشار. الواقع أن شيئاً ما كان يشدني دائماً إلى دور مهم، والأشياء الصعبة تجذبني.

قبل اتخاذ القرار أشعر بالخوف. لكن بعد اتخاذ القرار ليس للخوف مكان. وحين يتبين من الدراسات والمناقشات أن القرار يجب أن يتخذ، تنتهي مرحلة الانتظار. وساعة يتخذ القرار، يبدأ التنفيذ مهما كان الثمن. فبمقدار ما يكون التأني ضرورياً قبل اتضاح الطريق، يصبح التردد ضاراً بعد الاختيار. وأحياناً لا بد من اتخاذ قرارات صعبة، وفي ظل موازين قوىً ليست في مصلحتك. وهذا ما حصل في الجبل، حيث لم يكن سراً أن القوى غير متكافئة، وكان القرار أن نحاول الصمود. في مثل هذه الحال لا تستطيع التذرع بميزان القوى للابتعاد عن الموضوع، والاستقالة من مصير الناس. إذا اتخذ القرار، لا تبقى ذرة خوف.

كأي إنسان لدي نقاط ضعف. وربما تكون نقطة ضعفي الأساسية رفضي لأسلوب توزيع الاتهامات، وترويج الأخبار السيئة. ونقطة الضعف الثانية أنني لا أحب الكلام، حتى عن العمل الذي نقوم به. الحكي قصاص بالنسبة لي. وتبين أن المسألة قصاص لأن ثمة حداً أدنى من الكلام لا بد منه لكي يعرفك الناس، ويتعرفوا على ماذا تريد، ويحددوا موقفهم في ضوء ذلك.

والنقطة الثالثة أنني غير موهوب في ميدان السفاهة والتراشق بالتهم. هناك عدد من السياسيين اللبنانيين لديهم خزنة من مفردات هذه المعارك، ولا أعرف من أين يستنبطون كل ذلك. العماد ميشال عون، مثلاً، يذكرني بيساريي الستينيات، يوم كانوا يفلتون

على شخص ما: إمبريالي، إستعماري، صهيوني، رجعي. ربما كنت أكبر تقدمي، لكن إذا لم تتوافق مواقفك معهم، أفلتوا في وجهك هذا السيل من الكلمات الجوفاء. صدّق، عندما كنت صغيراً وأسمع حرتقة في البيت، كنت أعتقد أن الحرامي جاء. وعندما كنت أقوم لأمسكه، كنت أشعر بالخجل لا بالخوف. كنت أفكر كم عليه أن يشعر بالخجل من هذا الموقف، وأخجل عنه قبل الوصول إليه.

لست عاشق سلطة

تصورني في سؤالك وكأنني عاشق سلطة. أبداً، على الإطلاق. أنت تتحدث عن السلطة السياسية، لكن في هذه الدنيا مواقع أهم بكثير من السلطة السياسية. بعض منا يركضون إلى السلطة السياسية فقط لشعورهم بالتقصير. إمكاناتهم محدودة، ولا يعرفون إلا في هذا المجال. إذا شئت أن تفعل شيئاً مهماً، فهناك مجالات كثيرة. ثمة مواقع أهم من المجالات السياسية. يكفي أن نراجع الأسماء التي يضج بها التاريخ: الجاحظ، وغاليليو، وآينشتاين، وأوبنهايمر، على سبيل المثل. هل تذكر الآن أسماء الحكام الذين كانوا في زمانهم؟ هناك مساهمات أهم وأعمق وأبعد أثراً. السياسة ليست كل شيء. لا أقصد التقليل من أهميتها، خصوصاً حين تمارس وفق سلم قيم، وبروح علمية. سياسة الدكاكين مأساة. السياسة بمعنى البناء والتغيير شيء آخر تماماً.

تقول إنني وصلت بانقلاب، فماذا أفعل لو حصل انقلاب ضدي في «القوات»؟ أقول لك بأسف إذا كنت تنتظره فلن يحصل. وتسألني إذا كنت سأتفرغ للكتابة بعد نجاح الانقلاب. لا أبداً لن

أقبل. أن أتفرغ للكتابة والتاريخ معقول، لكن عن طريق انقلاب. لا، أفك رقبتهم أولاً، ثم أتفرغ للكتابة. نحن وصلنا بانتفاضة. لا أشاطرك رأيك أنني وصلت بانقلاب. ثم إن الممارسات الحالية لا تشبه السابقة، والظروف الحالية مختلفة عما سبق، وبالتالي فلا مبرر لانتفاضات أو انقلابات.

«أحداث إهدن» كان يمكن ألا تحصل

الوقت حان فعلاً للكلام على هذه «أحداث إهدن» التي قيل فيها الكثير، ونسجت حولها الروايات، وإلى حد تشويه الحقائق وتزوير الوقائع. لقد قيل الكثير الكثير، ولكن دائماً انطلاقاً من موقف مسبق وحسابات مغرضة. الرجوع إلى أحداث كنا فيها يجب ألا يستهدف نكء الجروح ولا التبرير. واجبنا تجاه أنفسنا وتجاه المهتمين بمعرفة هذه الأحداث أن نتحدث عنها بصراحة، فربما كان هناك ما يجب تعلمه أو استنتاجه. المشكلة هي قبل كل شيء في اختلاف النظرة إلى المفاهيم والتسميات. يسمونها مثلاً معركة إهدن أو عملية إهدن، وهذا يعطي لما حدث طابع الشمولية. وللوهلة الأولى، يتبين وكأن المقصود كان خوض معركة ضد بلدة بكل سكانها، وهذا غير صحيح. ثم هناك مشكلة أخرى، وهي النظر إلى ما حدث في إهدن وكأنه وقع فجأة ومن دون مقدمات. في مسائل من هذا النوع لا يجوز التغافل عن الحدث من دون الالتفات إلى ما سبقه.

«أحداث إهدن» مرتبطة فعلاً بسلسلة سبقتها، ولا يمكن الفصل بينهما تماماً، كما لا يمكن فصل «أحداث إهدن» عن الذيول التي تبعتها. وأقول بصراحة إن ما أورده لا يعني أنني أسعى إلى تبرير

أن هذه الأحداث كان يجب أن تحصل. لكني أقول ذلك لأضع المشكلة في إطارها. معركة إهدن كانت حلقة من سلسلة بدأت قبل سنتين، وكانت حلقة في السلسلة التي استمرت سنتين أو ثلاثاً من بعدها. وهنا، مرة جديدة، أختلف معك بالنسبة للتسمية، ومن خلالك أختلف مع كل الذين يعتمدون هذه التسمية، وأختلف معك أيضاً حول ما تراه حجم تأثيرها على المسار الوطني العام.

أريد أن أوضح قبل كل شيء أن المواجهة التي حصلت لم تكن مواجهة بين حزب الكتائب وإهدن، بل كانت مواجهة محدودة بين حزب الكتائب وجماعة سليمان فرنجية. ولا أقول كل آل فرنجية. هذا صحيح، ومن يعرف عاداتنا وتقاليدنا وتراثنا لا يستغرب هذا الأمر. في القرى أو البلدات هناك حد أدنى من التضامن في السلوك، سواء توافرت القناعة أم لم تتوافر. ونعرف أنه على رغم كل ما يمكن أن يكون موجوداً بين الفئات والعائلات، فإن كل المختلفين يمشون في جنازة الفقيد إلى أي جهة انتموا. في مسألة الموت يمشي الأصدقاء والأعداء معاً. إذا كان هذا ما يحدث عادة، فكم بالحري حين جرّب سليمان فرنجية وجماعته الضرب على الوتر الإقليمي والعشائري الحساس، أي وتر إهدن وكرامتها. ونحن نقول لم تكن البلدة مستهدفة، وقد تبين لاحقاً كم نحن ضنينون بكرامة إهدن، وكم تمنينا، وكم فعلنا ما لا يفعل من أجلها، وأكثر من سليمان فرنجية وجماعته.

أمام الموت ينحني الناس ويمشون. وهذا ما حصل بعد موت طوني فرنجية. كان من البديهي أن تظهر عائلات البلدة والقوى السياسية فيها. ولدينا مثال غير بعيد. العماد ميشال عون كان يخوض حرب داحس والغبراء ضد الرئيس رينيه معوض. عندما مات

معوض سماه عون ومعه وسائل إعلامه «الرئيس». لا بل إنهم قالوا لو أن معوض بقي حياً لخلص البلاد. بعدما مات صار منقذاً بالنسبة إليهم. لا بد من أن نلتفت إلى تقاليد القرى، وكيف تطغى الشكليات والتقاليد على الجوهر والمضمون. لقد تضامنت عائلات زغرتا مع سليمان فرنجية، وبغض النظر عن رأي المرحومين سمعان الدويهي ورينيه معوض ورأي سليم كرم وزعماء العائلات الآخرين بسليمان فرنجية، وطوني فرنجية، وبصراحة فإن بلدات كبرى كـ«بشري» و«إهدن» و«العاقورة» وغيرها هي في الناحية قرى صغيرة من حيث النفسية والتقليد. هكذا يجب وضع الرد على الأحداث في هذا الإطار العائلي والعشائري.

ليست عملية

من هنا، لا يصح تسمية العملية «عملية إهدن» إلا نسبة للموقع الذي حدثت فيه. والحقيقة أن العملية هي حلقة من سلسلة المواجهات بين الكتائب وآل فرنجية، والأصح أنها مع بيت سليمان فرنجية بالذات، لأننا نعرف أن بيوتاً أخرى في عائلة فرنجية تتفق تماماً في الرأي مع بقية الزعماء المعارضين لنهج سليمان فرنجية. ولا أجد حاجة هنا لسرد المواجهات الدامية والعنيفة التي جرت بين مجموعة الرئيس سليمان فرنجية وأناس من آل فرنجية، وتلك التي جرت بين مجموعة الرئيس فرنجية ومجموعات من باقي العائلات التقليدية أو السياسية في قلب زغرتا. «عملية إهدن» تقال استناداً إلى الموقع الجغرافي، أما في الجانب السياسي، فهي عملية فريق الرئيس فرنجية.

المبالغة في تقدير انعكاسات ما حصل في إهدن على الوضع العام

كانت مقصودة في كثير من الأحيان. ولماذا لا نعود إلى التواريخ. فللذين يقولون إن العملية كانت سبب انتشار الجيش السوري في شمال لبنان، نذكّرهم أن «عملية إهدن» حصلت في ١٣ حزيران/يونيو فيما الرئيس الراحل الياس سركيس كان قد اتفق في شهر أيار/مايو على خطة أمنية مع السوريين، يكلف الجيش اللبناني بموجبها بمهام الأمن في جبيل وكسروان وجزء من بيروت وبعبدا والمتن، فيما يكلف الجيش السوري بحفظ الأمن في الشمال والبقاع وبقية المناطق اللبنانية. وجود الجيش السوري في الشمال كان مقرراً من قبل، في إطار خطة أمنية بين الرئيس سركيس والمسؤولين السوريين. وسليمان فرنجية نفسه ضغط على سركيس لوضع الشمال تحت المظلة الأمنية السورية. يومها حاول الرئيس سركيس توسيع رقعة انتشار الجيش اللبناني في اتجاه الشمال، لكن فرنجية أصر على موقفه، وبالطبع لم يمانع الجانب السوري.

لا شك أن لـ«عملية إهدن» تأثيراً على المستوى المحلي، لكن تأثيرها على الصعيد الوطني العام كان محدوداً جداً جداً، وأقل من تأثير أي حدث آخر. على سبيل المثل، هل أثرت على الغزو الإسرائيلي للبنان، أو على انتخاب بشير الجميل رئيساً للجمهورية؟ وهل أثرت على انتخاب أمين الجميل؟ وفي هذه النقطة بالذات، ليتها أثرت. فلو فعلت لكانت خلصتنا من ويلات وويلات. على الصعيد المحلي أثرت بالطبع في العلاقات بين البلدات والقرى. جماعة سليمان فرنجية، وبتشجيع ودعم من الجهات الحليفة لهم، شنوا حملة تصفيات ضد الكتائبيين وأنصار الكتائب في البلدات والقرى القريبة. العملية محدودة جغرافياً وسياسياً. فالرئيس فرنجية وجماعته ليسوا في النهاية حزب التجمع من أجل الجمهورية، ولا الحزب

الديمقراطي الهائل، صاحب الامتدادات في كل المناطق. إنهم مسألة محدودة جداً داخل بيت فرنجية، وليس في كل زغرتا وإهدن.

الآن وقد صارت تلك الأحداث بعيدة، يمكنني القول، وبكل هدوء، إن كل الذي حدث ما كان ليحدث لو أن الرئيس فرنجية قبل بوجود الآخرين، أو بحقهم في التعبير عن رأيهم. لم يكن أحد ينوي شطب زعامة سليمان فرنجية، وكان يمكن أن تبقى المسألة مسألة أجيال، أي بين زعامة عشائرية عائلية، وشبان رأوا في العمل الحزبي فرصة في المشاركة في العمل الوطني، بعدما أدركوا محدودية الإطار العشائري وتناقضه مع تطلعهم إلى بناء وطن ودولة. وكان يمكن أن يبقى الخلاف مجرد صراع فكري وسياسي، لو لم يحتكم الطرف الآخر إلى السلاح. صحيح أن أبناء الشمال قبضايات وقساة في الشدائد، ولكن الصحيح أيضاً أن أحداً لا يقبل الإلغاء. والزعامة التقليدية لا تجيز قتل الناس لمجرد اعتناقهم هذه الفكرة أو تلك.

قبل حرب السنتين (١٩٧٥ - ١٩٧٦) كان الوجود الكتائبي في الشمال عادياً بسبب وجود العائلات الكبيرة هناك. وعندما اندلعت الحرب، ظهرت موجة شعبية مؤيدة لحزب الكتائب، لأنه كان أكثر الأحزاب استعداداً وحضوراً في الأحداث التي فرضتها الحرب. أذكر أنه قبل الحرب كان لحزب الكتائب وجود في بعض القرى. وجود مقبول في بعضها، ووجود رمزي في بعضها الآخر. لم يكن حزب الكتائب قوة سياسية ضاغطة. خلال حرب السنتين التحق عدد كبير من الشبان بحزب الكتائب بعدما لمسوا محدودية السياسات الإقطاعية والعشائرية وضرورة تخطي هذه الاعتبارات

المحلية. تزايد حجم حزب الكتائب، وارتفع تقريباً إلى عشرة أضعاف ما كان عليه قبل اندلاع الحرب. في السابق، وفي الكورة مثلاً، كان الوجود الكتائبي مقتصراً على بعض القرى المارونية، وضعيفاً جداً في البلدات الأرثوذكسية. بعد حرب السنتين تبدلت الصورة.

أعرف ذلك بالأرقام، لأني كنت مسؤولاً عن القوى النظامية هناك. صار هناك نحو ٣٠ أو ٤٠ شاباً في كل قرية. في «أميون» صار للكتائب وجود عبر مجموعة كبيرة، وكذلك في «دده» و«رأس مسقا» وغيرها. في منطقة «بشري» حدث ما يشبه الفوران في الانتماء للكتائب. بعد حرب السنتين جرى حفل كبير لتأدية اليمين في الحزب، في بلدة «قنات». وتكرر الأمر نفسه في «البترون». تمدد حزب الكتائب وأقسامه. لاقى قبولاً طبيعياً لدى زعماء العائلات، من جبران طوق وقبلان عيسى الخوري وجورج ضو إلى سايد عقل وسمعان الدويهي ورينيه معوض. تعاملوا مع المسألة وكأنها أمر طبيعي نظراً للمسؤوليات التي تحملها حزب الكتائب في تلك المرحلة. ولهذا السبب تعاطوا مع الواقع، وتفاعلوا معه، وكانت علاقاتنا معهم منسجمة، على رغم انتمائنا إلى حزب قائم على مبادئ مغايرة للمبادئ والمفاهيم العشائرية.

وتعثرت المفاوضات السياسية. أبلغ سليمان فرنجية إلى الوسطاء رداً قاطعاً، وهو أن لا وجود للكتائب في الشمال، ولن يسمح لهم بأي وجود هناك. ولم يكن يشعر بالحرج مما يجري. أذكر في شهر أيار/مايو صعدت إلى بلدتي «بشري»، فوجدت ما لا يقل عن ٢٠٠ كتائبي فروا إليها من قرى الشمال، هرباً من حملة التنكيل.

لجأوا إلى «بشري» لأن جماعة فرنجية لا يجرؤون على مطاردتهم إلى داخل البلدة. يومها دبرنا لهم مساكن في الشاليهات. وفي إطار جهود الحل عقد اجتماع في «بكركي» مقر البطريركية المارونية بين النائب طوني سليمان فرنجية وبشير الجميل.

لا أعرف تفاصيل ما دار في ذلك الاجتماع. في تلك الأيام كنت منهمكاً بالدراسة، وتركت كل عمل سياسي، والتحقت بالجامعة اليسوعية لأكمل دراسة الطب، بعدما جعلت الحرب من المتعذر علي أن أتابعها في الجامعة الأميركية في غرب بيروت، حيث بدأت. كانت الدراسة تستحوذ على كل اهتمامي، فقد صرت في المرحلة التي يسمح فيها لطلاب الطب بأن يعاينوا المرضى، وبالدخول إلى غرف العمليات. وكنت أحب العمل في قسم الطوارئ، وبسبب غياب الأطباء، كان على الواحد منا أن يتحمل قدراً أكبر من العمل والمسؤولية، وكنت أتطوع أحياناً لأعمل مكان رفاقي. لم أكن على علاقة يومية بأوضاع الشمال، لكنني كنت أطلع على التطورات من خلال بعض الشباب والمسؤولين أثناء زياراتهم لي.

إلا أن عمليات الإرهاب انقلبت إلى حرب شاملة. وخيل لجماعة فرنجية أن دم أي كتائبي محلل للسفك. فكلما التقوا واحداً من هؤلاء، نكلوا به. وجاء مقتل جود البايع، مسؤول الكتائب في منطقة زغرتا الزاوية، ليؤجج النار. اغتيل جود البايع في مركز عمله، ودون أن يكون ضالعاً في شيء، وهو شخص محب للحوار وحل المشاكل بالحسنى. ووجد الحزب نفسه أمام موقف صعب: إما اتخاذ قرار بإلغاء وجوده في الشمال، مع ما يمكن أن يعنيه ذلك، وإما الدخول في مواجهة لوقف

مسلسل القتل والتشريد، ووقف من أطلقوه.

وللتاريخ وللإنصاف، لم يكن حزب الكتائب راغباً في مواجهة مع سليمان فرنجية وجماعته، على رغم كونه قادراً على إنهائهم، وبنهار واحد. فميزان القوى معروف، والأحداث أكدت ذلك. كان الحزب ميالاً تماماً إلى التسوية السياسية. بيار الجميل سعى لدى رئيس الجمهورية الياس سركيس، والبطريرك، ولم تترك القيادة الحزبية شخصاً إلا واتصلت به. والوصول إلى صيغة لم يكن مستحيلاً، لو لم يتمسك سليمان فرنجية بشرط قال أن لا عودة عنه، وهو إلغاء الكتائب في الشمال. تعددت الوساطات والجهات المهتمة. لكن لم تكن ثمة أرضية مشتركة للبدء بمباحثات، ذلك أن الرئيس فرنجية لم يكن يريد حلاً، بل كان يريد تسليم الآخرين بقراره، أي إلغاء الكتائب في الشمال.

سادت في الحزب حالة من الحيرة والارتباك. الأحداث تتوالى، وموقف فرنجية يحبط كل الوساطات. وهنا جاء مقتل جود البايع شبيهاً بالصاعقة في كل أوساط الحزب الشمالية والبيروتية. زاد من وقع الحادث أن جود البايع الذي قتل بوحشية على درج مكتبه، كان شخصية مسالمة وهادئة الطباع إلى درجة أنه شارك لفترة في الوساطة بين سليمان فرنجية، وكانت بينهما صداقة، وبيار الجميل. أطلق الحادث موجة غضب شعبية داخل الحزب. تولد مناخ عام تخطى القيادة والقرار ومراكز القرار والطرق التي تصنع فيها القرارات على كل المستويات، من رئيس الحزب وحتى آخر عضو. الحادث كهرب الحزب، فشعر كل فرد أنه معني ومهدد. في هذه الأجواء اتخذ قرار، أو فلنقل إن هذا الجو فرض على كل المستويات في الحزب قراراً بالمواجهة.

تخطت المشاعر حدود التضامن الحزبي. كثيرون في الحزب رأوا أن المسألة لم تعد مسألة حزب وسياسة، بل مسألة كرامة. قالوا لا يجوز أن يقتل الناس في القرن العشرين بهذه الطريقة. ولا يجوز الاستسلام للتسلط. في جو من الغضب الكاسح، وفي الليلة التي أعقبت اغتيال جود البايع، اتخذ قرار المواجهة. قرار على كل المستويات الحزبية، وبالإجماع، بالدخول في مواجهة مع سليمان فرنجية وجماعته، لإرغامهم على وقف التصفيات. وبعد هذا القرار بدأ دوري في هذه المسألة.

كنت في غرفة العمليات في مستشفى أوتيل ديو، وما إن خرجت حتى قالت لي الممرضة: طلبوك بإلحاح من المجلس الحربي. تركت الشغل ونزلت. التقيت هناك ببطرس خوند، فقال: الشيخ بشير ناطرك. أطلعني بشير على الوضع في الشمال، وقال إن الحزب اتخذ قراراً بالمواجهة، وعلينا الآن أن نجد الطريقة. أضاف، إن المواجهة ستكون شاملة على مستوى الشمال كله، وإن عوامل أخرى قد تدخل فيها، لذلك لا نريد ترك المسألة بين أيدي المسؤولين العسكريين الحاليين. وقال: «بدك تروح عالشمال وتستلم قيادة المنطقة حتى نعمل هالمواجهة، ولما بتخلص، بترجع تروح على شغلك». وأجبته بأني صرت في آخر السنة السادسة من دراستي، وقدمت قسماً من الامتحانات، ولا يزال لدي نصف المواد، وهو النصف السهل. أصر بشير، وكان عمري يومها ٢٦ عاماً، وصرت في آخر سنة، وليس لدي إلا شهر واحد فرصة بين السنتين السادسة والسابعة، وحتى أقل من شهر. رفض بشير، وقال: «ما حدا غيرك قادر يتحمل هالمسؤولية على مستوى المنطقة ككل. إنت عايشت كل المجموعات العسكرية خلال حرب السنتين، ولهم ثقة بك. ما لازم نبعث مسؤول غريب كرمال معنويات أولاد

الشمال». وافقت، وتحدثنا في بعض التفاصيل. يومها، صدرت عن بشير، بصفته رئيساً لمجلس الأمن، مذكرة أبلغت إلى كل المراكز المعنية: نظراً للأوضاع الحالية السائدة في منطقة الشمال، يعين، وبشكل موقت، سمير جعجع مسؤولاً عن كل القوى العسكرية، والنشاطات والتحركات العسكرية التي تشهدها منطقة الشمال في الوقت الحاضر، وذلك حتى نهاية الوضع القائم.

ارتأينا أن نرسل لهذا الغرض مجموعات تعتقل هؤلاء الأشخاص، وتحتفظ بهم. هذه هي الخطة الأولية التي أعدت بصورة سريعة. طبعاً كان الأمر يتضمن احتمال حصول مقاومة، ومقتل من يقاوم. وكان الهدف اعتقال هذه المجموعة التي تعتبر بمثابة الذراع العسكرية لفرنجية. وتساءلنا عما يمكن أن نفعله إذا تدخل الجيش السوري. ووجدنا أنه من الأفضل أن نتحصن في إهدن. فلو كان الأمر في بلدة أخرى، فإن فرنجية لن يتردد في تشجيع القوات السورية على ضربها، حتى ولو أدى الأمر إلى تدمير البلدة. لكن الحسابات قد تختلف حين تتعلق ببلدته إهدن، وربما فكر ملياً قبل أن يطلب من القوات السورية التدخل ضدنا. لم تكن هناك مشكلة عسكرية بالنسبة لأنصار فرنجية، فقدرتهم على المقاومة لن تتعدى الـ٢٤ ساعة في أفضل الحالات. ولم يكن الغرض التعرض لأبناء البلدة، بل على العكس كان المطلوب إلقاء القبض على المجموعة التي تفتعل الأحداث، لدفع الرئيس فرنجية إلى اتخاذ قرار بوقف مسلسل التصفيات. أفراد هذه المجموعة كانوا يتحركون بين زغرتا وإهدن، لكن كثيرين منهم كانوا يقيمون في إهدن، لأنهم يشعرون هناك بأنهم في أمان.

في الاجتماع الأخير للقيادة العسكرية مع الشيخ بشير، كانت

هناك اقتراحات عدة. أنا فكرت في أن تكون العملية ليل السبت - الأحد، وكان هاجسي في الواقع العودة إلى الجامعة في مطلع الأسبوع. لكن المجتمعين عارضوا الفكرة، لافتين إلى احتمال أن تتصادف العملية مع وجود الرئيس فرنجية أو نجله طوني هناك، وهو ما لم نكن نريده. فكرنا في ليل الأحد - الاثنين، ثم تخلينا عن الفكرة للسبب نفسه. ثم تقرر أن تكون ليل الاثنين - الثلاثاء كي نتفادى وجود أي مسؤول من آل فرنجية في إهدن. لم يكن الصيف قد بدأ، ولم ينتقل آل فرنجية إلى البلدة لقضاء الصيف. لكننا أخذنا في الحسبان احتمال أن يذهب الرئيس فرنجية أو نجله لقضاء «ويك أند» هناك، وفي مثل هذه الحالة سيغادر البلدة مساء الأحد، أو صباح الاثنين، وبالتالي فإن الموعد الذي اخترناه يضمن عدم وجود أي منهما، إذ لم يكن المطلوب الدخول في حرب المئة عام مع جماعة بيت فرنجية.

أقول ذلك بعد ١٣ عاماً، ومن دون أن يكون هناك ما يجبرني على قوله. لقد سكتّ طويلاً وفاء لمن كانوا معنا وسقطوا إلى جانبنا. لم أشرح هذه الحقائق كي لا يفسرها الناس على أنني أريد إلقاء المسؤولية على غيري. واليوم أقول للتاريخ، ولأن الأحداث صارت ملكه، إن كل الاحتياطات اتخذت كي لا يكون الرئيس فرنجية أو نجله في إهدن. لم تكن هناك نية قط للتعرض لأي منهما. لكن حين تشاء الأقدار أن تتدخل وتلعب دورها، لا شيء يمنعها من ذلك، وهي تدخلت فعلاً.

صباح ١٣ حزيران/يونيو، وفي الرابعة فجراً، انطلقت العملية. لم يمر ببال أحد أن النائب طوني فرنجية هناك. لم يكن هو مقصوداً. لم يكن وارداً، لا خطفه ولا التعرض له، ولم يكن أحد يعرف

بوجوده. والعملية أعدت على أساس أنه من غير المعقول أن يبقى في إهدن حتى فجر الثلاثاء، وقبل حلول الصيف. توزعت المجموعات بحسب الخطة المعدة لها، واصطدمت بمقاومة عنيفة من الأشخاص الذين ذهبنا لاعتقالهم. كنت أتحرك بين كل المجموعات العسكرية وأرافق تقدمها. وكنت في معظم الوقت مع القوة المتجهة إلى إهدن من جهة زغرتا - إهدن، أي من المدخل الغربي. والسبب أني كنت أرى أن هذه النقطة هي الأصعب. كانت هناك مجموعات تهاجم من جهة بشري، وكانت مهمتها سهلة نسبياً، لأننا حمينا ظهرها، وكانت تواجه من جهة واحدة. أما نحن فكنا في الموقف الأصعب.

كنت على اتصال مع كل المجموعات، وأتحدث إلى مسؤوليها. وفي وقت من الأوقات كنت على المحور الفوقاني الموصل إلى الحارة الفوقا في إهدن، فاكتشفت أن الشباب قبضوا على مدني اسمه أنطوان الطراف، وكان يحمل بندقية. سألته عن السبب، فقال: سمعت رصاصاً، فحملت بارودتي. فطلبت منه أن يعطيني إياها، وأن يتبعني حتى لا يقتله أحد. وسمعت لاحقاً أنه روى القصة بحرفيتها. كنت هنا بعيداً جداً عن قصر فرنجية. نزلت إلى المحور الوسطاني لأرى الشباب. استهدفهم الرصاص من قصر طوني، ودارت اشتباكات بين القوة المهاجمة والذين كانوا يطلقون النار من قصر طوني. وصلت، فوجدت أحد شبابنا مقتولاً على الطريق. انتحيت جانباً لأرى كيف يمكننا سحبه، وناديت شاباً من ورائي وطلبت منه أن يسحب القتيل، وحين تقدم قتل فوقه. عندها غيرت موقعي لأرى كيف يمكننا سحب القتيلين من دون التسبب في سقوط ثالث.

وفيما كنت أتحرك من مكاني، شعرت وكأني أصبت في يدي. قفزت إلى قناة للمياه، وراح الرصاص يفرفر حولي، فيما ارتمى الشباب عن شمالي ويميني. وشعرت أن شيئاً ما راح يعبئ رئتي. لم أعد قادراً على تحريك يدي. صرت أسمع أصوات الشباب: عساف رحمة وهاني رحمة، الله يرحمه، وهما يصرخان: يا شيف سمير، يا شيف سمير. قلت لهما: لا يهمكما. لكنني رحت أشعر بالدنيا تتماوج أمامي. حاول عساف الوصول، فأصيب في يده. كان هناك عساف وهاني وأسعد عريضة، وكلما حاول أحدهم الاقتراب أطلقوا الرصاص عليه، وكنت أنزف. في النهاية، وصلت مجموعة ثانية، وراحت تؤمن لي الحماية. رموا لي نربيش ماء كان في الجنينة، فتمسكت به وقفزت من الساقية إلى الجل، فصرت محمياً. ركضت في اتجاه السيارة. لحظات أغيب عن الوعي، وأخرى أرجع وأرى أمامي، وكنّا على طريق «طورزا»، فوقعنا في كمين مسلح، وانهمر علينا الرصاص. أصيب هاني في رجله وضاعف السرعة. وشعرت أنني بعدما كنت قد أصبت بكتفي أصبت من جديد برصاصة في رجلي ورصاصة في فخذي ورصاصة في زندي. وفي النهاية وصلنا إلى «أوتيل ديو».

إنها مفارقات الأيام المؤلمة. كان مقرراً أن أدخل قسم الطوارئ في الساعة الثامنة من صباح الثلاثاء طبيباً متمرناً. وها أنا أصل في الثامنة إلا خمس دقائق لا كطبيب، بل كمشروع قتيل. كل الطريق كنت غائباً عن الوعي وضغطي صفر. وعندما دخلت سيارة الصليب الأحمر إلى قسم الطوارئ، أفقت وارتحت، ثم غبت عن الوعي من جديد. وعندما أفقت بعد ١٢ ساعة من العملية، وكنت تحت تأثير صدمة قوية، عرفت أن طوني فرنجية كان في القصر وقتل. لقد أرجأنا موعد العملية لنتفادى وجوده

هناك، لكنها الأقدار. لا صحة للرواية التي تقول إن الهدف كان خطف طوني فرنجية، واقتياده إلى المجلس الحربي. كان هدف العملية اعتقال ما بين ١٠ و١٥ عنصراً لا أكثر.

في البداية، عولجت في «أوتيل ديو»، ثم في الكرنتينا، وبعدها في «بحنس»، ومنها إلى «بشري»، ثم نقلت إلى «بكفيا».

في مستشفى أوتيل ديو كانت زوجة بشير السيدة صولانج قد أنجبت طفلة، وكان بشير يتردد لرؤيتها، ويزورني. حين التقيته للمرة الأولى قال لي: كل شيء كان منيح، بس طلع معنا حادث مفاجئ، وقتل طوني فرنجية. حصل ارتباك في القيادة الحزبية بسبب المفاجأة التي شكلها مقتل طوني فرنجية، وارتبك المسؤولون.

تبني العملية سيبدو وكأنه تبنٍّ لقتل طوني الذي لم يكن مقصوداً. تميز الموقف بالضبابية والارتباك، وانعكس ذلك على المستوى الإعلامي.

كان الجميع يعرفون أن طوني لم يكن الهدف. ولو كان الغرض إلحاق الضرر بالمسؤولين من آل فرنجية لكان الأسهل التعرض للرئيس فرنجية نفسه الذي كان مقيماً في النقاش. ليس صحيحاً أن ما أعقب الحادث ولّد لدي مرارة من آل الجميل، حكمت مواقفي لاحقاً منهم. كان رأيي أن نقول حقيقة ما حدث. لقد حاولنا تجنب أي مفاجأة، فوقعت مفاجأة غير سارة، وكان علينا أن نتحمل المسؤولية. بعد عملية إهدن سال دم كثير. قتل من قتل، وهجر من هجر، وتعرض أبرياء كثيرون للتنكيل. روجت روايات كثيرة، لكن هذا ما حصل.

حرب الجبل

هذه المحطات الدامية والمؤلمة في الحرب الطويلة تستحق أكثر من وقفة تأمل ومراجعة. فالمستقبل لا يصنع بتجاهل الماضي، بل بفهمه والاحتفاظ منه بما يمكن أن يبنى عليه. في تاريخ الشعوب صفحات موجعة لا يمكن القفز فوقها وكأنها لم تحصل. ولا يجرؤ على صناعة المستقبل من لا يملك جرأة التصدي للماضي. والعودة إلى الماضي البعيد أو القريب يجب ألا تكون عودة مغرضة، هدفها تبرير مواقف أو قرارات أو أشخاص. هذه المحطات صارت ملك التاريخ، وستجد دائماً من يقرأها، ويتوقف عندها، ويضيء خفاياها. لا يمكن الخروج من المأساة بوصفات سريعة ومتسرعة لا تأخذ في الحسبان الأسباب التي صنعت المأساة. ولا يخدم الحقيقة التعامل مع جزء من الصورة، أو جانب وحيد منها. إننا اليوم أحوج ما نكون إلى هذه القراءة العقلانية الجريئة والهادئة. وشجاعة مواجهة الحقائق الجارحة لا تقل عن شجاعة الذهاب إلى الحرب للدفاع عن حقائق مهددة، أو معرضة للطمس.

عندما حصل الغزو الإسرائيلي في ١٩٨٢، كانت قد مضت على بعض أولاد الجبل سبعة أعوام وهم يعيشون مهجرين في المنطقة الشرقية. وإرغام ابن الجبل على العيش بعيداً عن بيته وأرضه يجعله مكبوتاً ومضغوطاً. فور اتساع المجال، وأقول من موقع المسؤولية، صعد حزبيون ومن دون قرار حزبي إلى ضيعهم، لأن الحزب التقدمي الاشتراكي لم يعد سلطة فعلية هناك. توافد مسؤولون وحزبيون إلى قراهم، وارتكب بعض العائدين حماقات انطلقت من رغبة مبيتة بالانتقام. وأقول بوضوح: لقد صعدوا من دون قرار حزبي. لست مضطراً على الإطلاق للدفاع عن قيادة آل الجميل

للحزب، لكن هناك حقائق يجب أن تسجل للتاريخ. ولا أبرر أبداً الحماقات التي ارتكبت...

بدأ الوضع يتوتر في الجبل. يومها طرح الموضوع جدياً في المجلس الحربي وفي حزب الكتائب. الأفراد بدأوا بالعودة إلى قراهم، فهل تبقى العودة في صورة أفراد، أم تكون في صورة مؤسسة؟ وحصل الكثير من الأخذ والرد. عندما انتخب الشيخ بشير الجميل رئيساً للجمهورية، صار الاتجاه للصعود إلى الجبل. فمع الانتخاب استتب الوضع، وثمة من قال لماذا لا نصعد كحزب أو كمؤسسة، خصوصاً أن الظروف آنذاك غيبت الدور العسكري للحزب الاشتراكي. عندها اتخذ قرار الصعود إلى الجبل كمؤسسة، ولكن ليس إلى كل الجبل. أي اتخذ قرار الصعود إلى المناطق التي لا يثير الوجود الحزبي فيها حساسيات. بمعنى أن العودة كانت إلى القرى التي تنتمي إلى الفئة نفسها التي ينتمي إليها العائدون إليها. وتقرر تجنب القرى التي لم يكن للكتائب والقوات فيها أصلاً أي وجود. وهكذا، لم تُقم أي ثكنة في بلدة مثل «بيصور»، بينما أنشئت ثكنة في «معاصر بيت الدين»، والأمر نفسه في «دير القمر».

في قرية «مجدل بعنا» لم يستحدث أي وجود سياسي أو عسكري، بينما في «بحمدون المحطة» فتحت أقسام كتائب وثكن عسكرية. القرار كان إذاً عودة حزبية، وبموازاة الوجود الحزبي إقامة ثكن عسكرية لدعم هذا الوجود الحزبي في مناطق متعاطفة مع الكتائب والقوات، ولا وجود فيها للمشاعر العدائية. أما الوجود العسكري فيرجع إلى ما خلفته في النفوس أحداث السنوات السبع الماضية من جروح ومخاوف كانت لا تزال في

الذاكرة. فتحت المراكز الحزبية في الأماكن السابقة نفسها، قبل أن تقفل قسراً، كـ«مجدل المعوش» و«كفرنبرخ» و«بريح» و«دير القمر» و«بحمدون» و«عين الجديدة» و«بطلون» و«عين الحلزون» و«رشميا» و«شرتون» و«الفوارة» وغيرها. مراكز حزبية وتجمعان عسكريان فقط: الأول في معاصر بيت الدين، والثاني في بحمدون. وبدأ العمل الحزبي طبيعياً، ولكن في ظل الحماقات التي ارتكبها من كانوا قد بكروا في الصعود كأفراد. طبعاً، يمكن القول إنه كان على القيادة الحزبية أن تضبط العودة منذ البداية، وهذا صحيح، لكن هذا ما حصل.

سياسة أمين الجميل

في هذا الوقت انتخب الشيخ بشير الجميل واغتيل، وانتخب شقيقه الشيخ أمين خلفاً له. انتخب أمين رئيساً للجمهورية، وراح يلعب بالسياسة. يسرح بين الأميركيين والإسرائيليين والسوريين وكل العرب. هذا الأسلوب أزعج الإسرائيليين جداً. وفي الوقت نفسه كان الحزب التقدمي الاشتراكي يستعيد وعيه من الصدمة، وبدأ يقيم صلات مع السلطات العسكرية الموجودة. هذا الكلام ليس من باب الاتهامات، لكنه واقع لا يمكن لأحد إنكاره، وربما كانت هذه الطريقة البراغماتية في التعاطي مع الأمور.

هكذا كانت الصورة. ممارسات الأفراد الذين ارتكبوا حماقات أيقظت الحساسيات. والحزب الاشتراكي الذي كان يحكم المنطقة أحس بتقلص نفوذه إلى داخل معاقله، ولم تعد له سيطرة على القرى التي لا يحظى فيها بتأييد سياسي. وإذا أضفنا إلى ذلك ما كان يحصل على مستوى السلطة العليا في البلاد، وبراغماتية

الحزب الاشتراكي، أمكننا فهم الصورة الجديدة التي قامت. في تشرين الأول/أكتوبر ١٩٨٢، كان الجيش الإسرائيلي يسيطر على الجبل. أما في القرى، فكان هناك من جهة حزب الكتائب وذراعه العسكرية، والحزب الاشتراكي الذي استعاد وجوده السياسي وذراعه العسكرية. سلسلة انفجارات واحتكاكات وشائعات وأحداث متسارعة أدت في النهاية إلى انفجار كبير، فشملت الاشتباكات كل مناطق الجبل التي انقسمت إلى قسمين: منطقة مسيحية تسيطر عليها القوات، ومنطقة درزية يسيطر عليها الحزب الاشتراكي.

طبعاً يمكن قراءة أحداث الجبل من خلال وضعها في الإطار الكبير، أي التجاذبات الإقليمية والدولية. فالاتحاد السوفياتي لم يكن ليقبل بوجود قوة متعددة الجنسيات في لبنان، تنتمي إلى دول أطلسية. وكان من الصعب عليه أن ينسى أن لبنان كان إحدى النقاط الرئيسية التي تضمن حضوره في أزمة الشرق الأوسط. ولم يكن سهلاً على سوريا القبول بميزان القوى الإقليمي الجديد، وهي التي دخلت لبنان في ١٩٧٦. وبهذا المعنى كان التفجير في الجبل نتيجة التقاء عوامل محلية وإقليمية ودولية. ولم يكن مجرد انفجار لحساسيات أو وليد احتكاكات بين قوى محلية.

عندما جرى الحديث عن الجبل، كنت شخصياً ضد الصعود إليه كأفراد أو كمؤسسة، قبل الوصول إلى تركيبة ثابتة. الوجود العسكري الإسرائيلي في الجبل لم يكن تركيبة ثابتة، وهذا أمر واضح. وهنا ارتكب الحزب الاشتراكي خطأً رئيسياً لا يجوز إغفاله. لقد كان في استطاعته التوصل إلى نوع من التفاهم مع قيادة حزب الكتائب حول موضوع الجبل. الواقع أنني لا أفهم لماذا

هذا الميل الجامح إلى احتكار السلطة السياسية في الجبل. هذه المنطقة متعددة الانتماءات، والصيغة الأفضل لها، أو الصيغة الوحيدة الحقيقية، هي أن يسمح لكل طرف بالوجود، وأن يعبر عن رأيه ومعتقداته.

أنا أعتقد أن الميل الجامح إلى الإمساك الكامل بقرار الجبل هو السبب الرئيسي الذي فجر الأحداث هناك. لدينا عدد غير قليل من المصابين بعقدة الذنب. فكلما حدثت مشكلة، يسارعون إلى القول إننا الطرف الذي أخطأ. والمسألة ليست مسألة عقدة ذنب فقط، بل هناك من تحرك عن سابق تصور وتصميم، وانطلق من حسابات ضيقة لتحميل «القوات» مسؤولية كل الذي حصل، كالقول إن ما جرى ما كان ليجري لولا صعود «القوات». هذا غير صحيح. صعود «القوات» كان عاملاً من عوامل التفجير، لكن العامل الثاني والأهم والأكبر هو الميل الجامح لدى الحزب الاشتراكي لحصر كل السلطة السياسية والعسكرية بالجبل به. هذا خطأ، ويتعارض مع تركيبة المنطقة، ومع مفهوم التعايش نفسه. ببساطة كاملة، إذا كان لا يحق لنصف أبناء الجبل إملاء إرادتهم على الجبل بأسره، فلماذا يعطي النصف الآخر لنفسه هذا الحق؟ كان هناك في الجبل من لا ينتمي إلى الحزب الاشتراكي، ومن لا يرى هذا الحزب ممثلاً له. وهؤلاء كانوا يريدون مثلاً حزب الكتائب، وحزب الأحرار، أو غيرهما.

لا شك أن وجود «القوات» كان عاملاً إضافياً في هذه الصورة المعقدة، لكن لا شك عندي ولو للحظة، أنه لم يكن العامل الوحيد في عملية التفجير. لو جاء الاشتراكيون وقالوا للكتائبيين حين صعدوا إلى الجبل: لكم الحق في العمل الحزبي أسوة بنا،

فنحن وأنتم أبناء هذه المنطقة، لكن المطلوب ألا تعتدوا علينا، ومن جهتنا لن نعتدي عليكم. أنا واثق أن مثل هذا المنطق كان كفيلاً بترتيب الأوضاع. وفي التركيبة اللبنانية لا قدرة للأحزاب الصاعدة إلى الجبل على استقطاب قواعد الحزب الاشتراكي، والعكس صحيح. على قاعدة هذا الاعتراف بحق العمل السياسي كان يمكن التوصل إلى ترتيبات ولجان مشتركة لمنع الاعتداءات والانتقامات، بل وللحوار السياسي. لكن أن تختزل المشكلة برمتها لتصير محدودة بصعود «القوات»، فالأمر مغالطة تصل إلى حدود التجني. غريب أمر بعض الناس، يرضى القتيل وليس يرضى القاتل.

التجاذب السياسي الحاد في اللعبة الإقليمية والوضع القائم على الأرض وتناقض المصالح كلها سهلت التفجير. ربما كان من الممكن منع التفجير لو شعرت إسرائيل أن لها مصلحة في ذلك. والواقع أن إسرائيل كانت تراقب الوضع في لبنان، والمنحى الذي اتخذته الأحداث، وشعرت بأنه لن يكون لها دور أو ليس الدور الذي تريده، فتركت الأحداث تقع. في أي حال، لا بد للبنانيين من أن يدركوا أن مصالح الدول تكون في بعض الأحيان أكثر تعقيداً مما يعتقدون. وحان للبنانيين أن يدركوا أن تمنياتهم لا تغير سياسات الدول، وهي سياسات ترسم على أساس المصالح. ويخيل للبنانيين أحياناً أن أحداث بلادهم تقلق العالم، وتقض مضاجع الدول. والواقع هو أن الدول لا تقرأ الأمور من هذه الزاوية، وقد لا تبذل أدنى جهد لمنع العنف والاقتتال إذا رأت أن ما يجري لا يهدد مصالحها أو حساباتها.

ولم يكن هناك صمام أمان يمكن أن يضبط اللعبة، أو يحد من اندفاعها نحو التدهور النهائي. رئيس الجمهورية أمين الجميل

تصرف على نحو يصعب تفسيره. شيء غريب وعجيب أن يوصل الحاكم نفسه إلى درجة يجمع فيها كل الناس على العداء للحكم. كانت هناك احتمالات عدة، ويفترض في الحاكم في النهاية أن يختار وأن يقرر ويتحرك. لكن شطارة الشيخ أمين ذهبت بعيداً، إذ اختار التصرف بالطريقة التي جعلت كل القوى المؤثرة في الوضع اللبناني تقف ضده وضد الحكم الذي يمثله.

في هذه المرحلة، كنت مسؤولاً عسكرياً عن الشمال، ولم يكن لي تأثير أصلاً في القرار، خصوصاً أنني كنت قد وصلت قبل عام إلى جو من الجفاء أبعدني عن المجلس الحربي. كنت أتابع الأعمال العادية، ومقري في القطارة في أعالي جبيل. لم يكن لي موقع في اتخاذ القرار أو صناعته، ولم يكن أحد يسألني رأيي. لكننا كنا نتداول في الموضوع في حلقاتنا. بدأت المواجهات في الجبل، وراحت تزداد حدة. في كانون الأول/ديسمبر شعرت أن الوضع بلغ درجة كبيرة من الخطورة. المعالجات السياسية غير واضحة، ولا توحي بنتائج. الشيخ أمين غائب عن الوعي، والمعالجات التي تجري على الأرض تسعر الحرب، في وقت لم يسبق هذه الحرب الإعداد اللازم لها.

وبعد اغتيال بشير، صرت أستدعى إلى بعض الاجتماعات الجانبية في المجلس، وكنا نناقش قصة الجبل. كان واضحاً أن فادي أفرام (قائد «القوات») وفؤاد أبو ناضر (رئيس الأركان) يشعران بالقلق من سير الأمور. وساد الاعتقاد أن الظروف تستلزم مسؤولين عسكريين غير الذين يتولون القيادة في الجبل، خصوصاً أن الوضع السياسي غامض جداً. في أواسط الشهر نفسه طرحت فكرة صعودي إلى الجبل، وانطلاقاً من ضرورة تجميد الوضع هناك،

بانتظار التوصل إلى معالجة سياسية مناسبة. ولولا صعودنا في تلك الفترة لحصلت المعركة الفاصلة في كانون الثاني/يناير ١٩٨٣ أو شباط/فبراير. والذين عاشوا معركة الجبل يعرفون هذه الحقيقة. في تلك المرحلة ارتسمت ملامح خطوط التماس في الجبل، وقطعت الطرق، وصار على السكان من الفئتين أن يعبروا هذه المنطقة أو تلك بضمانة الجيش الإسرائيلي، أي الجيش الذي كان يسيطر على المنطقة.

عندما قلت إنني مستعد للصعود إلى الجبل، خافوا في القيادة. وبدأ الهمس وبدأت الأسئلة. ماذا يريد، وبماذا يفكر، وماذا يخطط؟ بعد أسبوعين اتخذوا القرار بصعودي إلى الجبل. وأنا متأكد أنهم لو شعروا أن ثمة أملاً، وبنسبة واحد في المئة، في تجميد الوضع من دون صعودي، لما وافقوا عليه. كانوا في الواقع أمام خيار من اثنين: إما التسليم بسقوط الجبل سريعاً، وإما صعودي إلى الجبل. عينت مسؤولاً عن الجبل، واصطحبت معي عدداً من المسؤولين الأساسيين من الشمال، وصعدت. وفي الأسبوع الأول درست الوضع الميداني. كانت سنة قاسية، ثلوج وصقيع. ذات يوم كنت في بيروت أخلّص بعض الأعمال، وكان الطقس طبيعياً، فقررت العودة ليلاً إلى الجبل. وحين وصلت إلى بحمدون، كانت الطريق مقطوعة حتى رشميا. عجز الجيب عن السير، فلاقاني آخر على أطراف رويسة النعمان. أكثر من ساعة ونصف الساعة من أطراف منصورية بحمدون حتى رويسة النعمان. ثم أقلني الجيب إلى مركز القيادة في عين تريز.

أوضاع محزنة في الجبل. كثيرون غادروا، ومن بقوا يرتسم الخوف على المصير على وجوههم. وبدا لي وكأن الناس تركوا ليواجهوا

قدرهم في ظروف بالغة الصعوبة. رؤية الناس زادتني إصراراً وتصميماً على أن أفعل شيئاً علّنا نتمكن من إنقاذ من يمكن إنقاذه. في اللحظة الصعبة لا تستطيع الاستقالة من مصير الناس، وأن تبتعد وكأن الأمر لا يعنيك. وضعت خطة بسيطة وسهلة. تبدأ الخطة بوقف التدهور، ثم بالشروع في اتصالات مع الحزب الاشتراكي على المستوى المحلي، على أن تجري القيادة في بيروت اتصالات على المستوى السياسي للوصول إلى ترتيب ما.

عرضت الخطة على القيادة في بيروت، فوافقت عليها، ولم يبخل فادي وفؤاد بشيء من الإمكانات اللازمة. وشعرت أن وقف الانهيار يستلزم رفع المعنويات أولاً، وبعض التعديل في ميزان القوى. فذهبت إلى الشمال، وعدت مع قوة كبيرة، الهدف منها أن يستعيد الناس ثقتهم بالقدرة على البقاء هناك. وشعر أهالي القرى بارتياح، ورحنا نركز خطوط الجبهة لوقف عمليات الكر والفر. أهالي القرى كانوا على أعصابهم، ولا يدرون متى يتسلل الاشتراكيون والمقاتلون الفلسطينيون إلى قراهم. من الناحية الثانية، بدأنا الاهتمام بالوضع المعيشي، وباشرنا اتصالات مع الحزب الاشتراكي، بدأها بيار الضاهر ونادر سكر باتصالات مع هشام ناصر الدين وأكرم شهيب وتوفيق بركات.

ما إن أطل أول الربيع حتى بدت صورة الوضع أفضل من ذي قبل. عسكرياً، زال الخطر الداهم، واستعاد الناس الثقة. وسياسياً، بدأنا المحاولات التي كان علينا أن نقوم بها. وفي حزيران/يونيو، ارتفع عدد الموجودين في المناطق التي نهتم بها، من أربعة آلاف إلى خمسة وعشرين ألف نسمة. ضاعفنا اهتمامنا بالوضع الاجتماعي ـ الاقتصادي. الطرق التي شقت في سبعة أشهر زادت

على تلك التي فتحت في سبعين سنة من عمر الجبل. ورشة دائمة. طرق زراعية، وأخرى للحماية من القنص، وصار الجبل كله خلية نحل. حصلنا على مساعدات من مؤسسات اجتماعية وإنسانية لدعم وجود المدنيين هناك. التزمنا برش المبيدات والأشجار، ونفذنا مشاريع لمساعدة المزارع على البقاء في أرضه. وعاد الناس ليزاولوا أعمالم، ولو بالحد الأدنى، وعلى أساس أن الشيخ أمين وحكومته الكريمة يجريان اتصالات لترتيب الوضع.

في شهر آب/أغسطس بات الوضع الأمني مقبولاً، ووصل الوضع المعيشي إلى حد معقول جداً. بين تموز/يوليو وآب/أغسطس، بدأنا نسمع أن الإسرائيليين ينوون الانسحاب. نزلت إلى مركز القيادة مرات عدة، وكان رأيهم أنه من الممكن أن ينسحب الإسرائيليون، وبدأوا التحضير لما يمكن عمله. عندما كنت ألتقي الشيخ أمين، كان يستغرب هذه المعلومات، ويرد عليّ: «الأميركان أكدوا لي إنو ما في انسحاب». وعندما كنت أسأله لماذا لا ينتشر الجيش اللبناني هناك، كان يرد: «ما بتسلم من الإسرائيليين». وكنت أقول له: وماذا لو انسحب الإسرائيليون؟ فيجيب: لن ينسحبوا.

في آخر آب تزايدت المؤشرات على انسحاب إسرائيلي وشيك، وبدأوا في تفكيك المنشآت اللوجستية. قبل أسبوع نزلت إلى بيروت والتقيت الشيخ أمين ومعه قائد الجيش العماد إبراهيم طنوس. خرجنا إلى الشرفة وكان الضباب كثيفاً. جلس الرئيس في الأرجوحة وأنا والعماد طنوس على كرسيين قربه. استعرضت مع الشيخ أمين الوضع، وقلت له نحن معزولون هناك والقوة محدودة. والجبهة فوق مستطيلة عرضها ضيق جداً لا يزيد على الكيلومتر الواحد فيما طولها يصل إلى ٤٠ كيلومتراً: من الكحلونية حتى

معاصر بيت الدين ومن راس الحرف حتى كفرنبرخ وأطراف دير القمر. قلت لهم: نحن قبضايات، بتعرفوا ولكن الجبهة هذا وضعها. لديهم إمكانات للاختراق من أماكن عدة ولا قدرة لدينا على نقل مجموعة من مكان إلى آخر حين يكون القتال محتدماً. لأن كل الطرق تصبح مقطوعة. وكان جواب أمين: «لا تهتم ولا تقلق».

أذكر في تلك الفترة أن العماد ميشال عون صعد إلى قطاع عاليه في إطار مهمة استطلاع لاستكشاف إمكانية انتشار الجيش فور انسحاب الإسرائيليين، أو بالتزامن مع هذا الانسحاب. يومها اعترضت نساء الموكب الجيش وأنزلن عون من الرانج روفر وعملوا له اللازم.

أرجع إلى الشيخ أمين. سألني: كم تستطيع الصمود؟ فسألته: ما هو الوقت الذي تريدونني أن أصمد خلاله بانتظار وصول الجيش؟ وبعد همس ووشوشة مع العماد طنوس قال: «فيك تصمد ١٢ ساعة». فأجبت: اعتبرهما ٢٤ ساعة لكن مش أكثر من هيك.

مررت لرؤية رئيس الكتائب الشيخ بيار الجميل وعرضت له الأوضاع وسألته في النهاية هل هناك إمكانية لانتشار الجيش، فرد بالقول: لا، فنحن لا نتسلم من الإسرائيليين. غريب، منطق بعض الناس. جيش غريب يقول أريد أن أنسحب، فمن هو صاحب الحق في بسط سلطته على الأراضي التي سيجلو عنها ذلك الجيش؟ في استعادة الأرض والسيادة تتسلم الجيوش أرضها من الشيطان. اعتقدت آنذاك أنه لا بد من أن تكون لدى هؤلاء الناس خطة كبيرة لمواجهة الموضوع، ولكن للأسف. عدت إلى الجبل ولم

نكن نعرف موعد الانسحاب الإسرائيلي، لكننا شعرنا أن العد العكسي بدأ فعلاً، وشرعنا في التحضير بسرعة لكل الاحتمالات.

من حواري مع الشيخ أمين فهمت أن المطلوب هو الصمود بضع ساعات يصل بعدها الجيش وتصبح المنطقة في عهدة الدولة، فتزول أسباب المواجهة والاحتكاك ويكون الجيش ضمانة للفريقين فنتجنب مأساة في الجبل. كم تتغير الأيام. لم يصعد الجيش بالقوة إلى الجبل، لكنه بعد أعوام نزل بالقوة إلى عين الرمانة وضبيه محطماً المؤسسات الاقتصادية وبيوت الناس.

لا بد من التطرق هنا إلى موضوع نسج حوله الكثير من الاتهامات. وهو موضوع «القوات» وإسرائيل. لو كانت «القوات» حليفة لإسرائيل أو الطرف الذي يتعامل مع إسرائيل لما خسرت حرب الجبل.

لو كانت إسرائيل تريد انتصار «القوات» في الجبل لأمكنها ببساطة تحقيق ذلك. كان يكفي إقفال عدة طرق، ليتغير كل شيء، وكان يكفي توجيه تحذير للقوى الفلسطينية التي كانت تستعد لدخول الجبل ليتغير مسار المعركة. ما حصل على الأرض في الجبل يشكل رداً قاطعاً على كل ما أطلق من اتهامات. وأكثر من ذلك أقول إن الإسرائيليين كانوا يعرفون طبيعة المنطقة، والمعركة، وما ينتظرنا، وماذا سيفعل الاشتراكيون والفلسطينيون بعد انسحاب القوات الإسرائيلية. أقول هذا للتاريخ ولكي لا يبقى أي التباس. مثل آخر على الشائعات. خلال المواجهات مع العماد عون راحوا يرددون أن الإسرائيليين يملأون شوارع جونيه ويتسببون في عجقة سير. هذه المناطق مفتوحة على الدوام أمام الصحافة ولم تقفل يوماً. مطبخ

الشائعات قديم ويعمل ليلاً ونهاراً. وبعض الناس يبنون عمارات على نبأ تم تسريبه إلى مجلة بعيدة.

أكملنا استعداداتنا ووضعت القيادة العسكرية في الجبل في أجواء الصمود مدة ٤٨ ساعة حتى ولو فتحت علينا نيران جهنم. علينا أن نصمد ٤٨ ساعة بانتظار الشيخ أمين ودولته. في هذه الأثناء شعر بعض أهالي الجبل بأن شيئاً قريباً سيحدث فنزل كثيرون منهم إلى بيروت وبقي معنا نحو ١٥ ألف نسمة.

ليل السبت - الأحد جاء بيار الضاهر وقال لي إن الإسرائيليين سينسحبون في غضون ساعات. أبلغت بيروت وكانوا على علم. رفعنا درجة التأهب، ثم انسحب الإسرائيليون من كل قطاع عاليه، وبمجرد انسحابهم بدأت المعارك على كل الجبهات وفي كل الاتجاهات، وبحسب وعود الشيخ أمين فإن الجيش كان يفترض أن يصل ظهر الأحد.

تزايدت حدة المعارك وتضايقنا على محور صوفر - بحمدون الذي تعرض لهجوم بالمدرعات، ليست بالتأكيد مدرعات الحزب الاشتراكي. وفي موازاة ذلك شنت هجمات ثانوية على محاور شاناي ومجدل المعوش - الباروك وكفرحيم. لكن المهاجمين زجوا بثقلهم الأساسي في قطاع بحمدون. كانت المعارك طاحنة وضارية، وكان على المقاتل أن يحافظ على موقعه وسط طوفان من النار. تلك الساعات الصعبة ذكرت بكل صعوبات التاريخ، وكم عاند الأجداد، وكم طحنوا صخور الجبل وطحنتهم. وفي مثل هذه الساعات يتذكر اللبناني سوء الحظ الذي يطارد وطنه وشعبه، وهذا القدر الذي يرخي بثقله على جيل يسقط هنا وهناك بدل أن يعيش

هنا وهناك.

مضى ليل السبت - الأحد. كان المهم أن نحافظ على الوضع العام، حتى ولو خسرنا موقعاً أو قرية.

الأحد تصاعدت حدة الضغط على محاور صوفر - شاناي. بعد الظهر اتصل بي بول عنداري، المسؤول عن المحور هناك، وأبلغني أن الوضع بات صعباً. وقبل أن أتوجه إلى المكان اتصلت ببيروت، وسألت عما يجري، وأين الشيخ أمين، فلم أحصل على جواب. في بحمدون شاهدت الوضع على الأرض. ضغط كثيف، والمهاجمون يلقون بالمزيد من القوات والمدرعات في المنطقة، ومواقعنا مجمدة. واتضح لي أن الوضع سيكون بالغ الصعوبة إذا ما استمر على ما هو عليه.

الأحد تمكنا تقريباً من تجميد الوضع على ما هو عليه. مع الليل خفت حدة الاشتباكات، فانتقلت إلى المراكز المتقدمة على الجبهة لأبحث مع المسؤولين المباشرين ماذا يمكن عمله. وشعرت هناك بقساوة المعارك. إرادة المقاتلين صلبة، لكننا فقدنا ٥٠ شاباً في نهار واحد. عسكرياً كان لا بد من إعادة انتشار لتجميع المواقع أكثر. نفذنا ذلك خلال الليل، وبعدما كنا ننتشر على تلال بحمدون وصوفر، انتقلنا وتمركزنا في المباني على أطراف بحمدون. صباح الاثنين نجحت عملية تسلل في الوصول إلى قلب بحمدون، وفي الوقت نفسه تعرضنا لهجوم قاس على مشارف بحمدون. تمكنت قوة صغيرة من السيطرة على عملية التسلل، لكن الضغط كان فظيعاً، وقد مضى على بدء المعارك ٣٦ ساعة.

استمرت المعارك ضارية حتى ليل الاثنين - الثلاثاء، واستطاع

المقاتلون وبأعجوبة أن يحافظوا على مواقعهم. لم يكن هناك أي تكافؤ، لا في العدد ولا في العتاد. في الليل تفقدت العسكريين. منذ ٤٨ ساعة وهم يقاتلون، والهجمات لا تتوقف. عدد كبير من القتلى وعدد كبير من الجرحى. والبقاء في المواقع الحالية يشبه الانتحار الكامل. عدت إلى غرفتي في مقر القيادة، واختليت بنفسي نحو ربع ساعة. ليس سهلاً أن ترى هؤلاء الشبان يلقون بأنفسهم في النار، وأن ترى الدم في كل قرية وعلى الصخور والمتاريس. في هذا الوطن، كل شبر مكلف، ولكل قطرة حرية ثمن. إحدى المشاكل كانت أن لدينا مجموعة عسكرية على طريق الكحلونية حيث يهدد أي اختراق لطريق بحمدون - عاليه بإبادة العسكريين والمدنيين معاً. على الفور أبلغت كل الموجودين في قطاع الكحلونية وعين الجديدة بالانكفاء إلى قطاع رشميا.

رحت أعيد النظر في الوضع بأسره. إذا طلع صباح الثلاثاء علينا ونحن في مواقعنا ستحدث مجزرة عسكرية وستنهار الخطوط الدفاعية. مضى ٤٨ ساعة على بدء المعارك. لقد طلبوا منا أن نصمد ١٢ ساعة ليصل الجيش وينتشر، فيكون ضمانة للجميع، وتصبح المنطقة في عهدته. وفكرت في تلك اللحظة بهؤلاء الناس الذي يطبق عليهم الموت من كل الجهات، وبأصحاب القرار في بيروت الذين من واجبهم أن يتحركوا، أو يحاولوا على الأقل. جمعت المسؤولين العسكريين، وأبلغتهم قرار الانسحاب من كل قطاع بحمدون إلى بحمدون الضيعة. وكانت التعليمات تقضي بترحيل المدنيين أولاً، وبعد التأكد من رحيلهم ينسحب العسكريون. ولولا ذلك لسقط آلاف القتلى من المدنيين في الجبل. في بعض القرى تضاعفت المأساة. لم يقبل السكان بمغادرة بيوتهم، وقالوا إنهم من الاشتراكيين، ولا علاقة لهم بالمواجهة. ماذا تفعل؟

لا تستطيع إقناعهم ولا إرغامهم. هذا ما حصل مع بعض أهالي بلدة البيرة. وعندما كنا في دير القمر، عرفنا أن المهاجمين جمعوا الذين وجدوهم في البيرة وأطلقوا النار عليهم، وكانت الحصيلة ٥٠ قتيلاً.

بدأنا بتنفيذ خطة انسحاب تدريجي من عين الجديدة وبخشتي وبحمدون الضيعة والكحلونية ورأس الحرف. وعند الصباح كنا جميعاً في بحمدون الضيعة. أنا عدت سيراً على الأقدام من بحمدون المحطة إلى بحمدون الضيعة. لقد عدت مشياً لأتأكد بنفسي أننا لم ننس أحداً. وكانت ترافقني في العودة مجموعة صغيرة تتأكد من أن المدنيين انتقلوا إلى مكان أكثر أماناً. صباح الثلاثاء كان قد مضى على المعركة ٥٢ ساعة. أين الشيخ أمين؟

بعد هذه الانسحابات والقتال المرير المتواصل، شعرت أن أوضاع العسكريين صارت دقيقة، وأنه لم يعد في استطاعتهم مواصلة القتال. عندها انفردت بنفسي نحو ربع ساعة، ووجدت أن الأفضل هو اعتماد سياسة الحد من الخسائر. لقد ظهرت معطيات الوضع واتجاهاته. وفي الوقت نفسه، كنا نتعرض لهجمات في مجدل المعوش، وصرت مفصولاً عن كل القوى، لأنني مضطر لمعالجة وضع بحمدون بالتحديد. عندها أعطيت الأوامر بترحيل كل المدنيين من بحمدون إلى رشميا، ثم ينتقل العسكريون إلى المنصورية. في تلك الساعات مرت في بالي تواريخ الجبل وأحداث ١٨٦٠ كشريط تلفزيوني سريع. ومع مجموعة صغيرة عدت سيراً على الأقدام إلى المنصورية. في المنصورية حاولنا صد الهجوم، لكنه كان قوياً، واندفعت مدرعات المهاجمين بكثافة، وضايقتنا كثيراً. كل خمس دقائق مزيد من القتلى والجرحى. استمرت المعركة في

المنصورية ساعتين لكنها لم تنفع. ومن جديد كان لا بد من سياسة الحد من الخسائر. جمدنا الوضع قليلاً حتى أخلينا المدنيين إلى رشميا، والعسكريين إلى رويسة النعمان، وأقمنا هناك خطاً دفاعياً. في هذا الوقت كانت القوى المهاجمة تنظف بحمدون المحطة وبحمدون الضيعة. ذهبت إلى رشميا واتصلت بأمي من هناك، فقالت لي: «انتبه على حالك وعالمدنيين وعالعسكر اللي معك».

استمرت المعارك، ومال ميزان القوى تماماً لمصلحة المهاجمين. وفكرت بضرورة الإفادة من القوة العسكرية التي بقيت لدينا. أي الانتشار في بقعة صغيرة بحيث يكون هناك عسكري على كل شبر، وأن تكون في تلك البقعة مقومات الحياة. ولهذا يجب أن نفكر بقرية كبيرة. وهكذا تم اختيار دير القمر. فهي بلدة عريقة، ولاسمها وقع في تاريخ الجبل وتاريخ لبنان، وهي بلدة الرئيس كميل شمعون، مما يعطي للمسألة ثقلاً سياسياً. وفي البلدة مقومات البقاء والعيش لبعض الوقت. وهكذا أصدرت أمراً بالانتقال إلى دير القمر وفق خطة انسحابات تدريجية انتهت صباح الأربعاء، إذ وصل إلى البلدة كل المدنيين والعسكريين، ما عدا المدنيين الذين رفضوا.

تلك المشاهد لا تغيب عن البال والذاكرة. رؤية الناس وهم يقتلعون من قراهم ويتركون جنى العمر والأرض التي أحبوا. تلك المشاهد كانت تحمل كل تاريخ لبنان، وكل ما في ذلك التاريخ. نساء وعجزة وأطفال يهجرون من الأماكن التي عاشوا فيها، واختلطت أيامهم بترابها. ذاكرة التاريخ لا تنسى، وحكمه سيكون مبرماً. أين كان «بطل التحرير» ميشال عون ليأتي لاحقاً ويحاول

إلغاء «القوات»؟ أين كان أمين الجميل، وأين كان جميع السياسيين؟ الحقيقة، لم يكن متوقعاً من هؤلاء أن يتصرفوا بالحد الأدنى من الضمير. نحن فعلنا ما فعلنا لنرضي ضميرنا. في الساعة الصعبة يفترض بالمسؤول أن يكون مع الناس. معهم في المصير وفي دائرة الخطر. وأسهل شيء هو التلطي والابتعاد لتوزيع الانتقادات لاحقاً.

حاولنا نقل كل الأعتدة العسكرية، وما لم نستطع نقله جررناه. تمكنا من تخليص كل المدنيين. ولو لم أفعل ذلك لحدثت أشياء فظيعة. ربما حدث اختراق كبير مفاجئ، خصوصاً من قبل حلفاء الاشتراكيين الذين كانوا الطرف الأساسي في الهجمات، وهذا يعني مجزرة كبرى، أي قتل كل العسكريين وعددهم نحو ألفين، وأكثرية المدنيين الذين لا يستطيع أحد تقدير عددهم. وفي دير القمر بدأ الاهتمام بترتيب أوضاع المدنيين، ووضعت على الفور خطة دفاع عن البلدة.

مكثنا في دير القمر بانتظار ما ستفعله الدولة الكريمة، وما ستفعله قيادة «القوات». توقفت الأعمال العسكرية في الشحار، وكنا ننتظر أن يصبح هناك خط عسكري من «البنيه» إلى «جسر سلفايا» على منطقة دير القمر. وتبين أن الجانب العسكري قد تراجع، وتحولت المسألة إلى مسألة حصار، ورحنا نحاول ترتيب أوضاع الأهالي، وكانت المياه من المشاكل الرئيسة.

بريد وسجائر

انتظار طويل وصعب. حصلت مجموعة أحداث، بينها تفجير مقر قيادة «المارينز» والوحدة الفرنسية، ونحن معلقون في دير القمر.

كان هناك طريق وحيد للسير على الأقدام من دير القمر إلى أطراف «كفرقطره» وأطراف «الكنيسة»، ثم وادي راشيا وسلفايا، ثم صعوداً باتجاه الشحار إلى «البنيه» و«كفرمتى» على الأطراف. بعض الشباب كانوا يغامرون بسلوك الطريق لشراء الدخان والأكل، ويحملون ما يحصلون عليه على ظهورهم عائدين إلى البلدة المحاصرة. كان البريد العسكري يمر على الطريق نفسها، التي كان يسلكها بعض المسؤولين في «القوات» ليصلوا إلينا.

تسألني إذا كان بعد الذي حصل يمكن أن نجلس مع وليد جنبلاط حول طاولة مجلس الوزراء، وأجيبك: نعم. هناك الكثير من المشاكل، ونحن لا نعتقد أن الحل هو الحروب المتواصلة، بل الحوار. القطيعة لا تؤدي إلى شيء. والمقاطعة لا تحل مشكلة. والمسألة ليست شخصية، فأنا لم أشن حرباً على وليد جنبلاط، أنا كنت عسكرياً، ولم أكن في موقع الحوار.

أما ما قلته عن حساباتي من وراء الصعود إلى الجبل، فليس صحيحاً. لم أصعد لأقوم بدور أعود منه منتصراً إلى المنطقة الشرقية. لو كنت أبحث عن دوري الشخصي وحساباتي الضيقة، ربما فضلت خياراً آخر. كل لحظة في الجبل كانت تحمل خطر الموت. في الجبل ظهرت ملامح كارثة، فقلت سنحاول الإنقاذ. إذا المساهمة في الإنقاذ تعزز الموقع، فلا بأس. لكن قصة الجبل كانت أكثر تعقيداً.

لم يكن ١٢ آذار/مارس ١٩٨٥ حدثاً بسيطاً أو عابراً. إنه حدث مركب بخلفيات مركبة. لكي يقع حدث بهذا الحجم لا بد من أن تسبقه تراكمات تدفع باتجاهه. الخلفيات وحدها لا تكفي، ولا

بد من سبب مباشر ليترجم الحدث على أرض الواقع. فلنبدأ من البداية. منذ العام ١٩٧٠ طرحت في حزب الكتائب مسألة السلطة والتمثيل، وعلى نحو صريح. واتخذت منحى أكثر حدة عندما ظهر أمين وبشير، نجلا مؤسس الحزب الشيخ بيار الجميل، في ساحة العمل السياسي في الحزب. بدأت ملامح اتجاهين في حزب الكتائب، ومناخين. مناخ أو جو كنا نسميه جو أعمدة الهيكل، أي جو الذين يسلمون بقيادة الشيخ بيار في صورة مطلقة، ومن دون أي بحث أو مناقشة، ومن دون أي دخول في التفاصيل. يمكن أن ندرج مثلاً في هذا التيار الأستاذ جوزف أبو خليل، والأستاذ سليم رعيدي، والأستاذ جوزف الهاشم، وهلم جراً. وهي مجموعة تنتهج أورثوذكسية حادة لجهة الزعامة والسلطة السياسية في الحزب. ومع هذه المجموعة في المرحلة الأولى أمين وبشير. طبعاً في مرحلة لاحقة صار لـ«بشير» خياره، ولـ«أمين» خيار أيضاً. كانا يبتعدان في بعض الأحيان عن هذه القاعدة بقدر ما يخدم ذلك خياراتهما. لكن، وبالمجمل، إذا ظهر خارجهما أي تيار حزبي يقوم بما يقومان به، كانا يعودان إلى الالتفاف والتحول مجدداً إلى جزء من الأورثوذكسية الحزبية. بمعنى أن أمين الجميل كان يسمح لنفسه أن يخالف القوانين الحزبية في إقليم المتن، والشيخ بشير كان يسمح لنفسه أن يخالف القوانين الحزبية في مجلس الأمن الكتائبي. لكن إذا حاول مثلاً غيث خوري، رحمه الله، أن يخالف القوانين في إقليم جبيل، يسارع أمين وبشير إلى الدفاع عن القوانين الحزبية. هذه قراءة لأوضاع تيار في الحزب لا تعني أبداً التشابه بين أمين وبشير. في نظرنا الآن، وفي كل وقت، نحفظ لـ«بشير» مواقفه، والكثير الكثير، وتبقى ذكراه في قلوبنا. أمين شيء آخر تماماً، ورأينا فيه معروف.

في المقابل، كان هناك تيار آخر بدأ بالتحديد مع كريم بقرادوني في مصلحة الطلاب، واستمر محدوداً مع خليل نادر، لأن خليل لم يكن ثابتاً ومستقراً أصلاً. هذا التيار كان يدعو إلى مزيد من الانفتاح على مختلف الصعد، وخصوصاً على صعيد تمثيل الشباب داخل الحزب. وإذا شئت، فإن هذا التيار كان يمثل نوعاً من «البيريسترويكا». وفي هذا التيار كان هناك كريم بقرادوني، وإبراهيم نجار، وخليل نادر، وجورج كساب، وميشال سماحة، ومجموعة أخرى من الشباب. هكذا بدأت قصة التيارين تتبلور، وكان التيار الثاني يدعو إلى الانفتاح على الصعيد اللبناني العام. فقد أدت سياسة الشيخ بيار إلى تقوقع الحزب في موقع سياسي واحد. وباستمرار تسأل عن موقف الحزب، فيأتي الجواب أنه مع الشرعية.

طيب، إذا الشرعية أخطأت؟ مع الشرعية. إذا طرح موضوع الجنوب، يقولون ننتظر لنرى موقف الشرعية، ونقف إلى جانبها. كانت لهذا التيار مجموعة مآخذ على القيادة الحزبية، ومن أهم هذه المآخذ الموقع السياسي المتحجر للحزب في مواجهة كثير من الأزمات. الحزب يستوحي مواقفه من مواقف الشرعية، كائنة من كانت هذه الشرعية، ثم يأخذ موقفاً إما مائعاً، وإما يعوزه الوضوح. هذا التباين كان ينطلق من تلك النقاط، وصولاً إلى مسألة التمثيل على مستوى الأحجام السياسية في الحزب، أي على مستوى مواقع اتخاذ القرار. نواب الحزب كان بعضهم في الموقع الآخر، أي الموقع الأورثوذكسي. ولم يكن التطابق كاملاً بين المنتمين إلى هذا الموقع، وكانت هناك درجات في الأورثوذكسية. طبعاً كان هناك من النواب من يسايرنا، أو يحالفنا، ولكن في ساعة التصويت كانوا يعودون إلى الانسجام مع الجو السائد في المكتب السياسي.

غير أن هذه المسألة لم تكن مهمة. مع بداية الحرب، وتصاعد التأزم في الوضع العام في البلاد، راحت نقاط الخلاف تزداد، ومواضيع الخلاف تتعمق بقدر ما كانت الأزمة تستشري في جسم الوطن. ثم تسلم أمين وبشير مسؤوليات حزبية. وبإخلاص كامل للحقيقة يمكنني القول إن أول من تجاوز القانون الحزبي في الكتائب، وكسره، كان أمين، ثم بشير. أول من كسر القانون والنظام، وتخطى المؤسسة وقوانينها وأشخاصها، كان أمين الجميل.

أذكر في بداية حرب السنتين، كان الحزب قد اتخذ جملة قرارات. والحقيقة أن الروحية التي كانت سائدة في حزب الكتائب كانت نقية وممتازة، والانضباط الذي كان سائداً كان ممتازاً أيضاً. لن أغرق في التفاصيل لأروي أسماء كل الذين ساهموا في خراب الحزب، لكن أمين الجميل يأتي بلا شك في طليعتهم. لقد أدت ممارساتهم إلى ضرب الجو الصحي والسليم، وإيجاد جو من الفساد والتخطي والتعدي واللاانضباط. أذكر قبل حرب السنتين إذا حدثت مخالفة صغيرة من أحد الأعضاء أو أفراد القوى القتالية، كنت أرى أعضاء في المكتب السياسي من أصحاب القدر والقيمة، وإن كانوا أورثوذكسيين، من أمثال جوزف أبو خليل وجوزف سعادة، الأمين العام السابق، أو من غير الأورثوذكسيين، أمثال طانيوس سابا، في حالة من التأثر الشديد. بعضهم كان يصل إلى حد البكاء، ويقول: «هيك بعد ٥٠ سنة من النضال الحزبي تأتي عناصر وتهين مدنياً، أو تسرق، أو تحصل تجاوزات؟». من جملة القرارات التي اتخذها الحزب قرار بمنع الجبايات المحلية، وأنه إذا أرادت مؤسسات التبرع للحزب، فلتتبرع للصندوق المركزي وهو يقوم بتوزيع ذلك على المؤسسات الحزبية. لم يقبل أمين الجميل بالصندوق المركزي، وكان يريد أن ينظم الجبايات في المتن،

والسبب أنه كان في تلك المنطقة عدد كبير من المؤسسات الصناعية والمالية. رفض أن تصب التبرعات في الصندوق المركزي لتوزع بالتساوي على المناطق حسب احتياجاتها، والمقصود بالتساوي حسب الاحتياجات، وليس المقصود أن نعطي إقليم المتن مثلاً مبلغاً يعادل ما نعطيه لإقليم النبطية.

لم يعجب القرار الشيخ أمين، وبدأ بأعمال الجباية في المتن، وثمة حادث يشير إلى ذهنية التعامل مع الناس. صاحب أحد المعامل في المتن كان على علاقة محدودة بالأمور السياسية والحزبية، لكنه كان يعرف أن الحزب اتخذ قراراً بمنع الجبايات المحلية. ذات يوم، جاءت إليه جماعة الشيخ أمين لتحصيل الجبايات منه، فقال لهم: أنا أريد أن أتبرع للحزب الذي أصدر قراراً بوقف الجبايات المحلية. ردوا عليه: نحن لا نفهم بالحزب، يجب أن تدفع لصندوق المتن. حصل يومها شجار، فاشتكى الرجل للقيادة الحزبية التي وجهت للشيخ أمين سؤالاً عن الحادث وجمع الجبايات. فجر اليوم التالي استيقظ الحزبيون ليكتشفوا أن انفجاراً وقع في الليل في مصنع صاحب الشكوى، ودمره. لقد كان أمين أول من خرق نفسية الحزب وروحيته، وأول من تخطى قوانينه، وكل الأعراف، وكل المسؤولين. تخطاها أمين، ثم تبعه بشير، ثم بدأت مجموعة من المسؤولين في الخروج على كل القواعد. هذا الكلام ليس من باب الاتهامات، فكل الحزبيين الذين عاشوا تلك المرحلة يعرفونها وبالتفصيل، وأستغرب أن أحداً لم يتحدث عنها حتى الآن، ولم يكشف وقائعها.

في ظل هذا الجو كنا نحاول أن نتحرك من ضمن القواعد الحزبية والنظام الداخلي، مع الاعتراف بوجود خلافات في وجهات النظر

بيننا وبين القيادة الحزبية حول عدد كبير من الأمور، لكننا لم نحاول مرةً تخطي القوانين الحزبية. ومع بداية حرب السنتين، رحنا نلاحظ الخروج على القواعد الحزبية. يمكن القول إن الشرارة انطلقت من هنا. فتلك الممارسات أدت إلى انعدام المقاييس والقيم، وبدأت مشاعر الخيبة. أقل واحد منا كان قد مضى على انتمائه إلى الحزب عشر سنوات، والبعض أمضى فيه عقوداً من عمره. أدى ذلك الواقع إلى انتقال أشخاص كثيرين من صفوف الأورثوذكسية الحزبية إلى صفوفنا، ولكن في صورة غير معلنة، مثلاً طانيوس سابا والياس ربابي والشيخ يوسف الضاهر وابراهيم نجار. أكثر وأكثر، سمير إسحق ومجموعة أخرى من الذين كانوا في صفوف الأورثوذكسية قبل الحرب، دفعهم تخطي المسؤولين المحليين للقواعد الحزبية في اتجاه التيار الآخر.

استمرت حرب السنتين، وشعر كثيرون في الحزب وكأن أمين وبشير بدآ في تقاسمه، وأن على الباقين أن يصفقوا لهذا أو لذلك. وبدأت التساؤلات. هناك في الحزب من هم أكثر من الاثنين قدراً وعمراً، فهل يجوز، ولمجرد أنهما ولدا الشيخ بيار مؤسس الحزب، أن يتقدما على كل من يستحق؟ هذا المنطق الذي دفعت إليه الأمور يشكل تنكراً لأبسط القواعد الديموقراطية، ويشكل خطراً على الحزب نفسه. لقد التحق المواطنون بالحزب لأنهم وجدوا فيه تعبيراً عن تطلعاتهم، ولم يأتوا ليصفقوا، ولكي يبقى القرار محصوراً في دائرة ضيقة، ودون أي أساس مقبول. وطرحوا الموضوع وكأنه قدر، ولم يكن باستطاعتنا فهمه أو تفهمه.

في هذا الإطار، لا بد من التفريق بين أمين وبشير. فالشيخ بشير استوعب أكثر بكثير من شقيقه، وذلك انطلاقاً من طروحاته

وطبيعته وتصرفاته وممارساته عموماً. وبصراحة كلية أقول إنه لولا الوراثة السياسية، لما كان الشيخ أمين شيئاً. الشيخ بشير، لولا الوراثة السياسية، كان من الممكن أن يستطيع أن يفعل شيئاً بقدراته الذاتية. على الأقل، كان يمكن أن يفعل شيئاً. أما بالنسبة إلى أمين فماذا أقول؟ أنا واثق أنه بقدراته الذاتية ما كان ليتمكن من أن يكون عضواً في المجلس المركزي. حتى على المستوى الشخصي ليس مقبولاً. في بعض الأوقات يحتل بعض الناس بعض المواقع السياسية ولا يكون لديهم شيء سوى أنهم ظرفاء. حتى هذه المزية ليست متوافرة. وربما لهذا السبب يشعر أمين بالرغبة في الانتقام من كل المخلوقات، ولو استطاع الانتقام من الأرض بأسرها لما تأخر لحظة واحدة. لو كان أمين غير ما أقول، لما تخلى عنه الناس. ولعلّ ما انتقل إليه بالإرث خربه وخسره. ويجب ألّا نغفل عامل الانتقام نفسه في موضوع اختياره للعماد ميشال عون رئيساً للحكومة الانتقالية. علينا أن نرجع إلى الخلفيات، وألّا نتوهم أن الأحداث تهبط فجأة، وتصنعها الظروف الآنية.

تقول إن أمين حارب هو الآخر، وتسألني إذا كنت قد قاتلت معه. لا. في معركة الكورة كان الشيخ أمين تحت. كان على خط الساحل، أي على محور البترون - شكا، وكنت أنا على المحور الفوقاني. أنا لم أعرف ماذا كان يفعل بالضبط. هو يقول إنه كان يقاتل. وفي النهاية، القتال شيء، وارتداء البزة العسكرية والتقاط الصور مع المقاتلين، شيء آخر.

أما قولك أن لدي حساسية مفرطة على آل الجميل تحكمت بقراراتي، فسأجيب عليه. دعني أعترف. جزئياً نعم. وسأقول السبب. لقد تربيت أصلاً في جو عائلي عشائري. ولكن لو

أعجبني الجو، لكنت تابعت مع عشيرتي في بشري، وهي أول جزء من العشيرة هناك، وثاني جزء ببشري ككل، وثالث جزء في تجمع بشري ودير الأحمر وكل القرى المحيطة، ورابع جزء في الشمال. هذا يعني أنني ربما كنت تصرفت كسليمان فرنجية. من البداية هربت من الواقع العشائري، وأدركت محدوديته، وأننا كشباب لا يمكن أن نساهم في أي تطوير أو تغيير من خلال هذا الإطار. هربنا من هذا الوضع إلى وضع رأيناه أكثر تطوراً، هو الوضع الحزبي. في تلك الأيام كنت أشعر فعلاً بالسعادة حين نجلس في المؤتمرات الحزبية وألتقي بأناس من مختلف المناطق والثقافات، يتناقشون في موضوع وطني معين. هذه الصورة بحد ذاتها كانت تشكل بالنسبة لي دليل تقدم وتطور. ماذا يجمعني أنا بكريم بقرادوني، وخليل نادر، وجوزف رزق، ومحمد ناصر الدين، غير الاهتمام بتطوير الوضع السياسي والاجتماعي والاقتصادي، والانتقال بلبنان إلى وضع أفضل؟ لقد هربنا من العشائرية والعائلية لأننا لم نتوسم فيها خيراً، لا للمنطقة، ولا للوطن، وجئنا إلى الحزب لأننا افترضنا أن نهجه يقوم على المساواة، والعدل في التعامل بين الأفراد، ولأن الوافدين إليه يتسلحون بفخر سياسي لا مكان له في العشيرة. الفخر السياسي الوحيد في العشيرة يكون بالانتماء إليها، ووضع نفسك بتصرف العائلة في شكل مستمر، ووضعها بتصرفك، ووضع البلد في تصرفها. جئنا إلى الحزب من أجل بلد ديموقراطي ومتطور. وخلال ست أو سبع سنوات، وجدنا ما كنا نتمناه، وتحقق حلم من أحلامنا. وفجأة، استيقظنا على رؤية الحزب ينهار جرّاء تصرفات وممارسات كالتي وصفتها.

من هنا بدأت انتفاضة ١٢ آذار/مارس ١٩٨٥، وانطلاقاً من هذه الصورة. ويخطئ من يعتقد أنها حصلت بسبب قرار إزالة حاجز

البربارة. فمشكلة الحاجز كانت الشرارة فقط. كنا قد وصلنا إلى شعور بأننا جئنا إلى حزب، وبتنا نعيش في آخر. لم يكن هذا هو الحزب الذي نريده، أو الذي حلمنا به. وراحت الأحداث تتوالى. وفي وقت من الأوقات طغت زعامة الشيخ بشير على كل شيء، ولم تعد موضع جدل أو أخذ ورد. في معنى أنه أمام زعامة بشير التي اتخذت مدىً واسعاً، وأمام الأحداث التي أثر فيها بشير، وأثرت فيه، لم يعد الموضوع الحزبي الداخلي مطروحاً. وبالفعل، لم يعد أحد يطرح مشكلة الزعامة في الحزب، أو مشكلة اتخاذ القرار، فصمتنا فترة من الفترات، ورأينا أن التحرك الذي يقوم به الشيخ بشير هو أفضل إطار.

بعد غياب بشير

مع غياب الشيخ بشير عدنا فجأة إلى الأجواء التي كانت قبله وعلى نحو أسوأ. والسبب أن رئيس الحزب الشيخ بيار صار متقدماً في السن، وبالكاد يمارس دوراً رمزياً، وبمعدل ساعتين أو ثلاث ساعات في النهار. كل ما كان يستطيع أن يفعله بعد عام ١٩٨٢ هو الجلوس، أي الدوام. لم يعد قادراً على اتخاذ القرارات، وضبط الأمور، أو تغيير مسارها. وهكذا أصبحت السلطة في الحزب ضائعة بين أيدي كثيرين من المستشارين والمسؤولين الثانويين. جاء الشيخ أمين إلى رئاسة الجمهورية وحسب أنه خليفة والده وشقيقه والعائلة وكل المواطنين وكل المسيحيين وكل اللبنانيين، وراح يستشرس أكثر فأكثر. فجأة وجدنا أنفسنا في وضع حساس جداً، وأكثر بكثير من الوضع السابق، فاضطررنا آنذاك إلى التكتل حول فادي أفرام الذي كان بشير، وقبل أيام معدودة من غيابه، عينه قائداً لـ«القوات».

فادي أفرام هو في النهاية شخص من تيارنا. وهو على المستوى الشخصي جيد جداً. إنسان راكز أخلاقياً ومتعلم. أذكر كنا معاً في الجامعة الأميركية في بيروت الغربية، وفي بداية الأحداث شعرنا بالخوف، ولم نعد نستطيع الانتقال بين الجامعة والمنطقة الشرقية. وتحسباً لأية عملية اغتيال مفاجئة، رحنا ننقل أسلحة وذخائر. أقصد بالأسلحة مسدسين وبضع قنابل. فادي نقل أسلحة أكثر مني. ورحنا نفكر أين سنخفيها. وفي النهاية اهتدينا إلى الحل. أحضرنا علبة طابات التنس، فوجدنا أن القنبلة بحجم الطابة. في تلك الأيام وصلت قنابل أميركية جديدة، ملساء، ولا تشبه القنابل العتيقة. عادة تتسع علبة التنس لثلاث أو خمس طابات. أنا لا ألعب أصلاً كرة المضرب، أما فادي فكان يجيدها. وهكذا نحضر علبة الطابات، ونضع قنبلتين تحت، وطابتين فوقهما، بحيث يحصل التمويه إذا تعرضنا للتفتيش، خصوصاً أن الفلسطينيين كانوا موجودين بشكل كبير في الجامعة. علبة تنس في كل غرفة، ومسدس معي وآخر مع فادي. واتفقنا على أسلوب المقاومة إذا حاولوا قتل واحد منا. كان وجود علبة التنس طبيعياً في غرفة فادي، على عكس ما هو الحال بالنسبة إلي، حيث لم تكن لدي راكيت. وافقنا على القول إنني أرافق فادي لتعلم كرة المضرب، وإنني لا أزال في مرحلة الطابات.

المهم، فادي جيد جداً على المستوى الشخصي. لكن عقله الأساسي غير سياسي، وليست لديه تجربة. تكتلنا حول فادي أفرام، وبدأنا نبحث في ما يمكننا القيام به. ووجه أمين الجميل ضربته. بدأ يغربل الحزب، ويوزع أنصاره، وحين حاول نقل اللعبة إلى داخل القوات، اصطدم بحاجز كبير من قبل فادي أفرام. هنا بدأت تطرح مسألة فؤاد أبو ناضر، ابن شقيقة أمين. فؤاد من الأورثوذكسيين في

الحزب، كلاسيكي، يرى في الشيخ بيار زعيماً تاريخياً، والقيادة الحزبية مقاماً لا يجوز أن يمس، والأمر نفسه بالنسبة للقوانين الحزبية. لم يكن فؤاد يدرك تماماً أن خروج أمين وبشير على القواعد الحزبية هز صورة الحزب، وكل أسس الانضباط والتعامل فيه. وظهر التمييز واضحاً. القوانين تطبق على أفرام، وبعض الأفراد فوق القوانين. مشكلة فؤاد الرئيسية لم تكن في اعتقادي علاقته مع أمين، بل كانت قبل ذلك ثقته العمياء بالشيخ بيار، وبكل ما يسمونه القانون والنظام في الحزب. موقف فؤاد أحدث ثغرة في فريقنا في «القوات»، إلى درجة أن الحزب الذي أعاد أمين تركيبه، جاء وأصدر من دون التشاور مع فؤاد قراراً بحل «القوات»، وكان فؤاد يرى أن المسألة تنتهي حين يتخذ الحزب قراره.

مع فادي أفرام كان الوضع مقبولاً، لكن أمين كان يعد العدة للإمساك بكل شيء. مات بيار الجميل، وتولى إيلي كرامة رئاسة الحزب، فضرب أمين وجماعته ضربتهم. عملوا انقلاباً أبيض داخل «القوات»، وجاءوا بفؤاد أبو ناضر مكان فادي أفرام. أذكر يومها استدعى إيلي كرامة أعضاء مجلس قيادة «القوات»، كان بينهم أبو أرز الذي حاول لاحقاً أن يعرض عضلاته وبطولاته. كنّا نحضر لترشيح واحد من اثنين لقيادة «القوات»: أنا أو إيلي حبيقة. وكان الأخير يذهب أبعد منا بمئة كيلومتر، ولكن حين جاءت الانتخابات، استدعاني كرامة وقال لي إنه يجب أن أنتخب أبو ناضر، وربما أثاروا لي المشاكل. وهكذا، من أبو أرز إلى شارل غسطين وكل الشباب. وحده جورج عدوان رفض السير في موضوع أبو ناضر، فأطلقت النار على سيارته على كورنيش النهر، وظل على موقفه. هذا كان في خريف ١٩٨٤. ورأينا أن الهجوم علينا قد بدأ. فبدل أن نشن نحن هجوماً على القيادة الحزبية

الكلاسيكية، بادرونا بالهجوم. ومع وصول أبو ناضر إلى القيادة، كان لا بد من حسابات أخرى.

مع بشير الجميل، تحولت «القوات» إلى المؤسسة الأولى في لبنان، وأخذت الكثير من الوهج الذي حصلت عليه. ومع غياب بشير، وعملاً بسنّة الحياة والسياسة، بدأت حرب الخلافة. قبل غيابه عين فادي أفرام، ولهذا السبب قبل كثيرون به، ولم تكن هناك مشاكل مع شخصه. وبحسب معلوماتي فإن أقطاب «القوات» قبلوا بفادي لأن بشير عيّنه، أكثر مما اعتقدوا أن فادي هو الذي سيقود المؤسسة لفترة طويلة. وبهذا المعنى بدأت حرب الخلافة منذ اللحظة التي اغتيل فيها الشيخ بشير.

حرب الخلافة كانت تدور على الشكل الآتي: إيلي حبيقة ـ فؤاد أبو ناضر، وإيلي حبيقة ـ سمير جعجع.

تسألني إذا كنت منذ تلك الأيام أخطط لانقلاب. لا، أبداً. كان هناك ثلاثة أشخاص كما قلت، وكان فادي يتحرك أحياناً لإبقاء الوضع على ما هو عليه. وبحسب ميزان القوى كان واضحاً أن اتفاق اثنين من الثلاثة يحسم الوضع ضد الثالث. خلال وجوده في القيادة، اتبع فادي أفرام سياسة هي أقرب إلى الجمود الذي يعرقل كل تغيير. كانت شبيهة بالسياسة التي انتهجها في إحدى الفترات المرحوم الرئيس رشيد كرامي. لا تغيير في القوانين داخل «القوات»، ولا في تركيبتها، ولا عملية تطوير.

عندما تدخّل أمين الجميل، ومعه القيادة الحزبية لإيصال فؤاد أبو ناضر إلى قيادة «القوات»، صار الطرفان الآخران، أي إيلي حبيقة وسمير جعجع، في موقع واحد حتماً. أقول في موقع واحد برغم

وعي إيلي ووعيي أنا لكثير من الفوارق الموجودة بيننا، ابتداء من الممارسة اليومية التفصيلية، وانتهاء بالفكر السياسي الذي لم يكن موجوداً في الواقع لدى حبيقة، وبأي شكل من الأشكال. هذا إلى جانب آخر من المشكلة. ففي موازاة ما كان يحدث في الحزب، كانت هناك مسألة خلافة بشير. وتقاطع العاملان في الظروف التي أدت إلى انتفاضة ١٢ آذار/مارس عام ١٩٨٥.

الجانب الثالث هو أن «حرب الجبل» هزّت «القوات» كلها، وكان لا بد من تغيير ما بعد تلك الحرب. «حرب الجبل» أدت إلى هزة كبيرة جداً، وكادت «القوات» أن تفرط فعلاً. فتلك الحرب كانت أول مواجهة فعلية تخوضها «القوات» ولا توصل إلى النتائج المطلوبة، لا بل إنها أوصلت إلى هزيمة كبيرة. المواجهات التي حصلت قبل «حرب الجبل» كانت إما محدودة جداً، وإما فولكلورية. المواجهة في زحلة في ١٩٨١ كانت محدودة مثلاً. وأول مواجهة واسعة على الصعيد السياسي والعسكري كانت في الحرب. صحيح أن «القوات» لم تكن وحدها، لكنها الطرف الأساسي، وانتهت بفشل ذريع. الحدث طرح، وبإلحاح، موضوع التغيير. وكانت القاعدة تعيش هذه الأزمة، ولولا ذلك لما كانت انتفاضة ١٢ آذار ١٩٨٥ قد حصلت، ولم يكن بويع فريق من داخل «القوات» أن يعلن تسلمه القيادة مكان فؤاد أبو ناضر.

أما الجانب الرابع، فهو المتعلق بالشيخ أمين. والشيخ أمين جانب بذاته، بل قصة بحد ذاته. ولا أتناول هنا دور أمين في اللعبة الحزبية، وله دور فيها، وفي خلافة بشير، بل في الإطار العام وممارساته بصفته رئيساً للجمهورية. لقد توهم أمين أن في استطاعته أن يكون الوحيد الأوحد، فجرب أن يختصر بشخصه الحزب

و«القوات» وكل المسيحيين وكل اللبنانيين. يحكي عن الكل. يمضي ويقضي. محاولته هذه تركت علامة استفهام كبيرة، وساهمت بتحضير الأجواء لتحرك ما ضد كل شيء اسمه أمين الجميل داخل الحزب، أو داخل «القوات». في وقت من الأوقات وخصوصاً بعد حرب الجبل، تصاعدت في أوساط المجتمع عموماً، و«القوات» خصوصاً، موجة عارمة ضد أمين الجميل، وكل ما يمثله، رداً على ما كان يفعله، ليس فقط داخل الحزب و«القوات»، بل أيضاً على المستوى العام. لا يمكن قراءة ما حل بالحزب وبـ«القوات» في تلك الفترة، وبالبلاد آنذاك ولاحقاً، من دون التوقف عند دور أمين، وما تسبب به.

أمام هذه الصورة بجوانبها المتعددة، كنت أرافق تفاعل هذه العناصر. وعندما وصل أبو ناضر إلى قيادة «القوات»، أيقنت أن أمين الجميل مصمم على الاستيلاء على كل شيء في البلاد. تسلم الدولة، وتسلم الحزب، وتسلم «القوات» عبر أبو ناضر.

في الشهور الثلاثة الأولى التي أعقبت وصول أبو ناضر، بدأ موقع «القوات» يتراجع. قرارات كثيرة كانت تتخذ داخل هيئاتها، انتقلت وصارت تتخذ على صعيد الحزب. والصندوق المالي انتقل من «القوات» إلى الحزب. واستوقفتنا المسألة.

لقد خاض بشير ألفي معركة لكي يتمكن من إنشاء صندوق مالي لـ«القوات» مستقل عن الحزب. كان الغرض بالتأكيد السيطرة على الصندوق للتحكم بلقمة المقاتلين. وهذا يعني كارثة، ويعني إلغاء «القوات». قبل ذلك، انتقل إلى الحزب القرار السياسي العائد لـ»القوات». وحتى القرار الإداري لـ«القوات» كاد ينتقل إلى

الحزب. هكذا، عادت «القوات» إلى ما يشبه القوى النظامية التابعة لحزب الكتائب، في ظل سياسة أمين. وبدل أن نحقق خطوة إلى الأمام، عدنا عشر خطوات أو خمسين خطوة إلى الوراء.

تشكلت لدينا قناعة راسخة أن سياسة أمين ستدفع إلى كارثة في البلد. وأعترف هنا وبصراحة كاملة أن سياسة أمين لو كانت سليمة لما كنا استطعنا أن نفعل شيئاً، حتى ولو كانت لدينا نوايا ضده أو اعتراضات على شخصه. لو كانت سياسته سليمة لقبلنا واخترنا الاستمرار. والدليل أنه مع الشيخ بشير توقفنا عن طرح أي شيء، لأن سياسته تسير في اتجاه إيجابي. سياسة بشير جعلتنا نصرف النظر عن طرح أسئلة من نوع: لماذا تخالف أنت القوانين الحزبية، ويحظر على غيرك أن يخالفها، والوراثة السياسية، أو الأشياء الأخرى. مع بشير، اخترنا السير حتى النهاية، على أمل إيصال البلاد إلى الشاطئ الأمين، على أن نترك المسائل الأخرى للمستقبل. كلنا شباب، ولدينا الوقت الكافي لنناقش المسائل الحزبية، والنهج الديموقراطي، وعملية التحديث.

وأجزم أننا كنا سنتخذ الموقف نفسه لو ظهرت ملامح إيجابية في سياسة أمين. لو كانت سياسته سليمة، لما حصلت انتفاضة ١٢ آذار/مارس. كانت كل العوامل تتفاعل، وجاءت سياسته الكارثية المدمرة. رأينا البلد يسقط أمامنا بسبب سياسته، وبسبب سيطرته على كل مواقع القرار. وفي الوقت نفسه، كانت مشاكلنا التاريخية تتفاقم وتتفاعل. كل هذه العوامل تجمعت، وكانت الشرارة موضوع إزالة حاجز البربارة التابع لـ«القوات» على حدود جبيل مع شمال لبنان.

وصف عملية ١٢ آذار/مارس بأنها عملية انقلاب ليس صحيحاً.
لا أتفق معك على هذه التسمية. ليست انقلاباً ولا ثورة، إنها انتفاضة. وأكبر دليل هو التجاوب الكبير معها. لم يسقط إلا قتيل واحد اسمه الياس عقيقي، وبالخطأ، على حاجز من الحواجز. وباستثناء ذلك، لا قتيل ولا جريح. والسبب أن الأرضية كانت مهيأة.

التحضير لانتفاضة ١٢ آذار/مارس ١٩٨٥ بدأ قبل نحو خمسة أشهر، وفي شكل أساسي على يد كريم بقرادوني وإيلي حبيقة وأنا. في البداية لم ندخل كثيراً في التفاصيل. وأنا تعاونت مع حبيقة لضرورات المرحلة، ولم يكن هناك خيار آخر. كانت «القوات» في حالة تدهور توجب علينا أن نتحرك بسرعة لوقفه عند حد معين. لم أخطئ في تقويم حبيقة، ولم تكن لدي أوهام حول فكره. وقلت نقوم بالانتفاضة نحن وإيلي، وبعدها سنتمكن من ضبطه، بمعنى أن يحترم حدوداً معينة ونتعاون في هذا الإطار. ورأيت أنه حتى ولو حاول أن يخرب، فلن يستطيع أن يصل إلى مستوى ما يخربه أمين الجميل من موقعه الشرعي. وحدثت الانتفاضة، وإذا أردت وضمناً، ومن دون أن نتحدث في ذلك، كنت أنا الواجهة السياسية للانتفاضة.

الحقيقة أن ما حدث في ١٢ آذار/مارس كان يمكن أن يحدث في ١٠ أو ١٣ أو ١١ أو ١٥ من الشهر نفسه، إذ لم يكن هناك موعد متفق عليه مسبقاً. ما حدث أن القاعدة القواتية تحركت قبل نحو ١٥ يوماً من ١٢ آذار. حدثت اهتزازات، وراحت القاعدة ترتج. بعد أن نزلنا إلى اجتماعات القيادة، حصلت بضعة تحركات عسكرية بحجة حاجز البربارة. إيلي حبيقة قام ببعض التحركات،

نقل مراكز ووضع حواجز من دون أوامر حزبية. وكان قد اتضح قبل ذلك أنه لم تعد لقيادة «القوات» آنذاك قدرة فعلية على ضبط القاعدة، بسبب التباعد القائم. قبل نحو شهرين، نقلت أنا مقر قيادتي إلى برج الفيدار، على طريق جبيل، في إطار خطوات مدروسة. أي أنني نقلت القوى العسكرية من المناطق الجردية إلى الساحل.

عندما صدر قرار إلغاء حاجز البربارة، جرت مناقشة في الحزب. أوعز أمين الجميل إلى جماعته بتأييد القرار، وهذا ما حصل. عندها أصدرت بياناً باسمي أهاجم فيه قرار المكتب السياسي، وبدأت الأرض تغلي. ردوا علي، وعدت بدوري لأرد. في هذا الوقت، طرح موضوع إقالتي من الحزب، فصارت الأزمة تستعر أكثر فأكثر. وفي الاثنين ١١ آذار/مارس، اجتمع المجلس المركزي، واتخذ رئيس الحزب آنذاك الدكتور إيلي كرامة قراراً بإقالتي من الحزب. والقرار يعني أن الفريق الآخر اختار المواجهة، وأن أمين اختار وضع يده بالكامل، والتخلص ممن يعدّهم عقبات. هكذا بدأت الشرارة. نزلت القوى العسكرية من الجرد إلى الساحل، واستنفر إيلي حبيقة مجموعات الأمن التابعة له، واتخذنا موقع المراقب. لم يكن هناك قرار بأن يكون اليوم التالي هو يوم الانتفاضة. بدأنا التحرك ببساطة. شيء آخر حدث في ١١ آذار/مارس. نشر حبيقة حواجزه في بيروت. واحد من جماعة حبيقة جاء من بيروت إلى كسروان، وأبلغ مؤيدي حبيقة هناك أن جماعة إيلي أخذوا كل بيروت (الشرقية). وعند حبيقة لا انضباط، ولا تخطيط. رواية هذا الشخص دفعت جماعة حبيقة في كسروان إلى التنادي، ولملمة صفوفهم، والنزول بدورهم إلى الطرق. كنت في برج الفيدار حين جاء شبان من قرية بلونة (كسروان) ليسألوني عن سبب انتشار

الحواجز. أجريت اتصالات، فعرفت أن الحواجز انتشرت بكثافة في بيروت، وبدأت الحواجز في الظهور في كسروان.

وكان علي أن أحتاط لأي مفاجأة. فوضع بيروت دقيق. لذلك أعطيت الأوامر بتحضير القوة العسكرية. جرت بعض الاتصالات بيني وبين حبيقة. سألني ماذا يجري عندك، فرددت بسؤاله عما يحصل في بيروت، فقال: أنزلنا بضعة حواجز من ضمن الترتيبات. فأبلغته أن كل جماعته في كسروان نزلوا إلى الطرق، فتساءل عن السبب. في النهاية، اتفقنا أنه ما دام الشباب قد نزلوا، ولم تظهر أي ردود فعل، فلنكمل ما بدأناه، وهذا ما حصل.

قرابة منتصف الليل، تجمعت القوة العسكرية. والمقصود بالقوة تلك التي كانت معي، إذ ما كان تحت أوامر إيلي هو عبارة عن مجموعات عسكرية صغيرة، أو شراذم. في الحادية عشرة، رتبت القوى العسكرية في موكب كبير، أمامه مجموعة استطلاع في سيارات جيب مكشوفة. هنا كانت بدأت ردود فعل القيادة الحزبية التي أنزلت حواجز في مناطق نهر ابراهيم والعقيبة وساحل المتن الشمالي. وامتلأت الطريق بكوكتيل من الحواجز. القوة العسكرية التي أتولى قيادتها في منطقة جبيل، وحاجز لجماعة أبو ناضر والقيادة الحزبية في نهر ابراهيم، وبعدها حاجز لحبيقة، ثم حاجز لجماعة أبو ناضر، ثم آخر لحبيقة، وحاجز لأبو ناضر، ونزلت «قوة ٧٥» التابعة لأمن رئيس الجمهورية إلى الساحة، وأقامت حواجز قرب البريزيدانس.

عندما قررنا السير، أبلغنا بوجود حاجز على نهر ابراهيم بقيادة مفوض القوى النظامية في الحزب في كسروان، جوزف الزايك.

كان على الحاجز المذكور ٧٠ أو ٨٠ عنصراً. وكان همّي الأول أن لا يحدث اشتباك، تفادياً لإراقة الدم. لهذا، طلبت من الشباب أن يقتربوا من الحاجز في ثلاث سيارات جيب تقلّ خمسة عشر مسلحاً، وكنت أنا على رأس القوة التي بقيت وراء نهر ابراهيم، كي لا يشعر عناصر الحاجز بشيء. أعطينا تعليمات لمقاتلي الفريق الذي سيقترب من الحاجز الذي كان يوقف الناس، ويدقق في الهويات، بأن يستمروا في الاقتراب بصورة طبيعية حتى الحاجز. وأكثر من ذلك، بأن يلقوا التحية، ثم يقفز كل واحد منهم على واحد من عناصر الحاجز، ويمنعه من الحركة، على أن نكون قد وصلنا نحن في هذا الوقت. وكانت التعليمات بأن يختلطوا تماماً بعناصر الحاجز، لمنع مجموعة الحماية له من إطلاق النار. كان المقصود أن نشلّ عناصر الحاجز بانتظار وصول القوة التي كنت أقودها، وعدد أفرادها نحو ألف مقاتل.

كان غرض هذا التكتيك تفادي إراقة الدماء. فلو اقتربنا كقوة، واتخذنا مواقعنا حول الحاجز، ربما استنفروا وأطلقوا النار. ونجحت الخطة. اقترب شبابنا: مرحبا شباب، فردوا التحية. وقفز كل عنصر من الجيبات الثلاثة ليمسك بعنصر من جماعة الحاجز. حصل تشابك وشد، ولكن التعليمات كانت صارمة بعدم تركهم يفلتون لتفادي تبادل إطلاق النار، خصوصاً من مجموعة الحماية. بدأ الصراخ من الجانبين: ارموا سلاحكم. وصراخ. سارعنا إلى الحاجز خلال لحظات، وبدل العنصر الذي كان يمسك بعنصر من الحاجز، أمسك الشباب بالجميع. شاهدنا جوزف الزايك المسؤول. سلّمنا عليه، وقلنا له: يا أبو الزوز شو بدك بهالشغلة. ورحنا نادي أعضاء مجموعة الحماية بأسمائهم، وجمعناهم في قسم كتائب العقيبة، وقلنا لهم: «يا شباب تضبضبوا، في قصة كبيرة عم بتصير». فردوا:

«نحنا ما إلنا علاقة». جوزف الزايك أخذناه إلى الفيدار. وهكذا، أزيل الحاجز الأول دون نقطة دم، وببعض حسن التصرف. وشعرت بالارتياح، إذ لا يجوز أن نتعرض لشبان ينفذون أوامر قيادتهم، ولن يقفوا بالتأكيد ضدنا لو تيسر لنا أن نشرح لهم أهداف تحركنا.

بعد الحاجز، أعدت تنظيم القوة، فاستغرق الأمر نحو نصف ساعة، أجرينا خلالها اتصالات بإيلي حبيقة وبالقيادة لنعرف التطورات، فكان الوضع على حاله. قررنا متابعة السير. قبل وصول القوة إلى كازينو لبنان، توقفت. الأسلوب الذي استخدم مع الحاجز الأول لا يمكن تكراره، فقد تكون الخطة كُشفت عبر أجهزة اللاسلكي، ثم إن العناصر التي ترابط على الحاجز عناصر شرسة يمكن أن تقاتل، وشعرت أنه لا بد هذه المرة من عملية عسكرية، ومصلحتنا تقضي بأن تكون خاطفة تماماً، وإذا حصل إطلاق رصاص، يجب أن يكون في حده الأدنى، وإذا سقط ضحايا، يجب أن يكون بأقل قدر ممكن.

والواقع أنه كان علينا أن ننهي مسألة هذا الحاجز قبل الفجر. استدعيت قادة المجموعات، واستفهمت عن الحاجز ووضعه، وفي ضوء ذلك وضعنا خطة مناسبة. أوكلنا إلى قوات خاصة مهمة مهاجمته من أقرب مكان ممكن. في الوقت نفسه، أرسلنا مجموعة استطلاع لرصد عناصر الحاجز وإبلاغنا. أنجزنا الخطة، وتوجه آمر كل مجموعة لتحضير مجموعته، بانتظار إعطاء إشارة الهجوم. وفجأة رأيت آمر مجموعة الاستطلاع يركض في اتجاهي ويقول إن كل الذين كانوا على الحاجز غادروا فعلاً. وسألته إذا كان متأكداً. ففي ظرف من هذا النوع لا بد من أكبر قدر من الحذر. فكرر أنه

شاهدهم يغادرون. استدعيت ثلاثة من المسؤولين، وكانت المسافة من الحاجز تستلزم السير نحو ربع ساعة. طلبت منهم التقدم بحذر، وأن يقتربوا للتأكد تماماً من خلو الحاجز، وفي حال التأكد، أن يقتربوا أكثر. ذهبوا، ثم تحدثوا إلي عبر الجهاز وقالوا: صرنا عند النفق. سألناهم إذا كان باستطاعتنا التقدم، فردوا بالإيجاب. وسارعنا إلى المكان، وأقمنا حاجزاً مكان الحاجز الذي كان جماعة أبو ناضر قد أقاموه قبل أن يغادروا.

سقوط المواقع

لم تكن تلك الحواجز قادرة على مقاومة القوة التي أقودها. لكن الأهم كان التقدم من دون إراقة دماء. وصلت الأخبار إلى بيروت أن جوزف الزايك اعتقل، وأن حواجز تتساقط، وأن قوة كبيرة تتقدم. تابعنا طريقنا من دون قتال. مجموعة في ذوق مصبح قالت: نحن نؤيدكم، ولا نريد أن نقاتل. وصلنا إلى بيت الكتائب في صربا، وكنا نعد لمهاجمة جماعة الـ«٧٥»، ونحن هناك، جاء المسؤولون عن هذه الجماعة وقالوا: لا نريد كل هذه القصة. نزلنا إلى الشارع بأوامر حزبية. وهكذا، سقطت كل المواقع المؤيدة لأبو ناضر في جبيل وكسروان. ومن جديد تابعنا طريقنا على الأوتوستراد، وكانت الساعة نحو السادسة إلا ربعاً. في هذا الوقت، وصلت الأخبار تماماً إلى بيروت وسقط كل شيء.

بقي أبو ناضر في «المجلس الحربي»، لكن حواجز حبيقة انتشرت في كل مكان. عندها فتحنا خط البحر مع الكرنتينا. كم من مرة فتحنا هذا الخط. أرسلت قوة لدعم مواقع حبيقة خوفاً من أن نتعرض لهجوم. بالأسلوب نفسه، تابعنا التحرك. في كل مكان

توجد فيه عناصر لأبو ناضر، تحدثنا إليهم وقلنا لهم: خلص يا شباب. وهكذا تمت عملية ١٢ آذار/مارس.

لم تستلزم ١٢ آذار معارك عسكرية، إذ من اللحظات الأولى بدا أن هذه المعركة تمتلك زخماً كبيراً حسم الوضع لمصلحتها. وهي لم تكن تستهدف إغراق المنطقة في المواجهة، بل كانت ترمي قبل كل شيء إلى وقف التدهور، ومنع تفكيك «القوات» ومصادرة قرارها.

كان من الخطر ترك أمين الجميل يمسك بكل شيء، ويدفع كل شيء إلى المجهول. وبالفعل، أوقفت تلك الانتفاضة مشاعر الإحباط واليأس في «القوات»، وأعادت إلى الناس والمجتمع مناخاً من الثقة. ما حدث كان طبيعياً تماماً. فما حصل في الحزب، وما حصل في «القوات»، وما حصل في الجبل، وسياسة أمين الجميل، كلها عوامل لم يكن ممكناً أن تمر دون أثر. وبدل الاستسلام لحالة التفكك، قررنا قلب اتجاه الأحداث. وأول درس من تلك الأيام هو الدرس الدائم. أي أن قوة أي حركة تنبع فعلاً من تقبل الناس لها، وتعاطفهم معها، ومن حسن التوقيت. وبهذا المعنى لم تكن انقلاباً إطلاقاً، بل كانت رداً على نهج انقلابي.

بعد ٤٨ ساعة أعلنت الوحدات المركزية في «القوات» تأييدها لتحركنا، وانضمامها إلى الانتفاضة. بقي أبو ناضر ومرافقوه في المجلس الحربي. أعطينا أربعة أو خمسة أيام. أزيلت الحواجز، وتوافدت شخصيات سياسية وحزبية للتهنئة. وطبعاً كان بينهم السيد أتيان صقر (أبو أرز) رئيس حزب حراس الأرز. كان أول من يهنئ وأول من يعزي. يدخل مع أم العروس، ويخرج مع أم

العريس. وفي المرحلة اللاحقة يظهر كثيرون على حقيقتهم، خصوصاً حين يقدمون حساباتهم الضيقة على كل الحسابات.

الوصول إلى الخط الأحمر

في حياتنا السياسية مأساة انتقلت من جيل إلى جيل. حسابات الفرد تتقدم في غالب الأحيان على حسابات الجماعة. وهاجس الموقع يطغى في كثير من الحالات على هاجس تحقيق الهدف الكبير، أو الشعار الذي خيضت المعركة على أساسه. مفهوم الشطارة أو التشاطر خطير في العمل الوطني. لا أقصد أن الطموح هو المشكلة. والطموح مشروع لمن يعمل ويستحق. المشكلة هي حين لا يشعر الفرد أن حسن آرائه في موقعه الحالي هو الذي يجيز له الانتقال إلى موقع أكبر، أو تحمل مسؤوليات أكبر. وفي أحيان كثيرة، يفضل كثيرون الجلوس في الواجهة على الفاعلية، ويفضلون التسميات على العمل الدؤوب الذي وحده يضمن البناء على أسس ثابتة.

نجحت انتفاضة ١٢ آذار ١٩٨٥. وحظيت في الواقع بتعاطف واسع في صفوف «القوات» حسم المعركة لمصلحتها. ولقيت تجاوباً في صفوف الحزبيين والناس العاديين في المنطقة. والأكيد هو أنها لم تكن مغامرة، لأننا كنا نعرف ماذا نريد. وما كان لها أن تنجح لو كانت وليدة حسابات فردية، أو شهوة للسلطة. وكان هناك شعور عام بضرورة وقف التدهور العام، والتآكل الذي راح يضرب كل شيء.

بدأنا الاجتماعات، وسرعان ما ظهر حديث الأدوار. كان لدى إيلي حبيقة شعور بأنه عمل بقدر ما عملت أنا. وساد مناخ من

السؤال عن الحصص. قلت لإيلي فلنتعاون، وليلعب كل واحد الدور الذي يستطيع أن يلعبه، وكما حصل. فرد بالإيجاب، مضيفاً: لكني أنا خلقت جو الأحداث. وتفادياً لإثارة حساسيات، وبهدف الانصراف إلى العمل الجاد والشاق الذي كان يتعين علينا القيام به لنثبت أهليتنا لمعالجة المشاكل المطروحة، اتفقنا على أن لا أعين أنا قائداً لـ«القوات اللبنانية». وقضى الاتفاق بأن تكون هناك قيادة جماعية، بحيث تُوزع المسؤوليات، ويؤدي كل واحد دوره بعيداً عن التجاذبات السياسية.

وبدأنا في إعادة تركيب «القوات»، إذ كانت تحتاج فعلاً إلى إعادة بناء، بعد ما عاشته وتعرضت له. سميت القيادة «الهيئة التنفيذية»، وعينت أنا رئيساً للأركان، وإيلي حبيقة رئيساً لجهاز الأمن. وإذا شئت، تم تكريس كل واحد في الموقع الطبيعي الذي كان موجوداً فيه، وبدأنا بالتعيينات الخارجية. ظلت القيادة بلا رأس. فضلنا عبور المرحلة بقيادة جماعية. وفي الحقيقة، لا شيء في التاريخ يشير إلى نجاح هذا النوع من الصيغ. في النهاية، لا بد للقيادة من شخص مسؤول، وبغض النظر عن طريقة اتخاذ القرار. لا بد من شخص يتحمل المسؤولية حتى يصبح من الممكن انتقاده أو محاسبته. هذا الكلام لا يعني أبداً الرغبة في التفرد التي تحدثت عنها. وهل ممارسة شخص موجود في موقع القرار لمسؤولياته تعد تفرداً؟ وهل يمكن مثلاً تمضية الأيام في الجدل والأخذ والرد على كل شاردة وواردة؟ كنت أعي ذلك، لكنني قلت نحاول تفادي الحساسيات، ومشينا في القيادة الجماعية.

انصرفت إلى عملي رئيساً للأركان. أوضاع «القوات» كانت تحتاج إلى جهد وصبر. وكان العمل يستغرق الليل والنهار. فأمور هؤلاء

الشبان الذين لا يبخلون بأرواحهم في ساعات الشدة تستحق الموقع الأول في اهتمامات القيادة. إحدى مشاكلي في العمل مع الآخرين هي أنني أعدّ الإنسان الآخر جيداً حتى إثبات العكس. الانتفاضة أحدثت هزة في البلد، وبات على كل واحد أن ينصرف إلى شغله. واكتشفت أن أحداً لم ينصرف إلى عمله باستثنائي أنا. وسرعان ما بدا أن إيلي حبيقة، وطوني بريدي، وأبو أرز، وأعضاء آخرين من الهيئة التنفيذية انصرفوا إلى عمل وحيد، هو البحث في أسلوب إيقاعي في حفرة ما. غريب هذا البلد. ربما لم يكن الهدف تماماً إيقاعي في حفرة، لكنهم على الأقل عدّوا أنهم هم الذين صنعوا الانتفاضة، فماذا جاء بي من هناك إلى هنا؟ وكأن كل ما فعلته هو أنني تمشيت من القطارة (في جرود جبيل) إلى بيروت، وهل يستحق هذا المشوار أن أكون في واجهة الانتفاضة؟ واستنتجوا بالتالي أن لا بد من واجهة أخرى في القيادة الجديدة.

في هذه الأثناء كنت أمضي وقتي في إقليم الخروب وشرق صيدا، لنتفادى أحداثاً هناك. وفي المجلس الحربي، كان هؤلاء الأشخاص يبحثون عن طريقة لتسلم قيادة «القوات»، إلى أن اتفقوا على إيصال إيلي حبيقة. كنت منهمكاً بمعالجة وضع شرق صيدا، وكانوا منهمكين في هذا الأمر. وحصلت عملية شرق صيدا، وبدل أن يضموا أيديهم معي لنرى ما نستطيع أن نفعله، بدأوا حملة تسويق تهدف إلى إظهاري وكأنني المسؤول عن شرق صيدا. كانت قد مضت خمسة أيام فقط على تسلمي رئاسة الأركان، وكانت قد مضت عشر سنوات على تولي إيلي حبيقة مسؤولية جهاز الأمن. جماعته هم الذين اشتغلوا أساساً في شرق صيدا، وحبيقة كان من أكثر المتحمسين لبقاء «القوات» في الإقليم

وشرق صيدا. أنا كنت معارضاً لهذه الخطة منذ البداية.

وحين توليت رئاسة الأركان، بدأت الأحداث في شرق صيدا، فذهبت إلى هناك لأعالج الأحداث، وجلس حبيقة يتابع التخطيط لعملية الإمساك بالقيادة.

أثر أحداث الإقليم، بدأ حبيقة حملة تهشيم ضدي داخل «القوات»، وشعرت في الوقت نفسه أن أطرافاً كثيرة، وبعد الذي حصل في الشرقية، ستسعى إلى استعمال الرئيس أمين الجميل، واستخدام أحقاده لأغراض بعيدة عن الساحة الوطنية العليا. وهنا لا بد من ملاحظة: نحن لم نتحرك ضد أمين لاعتبارات شخصية، بل لوقف المخاطر التي كان يمكن أن تترتب على نجاح محاولاته للإمساك بالقرار. لم يكن غرضنا إطلاقاً إضعاف موقع رئاسة الجمهورية، أو الحد من قدرته على التصرف كرئيس، بل على العكس، فإن محاولته الإمساك بالقرار في الكتائب و«القوات» هي التي أدخلته طرفاً في صراعات لم يكن موقعه الرئاسي يلزمه بالدخول فيها.

قلت في نفسي ما دمنا قد نجحنا في تحقيق الانتفاضة، ورسمنا حداً للتدهور، مقدمة لمعالجته، فلماذا لا نعيد العلاقات مع أمين، خصوصاً أنه قد تحجم، ولم يعد قادراً على إلحاق الأذى الذي كان يمكن أن يلحقه من قبل. نجحنا بضربة واحدة في استعادة قرار القوات، وكنت واثقاً أننا سنستطيع الوصول إلى القرار في حزب الكتائب في الانتخابات الوشيكة. وبالتالي، سنكون قادرين على وضع نوع من الضوابط السياسية لأمين الجميل يصعب عليه تخطيها. وقلت لماذا لا يمكننا التوصل إلى نوع من التفاهم مع

أمين، بدل تركه فريسة للراغبين في الاصطياد بالماء العكر. بدأت الاتصالات من خلال كريم بقرادوني، وتبين أن ثمة مجالاً للعمل. كان حبيقة في هذا الجو طول العملية، وفي كثير من الأوقات شارك في اجتماعات في هذا الاتجاه. كان من المهم ألّا نترك أمين يتحول إلى ثغرة، خصوصاً أنه رئيس للجمهورية. وقلنا لعلنا نستطيع أن ندفعه ليشترك معنا في إنقاذ إقليم الخروب وشرق صيدا، ومن موقعه الرئاسي. وتبين لاحقاً أن السوريين كانوا قد أعطوا للشيخ أمين ضمانة بشأن الإقليم وشرق صيدا، وحين بعثنا له بخبر، فوجئنا برده: «أنا بعتبر حالي بحل من الإقليم وشرق صيدا».

وفي هذا الإطار لعب العماد ميشال عون دوراً سيئاً. حاولت كثيراً أن أطلب منه، لا بل إنني رجوته أن ينشروا الجيش هناك، فنتفادى القتال وذيوله. وجوابه الدائم كان: «أنا ما بروح، أنا ما بنتشر ما دمتم أنتم هناك». وفي النهاية اتفقنا على أن ننسحب وحدنا، وانتشرت الكتيبة ٩٨ من الجيش اللبناني. وحين كنت أقول له إن عناصر هذه الكتيبة يشنون هجمات، كان يرد: حين تنسحبون يتوقفون عن الهجوم.

على هذا الأساس اتفقنا أن ننفذ انسحاباً من جانب واحد، كي يتسلم عون الوضع الأمني، وهي الطريقة الوحيدة لتثبيت الوضع. في هذه الأثناء، كان الشيخ أمين قد أبلغ دمشق أنه لم يعد مهتماً بتلك المنطقة، وكأنه ترك للآخرين حرية التصرف وفق إرادتهم. ولم ينفذ عون خطة أمنية، لأن وليد جنبلاط نصحه بعدم السير فيها، إذ كان وليد يريد توسيع نفوذه في المنطقة.

لقد علمتني هذه الأحداث خطورة الرجال ذوي الحسابات الضيقة حين تكون لهم المواقع. ففي بعض الأوقات لا تتسبب هذه العقلية لا في ضياع منطقة، بل في ضياع وطن.

لن أسرف في الحديث عن المآسي والمسؤوليات. وأعتقد أن كل الحملات وعمليات التسويق والروايات المطبوخة لن تنجح في قلب الأدوار، أو تلميع صورة من ارتكبوا ما ارتكبوه. من عاشوا هذه الأحداث لا يزالون أحياء، وبالتالي فإن كتابة هذه المرحلة متيسرة، وأي بحث موضوعي فيها سيكشف حقيقة ما جرى، ومواقف كل طرف، ومسؤولية كل شخص. لا نقول ذلك لرغبة في الثأر، أو تصفية للحسابات، بل لأنه لا يمكن الاستمرار في التستر والتشويه. من حق الناس علينا أن يعرفوا ماذا حصل، وماذا فعلنا. وكم أتمنى أن تكتب هذه المحطات بلغة العلم واحترام الحقيقة والأمانة.

إيلي حبيقة وأمين الجميل

كان حبيقة يعرف أن التقارب مع الجميل يهدف إلى سد ثغرة يمكن أن ينفذ منها من يريد التحرك ضدنا. وكان موقع رئاسة الجمهورية مهماً في أي خطة جدية للمعالجة. وعلاقة الشيخ أمين بالرئاسة وصلاحياتها طويلة. فهو كان يتصرف بصفته رئيساً للجمهورية حين يريد، ولم يكن رئيساً للجمهورية حين يريد. إذا كانت المسألة لا تعجبه، أو لا تهمه، يعدّ نفسه رئيساً، ويترك الأمور تمر. أما إذا كانت تعجبه، وتعني مصالحه وحساباته، فيعدّ نفسه أهم رئيس للجمهورية. هنا تحرك حبيقة لاستعمال ورقتي شرق صيدا والتقارب مع أمين الجميل ليضرب ضربته داخل «القوات». بدأ حبيقة يتحدث عن فشل القيادة الجماعية. وبالمناسبة،

فقد حاذر دائماً أن يتهجم علي أو يتحداني، حتى كلامياً. وربما لأنه كان يدرك أنني لست من قماشة من يمكن التعامل معهم على هذا النحو، أو من يمكن إخضاعهم بالتهويل، أو الترهيب. صحيح أنني منفتح دائماً على الحوار، وفي كل المواضيع، لكن أساليب التخويف ليست أفضل الأساليب للتعامل معي. قال إن القيادة الجماعية لم تحقق نتائج، والدليل أن أموراً كثيرة تحدث على غير ما يفترض أن تكون. وخلص إلى استنتاج مفاده أن لا بد من وجود شخص مسؤول.

ليس صحيحاً ما تقوله عن أننا بعثنا برسالة إلى أمين الجميل من دون علم حبيقة، وأننا كنا نجري اتصالات تتضمن نوعاً من التفرد. لقد كان حبيقة على علم، وتم طبع الرسالة على الآلة الكاتبة في مكتبه، وعلى يد أحد العاملين فيه. لقد تعمد حبيقة إظهار نفسه في صورة من لم يكن على علم بها. مر كريم بقرادوني على منزله مرات عدة، فحاول التهرب أكثر من مرة. وفي النهاية وجده وأبلغه أن المفاوضات تتقدم مع أمين، وأنها أدت إلى هذه النتائج، وأطلعه على الورقة، فأبدى ارتياحه إليها. لكن السؤال هو: لماذا لم يعقدوا اجتماعات رسمية حين شعروا أنها ستقدم نتيجة؟ والجواب هو أنهم أرادوا استخدامها ورقة ضغط.

أعدّ حبيقة الأجواء، وراح يطرح هذا الموضوع. لم تكن هناك أي انتقادات ضدي، لكنه تهجم على كريم بقرادوني. قال إن بقرادوني يحاول التقرب من أمين ووضع رصيد «القوات» في الحضيض. ونحن قمنا بانتفاضة لاستبعاد أمين، وها هو كريم يسعى لتقريبنا منه. طبعاً، مثل هذا الكلام يمكن أن يجد قدراً من الصدى لدى عناصر في «القوات» كانت مشاعرها تجاه سياسة أمين الجميل

معروفة. نحن لم نكن معجبين إطلاقاً بأمين، أو بسياسته، لكن السياسة ليست مسألة غراميات. كان الرجل في موقع، وكان علينا أن نحول دون أن يجيّر هذا الموقع ضدنا. أسلوب حبيقة معروف، ويقوم على طرح تفاصيل ومعادلات تبسيطية وبسيطة، وليس على طرح معادلات سياسية معقدة.

هكذا، وفي اجتماع للهيئة التنفيذية لـ«القوات» طرح حبيقة بإلحاح فكرة تعيينه قائداً أو رئيساً للهيئة التنفيذية، ومن دون أن يتعرض لي بشيء. وكنت أنا أمام خيارين: إما القبول به وإما الرفض الذي يحمل في طياته قيام مشكلة عسكرية داخل «القوات». فكرة التصادم داخل «القوات» كانت كريهة جداً بالنسبة لي، لا بل إنني لم أكن قادراً على تصورها. منذ بداية الحرب وأنا أعيش مع العسكريين، نتقاسم مرارات الأيام واللحظات الصعبة في الثكن وعلى الجبهات. الانتماء إلى قضية واحدة يخلق روابط ومشاعر تفوق روابط الدم. ولم يكن الاحتكام إلى السلاح داخل الصفوف مقبولاً في خياري، لا بسبب موقع ولا بسبب تباين في الرأي. وإذا كنا نرى أن السلاح لا يحل المشكلة على الصعيد الوطني العام، وأن الحوار هو الطريق، فهل نقبل بمنطق السلاح داخل المؤسسة التي أعطيناها أعمارنا، وراهنّا على دورها في إعادة السلام والسيادة إلى لبنان؟ العسكريون الذين عاشوا معاً ساعات الشدة والخطر يدركون تماماً خطورة خلخلة الصفوف، وخطورة الانقسام. وبرغم كل شيء، هناك خط أحمر وثوابت وطنية، والتنكر لدماء من سقطوا غير مقبول. وبعد المحاولات السلمية والتفاوضية، تأتي ساعة القرار.

أصر حبيقة على تولي قيادة «القوات»، وقلت في نفسي فلنجنب

المؤسسة هزة جديدة، ثم فليتولّ هذا المنصب ليكتشف أنه ليس بالوجبة الطيبة أو السهلة. وكنت أشعر أنني أحتاج إلى سنتين أو ثلاث في رئاسة الأركان لأعيد تنظيم العسكر، وتأهيله، ولنتخلص من مسألة المجموعات، ونوفر القدر الضروري من الانضباط في علاقات أفراد المؤسسة بمجتمعهم. مسألة البناء هذه ليست سهلة، بل هي شاقة، خصوصاً بعد كل الذي حصل. وقررت أن أترك حبيقة يتولى رئاسة الهيئة التنفيذية، ورأيت أن الخط العام المعروف يوفر من الضوابط ما يحول دون حصول أي جنوح.

في التاسع من أيار/مايو، وخلال اجتماع للهيئة التنفيذية، قال حبيقة انتخبوني، ولدي برنامج سياسي. وقف وأخرج من جيبه مجموعة من الأوراق. برنامج سياسي وأوراق جاهزة. بدأت قصة الأوراق بعدما كانت قد بدأت قصة الاتصالات المعروفة. عندها تركتهم يتابعون النقاش، وذهبت إلى مكتبي. وأذكر أن الصحافيين جاءوا يومها وسألوا عما حدث في الجلسة غير العادية التي انتخب فيها حبيقة رئيساً للهيئة التنفيذية. وتلك القصة زادتني إصراراً على ضرورة إعادة بناء «القوات»، وتحمل المسؤوليات. غريب أمر مجتمعنا. لا أحد يحب التخطيط، وهذا العمل الذي يستدعي التأني والمتابعة والصبر. نريد الطريق الأسهل والأقرب، والأشياء الجاهزة، وكأنما المجتمعات تبنى بلا جهد وعناء.

عدّ حبيقة انتخابه تفويضاً على بياض، وبدأ تحركاً سريعاً لحصر كل شيء فيه، والإمساك بالقرار بمفرده، بحيث لا تكون ثمة حاجة لبحث أو تشاور. وكانت خطته تقضي بإمساك كل الأوراق كي لا يبقى للآخرين غير خيار الموافقة على ما يستعد للسير فيه. وأفضل مثل على ذلك كانت قصة الصندوق الوطني الذي يفترض

أن يكون قراره بيد الهيئة التنفيذية. كنا قد وضعنا شخصين للإشراف على الصندوق: بول عريس من جهة حبيقة، وجورج أنطون من جهتنا. ورأينا أن وجود الشخصين يضمن التوازن. فجأة، قال حبيقة إن بول عريس وحده يجب أن يكون مسؤولاً عن الصندوق، ولا لزوم لجورج أنطون. وبدأت ترجمة هذه الرغبة عملياً بوضع كل المداخيل الجديدة باسم بول عريس وحده. هذه كانت البداية لأسلوب غير مقبول. ورحت أسأله: «يا إيلي، شو عم بيصير؟» فيرد ممازحاً. وأكرر السؤال: «يا إيلي، ما بيجوز هيك». فيرد: «اللي بدك ياه بيصير». وما كان يحدث في الواقع هو العكس تماماً.

بدا واضحاً أن لدى إيلي خطة تحرك راح ينفذ محطاتها بخطى سريعة وثابتة. من جهة الإمساك بتمويل العسكر للإمساك بالقرار. ومن ناحية أخرى بدأ التحرك لتوقيع الاتفاق الثلاثي. ورحت أسأله: «ما هو الاتفاق؟ ومع من؟» فيجيب: «بكرا بكرا، هيدا فظيع، لا تهتم ولا تقلق». وتبلورت خطة حبيقة: السير سريعاً في الاتفاق الثلاثي، بحيث يستطيع الاعتماد على «حركة أمل» و«الحزب التقدمي الاشتراكي» في مواجهته داخل الشرقية. ومن جهة ثانية، إكمال وضع يده على كل شيء في «القوات اللبنانية».

أجبرت على المواجهة

عاد الوضع إلى التدهور. وافقنا على أن يتولى حبيقة رئاسة الهيئة التنفيذية، ولكن علينا أن نحافظ على العسكر. وبصفتي رئيساً للأركان، كان العسكر من مسؤوليتي. ورأيت أن الأهم هو أن نبقي العسكر بعيدين عن أي تجاذب. لكن إيلي لم يتوقف عند

حدود. أمسك بالصندوق ليمسك بالعسكر، وبدأ باجتذاب مجموعات عسكرية. آمر مجموعة معينة يستدعيه ويعطيه ضعف الراتب له ولمجموعته. وبدأت ترتسم ملامح الأزمة. كنت أشعر بالحاجة إلى سنتين من البناء لنعيد التقاط أنفاسنا. لعبة تفتيت العسكر واجتذاب المجموعات بالإغراء المالي أقلقتني. وشعرت بالحيرة وشعرت بالألم. فعلنا كل ما فعلناه لنعيد للمؤسسة دورها، وها هو هذا الدور يتعرض مجدداً للتهديد. وبصراحة كاملة أقول إنني لم أكن أريد المواجهة أو أبحث عنها. لقد دفعني حبيقة إليها وفرضها علي. لقد انتزعني من فراشي وأجبرني على الدخول في مواجهة معه.

صعّد حبيقة هجومه داخل «القوات» وداخل المجتمع، وعلى الصعيد العام. ورحت أقول في نفسي: إذا كانت خلوات بكفيا الحكومية من الأسباب التي دفعتنا إلى القيام بانتفاضة ١٢ آذار، فهل يعقل أن نوافق على الاتفاق الثلاثي؟ وبدا الأمر لي وكأنه كارثة، لا بل وشعرت كأنني ساهمت في شكل غير مباشر في دفع الوضع في هذا الاتجاه. في تلك المرحلة بدأ التحضير الإعلامي لعملية عودة السلام. وبصراحة كاملة أقول: ليس هناك من يتحرق لرؤية السلام أكثر من المحاربين. الذين لا يدفعون ثمن الحرب يستطيعون الانتظار طويلاً، لكن الذين يدفعون من لحمهم ودمهم هم الذين يشعرون بإلحاح السلام. لكن السلام لا يمكن أن ينزل بالمظلة. هناك حقائق يجب أن ينطلق منها أي مشروع سلام. تركيبة داخلية، ومخاوف تاريخية، ومشاكل معقدة لا يمكن حلها عن طريق الادعاء بأنها غير موجودة. في الحل الحقيقي ثوابت يجب أن تكون حاضرة، والسلام يجب ألّا يكون مقدمة لحرب جديدة، ولا فرصة لقيام سلطة تفتقر إلى القدرة

على القرار. حرام أن نحاول إنهاء حرب بصيغ هشة لا يمكن إلا أن تنجب المزيد من الحروب. وتزايدت قناعتي بضرورة وضع حد لهذا الاتجاه الذي ينذر بكارثة.

وقلنا نحاول وضع حد لقصة حبيقة، ولهذا النهج الخطير، عن طريق إقناعه. وعقدنا سلسلة اجتماعات: كريم بقرادوني وإيلي حبيقة وأنا. وكان ينضم إلينا في أوقات كثيرة نادر سكر وجورج كساب. كان غرض الاجتماعات تفادي المنزلقات، والعودة إلى تصور موحد، وتفادي انتقال أي خلاف في القيادة إلى داخل القواعد. لم يوفر حبيقة أي فرصة للتفاهم، لم يكن يريد التفاهم. وكان ذلك بداية المرحلة الصعبة. لقد قمنا بالانتفاضة معاً، وعلى أساس أن نشارك جميعاً في القرار، وفي كل شيء. لكن حبيقة وضع يده على الصندوق الوطني، ثم بدأ في أخذ العسكر. ولكن أن ينفرد بتوقيع اتفاق يلزم المجتمع، فهذا غير مقبول. لم يواجهني إيلي مباشرة، لكنه لم يوافق على الدخول في حوار فعلي. أجوبة غامضة ومتناقضة تبطن رغبة في تفادي أي جواب. وفي مرحلة لاحقة تذكرت القصة يوم رحنا نعاني من الجنرال ميشال عون. حبيقة براغماتيكي أكثر ولكن بدون هذا القدر من الجنون. عرضنا لإيلي كل الآراء والحجج، ولم يستمع إليها. لا بل إننا فندنا كل نقطة، ولكنه بدا في صورة من عجز عن التأثير في صياغة الاتفاق، وراح يطمح إلى أن يعوض عن ذلك بامتلاك القدرة على إسكات كل نقد، أو معارضة، وبانتزاع تفويض للتوقيع في عملية غامضة، ولعبة تصويت مرفقة بممارسات غير ديموقراطية. ونصحته مرات ومرات ألّا يذهب بعيداً في تسرعه، وعرضت عليه أن يأخذ كل شيء في مقابل أن يتمهل. وبدا كأنه تحول أسيراً للمنطق الذي وقع فيه. فذهب إلى دمشق في ٢٨ كانون الأول/ديسمبر ووقع

على الاتفاق الثلاثي، ودون أن يقبل بحق الآخرين في معارضة ديموقراطية. واختار حبيقة طريق القوة لفرض الاتفاق، وخير دليل سلسلة الحوادث التي وقعت، والهجوم الذي شنه على المتن خلال ذهاب أمين إلى دمشق في ١٢ كانون الثاني/يناير ١٩٨٦. لقد اختار حبيقة أسلوب المواجهة، ولم تتأخر.

أسلوب الترغيب والترهيب الذي اعتمده حبيقة كان بالغ الخطورة. فليس بهذا الأسلوب يمكن رسم ملامح المستقبل، وإلزام المجتمع بنصوص لم تشرح له ولم يوافق عليها. وهذه المسائل هي بالتأكيد أكثر تعقيداً من اجتذاب شخص بعد إقناعه بمنصب وزاري أو نيابي، أو اجتذاب مجموعة من الباحثين عن أدوار. أمام جملة حوادث تضمنت تعرضاً للحريات، ومحاولات لكبت الأصوات المعارضة، وتعطيل صحيفة «العمل» الناطقة باسم حزب الكتائب، وحملة شائعات، واختراع مراكز أمنية مفاجئة، ومحاولات إرغام «الجبهة اللبنانية» وحزبي الكتائب والأحرار على السير من دون حق الاعتراض، اختلط الحابل بالنابل، وفتح الباب أمام تدهور واسع. ورحت أفكر في ما يجب عمله. جلسات الحوار لم تنفع، ومحاولات الإقناع فشلت. ومن جديد ظهرت حاجة فعلية إلى انتفاضة داخل «القوات» لوقف المسار الخطر، أي إخراج القرار من يد حبيقة، ومنعه بالتالي من التفاوض باسم منطقة ومجتمع. وإذا شئت، اتخذ الإعداد هذه المرة طابع الانقلاب. وضعت خطة أولية، ووزعت الأدوار على عدد قليل من المسؤولين، وتركت مسألة التوقيت لي، كي يتم تحديد الموعد في ضوء التطورات، وحين هاجم حبيقة المتن، ارتكب الغلطة.

في هذه الفترة التقت مواقف أمين الجميل تكتيكياً مع مواقفنا. وفي

اعتقادي أن غضب أمين من الاتفاق ينبع بالدرجة الأولى من كونه ليس الطرف الذي شارك. ورأيي أن أمين كان يمكن أن يمشي في الاتفاق لو أشرك فيه، وعلى أساس أن يكون هو بطله. كان ممكناً أن يمشي فيه لو شعر أن الاتفاق يضمن له مثلاً دوره لما بعد الرئاسة. لم تكن المشكلة مشكلة مضمون الاتفاق بالنسبة لأمين، بل كانت بالدرجة الأولى أنه أقصي عن اللعبة. فحتى لو وافق على الاتفاق، فإن دوره سيكون ثانوياً بالتأكيد، لأن الاتفاق قام على ثلاثة أشخاص هم: إيلي حبيقة، ووليد جنبلاط، ونبيه بري. كان أمين الجميل رئيساً للجمهورية، لكنه كان يفكر بالتأكيد بما بعد الرئاسة. ولم يكن أمين من الذين يقبلون بأن يكون لهم دور إلى جانب الآخرين، بل كان يريد الدور الأول حتى بعد الرئاسة. وأعتقد أن إقصاءه عن لعبة الاتفاق، وشعوره أن الاتفاق صنع لغيره، كان لهم دور حسّاس في رفضه له، فالتقى موقفه تكتيكياً مع موقفنا.

فتح هذا اللقاء الباب لعملية تنسيق مع أمين قام بها عدد من الأشخاص في الواقع، وليس كما يعتقد الناس أن كريم بقرادوني وحده هو الذي فعل ذلك. في ذلك الوقت لم تكن هناك اتصالات علنية مع الشيخ أمين. كانت المرحلة دقيقة وتفرض نوعاً من التنسيق السري عبر حلقات مضمونة. وهذا ما حصل عبر اجتماعات في منازل لأشخاص من الجانبين ومن دون ضجيج، إذ كان من الضروري تماماً ألّا تنكشف الخطة.

كان إيلي مستعجلاً جداً. يريد إنهاء كل المسألة وفي أسرع وقت وبأي طريقة. كان يحاول وضع الجميع أمام أمر واقع لا قدرة لهم على رفضه. وحين غادر أمين إلى دمشق في ١٣ كانون الثاني/يناير

شنت مجموعات تابعة لحبيقة هجوماً على المتن. كان غرض الهجوم إفهام الشيخ أمين أنه أمام خيار وحيد وهو الموافقة، وإلا فإن الخيار الآخر مكلف. وهكذا يمكن القول إن حبيقة هو الذي بدأ العمل العسكري. ورأيت أنا أن حبيقة أخطأ تماماً، وأنه فتح المعركة التي سيكون من الصعب عليه احتمال فصولها المقبلة. وكان الهجوم على المتن في جزء منه اختباراً لما يمكن أن يكون عليه موقفنا. ولم يعد الخلاف سراً، وأجواء المجلس الحربي نفسه، حيث نقيم أنا وإيلي، كانت محمومة. وربما اعتقد حبيقة أننا إذا لم نتحرك لدى مهاجمته المتن، فهذا يعني أن لا نية لدينا في التحرك. وهو احتاط لكل الاحتمالات، وترك قسماً من قواته كاحتياطي ليستخدمه ضدنا إذا قررنا الدخول في مواجهة معه. وفي اليوم التالي لم يحقق هجوم المتن غرضه، وعادت الفرق التابعة لإيلي مستنزفة، فحان الوقت لاتخاذ القرار الصعب.

أقول القرار الصعب، وأعني ما أقول. أنا لست من هواة الاحتكام إلى السلاح. ورأى أن المستقبل يصنع بالعمل السياسي وبالبرنامج وبتعاطف الناس. السلاح ليس الحل بنظري. ولكن ماذا تفعل؟ هناك من لا يقبل بالعمل الحزبي ولا بالصراع السياسي. وحين يشهر السلاح في وجهك يصبح عليك أن تختار بين أن تستسلم أو تواجه السلاح بالسلاح. وهذا ما حصل في السبعينيات، فرض سليمان فرنجية أسلوب المعركة. وفي الثمانينيات فرضه إيلي حبيقة. وفي بداية التسعينيات فرضه ميشال عون. وحين يقرر الطرف الآخر قهرك أو محوك، يفرض عليك مواجهته. وفي تلك الأيام رحت أفكر. لقد قمنا بالانتفاضة لوقف التدهور وإعادة الأمل إلى الناس، وها نحن بعد شهور على أبواب تجربة مؤلمة. حققنا الانتفاضة بلا قتال أو دم، وها نحن نواجه تجربة عنيفة، وهذه المرة داخل «القوات».

أعددنا خطة عسكرية بسيطة، وتقوم على الآتي: مشاغلة مجموعات حبيقة بمجموعات من عندنا، بحيث تتسمر في مكانها، ثم تقوم قوة كبيرة تابعة لنا بالحسم ضد المواقع التي تصر على الاستمرار في إطلاق النار. ومن الطبيعي أننا رصدنا قبل ذلك انتشار المجموعات الموالية لحبيقة، ومدى قدرتها على التحرك. وفي ضوء ذلك قررنا أن تقوم مجموعات تابعة لنا بالاشتباك معها لحظة الهجوم بغرض استنزافها وشلها، ثم تأتي القوة الكبيرة مرتاحة وتحسم مسألة المواقع تباعاً. وهذا ما حصل فجر ١٥ كانون الثاني/ يناير ١٩٨٦، وحسمت المعركة في غضون ست ساعات.

ليلة ١٤ - ١٥ كنت في المجلس الحربي في الكرنتينا. الهجوم الذي شنّه إيلي على المتن صعد القلق في المنطقة الشرقية، ولم يحقق أهدافه واصطدم بمقاومة. واتضح تماماً أن حبيقة عازم على فرض موقفه بقوة السلاح، وأن المنطقة مهددة بالغرق في مواجهات لا تنتهي، ما لم يحدث عمل حاسم يحول دون نزيف يومي. في تلك الليلة غادرت المجلس الحربي سراً لأرجع مع الصباح على رأس القوة العسكرية الأساسية.

كانت قواتنا موزعة إلى أجزاء، وبين الرابعة فجراً والسادسة صباحاً، تجمعت كلها في منطقة برج الفيدار، وكان عامل السرعة مهماً. توليت قيادة القوة التي راحت تتقدم على الطريق الساحلي. عندما وصلنا إلى أول مركز لحبيقة عند نهر ابراهيم، اكتشفنا أن المجموعة التابعة لنا، والمكلفة بمشاغلته، نجحت في إسقاطه، فتابعنا الطريق، ووصلنا إلى مركز طبرجا. كان قد مضى على إحدى مجموعاتنا ثلاث ساعات وهي تتبادل إطلاق النار مع هذا المركز. وحين وصلنا، أوقفنا إطلاق النار، وتقدمنا بقوة في اتجاهه، وبغرض دفعهم

إلى الاستسلام وتفادي سقوط قتلى، فاستسلموا خلال دقيقتين. وعند مفرق حريصا وجهنا إنذاراً إلى المركز، فاستسلم. وهكذا تمكنا من التقدم من دون أن نخوض معركة رئيسية، وسقطت المواقع عملياً على يد القوى التابعة لنا. لم يحصل إطلاق نار في ضبيه، ولكن حين وصلنا إلى أدونيس كانت مجموعاتنا تطوق مجموعات في الثكنة هناك، وتتبادل معها إطلاق النار. هنا كان الاشتباك جدياً. حين وصلنا، أدرك جماعة الثكنة أن لا أمل لها بالمقاومة. أذكر كلّمني قائد الثكنة على الجهاز وقال لي: «يا حكيم، الثكنة لك وتعود لك، هذه الأحداث لا نريدها». وهكذا استسلم هذا الموقع، وانفتحت طريق بيروت، خصوصاً أننا كنا قد نسقنا مع القوى الموجودة في المتن.

تحذير من عون

في بيروت حاول حبيقة الضغط لاحتلال المجلس الحربي، لم يستطع. لا بل إن شبابنا الموجلين بالحراسة نجحوا في إحكام الطوق على مقره. ومنذ تلك الساعات دخل ميشال عون على الخط. لدى وصولي إلى نهر الكلب على رأس القوة التي انطلقت من برج الفيدار، أبلغني ضابط من الجيش يدعى بول مطر أن الجنرال عون يريد أن تتصل به والأمر ضروري. أجبته أن لا هاتف في سيارة الجيب، فقال: يريد أن يحكيك بسرعة. وراح الضابط يلحّ علي. طلب الجنرال، فقال لي: «يا حكيم انتبه، الوضع عم بيصير صعب. أنا ما بقدر أبقى مكتوف الأيدي». فسألته عن السبب، فقال: «وجه السوريون إنذاراً، وإذا لم أوقف العملية الآن وفوراً فسيهاجمون».

واعتقادي أن ذلك لم يكن صحيحاً. قلت أنت تعرف الوضع، وتعرف الأسباب. فأجاب: «والله هذا هو الوضع. ما لازم نرتكب مبالغة. لكن أنا صرت محشوراً وبدي إتحرك».

انتهينا من الجنرال عون، وطلبت المدبر الرسولي ابراهيم الحلو، فسارع إلى القول: «يا ابني شو عم بيصير؟ خربتو البلد، شو عم تعملوا؟» ورحت أحاول تهدئته. ماذا يحدث؟ ألا يدري هو ما حدث سابقاً وحتّم حصول ما يحدث الآن. وأنهى كلامه بالقول: «اتصل فينا إيلي حبيقة وبدو يستسلم».

جاء دور الأباتي بولس نعمان. طالع خلقو تماماً. «شو عم تعملوا؟ ما بيجوز. كسرتوا المنطقة. خربتوا البلد. شو هالقصة؟ مش معقول». يا أباتي، أنت بتعرف الموضوع. مش نحنا بلشنا باستخدام القوة. اضطريت إرفع لهجتي شوي حتى يوقف. قال لي: «خلص، على كل حال إيلي حبيقة اتصل، وبدّو يستسلم. شو عاد بدك فيه؟ ما حدا منا بيقبل، ما حدا منا بيقبل ولا لحظة. ما بكفي؟ هلق مطرح ما انت وقاف».

في هذه الأثناء، اتصل بي كريم بقرادوني وقال لي: «اتصل بي الوزير جوزف الهاشم من قبل الرئيس الجميل، وقال إنو إيلي حبيقة بدّو يستسلم». ثم اتصل بي كريم ثانية، وقال: «اتصل بي ميشال المر (الوزير السابق)، وقال إنه يريد التحدث إليك وبأسرع وقت». وتابع كريم: «يا سمير عنّا مشكلة. الياس ابن ميشال المر موجود مع إيلي حبيقة في مقر جهاز الأمن». طلبت وزارة الدفاع، وتحدثت إلى ميشال المر، قال لي: «يا حكيم، أنا ميشال المر عم بحكيك. ابني أنا وحيد، وما عندي غيره. كان عائداً من مقر

جريدة «الجمهورية»، ومرّ فوجد إيلي حبيقة مستيقظاً. طلبوا مناقيش ولحم بعجين لتناول الترويقة معاً، وصارت القصة. يا حكيم بتعرف مشاعر الأب». أثّر كلام ميشال المر في نفسي. طلبت تقريراً عاجلاً من المجلس الحربي وإقليم المتن الشمالي، فتبين أن هناك محاولات هجوم على منطقة الدوار في المتن، وهجوماً على قرية صفار في البترون، وقد دخل المهاجمون هذه القرية. دخلوا إلى الدوار وإلى صفار، وهناك تحركات عسكرية غير مريحة. والحقيقة أن موضوع الياس المر كان له دوره آنذاك، إذ لا ذنب له، ومتابعة الهجوم على مقر جهاز الأمن حيث كان حبيقة محاصراً يمكن أن تؤدي إلى أشياء مؤلمة. لم أستطع أن أتصور أن يقتل الياس المر بسبب أخطاء ارتكبها غيره، وكان عليّ أن أتحرك بسرعة للحيلولة دون حصول أي اختراق أساسي على الجبهات. وكان من الصعب على حبيقة أن يستسلم لنا بعد كل الذي فعله، وإذا اختار المحاصرون الاستمرار في إطلاق النار، فربما تؤدي المعركة إلى مقتل أو جرح كل الموجودين داخل مقر جهاز الأمن.

طبعاً، أخذت في الحسبان احتمال أن يكون حبيقة يسعى إلى الإفادة من الوقت بانتظار تدخل ما، لكن لم يكن في استطاعة أي تدخل أن يغير الوضع في المكان الذي كان محاصراً فيه. مجموعة أصوات سياسية ودينية تطالب بوقف المعركة، وموضوع الياس المر، وميشال عون وجّه لي تهديداً ولو بصورة لائقة. أنا في مثل هذه الظروف أصبح شديد الحذر. وفي النهاية تم التوصل إلى اتفاق بواسطة ميشال المر: يخرج حبيقة وجماعته من جهاز الأمن، من دون أي مستندات، ويتوجه مع جماعته إلى وزارة الدفاع، ومنها فوراً إلى خارج البلاد. وعند المساء، توجهت قوة من الجيش اللبناني إلى مقر جهاز الأمن، وأخرجت حبيقة إلى وزارة الدفاع،

ومنها إلى خارج البلاد. وقد حاول حبيقة في مرحلة لاحقة اقتحام الأشرفية، لكننا سرعان ما أغلقنا الثغرة. وأحبطنا الهجوم.

عندما توجه حبيقة إلى مقر وزارة الدفاع، أمرت الوحدات العسكرية بالتوجه إلى الجبهات. نظمنا هجوماً مضاداً، واسترجعنا صفار التي كان قد سقط فيها خمسة قتلى أثناء دخولهم إليها. دعمنا جبهة الدوار في المتن الشمالي، وكل الجبهات الأخرى. قد لا تعكس رواية الأحداث الآن حراجة تلك الساعات. ليس سهلاً أن يكون عليك اتخاذ قرارات في وضع متحرك، وفي ظل خطر تدخل خارجي كان الأهم بالنسبة إلينا في تلك الساعات، وقد لاحت بوادره فعلاً. وشعرت بضرورة إنهاء الجانب الداخلي من الموضوع، ليتفرغ العسكر تماماً للدفاع عن الجبهات.

إزاحة الآخرين

يا أستاذ غسان ليس صحيحاً أنني منذ تولي قيادة «القوات» في ذلك اليوم، بدأت أخطط لإزاحة أمين الجميل وميشال عون، ولست أنا المسؤول عما تسميه أنت العلاقات الصعبة في المثلث الصعب. ولم أكن إطلاقاً في وادي التفرد بالقرار. أنا رجل حذر، وأقرأ الأشياء على مهل. أقصى تمنياتي كانت أن أستطيع ممارسة مسؤولياتي بصفتي قائداً لـ«القوات»، وأقول لك بصدق، كان ذلك أقصى تمنياتي.

كنت أشعر أننا نتحدث عن ترتيب أوضاع البلاد، وأن هذه المسألة تبدأ بأن يرتب كل واحد أولاً المؤسسة التي يتولى قيادتها. ولأني أعرف وضع «القوات»، كنت أشعر ببساطة أنني أطلب السترة، أي أن يتركوني لأمارس مسؤولياتي في موقعي. كانت «القوات»

بحاجة لإعادة بناء، وإعادة النظر بهيكليتها وأنظمتها وقوانينها. من دون مؤسسات فعلية لا خلاص للمجتمع. وإعادة التنظيم لا تعني الاستعداد للمزيد من الحروب، وربما كان العكس. فالمجموعة المنسجمة التي تمتلك برنامجاً واضحاً هي الأقدر على المشاركة في السلام. ولم أكن أطلب من الآخرين غير ذلك. هذا كان شعوري، وهو شعور من يعطي نفسه لمؤسسة، ثم يتولى قيادتها ويشعر أن هذا الموقع ربما مكّنه من تحقيق أحلام هؤلاء الشباب. هذا كان مطلبي أمام المطلب الآخر، فهو أن لا يحضروا للبلد هزة جديدة أو يلزموا الناس بمشروع جديد.

في فترات الهدوء يتسابق كثيرون على انتقاد الميليشيات، ويتحدثون أحياناً وكأن أفراد هذه الميليشيات جاؤوا من البعيد، من بلاد أخرى أو من كوكب آخر. لا شك أن عناصر من الميليشيات ترتكب تجاوزات، خصوصاً حين يغيب التنظيم الجدي وتغيب القيادة الحازمة. ما ينساه كثيرون هو أن هؤلاء المقاتلين ولدوا من المأساة التي ارتكبها غيرهم. إنني أسأل: هل كان يمكن أن تقوم ميليشيات لو كانت الدولة دولة بالفعل؟

لقد ولدت الميليشيات من انهيار الدولة وتفكك مؤسساتها وتراجع هيبتها، وحين عجزت الدولة أن تكون ضمانة للمواطن. كم كنا نتمنى لو أن الدولة واجهت هذه الحرب منذ البداية، ووفرت للمواطن أمنه وسلامته، وحافظت على سيادة البلاد. لقد ترك هؤلاء الشبان مقاعد الدراسة، وغرقوا في الحرب، وقتل كثيرون منهم على الجبهات والمتاريس. كثيرون قتلوا وكثيرون جرحوا وكثيرون أصيبوا بعاهات دائمة. وماذا يريد هؤلاء؟ لا أعتقد أنهم يريدون أكثر من وطن حر ودولة تستحق التسمية. أما كان أفضل

لهؤلاء أن يتابعوا دراستهم، أو ينصرفوا إلى أعمالهم، بدل العيش في الخطر؟ ليسوا هواة حرب، ووحده من لا يعرف الحرب يمكن أن يسوق مثل هذه الاتهامات. إن التنكر لدم من سقطوا جريمة، لأن هذه التنكر ينجب المزيد من الحروب.

ولدت الميليشيات حين سقطت الدولة. وحين تقوم الدولة الحقيقية، لن تكون الميليشيات مشكلة، ولا يمكن أن تكون. والدولة الفعلية التي تعبر عن آمال اللبنانيين تستطيع بالتأكيد إيجاد حل للميليشيات.

لا أحد يستطيع رفض سلام قائم على المستلزمات الحقيقية للسلام. وأن تكون الميليشيات قوية لا يعني أن السلام مستحيل، بل ربما يسهل السلام. فالسلام يصنع بين المتحاربين.

يا ريت بقيت اللعبة في إطارها السياسي. نحن أساساً جئنا إلى الأحزاب لكي نعمل من خلالها، لا لنقاتل. وفي النهاية، لا حل إلا بالعودة إلى الصراع الفكري والسياسي. فلتكن هناك معارك سياسية وأحزاب وبرامج. أكثرية تحكم بالديموقراطية، وأقلية تعارض بالديموقراطية. لا قوة ولا طغيان. برلمان وأحزاب وصحافة وانتخابات، وترك الناس يختارون من يمثلهم. ننسى أحياناً ما حصل في العام ١٩٧٥. منذ تلك اللحظة تعطلت اللعبة السياسية. صار عليك إما أن تنكفئ إلى كتبك أو عملك، أو إلى مؤسسة خيرية، وتترك الأقوياء يصنعون البلد على هواهم، وإما أن تشترك في صناعة المستقبل، وكل مشاركة متعذرة بلا قوة.

قصة السلاح معروفة. مكره أخاك لا بطل. لا يصنع مستقبل الأوطان بالسلاح. لكن الرضوخ للسلاح مرفوض هو الآخر. لا

يصنع الوطن بالشطب أو بالقهر، وحين تغيب الدولة والمؤسسات، لا بد لك وبالرغم عنك من أن تدافع عن حقوقك. كم أتمنى لو كانت هناك حلول مثالية، لكن دعنا نقرأ الواقع ونتعلم. منذ الرصاصة الأولى في الحرب، سقطت اللعبة السياسية. وللتذكير، يومذاك لم تكن «القوات» موجودة.

وأعود إلى مسألة إزاحة الآخرين. لست من جماعة الأوهام، ونحن نرسم تحركنا بأسلوب علمي وواقعي. حين توليت قيادة «القوات»، لم يرد في ذهني إطلاقاً أن أزيح رئيس الجمهورية، أو أن أخطط لإزاحته. لم أرد ذلك، وما كنت قادراً على تحقيقه لو أردت. لا يجوز التعاطي بخفة مع هذه المواضيع. لم يكن غرضنا شلّ رئاسة الجمهورية، بل على العكس، فهذا الموقع يمكن أن يساهم بفاعلية في الحل حين يحسن من يتولاه إدارته. وهو موقع دستوري، لم يكن من الوارد أن نفكر في الاستيلاء عليه. الأمر نفسه بالنسبة إلى العماد عون. لماذا أزيحه؟ ألم يكن أحد اعتراضاتنا على الدولة التي تركت الوضع يتدهور أنها استسلمت لرغبة أو إرادة الذين خططوا لتمزيق المؤسسات وشلّها؟

ما عملت من أجله كان عكس ذلك تماماً. في عهد حبيقة حدثت عملية كبت للحريات السياسية، ومحاولات لشرذمة الأحزاب. أما نحن، فرأينا أن عودة الحركة السياسية والحزبية والديموقراطية تقوي المجتمع ولا تضعفه. كثيرون من الذين كانوا قد تركوا المنطقة الشرقية، أو هجروا منها، عادوا إليها. لم تكن التعددية السياسية مسألة فولكلورية، بل كانت خياراً. طبعاً لم تكن التعددية العسكرية مسموحاً بها، أي لم يكن ممكناً القبول بشراذم عسكرية، لأن هذه الشراذم تغرق المجتمع في مواجهات وممارسات تستنزفه.

أحب أن أذكرك في هذا المجال بأن عناصر من أحزاب وميليشيات كانت على الجهة الأخرى من خطوط التماس، دخلت المنطقة الشرقية ولم يتعرض لها أحد، ولم يكن هناك أي قيد عليها، طبعاً باستثناء العمل العسكري.

ليس صحيحاً أن لدي مشكلة في القدرة على التعايش مع الآخرين. لقد تعايشت مع أمين الجميل، ومع الجنرال عون، ولكن ماذا تفعل حين اختار أمين، وفي آخر لحظة من عهده، أن يزرع عون في الحكومة العسكرية، لينفجر هذا اللغم لاحقاً بـ«القوات» وبالبلاد معاً. وفي هذا السياق، يمكن فهم دخول «القوات» إلى المتن بعد خروج أمين من الرئاسة.

الليلة الأخيرة

سأعود إلى ما قبل ٢١ أيلول/سبتمبر، وتحديداً إلى ١٨ آب/أغسطس ١٩٨٨، تاريخ أول جلسة لانتخابات الرئاسة. حتى ١٧ آب لم تكن لدى الجنرال ميشال عون إلا علاقات تناقضية. هذا الإنسان فظيع. جربت مرات ومرات، ومنذ تعيينه قائداً للجيش، ومنذ تولي قيادة «القوات اللبنانية» أن أتفاهم معه. لم يكن ثمة مجال، وأدركت السبب لاحقاً، وهو أن القوة التي بناها، والتي ارتكز عليها للوصول إلى حيث أراد الوصول، إنما قامت على شعار رئيسي هو العداء لـ«القوات». مجرد استعراض بسيط للجماعة التي تسير في ركاب عون، خصوصاً من خارج الجيش، وجزئياً داخل المؤسسة العسكرية، يظهر أنها أشبه بسلة من أعداء «القوات». لقد صنع عون وعاء أو مستوعباً جمع فيه كل أعداء «القوات»، وحاول أن يشكل من هؤلاء قوة سياسية لمواجهتنا.

الجنرال عون رجل براغماتيكي إلى أقصى الحدود، وأكثر مما يجب، وأبعد من المعقول. لا يهمه أي شعار ولا أي مضمون ولا أية سياسة. ولا تهمه الأهداف بالتأكيد. هاجسه تشكيل قوة سياسية. وهو أدرك باكراً أنه لو سار في خط «القوات» لفقد مبرر تشكيل قوة مستقلة. فالاستقطاب مرهون بالاختلاف، أو بالتمايز، خصوصاً أن لـ«القوات» حضورها وجذورها. فكر في تشكيل قوة لا تكون مع «القوات» ولا تكون ضدها، فاكتشف أن الذين في مثل هذا الموقع يفضلون في النهاية السير مع الشرعية. كان يبحث عن دور ويبحث عن أداة. جس النبض، فاكتشف أن لشعار العداء لـ«القوات» قدراً من الجاذبية، خصوصاً أنه يمكن تجميع هؤلاء ضد الآخرين، وليس بالضرورة حول برنامج.

يصعب أن نصدق أن مواقفه تصدر عن اعتبارات مبدئية. وخير دليل على ذلك أنه في الأعوام ٧٩ و٨٠ و٨١ و٨٢ كان يتردد باستمرار على مقر قيادة «القوات» في المجلس الحربي. وذات يوم أمضى نهاراً كاملاً في القطارة معي ومع أنطوان نجم، وكنا ندرس في حينه موضوعاً كلفنا به الشيخ بشير الجميل. والتقيناه مرات عدة في بيت نجم. غريب أمر الناس. ضيعان الخبز والملح، ولن أقول أكثر. حين عين عون قائداً للقوة المسؤولة عن عين الرمانة، كلفت «القوات» بوسي الأشقر التنسيق معه. فكان يتردد باستمرار على مكتب بوسي. لكن عندما عين قائداً للجيش في ١٩٨٤، بدأ طرحه السياسي يتمحور حول العداء لـ«القوات». والغرض ببساطة تجميع أولئك الذين يهمهم أن يكونوا في موقع العداء لنا. جماعة ريمون إده مثلاً، عملية ٧ تموز/يوليو ١٩٨٠ التي نفذها بشير الجميل ضد ميليشيا حزب الأحرار، ومجموعات المتضررين من الكتائب و«القوات» وينتظرون فرصة للتجمع أو التحرك. أقول ذلك

لأوضح لماذا لم يمكن التوصل إلى علاقات طبيعية بيننا وبينه على رغم عدم وجود أسباب جوهرية تحول دون قيام علاقات.

الحذر الدائم

عندما توليت قيادة «القوات» كنت أتردد على منزله، ولاحظت حذره الدائم. رحت أطرح نفسي عليه، وأتصل به باستمرار، من دون أن يبادر ولو لمرة إلى الاتصال بي. كان همي في الواقع ألّا أترك أي مجال لنشوء حساسيات، أو لحصول احتكاكات، بل كنت أتطلع إلى علاقات ثقة وتعاون. فجأة في ١٧ آب/أغسطس اتصل بي الضابطان فؤاد الأشقر وعادل ساسين، وكان قد مضى نحو عام من دون أن أراهما. قال لي الأشقر: إن الجنرال يسلم عليك، ويريد منك أن تستقبلنا الآن. فأجبته إنني مشغول، فنحن عشية انتخابات. فرد: ولهذا السبب نريد اللقاء. حددت لهما موعداً في النهار نفسه واستقبلتهما. كان الكلام صريحاً، وقالا لي: الجنرال بيسلم عليك، ويبلغك أنه حاضر لما تريد ولما تطلبه، والمهم هو تعطيل جلسة غد. سألت عن السبب، فكان الرد: سيجيئون بسليمان فرنجية رئيساً، وهو الذي خرّب البلد، وليس معقولاً أن يرجع إلى الرئاسة. سألتهما عن المعلومات، فقالا: «ضمن السوريون النصاب». واستفهمت عن تحركهم، فردا: «تعرف نحن السلطة الشرعية، ولا نستطيع أن نفعل شيئاً»، وقالا: «الجنرال بيتمنى عليك، ولأنكم تمثلون الضمير اللبناني الحر وتستطيعون التحرك، أن تعطلوا جلسة الانتخابات بأي ثمن، وهو يرى نفسه من هذه اللحظة في تحالف معك للبحث في إخراج البلاد من هذه الوضعية». هذا الاستعداد المفاجئ للتحالف دفعني إلى طرح الأسئلة على نفسي، وتحديداً عن أهداف الجنرال نفسه. قلت للأشقر وساسين: إننا لكي

نستطيع أن نفعل شيئاً، لا بد من أن يكون لنا حاجز قرب المتحف، أي قرب المقر الموقت للمجلس النيابي حيث يفترض أن تعقد الجلسة. فكان الجواب: «افعل ما تريد». واستغربت مجدداً. ففي السابق كان الجنرال يقيم الأرض ولا يقعدها إذا اقترب عنصر من «القوات» من مركز للجيش، وحتى على مسافة كيلومتر من هذا المركز. هذا ما حدث حرفياً، أقوله من دون أن أغفل أننا من جهتنا كنا قد اتخذنا قراراً بمنع تمرير سليمان فرنجية.

بدأت الاتصالات إذاً من ١٧ آب/أغسطس وليس من ٢١ أيلول/سبتمبر. والغريب هو قدرة الناس على الاختباء في ثيابهم. ففي الوقت الذي كانوا يتحدثون فيه معنا على هذا النحو لإقناعنا بتعطيل الجلسة، كانوا قد أعطوا وعداً لبيت فرنجية، ليس فقط بتسهيل الانتخابات، بل أيضاً بالضغط على بعض النواب كي يقترعوا لمصلحة فرنجية. ولم يتأخر الدليل، ففي اليوم التالي، وحين تعذر انعقاد الجلسة بسبب عدم اكتمال النصاب، توجهت صونيا سليمان فرنجية إلى مقر وزارة الدفاع، وكانت فضيحة للجنرال وجماعته الذين ارتبكوا أمام ما راحت تكشفه وبصوت مرتفع.

هذا لا يعني أننا نتحمل مسؤولية تعطيل جلسة الانتخابات، فقرار تعطيلها متضمن في قرار ترشيح فرنجية نفسه، وحصر الانتخابات في مرشح وحيد. لم يكن فرنجية مقبولاً هنا ولم يكن مقبولاً هناك. نحن طرحنا ٤ أو ٥ أسماء للرئاسة، وكان قرارنا المشاركة في البحث عن مرشح توافقي. كنا نريد الانتخابات لأننا ندرك خطورة الفراغ. لكن، وكما يقول المثل: «اللي ما بدو يزوج ابنته يغلّي مهرها». وترجمة هذا أن من لا يريد انتخابات رئاسية يرشح سليمان فرنجية.

إنها المعادلة المنطقية البسيطة. ألم يكن ترشيح فرنجية في ١٩٨٨ استخفافاً بالناس! على أنك تعرف الموقف الفعلي منه في صفوف المسيحيين والمسلمين. صحيح أن نواباً أجبروا على النزول إلى المجلس لانتخابه، لكن الصحيح قبل ذلك أن الذي رشحه كان يعرف أن النصاب لن يتأمن، وأن الرجل لن ينتخب.

في هذه الأجواء رحنا نقترب من نهاية ولاية أمين الجميل، الذي كان مشغولاً مع الجوقة المحيطة به بحساباته الشخصية. وكأنما لم يكفه ما فعله بالبلاد على مدى ستة أعوام، ليتوّج مآثره بما ارتكبه في الساعات الأخيرة في عهده. وهنا ظهر اتفاق مورفي ـ الأسد، الذي وضع مخايل الضاهر مرشحاً وحيداً للرئاسة، فيما كان المفترض أن يُختار من أصل عدة أسماء. وأبلغنا موقفنا هذا إلى أمين الجميل.

في اليوم التالي، وفي الساعة التاسعة والنصف صباحاً، رنّ الهاتف. قال لي كريم بقرادوني إنه أبلغ أمين بموقفنا، وإن الأخير يصرّ على التحدث إليّ. طلبت الشيخ أمين، فقال لي: «يا سمير، أنا سأقوم بمحاولة أخيرة لإنقاذ البلد. أنا لا علاقة لي بموضوع مخايل الضاهر، ولكن سأقوم بمحاولة أخيرة، وسأمشي الآن إلى الشام، فقد نتفق نحن وإياهم على مخايل الضاهر».

كان أمين يحاول أن يسوّق لدينا ما رفضناه أصلاً، وأدرك موقفي، فسألني: «إنتو ماشيين بالموضوع، أم لا؟» فأجبته: «لا، نحنا مش ماشيين». قال: «إذاً لن أتوجه إلى الشام». فأجبته: «زعّلتني». فقال: «هذا إذاً موقفكم؟». فأجبته: «أكيد». أسلوب أمين معروف ومكشوف. قال يريد أن ينقذ البلد. ربما صدّق نفسه من فرط ما

روجت له الجوقة أنه منقذ. ويهددنا بعدم الذهاب إلى الشام، وكأنه يقدم إلينا هدية بعدم ذهابه. كان أمين في تلك الساعات على غرار ما كان عليه دائماً، أسيراً لحساباته الضيقة، ولرغبته في الاستئثار بكل شيء. تبلغ المأساة حداً مرعباً حين يكون القرار بيد هذا النوع من الناس.

لم يكن أمين يبحث عن مستقبل الجمهورية. كان أمين يبحث عن مستقبل أمين. لذلك، يتعين على التاريخ أن يكون صارماً، ولذلك على الذاكرة أن تتذكر. وهكذا في ٢١ أيلول/سبتمبر ذهب أمين إلى دمشق.

موعد مع الجنرال

بعد قليل، رنّ جرس الهاتف، وكان المتحدث جبران غسان تويني. قال لي: «يا حكيم، نحن مجتمعون في مكتب الجنرال عون. الشيخ أمين طار إلى دمشق، والموقف خطير. يجب أن نجتمع لنرى كيف نواجه الموقف». طلبت منه أن يعطيني الجنرال، وبعد السلام اقترحت عليه أن يرسل إليّ ساسين والأشقر لندرس الموضوع، فاقترح أن آتي أنا، قائلاً: «الموقف خطير، وداني شمعون هنا. فوافقت».

في مقر قيادة الجيش في اليرزة كانت هناك حالة ارتباك. أفلت الحاضرون على سجيتهم، سوق عكاظ وفتحت. اقترح الجنرال أن نلتقي على انفراد، وفي جانب من مكتبه الواسع. قال لي: «يا حكيم القصة خطيرة. يجب أن نقدم مصلحة البلد على كل شيء، وبشرفي العسكري، أنا وأنت معاً في السراء والضراء». وأجبت: «كل الماضي لا يعني لي شيئاً، أعرف أن الوضع دقيق،

وبرأيي أننا نملك من القوة العسكرية والسياسية ما يكفي لمواجهة الوضع الحالي. لا تهتم، إبق ثابتاً في موقعك، وأنا سأتابع الموال نفسه. إذا عاد أمين بالمرشح نفسه، أي بمخايل الضاهر، فسنظل على موقفنا». وقلت له: «أعدك بأنني لن أدخل وزارة إلا إذا كنا فيها معاً». وانشرحت أساريره، وقال: «عظيم». ثم تابعنا الحديث مع المجتمعين. ومساءً، رجع أمين من رحلته الدمشقية بالنتائج التي لم تكن تحتاج إلى محاولة جديدة، وعرّج على الاجتماع النيابي في بكركي، فاصطدم اقتراحه بالرفض. وهكذا دخلت الأزمة مرحلتها الأخيرة.

أربع حكومات

ذهب أمين إلى منزله في حرج ثابت. ونحو الساعة العاشرة اتصل بي العقيد سيمون قسيس مدير المخابرات في الجيش اللبناني، وقال إنه يريد المجيء لنبحث في أمر الحكومة. أحياناً تبدو الأشياء مضحكة مبكية. قبل أسبوع كنا عند الشيخ أمين في بكفيا، وطرحنا الحكومة الانتقالية بعدما بدأت المؤشرات تؤكد صعوبة إجراء الانتخابات. وقلت له: «مفروض أن تكون الحكومة جاهزة، ولا يجوز دفع البلاد إلى المجهول». فأجاب: «بتضلوا تحكوا على الحكومة، حتى صلاحيتي بالحكومة يمكن تاخدوها مني». فأجبته: «يا خيي ما حدا بدو ياخد منك شي، بس من المفروض تكون الحكومة جاهزة. قبل ثلاثة أشهر كنا نتحدث عنها كاحتمال نظري، والآن وصلنا إليها». فرد أمين بثقة: «لا تقلق، حضرنا الحكومات. لدي في هذا الجيب حكومة، وفي الجيب الآخر حكومة، وفي الجيب الثالث حكومة». فأجبته: «طوبى للبنان الذي حملك». شهد اللقاء قدراً من الحدة بسبب موضوع الحكومة، ولم

تتراجع مخاوفي رغم الحديث عن الحكومات والجيوب.

جاء قسيس وقال: «أوفدني الرئيس الجميل لندرس موضوع الحكومة، وطرح تشكيلة من ١٤ وزيراً برئاسة الرئيس السابق شارل حلو، أو النائب بيار حلو». استبعدت التشكيلة اسم رئيس حزب الكتائب الدكتور جورج سعادة، والسبب واضح. فسياسة أمين في الدولة تبنى على أساس سياسته وحساباته في حزب الكتائب. واقترح في التشكيلة تمثيل الموارنة بجوزف الهاشم وداني شمعون وأنا، وتمثيل الكاثوليك بنصري المعلوف وراشد الخوري، والأورثوذكس بميشال ساسين وعبدالله الراسي. كما تضمنت أسماء الدكتور سليم الحص والسيدين وليد جنبلاط ونبيه بري وآخرين. قلت لقسيس: «إن التشكيلة تواجه مشكلتين، إنها تستبعد اثنين لا يمكن تجاهلهما: جورج سعادة وميشال عون». فرد: «ما بعرف، الرئيس أعطاني اللائحة». فاقترحت عليه أن نعود إلى منزل الجميل، وأن نجتمع لبحث الموضوع. بعد ربع ساعة اتصل قسيس وقال: «الرئيس في انتظاركم». كان الاجتماع ثقيلاً بالفعل، وأعتقد أن أمين بدأ يدرك في تلك الساعة أنه سيغادر القصر والرئاسة.

زاد الليل من ثقل الصمت، وراح الوقت ينفد. قلت له: «يا فخامة الرئيس هذه التشكيلة غير ملائمة. لا يجوز استبعاد أحد من حكومة انتقالية يفترض أن تستند إلى أكبر قاعدة ممكنة في هذه الظروف الصعبة. يجب أن تكون الحكومة أكثر تمثيلاً وثباتاً، إذ لا وجود لرئيس جمهورية، والوضع لا يحتمل أي اهتزاز». فسأل الجميل عن حل مشكلة التمثيل الماروني، وأجبته: «لا أريد وزارة، لكن أقترح إدخال عون وسعادة في الحكومة». ورد أمين بأسلوبه: «ميشال عون بدي حطو بالوزارة؟ هيدا ما بحطو بواب عندي».

كررت اقتراحي قائلاً: «أنا لن أتسبب في مشاكل بسبب عدم مشاركتي، لست مهتماً بمقعد وزاري، لكن أطالب بإشراك عون وسعادة». وبدأ أمين يقترح: «منعملها هيك. لا، منعملها هيك. ما منعملها هيك». ولأن الاستحقاق وشيك، اقترحت عليه أن تكون التشكيلة من ١٨ أو ٢٤ وزيراً، وبحيث يمكن تمثيل الجميع: داني شمعون وجورج سعادة وميشال عون وأنا. وتركنا على أساس أنه قبل بالمبدأ، باستثناء موضوع ميشال عون. ولدى خروجنا سألت العقيد قسيس عن سبب إصرار الجميل على استبعاد عون، فأجاب: «بيني وبينك يا حكيم، ليش عون بيستاهل ينجاب على الحكومة؟ على شو، على إنجازاته؟».

قلت له: «إذا كانت القصة قصة إنجازات، فإن ثلاثة أرباع الذين يفكر بإشراكهم لا يستحقون. المسألة الآن هي إيجاد صيغة ثابتة وقادرة على تجميد الوضع». وفي النهاية قال قسيس: «اتكلوا عليّ وهيدي التركيبة اللي رح تمشي». واعتقدنا أن أمين موافق، وكنا قد اتفقنا معه على أن يستدعي الرئيس شارل حلو في التاسعة صباحاً لتكليفه، وإذا اعتذر يستدعي النائب بيار حلو، بحيث تعلن التشكيلة قبل الثانية عشرة ظهراً، إذ كان هناك من يحاول القيام باجتهاد معناه أن مرور الثانية عشرة يعني نهاية الدوام الإداري الرسمي، ومعه الوقت القانوني، فتفوت فرصة تشكيل الحكومة، وتبقى حكومة الدكتور الحص.

في ساعة متأخرة ذهبنا للنوم، وعلى أساس أن نستمع من الإذاعة حين نفيق إلى التشكيلة العتيدة. استيقظت في الحادية عشرة، وصعدت إلى مكتبي. فاتصل بي كريم وقال لي: «لم يصدر شيء بعد». فطلبت منه أن يتصل ويستفسر. وبعد قليل أبلغني أنه لم

يستطع التحدث إلى الرئيس الجميل، وأن سيمون قسيس وجميل نعمة (مدير الأمن العام) قالا إنهما يتابعان العمل. كانت الساعات صعبة، وكانت حساسة. وهذه المنعطفات في حياة دولة أو شعب تحتاج إلى قرارات، وتحتاج إلى رجال. إنها تحتاج قبل كل شيء إلى رجال بحجم المسؤولية أو المشكلة. في مثل هذه الساعات تحتاج الدولة إلى رجال يتخطّون حساباتهم الضيقة. كانت الجمهورية تقترب من الهاوية، وكان الوطن مندفعاً مع الجمهورية، وكان وقف التدهور يحتاج إلى قرار ينطلق من ضمير الناس. ربما في تلك اللحظات بدا واضحاً أن لبنان كوطن غير محظوظ. مرت الساعة الثانية عشرة، ومرت بعدها ساعة أخرى. اتصل كريم مجدداً، فطلبت منه أن يتصل بالقصر مجدداً ليسأل عن التأخير، وسرعان ما أبلغني أن شيئاً لم يحصل، وأن قسيس قال له إن علينا أن نتوجه إلى القصر لأن الوضع مخربط.

حوالى الرابعة بعد الظهر، صعدنا إلى القصر. مهرجان كامل. الجو جو نهاية نظام لا نهاية ولاية. إنه أمين الجميل. كان يعتقد أنه يجسد في شخصه الجمهورية والتاريخ والجغرافيا والنظام كله. كان يرى أن لبنان لن يبقى، وهو فعلاً تصرف كي لا يبقى شيء اسمه لبنان. لقد نجح، ولو جزئياً، في ما سعى إليه. كرنفال كبير. نواب هنا، ومستشارون هناك. مسؤولون مرتبكون، وصحافيون ينتظرون. بدا وكأن السقف انهار، ولم يعثر على من يمنعه من السقوط، أو من يرفعه على الأقل. سألنا عن الرئيس فقيل لنا إنه يسجل كلمة الوداع. كل شيء يكاد ينهار، والرئيس منهمك بلحظة الوداع ومراسم الوداع.

الحكومة الأسوأ

سألت عن بيار حلو، وذهبت للتحدث إليه. بادرني الوزير السابق ميشال إده بالقول: «يا حكيم، مش ماشي الحال. شخصيات المنطقة الغربية ترفض المشاركة في الحكومة». فأجبته: «وهل كنت تتوقع أن يشاركوا في حكومة يشكلها أمين الجميل؟ الوضع معروف، وظروفهم معروفة، وفي ضوء الضغوط يجب توقع مثل هذا الموقف». وقال: «حتى كاظم الخليل رفض المشاركة». فأجبته: «أكيد ما بيشارك، إنه يحسبها بدقة». فأجابني: «يعني منشكل حكومة بلا ممثلين للغربية وطوائفها». فأجبته: «منذ ٤ سنوات اللعبة معروفة في البلد، وكذلك الأسلوب المعتمد في إدارة الوضع». فأجاب: «مش ماشي الحال هيك، وقال بيار حلو إن الجميل يعتبر أنه إذا لم تشارك الغربية، فسيكون من الصعب تشكيل حكومة».

خرجت من الغرفة وناديت سيمون قسيس:

– شو القصة يا سيمون، شو عم بيصير؟

– ما عم نقدر نشكّل حكومة.

– والسبب؟

– شخصيات الغربية ما عمتقبل.

– ليش إنت متوقع يقبلوا ويوافقوا على تشكيلة ويشكروكن ويقبلوا فيها؟ شو هالحكي؟

– شوف الرئيس الجميل.

- وين موجود الرئيس؟

- الرئيس عم يسجل خطابه.

وسألت عن النقطة العالقة، فقالوا إن النائب عثمان الدنا يرفض المشاركة. ذهبنا لعند عثمان بك وقلنا له إن الوضع خطير في البلاد، والموقف لا يحتمل المزاح. فأجاب: أنا أطالبهم بأن يراعوا وضعي قليلاً. أنا أشترك، لا أرفض التشكيلة، لكن ما يطلبوا مني أكثر من هذا.

شكرته، وعدت لأبلغهم. فماذا كان الجواب؟ كان، لماذا لا يأتي لالتقاط الصورة التذكارية؟ كأن الصورة التذكارية هي التي ستنقذ البلاد. ذكّرتهم بأنه في أفضل أيام أمين الجميل لم تكن هناك صور تذكارية، ولا حكومة. فهل باتت الصورة التذكارية مشكلة الآن؟ بعدها ذهبنا لعند كاظم بك الخليل وحكينا معه في خطورة الوضع وضرورة تدارك الأسوأ، وبعد نقاش اتفقنا معه على معادلة شبيهة بمعادلة عثمان الدنا: يشترك أحد أولاده في الحكومة من دون أن يعلن اشتراكه فورياً، ودون أن يعلن رفضه للتشكيلة، ويترك الوضع «لا معلّق ولا مطلّق».

صعدنا مجدداً إلى القصر وأخبرناهم. فقالوا نريد وزيراً شيعياً غير نبيه بري. ففكرنا في وزير شيعي غير نبيه بري. فكرنا في حميد دكروب إضافة إلى بري. رحنا لعند دكروب وحكينا معه، فقال إذا كانت العملية تتوقف عليّ فأنا مستعد. وهكذا أبلغنا بيار حلو.

هذه التفاصيل ضرورية لأنها تكشف الكثير. الرجل الذي كان يفترض أن يشكل الحكومة قبل فترة، أو على الأقل ينهمك

بتشكيلها الآن، أي الرئيس الجميل، يسجل خطاب الوداع ويترك المسألة على عاتقنا. إنها سخرية الأقدار. يجب أن يكون حكم التاريخ قاسياً على السيئين. وأفظع من ذلك، جاء جميل نعمة ليقول: «الرئيس بيسألكم وين صرتو في تشكيل الحكومة؟» فأجبته: «بيسألنا نحنا؟ شو بدنا نحكي وقت اللي الفساد وانعدام المسؤولية بيوصل إلى هذا الحد؟ شو بدنا نقول؟ خلينا نقطع هالنهار، وتتشكل الحكومة، وبعدين منشوف كيف الله بيفرجها علينا وعلى الناس».

بين الرابعة والسابعة قمنا بهذا التحرك، وبعده سألنا عن الرئيس فقالوا إنه لا يزال يسجل خطابه. مشغول بالوداع. واستمروا في التأخير حتى الثامنة والنصف. كان الوقت يفلت من أيدي الذين تعمدوا التفلت من مسؤولياتهم. كانت الساعات الأخيرة من ولاية صعبة. لكن كان يمكن حصر الأضرار والخروج بصيغة مقبولة لحكومة انتقالية بانتظار انتخابات الرئاسة، لكن شيئاً ما كان ينسج، أو أعد سلفاً.

في الثامنة والنصف دخلنا إلى القاعة التي يجلس فيها الرئيس، وفوجئت بالعماد عون جالساً إلى جانبه. راودتني بعض الأسئلة، لكنني لم أقل شيئاً. توزعنا على المقاعد: بيار حلو وجوزف أبو خليل وميشال إده وخليل أبو حمد وجوزف الهاشم وكريم بقرادوني وغسان تويني وداني شمعون، وانضم لاحقاً نبيل كرم ومارون حلو وأكيد إيلي سالم.

التفت الجميل إلى بيار حلو وسأله: «شو عملت يا بيار؟» فرد: «بتعرف فخامة الرئيس صار في تشكيلة حاضرة». فسارع إلى الرد

عليه: «تشكيلة بلا النصف الآخر من اللبنانيين ما بتمشي». فرد حلو: «ولهذا السبب يا فخامة الرئيس شوفوا شو لازم تعملوا».

أخذت الكلام وقلت إننا نتحدث وكأننا لا نعرف أوضاع البلاد. هناك خلافات وضغوطات، والظروف في الغربية معروفة. لقد اتفقنا على تشكيل حكومة بالتي هي أحسن، كي نرى لاحقاً كيف يمكن أن نصل إلى انتخابات رئاسة الجمهورية. فرد الجميل: «لا، خلينا نشوف، ربما هناك احتمال ثان، شو رأيكم يا شباب؟» هنا تكلم غسان تويني، وبعد نظرية طويلة استخلص أن الظروف تستلزم الشدة والحزم، وأن الأمور تستلزم منحىً عسكرياً، خصوصاً أن البلد قادم على خراب.

وجرت مناقشات قصيرة، بعدها تحدث داني شمعون قائلاً: «خلينا نتصل بالرئيس سليم الحص. سليم صاحبي. خليه يوسع حكومته شوي وبتبقى الحكومة». عارضت اقتراح داني، فأصرّ عليه، وشعرت بحجم التخبط في تلك الساعات الصعبة، فهناك من لا يعرف ماذا يريد، وهناك من يدفع الأمور ليجعل مما يريد أمراً واقعاً. لم يبق من عمر العهد إلا القليل من الساعات، وأمين الجميل الذي زعم أنه يملك أربع تشكيلات حكومية يترك المجال لأي اقتراح. وعدت إلى داني لأقول له إن القصة ليست قصة ما إذا كان سليم الحص صاحبك أم لا. فرد: «لا تهتم، سأقترح أن نحل أنا وأنت في حكومته مكان كميل شمعون وبيار الجميل، ونمشي بالحكومة الموجودة». قلت له: «يا داني، القصة ليست قصة وزارة بل قصة مبدأ. أن تمشي الحكومة الحاضرة شيء، وأن تشكل حكومة انتقالية شيء آخر. لا يجوز الاستمرار في اللغط وفي اعتبار حكومة الحص ساعة مستقيلة، وساعة غير مستقيلة». فأجاب:

«دعوني أجرب مرة واحدة».

شعرت أن كل دقيقة تعادل عشر سنوات كاملة. وشعرت بخطورة ترك القرار لأناس لا يعرفون تماماً ماذا يريدون. وبدأت أحس أن أمين الجميل يتعمد تمرير الوقت لنصل إلى نهاية ولايته، وهي بعد ساعات فقط، لإغراق البلاد في فراغ كامل. وتحولت مشكلة الحكومة إلى مشكلة هاتف. سأل داني عن الرقم، ثم سأل وراح يتحارب مع الخط نحو نصف ساعة حتى أمكنه التكلم مع الحص.

في هذه الأثناء كان إلى جانبي الرئيس الراحل رينيه معوض الذي كان يراقب ما يجري، ويعرف بحكم خبرته عدم جدوى ما يدور. وبابتسامة خفيفة، همس معوض في أذني قائلاً: «ليك هالأولاد شو عم يعملوا، متل كأنو سليم الحص هو المشكلة، أو هو قادر الآن على اتخاذ القرار».

وبدأ داني الحوار: «ليك سليم، أنا عم بحكيك من موقع المسؤولية. وضع البلد لا يحتمل أكثر من ذلك. عندي لك اقتراح أخير، وعليك تقع مسؤولية إنقاذ البلد. يا سليم يا صاحبي». سكت داني قليلاً، ثم عاد إلى الكلام: «امبلى بيطلع بإيدك، عندي اقتراح أخير ما فيك ترفضو، ومش لازم ترفضو. نحنا مجتمعين كلنا سوا، وبدنا ياك تكون إيجابي. اللي بدنا نعملو بدنا ياك توسع حكومتك، وتشرك داني شمعون وسمير جعجع فيها حتى تصير متوازنة، وبتكون هيدي الحكومة الانتقالية». صمت داني مجدداً ثم استأنف الحديث: «يا سليم ما بتزبط إلا هيك، وصدقني سمير كتير منيح. يا سليم امبلى. ما بيصير تخربوا البلد. بدك تشوف؟ طيب، نحنا ناطرين منك جواب».

ولأن الوقت وقت انتظار الجواب، قال أمين الجميل إن لديه عملاً صغيراً لينجزه، وخرج. اختليت عشر دقائق مع رينيه معوض. قال لي مجدداً: «عجبك هالأولاد؟ ناطرين جواب سليم الحص. أنا أقص رقبتي إذا كان قادراً على إعطاء جواب، أو إذا وافق على هذا الاقتراح».

الساعة العاشرة والربع، ولم يبق من الولاية إلا أقل من ساعتين. بدأ داني بالاتصال بالحص بحثاً عن الجواب فظفر به في العاشرة والنصف، وسمعناه يقول: «لا يا سليم، كيف منقبل الآن وبعدين منشوف؟ ما بيصير هيك. خيّبت أملي يا سليم. هيدا ما بيجوز». وجرت شبه مشادة، أقفل بعدها داني الخط. كان لا بد من مناداة أمين الجميل مجدداً. لديه انشغالات وتشكيل الحكومة آخر همه. وكأن شمعون وكريم بقرادوني وسيمون قسيس وجميل نعمة وأنا المسؤولون عن البلد وعن تشكيل الحكومة. سيتذكر الناس بالتأكيد هذه الساعات، فهي كلفت البلد الكثير.

الحادية عشرة إلا ربعاً. هدوء كامل وصمت مطبق، وكأن على رؤوسهم الطير. وبدا أن الأمور اندفعت في الاتجاه الذي يريده الجميل. بيار حلو قرر الاعتذار، قال: «أنا ما بقى بدي». أخذت الكلام وقلت: «رأيي أن تبقى التشكيلة الحكومية على حالها، لكن على أن يكلف داني شمعون برئاستها بدلاً من بيار حلو. قلت ذلك وبدأت أشعر بخطورة اللعبة».

سأل الجميل داني إذا كان موافقاً، فأجاب: «إذا رأيتم أن ذلك يحل المشكلة فأنا موافق». وهنا بدأت التعليقات من الحاضرين، ولم أعد أذكر بالتحديد مَن مِن جماعة أمين اقترح تشكيل حكومة عسكرية.

بدأت خيوط اللعبة تتضح. سارعت إلى القول: «الجنرال سيكون عضواً في الحكومة، ووزيراً للدفاع»، فقالوا: «لا، الظرف صعب ويستلزم حكومة عسكرية». وهنا قال داني: «أنا لست المشكلة، ولا أركض وراء رئاسة الحكومة»، فتدخلت لإقناعه أن المسألة ليست مطروحة بهذا الشكل، فأصر وقال: «شوفو كيف بدكن تشكلوا حكومة». ورفع بيار حلو إصبعه قائلاً: «أنا ضد الحكومة العسكرية. يعرف الجنرال كم أحبه، ولكنني أعارض حكومة عسكرية». وسادت حالة من البلبلة. بعض الحاضرين اتخذوا موقفاً مائعاً، والبعض لم يتخذ موقفاً، وجماعة أمين يطرحون حكومة عسكرية. وهكذا انتقل الاجتماع للبحث عن هذه الصيغة.

أعتقد أن الجنرال عون كان يعرف اللعبة من قبل. وتدخلت مجدداً واقترحت أن يتولى الجنرال رئاسة التشكيلة التي كانت معدة لبيار حلو، وهكذا تكون الحكومة أكثر تمثيلاً واستيعاباً وقوة. وأوضحت أن هذه الحكومة ستجد نفسها في حالة مواجهة مع سورية وحلفائها، وهم يتمسكون ببقاء حكومة الحص. ولأن المواجهة محتملة، يجب أن نستعد بأفضل طريقة ممكنة. لماذا نشكل حكومة عسكرية ونفتح ثغرة للانتقادات؟ ثم على الجميع أن يتحملوا مسؤولياتهم في هذه المرحلة البالغة الخطورة على الدولة، وربما على الكيان نفسه. لم يكن أمين راغباً في هذه الصيغة، وظهر ذلك واضحاً من خلال السؤال الذي وجهه إلى عون، إذ قال له: «إنت يا جنرال ما بتقبل بحكومة مدنية، مش هيك؟» فرد عون: «لا، لا أقبل».

وقف الجنرال عون وقال للشيخ أمين: «بدي شوف الحكيم دقيقة». دخلنا إلى مكتب مجاور لمكتب الرئيس في الحادية عشرة والربع.

لم يبق غير ٤٥ دقيقة. قال عون: «يا حكيم، بشرفي العسكري سأعامل «القوات» مثل الجيش، وباستطاعتك أن تعتبر نفسك منذ اللحظة معي في السلطة، لكن أريد تأييدك». فأجبته: «القصة ليست قصة تأييد، وأنت تعرف أنهم حين كانوا يصرون على عدم طرح اسمك، وعدتك بعدم الدخول في أي حكومة لا تشارك فيها. أنا أعتقد أن الحكومة العسكرية المطروحة ليست الخيار الأفضل في هذه المرحلة». فقال: «أقول لك أكثر، وأعدك أنه بعد يومين أو ثلاثة، إذا تعذر على الوزراء المقيمين في الغربية المشاركة، أوسع الحكومة وتشاركون كلكم فيها. ولكن دعني الآن أنطلق بها كما هي، أي بالمجلس العسكري، ومن ثم لكل حادث حديث».

كان كريم بقرادوني معنا في هذا الحوار. وشعرت أن الجميل وعون نسقا عملية دفع الأمور في اتجاه الحكومة العسكرية. وحين عدنا إلى الاجتماع قلت للجميع: «كان أمامنا خيارات أفضل، وهذه أسوأ حكومة يمكن أن نشكلها، وسيحاكمنا التاريخ جميعاً. أما بالنسبة لك يا جنرال، فأنا معك حتى النهاية».

والواقع أنني كنت أريد أن أسجل موقفي، لشعوري بخطورة ما حدث، لكنني لم أكن أريد تمكين أمين من استغلال هذا الموقف للتسبب فوراً في صدام بين الجيش و«القوات».

التاريخ يحاكمك

وخاطبت عون أمام الجميع: «يا جنرال، كل الذين يتظاهرون بأنهم معك سيتخلون عنك، وغداً في أحلك الأيام لن تجد أحداً منهم بقربك، ولن يبقى معك إلا نحن». وتطلعت إلى أمين الجميل وقلت له: «أنت التاريخ بيحاكمك»، وخرجت.

أدرك أمين الجميل أن لعبته انكشفت، وأنه نجح في تمريرها، فأرسل أحد مساعديه طالباً مني أن ألتقيه، فتابعت طريقي. لم يعد هناك ما يبرر التحدث إليه. ولحظة خروجي من القصر، شعرت بخطورة ما يخطط له، ووصفت الحكومة بأنها «حكومة استقلال وأكثر».

هذه هي حرفياً وقائع الليلة الأخيرة من عهد أمين الجميل. واليوم، وبعد كل الذي حصل، لم يعد هناك التباس أو غموض. كان أمين الجميل يبحث عن طريقة لتدمير «القوات»، لأنه يعدّها عائقاً أمام عودته مجدداً إلى السلطة، وإلى حزب الكتائب. ولم يجد وسيلة أفضل من التهيئة لمواجهة بين القوات والجيش. وكان أمين مهتماً بالقضاء على معالم الدولة، لأن مجيء عهد طبيعي سيؤدي إلى فتح ملفاته وملفات عهده. تصور لو جاء عهد طبيعي بعد أمين الجميل. كان لا بد من فتح ملف بنك «إنترا» وصعوداً. لهذا اختار الجميل إنزال أكبر قدر من المصائب بالناس والبلاد، لينشغل الجميع بالمصائب الجديدة، فتضيع آثار المصائب التي خلفها. انكشفت لعبة أمين. كان يطرح حكومة تضم «القوات» وتستثني عون، للتسبب في صدام بين الطرفين. وحين رفضنا شكّل حكومة عسكرية برئاسة عون، على أمل أن تخوض المعركة ضد «القوات».

لم يكن مجيء عون صدفة. فأمين الجميل كان يعرفه، ويعرف مزاجه وطريقة تفكيره. أكثر شخص في لبنان يعرف عون هو أمين الجميل. والحرب في الشرقية لم تحصل صدفة، وربما أمين أطلق الرصاصة الأولى فيها حين تعمد الإتيان بعون وبهاجس إلغاء «القوات». كان أمين يريد إغراق الشرقية في الدم، ليرجع بعد الخراب ويتسلق السلطة مجدداً. نجح في حساباته، لكن فقط إلى حدود التسبب في القتال والدمار، لكن نجاحه لم يصل إلى حدود

ما يشتهيه، أي إلغاء «القوات» للعودة إلى التحكم بالقرار.

لا أقول هذا انطلاقاً من أحقاد أو حسابات. المواطن العادي يعرف قصة أسوأ عهد في تاريخ الجمهورية. كيف كان الدولار في بداية ذلك العهد، وكيف أصبح في نهايته. خسر الناس بيوتهم وأولادهم، وخسروا لقمتهم أيضاً. وجاء عون ليكمل على ما تبقى. الأول صنع المأساة، والثاني دفعها إلى الذروة. لا يجوز في حياة الدول والشعوب إسدال الستار على الماضي. لا بد من المحاسبة، ولا بد من الدروس. يتغطون بأشياء كثيرة، بينها أن مما أحبط الحل في الليلة الأخيرة كان إصراري على المشاركة في الحكومة. غير صحيح. فكرة إشراكي مع داني شمعون جاءت من غسان تويني وداني شمعون. أمين هو المسؤول الكبير عن كل ما حدث. المستشارون كانوا للفولكلور والتبخير. ربما تلقى نصائح سيئة، لكنه لا يأخذ من النصائح إلا ما يعجبه.

ربما كان لديه عدد من المستشارين السيئين، وربما كان لديه بعض غير السيئين. قصة المستشارين كانت للفولكلور. فأمين يتوهم أنه قادر على اللعب بعيداً عن كل وازع، وقادر على الربح من دون أي محاسبة. لم يستطع أحد أن يفعل بالبلاد ما فعله.

حرب الشرقية

قيل الكثير في حرب الشرقية، ومعظم الكلام دار على ما هو مباشر، وعلى الحدث اليومي بالذات. بعض ما قيل، أو كثير منه، كان مغرضاً أو سطحياً. وبعض الناس حاول الذهاب إلى ما هو أبعد من التفاصيل اليومية، وإلى ما وراء الحدث. لا شك أن حرب الشرقية محطة مهمة ومؤلمة في الوقت نفسه. فآثار ما جرى تتعدى

حدود المنطقة التي دارت فيها الأحداث. اليوم، وللمرة الأولى سأحاول طرح مسألة حرب الشرقية في أبعادها الحقيقية.

لا يمكن عزل الحرب في الشرقية عمّا سبقها، سواء لجهة شغور مركز رئاسة الجمهورية وتشكيل حكومة عسكريين برئاسة العماد ميشال عون، أو لجهة الأحداث العسكرية والسياسية التي حصلت بين نهاية عهد أمين الجميل واندلاع الحرب داخل الشرقية.

القائلون بأن حرب الشرقية كانت نتيجة تباين في الطرح السياسي يجهلون التاريخ والواقع والحقيقة. يستطيع المرء تضخيم المسائل إلى أقصى حد، كما يستطيع تصغيرها إلى أدنى حد. العقل البشري قادر على هذه اللعبة. لكن القراءة الهادئة تفترض التوقف عند العناصر الحقيقية للصورة. حاولنا الكثير لمنع وقوع الحرب، لكنها وقعت. ولأنها حصلت لا بد من قراءتها، ولا بد أيضاً من تبيان المسؤوليات. فما حدث لم يكن وليد تحرشات أدت إلى مواجهة، ولم يكن عملاً من فعل الصدفة. كان هناك قرار بالحرب اتخذه طرف، وقرار بالدفاع عن النفس اتخذه طرف آخر. أنا لا أقلل من خطورة ما حصل، ولا أطلق الأحكام من باب الرغبة في التجني. ولكن من حق الناس أن يعرفوا لماذا استيقظوا ذات يوم، ورأوا القتال يندلع هنا وهناك، ومع القتال الضحايا والخراب.

من الخطأ القول إن التباين في الطرح السياسي هو الذي قاد إلى المواجهة. ثم هل إن التباين داخل مجتمع واحد، وبين من يفترض أنهم يحملون قضية واحدة، يجب أن يؤدي إلى حرب عسكرية؟ هذا لا يعني أبداً أن آراءنا السياسية كانت متطابقة مع آراء الجنرال عون. شعارات كثيرة رفعها العماد عون، وبغض النظر عن مدى

جديته في السير فيها، كنا نؤيدها. لكن لم يكن هناك تطابق من جهة التعاطي السياسي مع الأزمة وطريقة العمل وأسلوب مواجهة المشكلات. نعم، في هذا الجانب كنا نختلف مع العماد عون. لقد رفع العماد عون شعار تحرير لبنان من الجيوش الغريبة على أرضه. فهل يمكن أن يكون بيننا خلاف على هذه النقطة؟ أولم نكن نحن من طرح هذا الشعار قبل مجيء عون؟ طرحناه وما زلنا. فالسيادة لا يمكن أن تكون كاملة إلا في ظل المؤسسات اللبنانية. لم يكن الخلاف على شعار إذن، لكن تحقيق شعار بهذا الحجم لا يكون بالطريقة التي اعتمدت. فقبل الحرب هناك الخيار السياسي. المدفع لا يمكن أن ينجح من دون رؤية ومن دون قراءة دقيقة لموازين القوى العسكرية والسياسية. والعناد لا يمكن أن ينوب عن التخطيط، ودفع مجتمع إلى الحرب يجب أن يسبقه إعداد هذا المجتمع، وإشراكه، وتحصينه. والأحداث تشهد. أولم تكن الحرب التي أعلنها العماد عون تطيح بما تبقى من لبنان، وتهدد بإسقاطه بكامله وفي أيدي من رفع عون شعار إخراجهم؟

لم يكن ثمة خلاف على المبادئ أو على نواح إيديولوجية وعقائدية، هذا إذا كانت لدى الجنرال جوانب عقائدية. كان الخلاف على النهج السياسي العام، وعلى استراتيجيته السياسية وعلى ممارسته السياسية. أعتقد أن الخلاف الذي كان بيننا وبين أمين الجميل أكبر بدرجات من الخلاف الذي كان قائماً بيننا وبين عون. مع الشيخ أمين كان الخلاف على الطرح السياسي والممارسة السياسية، وبالرغم من ذلك فإنه لم يتسبب في مواجهة عسكرية.

كل طامح إلى دور سياسي عليه أن يبني قوة سياسية، سواء كانت حزباً أو تجمعاً أو مجموعة. طموح الجنرال قديم، ويبدو أنه ذهب

بعيداً في الطموح. وحين اختير لرئاسة الحكومة، رأى أن اللحظة جاءت لترجمة الطموحات، لا بل إنه رأى أن ما حصل يعطيه تفويضاً كاملاً ونهائياً لترجمة ما سعى إليه سراً من قبل. هكذا بدأ عون تشكيل قوة عسكرية - سياسية ليضمن لنفسه دوراً. وهو يسعى بالطبع إلى الدور الأول وبلا شريك. لم يكن باستطاعته تجميع الناس على أساس انتقاد تقصير الشرعية. فهذا الهامش ضيق، خصوصاً أنه، ومنذ سنوات، شريك في هذه الشرعية، وبالتالي فهو أحد الذين ساهموا مباشرة، أو غير مباشرة، في ميوعة الشرعية التي ساهمت في كثير من المناسبات في خراب البلد. ولم يكن باستطاعته تجميع الناس حول الشعارات التي تطرحها «القوات». ففي مثل هذه الحال سيفضّل الناس «القوات» الموجودة من قبل، والتي باتت صاحبة جذور في مجتمعها، وتحولت إلى مؤسسة متماسكة. وبعد مرحلة من البحث، اختار عون السير في خطة تجميع المعادين لـ«القوات».

لا أحد يجهل تركيبة المجتمع اللبناني، والدور الذي تلعبه الحسابات المحلية الضيقة في تحديد الولاءات السياسية. فعلى سبيل المثل، وحين انقسمت الشرقية بين الكتائب والأحرار، كانت عائلة ما في قرية تختار الكتائب، فتسارع الأخرى إلى الانتماء إلى حزب الأحرار، ومن دون الالتفات إلى برنامج هذا الحزب أو ذاك، أو ممارسته السياسية. ولأن «القوات» موجودة في غالبية مدن الشرقية وقراها، وفي مناطق أخرى، كان من الطبيعي أن يفرز هذا الوجود عداوات محلية. وأكثر من ذلك، فإنني أقول وبصراحة إنه خلال هذه الحرب الطويلة انضم شبان إلى «القوات»، وبسبب فقدان الانضباط والحزم في بعض المراحل، أدت تصرفات هؤلاء إلى حساسيات وصلت إلى حد العداء للمؤسسات، بسبب سلوك

أفراد. يضاف إلى ذلك، أن الناس كانت تخلط بين «القوات» وحزب الكتائب وآل الجميل، إلى درجة أننا، وعلى رغم مواجهتنا مع أمين الجميل، فإن بعض الناس تحملنا مسؤولية أخطائه، وكأننا مسؤولون عنه، بينما «القوات» بتركيبتها الحالية كانت من أشرس المعارضين لنهجه.

هكذا تجمعت قوة العماد عون من أعداء آل الجميل وأعداء الكتائب، مؤسسة وأفراداً، وأعداء «القوات» مؤسسة وأفراداً. راح عون يبلور تكتلاً من هذا الخليط ليجعله مرتكز وصوله إلى الحكم. والتتمة كانت حملة تشهير أطلقها ضد «القوات». فبناء العصبية يحتاج إلى خصم تبني ضده. لقد قضى عون فترة وجوده في قيادة الجيش مسكوناً بهاجس بناء قوة شخصية له، بدل الاهتمام بالجيش الذي تعب عليه سلفه العماد ابراهيم طنوس، وأمين الجميل، وربما الأخير عن غير قصد.

براعة الجنرال

لا مجال لإنكار براعة العماد عون في هذا المجال. فهو لم يتورع عن نبش كل الحساسيات والأحقاد لهندسة تحالف من المتضررين والحاقدين. وعلى سبيل المثل لا الحصر السيد أبو أرز (زعيم حزب حراس الأرز) كان يعتقد أن بشير الجميل أكل حقوقه وعانى من العقدة نفسها مع فادي أفرام وفؤاد أبو ناضر. وحين وصلنا نحن إلى القيادة، كان الجنرال قد استكمل إعداد أبو أرز وترتيبه. يمكن قول الشيء نفسه عن داني شمعون (رئيس حزب الوطنيين الأحرار). فتح مع داني الدفاتر العتيقة، وتحديداً قصة ٧ تموز/يوليو ١٩٨٠، حين قام بشير الجميل بتصفية ميليشيا حزب الأحرار،

وفرض توحيد البندقية. لا يتورع العماد عون عن شيء لتحقيق غرضه. راح يستدعي كل من له مشكلة مع الكتائب، فيذكره بها، ويعده ويدعوه إلى الانضمام إليه، وعلى أساس أن لا نتيجة من التعاون مع «القوات» أو التعامل معها.

في موازاة هذا التحرك، كان عون يقود انقلاباً داخل المؤسسة العسكرية نفسها، محاولاً تحويلها إلى جيش عون. وبناء على معيار العداء لـ«القوات» راح يقرب بعض الضباط، ويسلمهم المواقع.

كان عون يقوم بترتيب الجيش على قاعدة العداء لـ«القوات». فعلى سبيل المثال، تولى بول فارس قيادة اللواء الخامس بعد مقتل العقيد خليل كنعان. بعد خمسة أشهر فقط، أبعد عون فارس من منصبه، لا لشيء إلا لأنه كان يعارض إقحام الجيش في معركة داخلية، علماً أن بول فارس من بين أفضل أربعة أو خمسة ضباط في الجيش اللبناني. للأسف ضرب العماد عون الجيش، وللأسف أيضاً وجد ضباطاً من المتعطشين إلى المراكز والمستعدّين لارتكاب أي شيء، وعلى أمل أن يكونوا شركاء للجنرال لاحقاً. وهكذا هيأ المناخ للصدام مع «القوات».

مشروع العماد عون قديم. ومن يرجع إلى مجلة «الجيش» من ٤ سنوات، ويقرأ أمر اليوم، والمقال الافتتاحي الذي كان عون يدبجه في كل عدد، يدرك أن سيناريو ما حدث في الشرقية أعد قبل أعوام. لم يتحدث مرة واحدة عن الجيوش غير اللبنانية، ولم يشر إلى أحد بالاسم. كان يقول إن الحرب هي حرب الميليشيات، ولا يذكر إلا «القوات»، ويكتفي من الجانب الآخر باسم «حزب الله». هو أول من روج لمعادلة «القوات» من جانب، و«حزب الله» من

جانب آخر. يا لطيف الأيام. مسكين الجنرال. قتلته أوهامه. حفر حفرة لأخيه ووقع فيها. وكثيراً ما تصدق الأمثال.

انطلاق الجنرال من عدائه لـ«القوات» مكّنه من تأليب مجموعة من الأطراف: جماعة ريمون إده، مروراً بقسم من الأحرار، وانتهاء بجماعة إيلي حبيقة، ثم أبو أرز وروجيه عزام وغيرهم. لم يكن ثمة مشكلة لو أن هؤلاء التقوا على برنامج سياسي معارض لبرنامج «القوات»، لكن أن يكون سبب وجودهم عداؤهم الكامل لوجود «القوات» نفسه، فهذا يعني الإعداد للتفجير. والدليل على ما أقول موجود. لقد تراجع عون عن كل شيء إلا عن عدائه لـ«القوات». فبين ليلة وضحاها تراجع عن عدائه لسورية، بعدما هددها بالويل والثبور وعظائم الأمور.

أعد عون للتفجير كل ما يلزمه من البنزين والألغام والبارود، ولولا ذلك لما اندلعت المواجهة. ولولا الأرضية التي حضرها مشروعه، لما كانت الحرب قد وقعت، حتى ولو حصل أكثر من شرارة. لا أقصد من هذا الكلام أن كل الذين تظاهروا أمام قصر بعبدا ذهبوا إلى قاعدة العداء لـ«القوات». فهناك من ذهب لأن الشعارات التي رفعها الجنرال هي شعارات تجد صداها في مجتمعنا، ولأن هناك من توهم بعد اليأس الذي سببته سياسات أمين الجميل أن الجو اختلف، وأن الشخص مختلف، وكانت خيبة الناس كبيرة، وكانت النتائج كارثية.

ثم بدأت مرحلة ثانية. يخرج أمين الجميل من القصر ويتركه للجنرال. وميشال عون ليس من قماشة الذين يقبلون أو يقنعون. استعذب الإقامة هناك، وعبارة حكومة انتقالية لا يستسيغها. إنه

الجنرال والرئيس والمنقذ. ودائماً هناك من يأتي إلى المسؤول ليشجعه. ودائماً يجيء حملة المباخر والباحثون عن أدوار. ودائماً هناك من يحكي لنفسه، ثم يصدق ما رواه لها، فيحسب نفسه السيف والدرع وصمام الأمان والمنقذ، وأنه فوق النصوص وفوق الحدود، وأنه يصنع التاريخ. إنها مأساة. مأساة جمهورية أوصلوها إلى الهاوية ودفعوها إليها. ومأساة قصر في آخر المتناوبين عليه، المنتخب والمكلف. ومأساة أناس كانوا ينتظرون من القصر أن ينقذ الجمهورية بدل أن يبدد ساكن القصر حجارة القصر والجمهورية معاً.

تسلّم الجنرال رئاسة الحكومة، وكان منحاه العملي والعملاني ديكتاتورياً خالصاً. ومنذ اللحظة الأولى بدا مصمماً على إلغاء الجميع. ضاق صدر الجنرال بالجميع. البطريرك نصرالله صفير، وهو رجل متعقل، لم يدخل المعترك السياسي، لم يطقه الجنرال فهجره. النواب، وبرغم كل أخطائهم، لم يشكلوا يوماً قوة شرسة أو مستشرسة، سواء للضرب بسيف الحق أو الباطل. لم يحتملهم الجنرال. لم يستطع احتمال كلمة في صحيفة وكلمة في إذاعة. وكان المطلوب هو التصفيق والرضوخ ولا شيء غيرهما. لو اصطدم عون بـ«القوات» وحدها، لأمكن القول إن الحق على «القوات» أو بعض الحق عليها. لكن عون اصطدم بالجميع قبل أن يصطدم بها، مع الفارق أن «القوات» تملك آلة عسكرية، ولا تستطيع القبول بشطبها من المعادلة من أجل وضع الأرض والناس في قبضة الجنرال وفي قبضة المجهول.

صدام ١٤ شباط

في الشهور الأربعة الأولى كنا نلتقي باستمرار. كنت أشعر بخطورة النهج الذي يتبعه الجنرال، لكنني كنت أحاول وأحاول أن أمنع أي

احتكاك، لا بل إنني اتخذت قراراً بتقديم أي تنازلات لا بد منها لمنع قيام مناخ مواجهة. وبدت محاولاتي وكأنها قابلة للنجاح. في فترة من الفترات ذهبت للراحة خارج لبنان، وكان الوضع طبيعياً تماماً، ولم يكن هناك من عذر للتفجير أو سبب. ولو كنت أشعر بأدنى احتمال لوقوع أحداث لما غادرت لبنان. فجأة، أبلغت بمجموعة حوادث. وكان رأي المسؤولين في «القوات» أنها مفتعلة ومدبرة، وجاءت في سياق خطة. سارعت في العودة، وما إن وصلت حتى انفجرت في ١٤ شباط ١٩٨٩. من يصدق أن أحداثاً صغيرة يمكن أن تشعل حرباً إذا لم يكن هناك قرار بالحرب؟ اندلعت النار وظهرت ملامح مواجهة في مختلف أنحاء الشرقية.

•

لم نفعل كل ما فعلناه لنقتتل في شوارع الشرقية. كان همنا إنقاذ الجمهورية بكاملها، وأن يكون وضع الشرقية عاملاً رئيسياً في إنقاذ البلاد بأسرها. ولقطع الطريق على الفتنة، رميت بنفسي في وسط النار. وللمرة الأولى أقول إنني كدت في ذلك اليوم أدفع حياتي ثمناً. ولم أتردد. فعلى المسؤول أن يعرض نفسه للخطر لرد الخطر الكبير عن الناس. وهكذا قررت التوجه إلى قصر بعبدا على رغم التدهور الأمني. أجريت الاتصالات اللازمة وتحركت. فجأة، ولدى وصولنا إلى جسر الباشا، انهمر الرصاص على سيارتي وسيارات المواكبة. قتل آمر مجموعة الحماية، وأصيب مرافق بقربي. ولك أن تقدر مثل هذا الوضع قرب قتيل ورجل ينزف. كان علي أن أحتفظ بهدوء كامل، فأصدرت الأوامر للمرافقين بعدم إطلاق أي رصاصة. بعدها هدأ الرصاص وقال مسؤولو الجيش إن الأمر مجرد خطأ. في مثل هذه الأوضاع يجب أن لا يسمح للانفعال بالسيطرة على القرار. وربما كان يكفي أن أرجع من حيث أتيت لتلتهب المعارك أكثر. لهذا صممت على متابعة طريقي إلى قصر

بعبدا كي لا أترك للجنرال فرصة لتوسيع المعارك. وبالفعل أوقفت الاشتباكات بعد ١٢ ساعة من اندلاعها.

كان الحادث مؤلماً بالفعل، وحتى الساعة لا أزال أفضل اعتباره مجرد حادث. لقد لامسنا الخطر مرات ومرات، واقترب الرصاص منا كثيراً، لكن بعض الحروب تكون أكثر إيلاماً، لأنك لا تريدها ولا تسعى إليها.

توقفت الاشتباكات، وقلنا نغتنم الفرصة لطيّ الصفحة، وقررنا التعامل معها كانتكاسة. لقد أخذنا دائماً على الدولة أنها أضعفت الجيش، ولا نقبل أن نشارك نحن في إضعافه، أو النيل منه. لكن الجنرال أوقف المعركة العسكرية ليشن حرباً إعلامية جارحة، قال خلالها ما لم يقله مالك في الخمرة. فتح الجنرال حنفية الاتهامات على بقوتها، واخترنا عدم الرد. لا بل اخترنا الصمت مع الاستعداد للتنازل عن بعض حقوقنا. وطبعاً طرحت الأحداث أسئلة عن حسابات العماد عون، وعن الرسالة التي أراد تمريرها عبر افتعال المعركة مع «القوات»، وعما إذا كان يريد أن يقول للمؤثرين في القرار إنه «الرئيس» القادر على ضرب «القوات» وحل هذه العقدة.

«حرب التحرير»

بعد شهر واحد وفجأة دوت المدافع. «شو القصة؟» بدأت «حرب التحرير». وللتاريخ نقول: لم نكن على علم، ولم نستشر، ولم تكن لنا أي كلمة بالقرار. لا بل إن التحركات العسكرية التي جرت ليلة «حرب التحرير» دفعت البعض إلى الاعتقاد بأن عون قرر مهاجمة مقر قيادة «القوات» في الكرنتينا. أخذ الجنرال الشرقية

إلى حرب لم يستعدّ لها، ولم يجر لها أي حسابات.

هل يكفي إطلاق المدافع لتبدأ حرب؟ وهل يمكن خوض حرب على سورية من دون الالتفات إلى الوضع الداخلي والتوازنات العربية وحسابات القوى الدولية الفاعلة؟ ولأن الجنرال لم يطرح كل هذه الأسئلة، انتهت الحرب إلى ما انتهت إليه. ومرة جديدة كان علينا تحمل العبء والتضحيات. وهنا أريد تذكير عون، وكل أصحاب الذاكرة التي تمتهن النسيان بحجم الأسلحة والذخائر التي قدمناها له، وكم فعلنا آنذاك. أريد الإشارة إلى تسعة مدافع من عيار ١٣٠ ملليمتراً. كان هناك ضابط في «القوات» أعطيناه الأوامر لتمرير هذه المدافع لعون بمعدل ثلاثة مدافع كل مرة. ذات يوم خاطبني هذا الضابط قائلاً: «يا حكيم، أنا سأنفذ الأوامر، ولكن هذه المدافع التي تعطيها لعون سيديرها لاحقاً في اتجاهنا وسيشوينا بنارها، نحن والمجتمع». لا أنسى كلام ذلك الضابط، لقد كان حدسه أقوى من كل الجهود التي بذلتها لمنع المواجهة في الشرقية.

راح الجنرال إلى الحرب. وراح يراكم الأخطاء. أغلاط في الحسابات، وأغلاط في مخاطبة العالم، ورهانات على قلب الطاولة ومواقف الدول. وكأنما يجوز الدخول في مثل هذه الرهانات من دون الالتفات إلى موازين القوى، ومواقع الآخرين في اللعبة الإقليمية والدولية. ما انتهت إليه «حرب التحرير» انعكس بوضوح في ما تلاها. لكن العماد عون راح يرفض، وكأنه ربح الحرب، متجاهلاً الإرادتين العربية والدولية. وإذا كان للجنرال من مآخذ على ما أعقب الحرب، فإنه ببساطة يتحمل المسؤولية. فكل اتفاق هو ثمرة ميزان قوى، وعليه أن يراجع حساباته بحثاً عن الطرف الذي جعل التوازن يختل.

فرصة معوض

عندما ذهب النواب إلى الطائف، جن جنون العماد عون. فإما يصنع هو الوفاق، أو لا وفاق. إما يكون رئيساً للجمهورية، أو لا رئاسة على الإطلاق. إما تكون الجمهورية جمهوريته، أو لا مبرر لوجودها. وإضافة إلى أن هذا المنطق مرفوض، فإنه منطق يستحيل أن يربح، خصوصاً حين ثبت لاحقاً أنه ليس منطق التشدد، إذ بسحر ساحر تتغير التسميات والتحالفات، وتنقلب المواقف، ولا يبقى في ذاكرة الناس غير لوعة خسائرهم. لقد أضاع الجنرال كل فرصة لمراجعة الحسابات، وبينها تلك التي أعقبت انتخاب الرئيس الراحل رينيه معوض.

رجع الجنرال خاسراً من «حرب التحرير» ومما أعقبها. انتهى من الحرب مع سورية، واستأنف التخطيط للحرب على «القوات».

خسر في الجمهورية، فراح يعد العدة للاستيلاء على كل الشرقية، ليلعب ورقتها ضد خصومه، أو يفاوض على أساسها. والواقع أنه وجد نفسه في مأزق، فإما أن يعود إلى الحرب مع سورية، وإما أن يعود إلى المواجهة مع «القوات». واختار الثانية.

لا أبالغ إن قلت إنها المرحلة الأصعب في حياتي. كان علي أن أسعى إلى التعايش بين «القوات» والجيش، وهو كان ممكناً تماماً، لكن عون كان قد اتخذ قراره بإلغاء «القوات». قال إنه يريد القرار وأخذ القرار. لم نطالبه بأي مشاركة أو شراكة. كان يريد أن يكون الصوت الوحيد الأقوى، فلم نمانع أو نعترض. لم أترك شيئاً إلا فعلته. لم أدع فرصة إلا حاولت الإفادة منها. يستحيل أن ترتب صيغة تعايش مع رجل اتخذ القرار بإلغائك. وللأمانة أقول:

لم تراودني في أي لحظة شكوك في قدرة «القوات» على الدفاع عن وجودها، والمهرجانات حول العماد لم تثر خشيتي. كنت أعرف حساسية الناس واستعدادهم للتجاوب مع بعض الشعارات. لم تراودني شكوك في قدرة «القوات»، لكنني لم أرد المواجهة. جيلنا يعرف ماذا تعني الحرب. فمنذ مطلع شبابنا ونحن في قلب النار، وأنا لم أعتقد يوماً بأن المدفع يحل مشكلة المجتمع اللبناني، وأن تدمير المنازل وقتل الشباب يعززان فرص التعايش واللحمة. لقد اعتقدت دائماً أن أكثر المشاكل تعقيداً يمكن أن تحل على طاولة الحوار بين متحاورين يملكون الإرادة والحرية والواقعية. وإذا كنت أرفض حروب خطوط التماس القديمة، فكيف أؤيدها داخل الشرقية.

تمر في حياة المسؤول لحظات تدمي قلبه. وفي بعض الحروب يأكلك الألم حتى ولو ربحت معركة وجودك. لا بل إن هذا الربح يبقى مجللاً بالحزن على من ماتوا في حرب لا مبرر لها، فيما كان يمكن أن يموتوا في حرب السلام، أو أن يعيشوا لمعركة السلام. وأقسى ما في الحروب هو أن تخوضها ضد من لم تصنفهم أصلاً في عداد الخصوم المحتملين، وأوجع ما في بعض الحروب هو أن تخوضها في بيتك، فتدور كلها في لحمك ودمك. وفي هذه الحرب تشعر كأنك تقتل مع كل من يقتل، وتسقط مع كل ما يسقط.

لكن ماذا تفعل بالجنرال الباحث عن حرب؟ بدأ التحضير إعلامياً، ورفع شعار توحيد البندقية، وكان المقصود إلغاء «القوات». وبدأ عملية القضم من مدرسة «قمر» في فرن الشباك، إلى «بيت المستقبل» في ضبيه، وفي ساحة العبد في محاولة لتمهيد الطريق

إلى المجلس الحربي. وضع السكين على عنقنا، ولم يبق لنا غير خيار الدفاع والرد. هكذا اندلعت حرب الشرقية في ٣١ كانون الثاني/يناير ١٩٩٠، وهي أولاً وأخيراً حرب إلغاء «القوات».

يا أستاذ غسان لست متفقاً معك في الأسئلة التي جاءت في صورة تفسيرات، هي أشبه ما يكون بالاتهامات. حرب الشرقية لم تندلع بسبب انتماء جعجع وعون إلى قماشة المتشددين الذين يفضلون الحرب على التراجع. لم تندلع بسبب تحول العماد عون إلى حالة شعبية في الشرقية. ولكون الحرب أظهرت أننا استعددنا لها، لا يعني أبداً أننا فجرناها، أو ساهمنا في التفجير. الاستعدادات صحيحة. وكان من الغباء ألّا نستعد. فالتعامل مع الجنرال يشبه الجلوس على برميل بارود لا تعرف متى سينفجر بك. وأحداث ١٤ شباط/فبراير كشفت النوايا. ولا أذيع سراً أن استعداداتنا قديمة قدم حلمه بإلغاء «القوات»، وتحديداً مذ كان قائداً للجيش. كانت هناك استعدادات وخطط جاهزة للرد على هذا الاحتمال أو ذاك. ومأساة الجنرال أنه لم يخطئ في السياسة فقط، بل أخطأ في الحسابات العسكرية أيضاً.

والقول بأن الحرب اندلعت لأن عون تحول إلى حالة شعبية استثنائية غير صحيح على الإطلاق. بعد تشكيل الحكومة العسكرية بشهرين فقط، تحول عون جثة سياسية. لم أشعر يوما أنه رجل سياسي مهم. ولو كان رجلاً سياسياً، لاستطعنا أخذه بالوسائل السياسية وبكل بساطة. كنت متأكداً أن ظاهرة شعبية عون تشبه رغوة البيرة. لم تكن الناس مع عون، كانت مع شعارات طرحها، وفي ظرف ما، وربما ساهمت أخطاء غيره في تجميع الناس، وهم تجمعوا أصلاً حول الشعارات التي كانوا وسيبقون معها. ولو كان

ظاهرة شعبية راسخة، فلماذا يفشل أنصاره في محاولتهم المتكررة لإعادة مناخ المهرجانات السابق، ولماذا يفشلون في تنظيم مظاهرة واحدة؟ سقطت الأقنعة. سرقة الشعارات، وتقمص الأدوار، ربما صنعا تمثيلية كبيرة، لكنها لا تصنع قيادة راسخة. حين وجه إنذاراً بدخول الشرقية بالوسائل العسكرية، صعد الناس إلى القصر لا ليعلنوا تأييدهم للجنرال، بل ليعربوا عن معارضتهم لأي اقتحام للشرقية.

وأقول أكثر، لو كان الناس مع عون، لما استطعنا وقف هجومه علينا. فهل نستطيع قتل كل الناس؟ لا يجوز غش الناس. هذا الحكي غير معقول.

والحديث عن قماشة المتشددين مردود أيضاً. خذ ما حدث في ١٤ شباط/فبراير ١٩٨٩. تراجعت أنا علناً، وأمام كل الناس. ألا تذكر؟ قلت له «تكرم وبتمون». سلمته المرافئ والمعابر والدوائر العقارية وكل ما طلبه. أكثر من هذا، لقد أعطيته أحياناً من ممتلكات «القوات» الخاصة. لقد تراجعت في شباط تفادياً للمواجهة. لم أعد أتكلم بالسياسة لتفادي المشكلة، وأنا شغلتي سياسة. هذا القول غير صحيح إطلاقاً. الصحيح هو أنه بنى كل مشروعه على العداء لـ«القوات»، وقاده المشروع إلى ما قاده إليه. لقد مهد الأرض وقدم الشرارة واتخذ القرار.

وبصراحة كاملة أقول لك: لم نكن نريد مواجهة عون، ولم تكن لنا مصلحة في تدمير المجتمع ومؤسساته. حين أعلن عون الحرب علينا، كان قد تحول فعلاً إلى جثة سياسية. كان قد بدأ رحلة السقوط، وباتت المسألة مسألة أشهر. لم نكن راغبين في دفعه إلى

السقوط، ولا بتقاضي ثمن إزاحته، ونحن لا نتطوع لأدوار من هذا النوع. كان الجنرال يغرق، وكان في عزلة سياسية واقتصادية ومالية، وفي وضع عسكري مغلق. توهم أن الحرب على «القوات» هي المخرج، وربما أراد إغراق الجميع انتقاماً لانهيار أحلامه.

كانت حرب الشرقية باهظة ومؤلمة. والمفروض أن يحاكم من تسبب بها. كانت مكلفة جداً من الناحية البشرية، أكثر من ألف قتيل بين الجيش و«القوات» والمدنيين. والخسائر المادية المباشرة أكثر من مليار دولار.

خسائر «القوات» البشرية كانت بحدود ٢٠٠ قتيل، الأرقام الدقيقة ليست بين يدي الآن. لكن الأكيد أن «القوات» خسرت في هذه المعارك أكثر من مجموع ما خسرته في المعارك منذ قيامها. وإضافة إلى ذلك، ضربت حرب الشرقية لبنان على المستوى المعنوي، وكذلك نظرية إعادة تحريره، وبناء لبنان المستقل، وهي حسابات انطلقت أصلاً من النواة التي كانت موجودة في الشرقية، والاستقرار الذي كان قائماً، والوضع الاقتصادي أيضاً.

ومع الخسائر التي أشرت إليها، هذا الجرح الذي خلفته المعارك في قلب كل مواطن. والإنسان هو في النهاية كل القضية وأساسها. وبرغم الآلام نقول إن الضربة التي لا تقتل تعلّم وتقوّي. لا بد من ورشة لإعادة البناء. لكن القول إن الشرقية قد قتلت في حرب الشرقية ليس دقيقاً. نحن على أبواب بداية جديدة بشكل من الأشكال. هناك قوى ستضمحل لأن الأحداث كشفت عقم طروحاتها. وقد تبدأ مسيرة جديدة لاسترجاع السلام والاستقرار، في ظل العدالة والمساواة والازدهار لكل اللبنانيين.

لم تفرز حرب الشرقية المناطق. وما هو قائم حالياً عابر بالتأكيد. كل المناطق قريبة إلى قلبنا، وسكانها سبق أن حددوا مواقفهم منا، وتجاوبوا مع طروحاتنا. ما تفرضه الحرب أكثر من مؤلم. كان علينا أن ندافع عن أنفسنا في وجه آلة عسكرية. كان قرار الرد موجعاً، إذ كان علينا تفادي المناطق السكنية، خصوصاً أن أبناءها يقاتلون في صفوفنا. لهذا كنا نقصف الأهداف العسكرية البعيدة عن الأحياء بمدافع الميدان، فيما كنا نقصف الأهداف العسكرية القريبة من المناطق السكنية بمدفعية الهاون التي تخطئ بعض أمتار فقط عن الهدف المحدد لها. للأسف لا يمكن مواجهة قرار الحرب إلا بالوسائل العسكرية. وأحياناً ترغمك الظروف على قرارات تكرهها، وتتمنى لو استطعت تفاديها.

تلك الصفحة المؤلمة يجب أن تطوى. لسنا في وارد تصفية الحسابات. لا شك أن العماد عون يتحمل مسؤولية مباشرة، مسؤولية سياسية. ولا شك أن هناك من كان في موقع المسؤولية وأساء التصرف، وهؤلاء نترك أمرهم لقيادة الجيش الجديدة. يجب أن يعود الجيش إلى دوره ومرتكزاته وثوابته. تحويله إلى مجموعة في خدمة رجل كلفه غالياً، وكلف البلاد غالياً. لا ذيول ولا تصفيات. المسألة أكبر من ذلك، وهذا الأسلوب يعمق الجرح. نريد عودة المنطقة إلى دورة حياتها الطبيعية.

أسترجع الآن تلك المرحلة الصعبة. منذ اللحظة الأولى كان مصير «القوات» مطروحاً. مرت لحظات كانت أخطر من الأخرى. معارك ضبيه لم تكن خطيرة. معارك القليعات كانت خطرة بالفعل. على مدى يومين، زج عون تقريباً كل الجيش الذي كان بإمرته. كانت طاحنة. هاجم الجيش بطريقة «موجة» وراء «موجة». بالأسلوب

الإيراني، ولو في صورة مصغرة. أخطر موجة كانت الأولى، ومن كثرة الموجات، شعرنا بالخطر. نجاحنا في احتواء الهجوم الأول سهّل لنا الإمساك بزمام الأمور. معركة القليعات كانت قاسية وشرسة، وكما قلت إنها معارك لم نكن نريدها. كنا نشعر أن كل قتيل يسقط هو خسارة لنا، ومهما كان موقعه. وكل مدني يصاب هو خسارة لنا. والأمر نفسه بالنسبة لكل بيت ولكل شجرة. لقد أوصل العماد عون الحرب إلى حيث لم تصل منذ خمسة عشر عاماً. لم نكن نعتقد أن ساعة تأتي نواجه فيها دبابات الجيش في القليعات. ماذا يقول المسؤول إذا وقف أمام محكمة ضميره؟ ماذا يقول لنفسه، وماذا يقول للناس؟ من «القوات»، قاد هذه المعركة ضابط برتبة رائد اسمه حنا عتيق. طبعاً كان إلى جانبه عدد كبير من الضباط، لكنه كان المسؤول بشكل أساسي. لقد كانت القليعات اختباراً لأشياء كثيرة. فإضافة إلى القدرة العسكرية والتماسك، كانت اختباراً للقدرة على احتمال الظروف البالغة الصعوبة في حرب لم يكن الخصم فيها مصنفاً في خانة الغرباء والأعداء.

القول بأن تحويل «القوات» إلى مؤسسة نظامية هو الذي خلق التناقض مع الجيش ليس صحيحاً. هل كان من الأفضل إبقاء «القوات» شراذم ومجموعات، أم الأفضل ترسيخ روح المسؤولية والانضباط؟ ثم إذا لم تحل الميليشيات، لن يكون ثمة فارق بين أن نسمي هذا العنصر رائداً أو ملازماً أو رفيقاً. أما موضوع مستقبل الميليشيات، فمرهون بزخم الشرعية الجديدة، ومدى وعيها للمشكلة الناشئة. الحل السياسي هو المفتاح لكل شيء. السلام يبطل الحاجة إلى السلاح. علينا ألّا نخطئ مجدداً فنقول إن مشكلة لبنان هي مشكلة ميليشيات. عودة إلى الوراء تظهر أن

الميليشيات هي إفراز لمشكلة لبنان. قبل ١٩٧٥ لم تكن هناك ميليشيات، ووقعت الحرب.

تقول إنك لا تستطيع تصور قادة الميليشيات وزراء عاديين، وشركاء في الحكم، بلا جيوش ولا دبابات. وأنا أقول لك، إذا كانوا في الحل السياسي، تصبح قدرتهم العسكرية في الجيش اللبناني. ثم هل ترى أن إعطاء الأوامر العسكرية يشكل هدفاً في حد ذاته؟

تسألني إذا كنت بعد رحيل العماد عون إلى فرنسا سأكرر ما أعدّه أخطاءه، خصوصاً لجهة مصادرة القرار، وعدم القبول بأي معارضة، والاعتقاد بأنني أملك تفويضاً للاستئثار بمصير الشرقية وقرارها؟ وببساطة أجيب: لم نفعل ذلك ولن نفعل. لا يستطيع البقاء من يخاف الحرية. في الأعوام الماضية أعدنا من كانوا مطرودين من الشرقية، كالأستاذ هنري صفير.

سبق للبطريركية المارونية أن أصدرت أكثر من بيان وهاجمتنا فيه. ماذا فعلنا؟ دافعنا عن نفسنا ببيان. تجربتنا مع العماد عون زادتنا قناعة بأنه في غياب الحرية السياسية تبقى أي سلطة مهددة بالانفراط عاجلاً أم آجلاً. على العكس، نريد لمجتمعنا أن يعود إلى تقاليده الديموقراطية وأن يعمقها. نريد العودة إلى الصراع الفكري في الشرقية وفي كل لبنان. الصراع الفكري هو طريق التغيير والإبداع، وبدونه تسقط المجتمعات وتتحجر وتموت. نحن لا نخشى الحرية، بل إننا نراهن عليها. تطلع إلى العالم، الإمبراطوريات التي بنيت على القمع تنهار وتتفكك. الحرية والحوار والديموقراطية هي مرتكزات العالم الجديد الذي نطمح إلى أن نكون جزءاً منه.



عمره ١٣ عاماً



مع البطريرك صفير وكريم بقرادوني

في زيارة لإحدى ثكن «القوات»

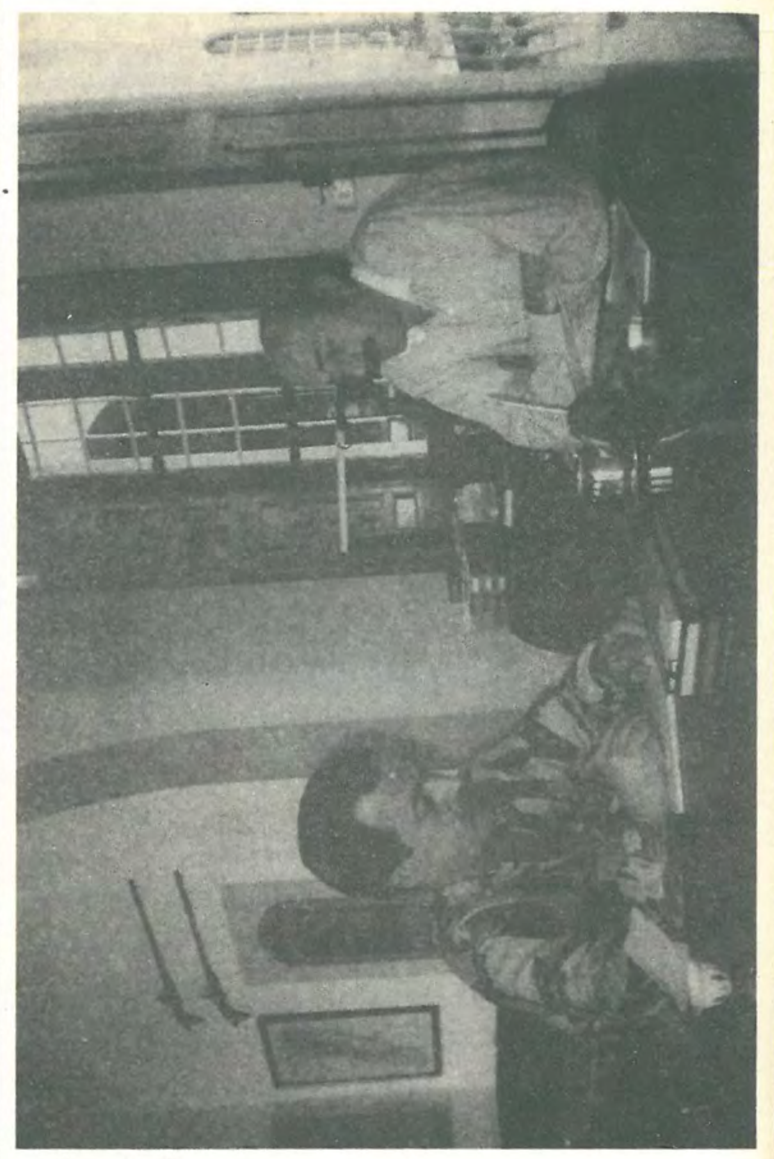
مع الرئيس كميل شمعون

مع زوجته ستريدا

في القطارة مع الرئيس الجميّل



جعجع أمام المحكمة



وليد جنبلاط

في الطريق من بيروت إلى المختارة رحت أفكر في شخص الوزير وليد جنبلاط رئيس الحزب التقدمي الاشتراكي. فهو ولد في ١٩٤٩، أي بعد ست سنوات من استقلال لبنان، من ذلك «التواطؤ الكبير» الذي أتاح اللقاء في منتصف الطريق أو في أقرب نقطة اليه وكان الاستقلال. لكن عدم حضور الولادة لا يعني عدم إدراك أسرارها حتى ولو كتب لوليد جنبلاط أن يكون محارباً أكثر منه محاوراً.

دخل وليد جنبلاط السياسة من جرح كبير. فحين خلعت عليه عباءة الزعامة، كانت الحرب قد اغتالت والده كمال جنبلاط. هكذا حمل وليد هموم طائفة وحزب وورث عداوات وتحالفات. فسيد قصر المختارة لا يستطيع أن يكون سياسياً عادياً، كأنما ثقل التاريخ نفسه يدفعه إلى لعب دور الرقم الصعب ويلزمه الأعباء والثمن.

جاء وليد جنبلاط من نافذة الجرح وأطل على المأساة الواسعة وتحول شريكاً كبيراً فيها. ذهب الاجتياح الإسرائيلي للبنان في ١٩٨٢ بـ «الحركة الوطنية» تماماً كما ذهب بأشياء كثيرة. وبعد عام واحد سيتمكن وليد جنبلاط من أن يحقق في «حرب الجبل»، بتحالف إقليمي ودولي، انتصاراً أكبر من قدرة المعادلة اللبنانية على احتماله.

كان قرار الرئيس الراحل بشير الجميل بإرسال «القوات اللبنانية» إلى الجبل قراراً بالغ الخطورة بسبب استناده إلى زلزال طارئ وتجاهله حقائق تاريخية وحساسيات متوارثة. ومن تلك الهزيمة في الجبل ستبدأ «نكبة الموارنة» وستتضح معالمها في التسعينيات بعدما توجوا انتحارهم في الشوف وعاليه بانتحار في شوارع المنطقة الشرقية نفسها. وجهت «حرب الجبل» ضربة قاصمة إلى التوازنات التي قامت غداة الغزو الإسرائيلي وإلى هيبة رئاسة الجمهورية والجيش آنذاك، لكن حجم العامل غير المحلي في صنع الانتصار حال دون تمكن وليد جنبلاط من ترجمة النتائج العسكرية الميدانية إلى ما يوازيها سياسياً. ففي الحرب الجبل عقدة ونقطة استراتيجية، وفي السلام ترجع حسابات الطوائف والأحجام والأعداد لتفرض نفسها.

منذ دخوله المعترك السياسي، تفرد وليد جنبلاط بمواقف وأسلوب. يملك القدرة على إطلاق العواصف ويكاد دويّ تصريحاته النارية يوازي أحياناً دوي مدافعه. ويملك أيضاً القدرة على تفادي العواصف أو الاحتماء منها مع استعداد للتصحيح أو الاعتذار، لكن بعد أن تكون الرسالة قد وصلت. وفي الحالين وفي هدأة القصر الذي ذاق أسياده لذة الانتصارات ولسعة الهزائم يراقب وليد جنبلاط حركة الرياح المحيطة بلبنان وتسارع التغيرات في العالم.

كان يمكن أن يكون وليد جنبلاط من أولئك الخاسرين الذين أدى غياب الاتحاد السوفياتي إلى غيابهم. لكن تجذر الزعامة الجنبلاطية في الطائفة الدرزية ودور وريثها الحالي في حرب الجبل خففا كثيراً من حجم الخسارة التي شكّلها هروب «الرفاق» السوفيات إلى التاريخ. كل هذا لا يعني أن وليد جنبلاط لم يرتكب أخطاء، وثمة من يتهمه بارتكاب أفدحها. لهذا كان لا بد من مواجهته بأسئلة عن شخصه وحزبه وطائفته وعلاقاته. وهذا ما كان.

تشعب حديث الوزير جنبلاط وتناول محطات سياسية وأمنية وتخطى الإطار اللبناني:

■ **شكلت حرب الجبل في ١٩٨٣ منعطفاً في مسار الحرب في لبنان وغيرت موازين القوى وأثرت في ملامح التسوية لاحقاً. من اتخذ قرار حرب الجبل؟**

- حرب الجبل كانت نتيجة لثلاثة قرارات التقت في وقت واحد. قرار اتخذته أنا وقرار سوري وقرار سوفياتي. واذا شئت وضع هذه الحرب في إطارها، فهي جاءت رداً على حرب إسرائيلية ـ أميركية - كتائبية - قواتية بعد هزيمة القوات الوطنية وسورية في ١٩٨٢. في العام ١٩٨٣ جاء الرد. كما يمكن اعتبار حرب الجبل رداً على سياسة فرنسية محدودة انساقت كالعادة وراء السياسة الأميركية.

■ **هل اتخذ هذا القرار الثلاثي على أرفع المستويات؟**

- في تلك الفترة قدم الاتحاد السوفياتي إلى الحزب التقدمي الاشتراكي مساعدات عسكرية ضخمة تقدر بعشرات ملايين الدولارات، إضافة إلى تدريبه المئات من شباب الحزب كضباط

وقادة كتائب. يجب ألا ننسى أن يوري أندروبوف كان الزعيم في تلك المرحلة وقد اتخذ قراراً بتعويض سورية ما تكبدته في مواجهات ١٩٨٢. كل المساعدات السوفياتية كانت تمر عبر سورية. وحين كان يحصل نقص في الذخيرة لدى الحزب في المعارك الرئيسة، كانت قوافل الذخيرة تبدأ في حمانا وتنتهي في الشام.

■ **هل قدم الاتحاد السوفياتي لكم دبابات ومدافع؟**

- قدم لنا مساعدة عسكرية محترمة. نعم.

■ **تردد لفترة أنك أرسلت طلاباً للتدريب كطيارين في الاتحاد السوفياتي؟**

- لم تكن الحرب في لبنان تحتاج إلى قوات جوية. الطيران استخدم مرة واحدة في الحرب بأمر من أمين الجميل وأسقطت طائرتان للجيش اللبناني.

■ **متى اتخذتم القرار بشن هجوم واسع؟**

- على الصعيد العملي يمكن القول إن حرب الجبل بدأت حين تصاعد التوتر الطائفي إثر دخول الإسرائيليين ثم وصول الكتائبيين في أعقابهم في حزيران/يونيو ١٩٨٢. أعقبت ذلك سلسلة حوادث أمنية من عين المعاصر إلى بريح وكفرنبرخ وسوق الغرب وعاليه. كانت الأجواء مشحونة والتوتر يتفاقم ومعه القلق. وسرعان ما راحت كرة الثلج تكبر. الانفجار الكبير وقع في أيلول/سبتمبر ١٩٨٣. القرار كان جاهزاً وكنا ننتظر الانسحاب الإسرائيلي، وحين حصل تحولت المناوشات إلى مواجهة واسعة، ثم إنه في تلك

الفترة كانت العمليات ضد الإسرائيليين قد بدأت بالتصاعد في صيدا والجنوب وكان واضحاً أنهم سينسحبون. بعد استكمال مستلزمات المعركة وفور انسحاب الإسرائيليين من بحمدون بدأنا معركة بحمدون الأساسية التي سبقتها معارك محدودة في عاليه والحي الغربي.

■ من هي القوى الأساسية التي شاركت في «حرب الجبل» ضد «القوات»؟

- كنا نحن القوة الاساسية ثم أتت قوة مساعدة من الحليف الأساسي لنا، اي الحزب الشيوعي اللبناني. وشاركت من الجانب الفلسطيني في معركة بحمدون قوات تابعة لما سمي «فتح - الانتفاضة» بزعامة أبو موسى وقوات تابعة لـ «الجبهة الشعبية - القيادة العامة» بزعامة أحمد جبريل. وللتاريخ نقول إننا استخدمنا أربع دبابات فقط في معركة بحمدون. فقد كان هناك تردد في استخدام الدبابات، خصوصاً أن الإسرائيليين كانوا لا يزالون في الشوف. طبعاً في المعارك الكبيرة لاحقاً كمعارك سوق الغرب وصل عدد الدبابات إلى مئة.

■ من قاد هذه المعارك ميدانياً؟

- نحن وقيادة الجيش السوري في لبنان بالتنسيق مع القيادة في الشام. من جانبنا كان يقود المعركة أنور الفطايري والمقدم شريف فياض مع مسؤولي «الجيش الشعبي». لاحقاً خضنا معركة إقليم الخروب ونجحنا في المرحلة الأولى، لكنهم ردوا علينا بسبب خلل حصل.

■ أين كنت تقيم في تلك المرحلة؟

- بين الشام وحمانا، وحين فتحت طريق المختارة عدت إلى المختارة.

■ **كم بلغت تكاليف حرب الجبل بشرياً بالنسبة اليكم؟**

- على لائحة شهداء الحزب الاشتراكي خلال الحرب اللبنانية بمختلف مراحلها ١٤٠٠ شهيد.

■ **وكم كلفت مالياً؟**

- لدي سجلات مالية لكنها ليست تحت يدي الآن.

■ **ألم يكن هناك أي دور آنذاك للرئيس ياسر عرفات؟**

- لا، في ذلك الوقت كان يتسلى في حرب طرابلس (في شمال لبنان).

■ **ماذا كان تأثير حرب الجبل في المسار العام للوضع في لبنان؟**

- قلبت التوازن الداخلي وجعلته لمصلحة سورية ولمصلحتنا ومصلحة القوى الوطنية والصف الإسلامي العربي وضربت فيها أميركا وفرنسا وإسرائيل. لا ننسى أن إسرائيل اضطرت إلى الانسحاب وفرنسا أيضاً. كما أن الأميركيين انسحبوا بعد حادث المارينز وفتحنا الطريق من الشام إلى الجنوب وهي طريق المقاومة؟

■ **كيف كانت علاقتك مع الرئيس الياس سركيس؟**

- كانت علاقة ممتازة. الرجل محترم وآدمي، لكنه كان أسيراً للمحيطين به، بشير الجميل من جهة وجوني عبده (مدير مخابرات الجيش اللبناني آنذاك) من جهة أخرى. كان من المستحيل على

سركيس الخروج من هذه المعادلة التي تكبله.

■ **شهادات بعض الذين عاشوا تلك المرحلة تفيد أن سركيس كان يكنّ لك تقديراً؟**

- كما قلت، العلاقات كانت ممتازة مع الشخص نفسه. لكنه منذ انتخابه وحتى نهاية ولايته كان أسير معادلة داخلية ودولية. لقد حاول قدر استطاعته، لكن كان من الصعب عليه التفلت من الضغوط المحيطة به.

■ **هل تعتقد أن الياس سركيس رئيس مظلوم؟**

- كان كمال جنبلاط ضد وصول الياس سركيس الذي جاء إلى الرئاسة على ظهر دبابة سورية. وحصل آنذاك الصدام بين سورية والصف الوطني اللبناني بزعامة كمال جنبلاط. حاول سركيس توفير جو من الاستقرار، ولكن بعد عامين حصلت أحداث الفياضية (بين الجيشين السوري واللبناني). كان على يمين الرئيس كل من كميل شمعون وبيار الجميل وسليمان فرنجية ومقررات «لقاء سيدة البير» والتعددية الحضارية، فماذا كان يستطيع أن يفعل وكان نجم بشير قد بدأ بالصعود.

■ **كيف تصف علاقتك مع بشير في ١٩٨٢؟**

- لم تكن هناك علاقة باستثناء اللقاء في إطار هيئة الإنقاذ الوطني التي شكلها سركيس.

■ **يتحدثون عن خلوة عقدت في القصر الجمهوري بينك وبين بشير وأنه أبلغك خلالها أنه مرشح للرئاسة؟**

- لم تعقد خلوة. اجتمعنا مرتين في إطار هيئة الإنقاذ واكتشفت أن الأمر مجرد مشروع لدفن المقاومة الفلسطينية في لبنان ولتمرير السياسة الأميركية بالذات.

■ لم يحدث شيء بينك وبينه؟

- لم تكن هناك محبة شخصية ولا سياسية. تماماً كما كان الأمر بين كمال جنبلاط وبيار الجميل وبيننا وبين حزب الكتائب، والأمر نفسه بيني وبين بشير الجميل. وللتذكير فقط أقول إنني حذرت يومها المبعوث الأميركي فيليب حبيب من الإتيان ببشير الجميل، وفضلت، على رغم العداوة السياسية، كميل شمعون، لكن فيليب حبيب كان ملتزماً بشير.

■ ما صحة أن بشير أبلغك في لقاء جانبي أنه مرشح للرئاسة وماذا طلب منك؟

- لم تعقد خلوة، وكل ما اقترحه عليّ هو القيام بجولة ميدانية لتهدئة الوضع، إذ كانت أحداث عاليه قد بدأت، فقلت له بعد بكير.

■ هل تعتقد أن حرب الجبل كانت الخيار الوحيد المتاح لكم في عهد الرئيس أمين الجميل؟

- حرب الجبل كانت في الأصل ضد بشير، لكن أمين كان أكثر شراسة من بشير. لا فرق بينهما في الطبيعة السياسية ولا في الطبيعة الإنسانية. جاء أمين إلى الرئاسة استناداً إلى ما سمي إجماعاً نيابياً وحاول تحقيق نوع من الهدنة مع الرئيس حافظ الأسد. والتقيا في نيودلهي في إطار مؤتمر عدم الانحياز. طبعاً كانت سورية في ذلك الوقت تتسلح وتلتقط أنفاسها وتقوم

بمناورات سياسية، وهي استفادت من وجود أندروبوف الذي قدم لها دعماً كبيراً. قمنا بمحاولات عدة مع أمين الجميل ومستشاريه وحتى عبر صديقه فرانسوا دوغروسوفر (مستشار الرئيس فرانسوا ميتران) الذي انتحر. أحد هذه الاجتماعات عقد في منزل دوغروسوفر نفسه وحضره روبرت ماكفرلين وريجيس دوبريه ووديع حداد ومروان حمادة وأنا. وعدنا والتقينا في منزل رفيق الحريري. فهمت يومها من وديع حداد - وكان ذلك قبل أيام فقط من اندلاع حرب الجبل - أن السلطة مصرة على إرسال عشرة آلاف جندي إلى الجبل، فقلت له عظيم ونحن بانتظارهم.

■ ماذا كان دور رفيق الحريري في تلك المرحلة؟

- كان مكلفاً وساطة استمرت حتى اتفاق الطائف. اجتمعنا مرات عدة في دمشق وباريس وكذلك عقد اجتماع في روما حضره أمين الجميل ومروان حمادة. طائرة خاصة تذهب وطائرة أخرى تجيء. مرة اختلفنا على تلة في ساحل الشوف فاقترحنا على أمين الجميل أن يشتريها (يضحك) ولكن لم تكن لديه روح النكتة.

■ لو رجعنا إلى مرحلة الاجتياح الإسرائيلي، ماذا جاء يفعل شمعون بيريز في المختارة؟ وماذا قال لك؟

- لقد طنطنوا طويلاً في هذه القصة. نعم جاء شمعون بيريز وفي اليوم الذي نزلت إلى بيروت. قال بيريز يومها إنه مبعوث من فيلي برانت، وقد سألت لاحقاً وتبين لي أن برانت لم يكلفه ولم يوفده. جاء بيريز ليحكي بنظريته ومفادها أنه ضد الإرهاب. وفي الأساس لا مودة بيني وبينه، فأنا لا يعجبني خبثه وكلامه الذي لا علاقة له بالحقيقة. يومها دار الحديث على المجزرة التي وقعت في ملجأ

في صيدا بسبب القصف الجوي الإسرائيلي. وقلت له إن جيشكم يقتل الأبرياء. فرد قائلاً: «جيشنا لا يقوم بمثل هذه الأعمال». فأجبته أن عاملين في الصليب الأحمر مروا قبل قليل من هنا وأكدوا وقوع المجزرة. قال بيريز إن الجيش الإسرائيلي لن يدخل بيروت. طبعاً اجتاح الجيش الإسرائيلي بيروت لاحقاً. الحمد لله لم نتحدث أكثر من ربع ساعة. كان ينتظرني في القصر في صالون آخر مروان حمادة وريان كروكر الذي كان ملحقاً في السفارة الأميركية. غادر بيريز وصعدت إلى سيارة السفير الأميركي ونزلت إلى بيروت. كنا هنا في حال ضغط سياسي وأمني وعسكري رهيب.

قبل ذلك كانت رسائل عدة وصلتني من ياسر عرفات ومروان حمادة وجهات عربية مفادها أن الدنيا ستخرب إذا لم أنزل إلى بيروت وهي كانت خربانة قبل نزولي. توجهت إلى بيروت وبدأنا اجتماعات مع الحركة الوطنية والمقاومة الفلسطينية وكذلك في هيئة الإنقاذ الوطني.

■ كيف كانت مساهمة الحركة الوطنية في معركة بيروت آنذاك؟

- الواقع أن رجال الحركة الوطنية والجيش السوري والمقاومة الفلسطينية قاتلوا قتالاً شرساً، من معركة المتحف إلى غاليري سمعان إلى المحاور الأخرى. تصرفوا كأبطال، لكن المعركة كانت كبيرة وانتهت إلى ما انتهت إليه.

■ كيف كان عرفات خلال حصار بيروت؟

- كنت التقي أكثر خليل الوزير (أبو جهاد). مسكين عرفات كان

ينتقل من بناية إلى أخرى وكلما وصل إلى بناية كانت تفرغ من سكانها. وفرنا له بعض الأماكن في كركول الدروز ووطى المصيطبة. فور وصوله كان السكان يغادرون لأنهم كانوا يعرفون أن الإسرائيليين يطاردونه.

■ و«أبو جهاد»؟

– على سلامته «أبو جهاد» مناضل وقبضاي. و«أبو الهول» كان منيح و«أبو الوليد» أيضاً الله يرحمه.

■ **هل كانت هناك فرص فعلية لنجاح لقاء المصالحة الوطنية في جنيف؟**

– الفرص تحددها موازين القوى القائمة على الأرض. في جنيف لم تكن هناك فرص فعلية. القوة المتعددة الجنسية كانت لا تزال موجودة والجيش اللبناني موجود في الشحار وأمين الجميل كان متمسكاً بموقفه ويعاند. لم تكن هناك فرصة كبيرة وكان كل شيء معلقاً على نتائج الحوار الأميركي ـ السوري. أما في لوزان فكان أمين الجميل ضعيفاً. في ٦ شباط/فبراير ١٩٨٤ طار الجيش من بيروت ثم غادر الأميركيون. الحقيقة هي أن الفولكلور كان طاغياً. السياسيون يتجادلون في القاعة وزوجات السياسيين يشترين المعاطف والساعات وغيرها. تشرشحنا. ثم أقام الجميل تلك الوليمة في البوريفاج: كافيار وسومون وقال الناس إن اللبنانيين يموتون بينما يلتقي زعماؤهم حول الولائم الفاخرة. تبهدلنا كثيراً. وفي النهاية كفر السويسريون. لوزان لم تكن جدية.

■ **من طلع بفكرة «الاتفاق الثلاثي»؟**

- نحن ونبيه بري والسوريون. وكان إيلي حبيقة قد قام بانتفاضة.

■ **هل كان الوصول إلى الاتفاق صعباً؟**

- مساكين مروان حمادة وأكرم شهيب أمضيا وقتاً طويلاً على الطريق. زارا دمشق نحو ٤٠ مرة لوضع التفاصيل. كانت القصة مضنية. ذات مرة وصل عدد أعضاء مجلس النواب إلى ١٤٤ ومرة أخرى وصل إلى حدود ١٨٠. وكانت هناك لدى بري نظرية المثالثة ضمن المناصفة. أي أنه كان يريد أن يعطي الروم الارثوذكس حصة كبيرة من حصة الموازنة إلى درجة أنهم قالوا إنهم لم يطالبوا إلى هذا الحد. حفلة التوقيع ليست قليلة. فؤاد بطرس وكريم بقرادوني ومخايل الضاهر وميشال إده.

■ **هل التقيت سمير جعجع؟**

- مرة واحدة عند الرئيس الياس الهراوي في المقر الرئاسي الموقت وكانت لمناسبة استقبال الكاردينال سيلفستريني.

■ **هل حصلت مصافحة؟**

- نعم.

■ **ألم تحصل محاولات لجمعكم بغرض التحاور؟**

- تاريخياً ليس هناك بيننا وبينهم لا المودة ولا المحبة ولا اللقاء السياسي.

■ **يقولون إنك صعب في العلاقات. مع من تنسجم من السياسيين؟**

- المسألة ليست مسألة انسجام شخص. المهم أن يستقر البلد على صيغة معينة تضم الحد الأدنى من الديموقراطية والحريات. أما كيف ستتطور الأمور فلا أعرف. لقد حذرت من الانزلاق نحو جمهوريات الموز. لا يجوز ضرب النقابات واعتبار العمل السياسي والحزبي كأنه مخالفة أو خطر. إذا كانت الحرية ممنوعة فمن يضمن ألّا يأتي دورنا كحزب اشتراكي.

■ هل أنت خائف على لبنان من مرحلة السلام؟

- هنا لا بد من الصراحة. الجميع يذهبون متفرقين إلى موعد غير متكافئ. انها مواجهة غير متكافئة مع الغرب وإسرائيل. وميزان القوى هذا ينعكس على كل شيء. لو كانت هناك سوق عربية مشتركة لاختلف الأمر. نذهب إلى إسرائيل بالمفرق.

■ ما هي المرحلة الأصعب منذ توليك مهماتك السياسية والقيادية في ١٩٧٧؟

- مراحل كثيرة كانت صعبة وقرارات كثيرة كانت صعبة. المواجهة مع ميشال عون كانت الأقسى. لم تكن سهلة إطلاقاً. منذ أن سلّمه أمين الجميل الحكم شعرت بأن البلد يتجه نحو ديكتاتورية عسكرية. وقد سارت وراءه فئات عدة مسيحية وإسلامية.

■ متى التقيت عون؟

- شاهدته في القصر الجمهوري في بعبدا عندما كنا نناقش الخطة الأمنية المتعلقة بدخول الجيش إلى الجنوب عبر الإقليم. طرح أمين الجميل آنذاك انتشاراً واسعاً للجيش في إقليم الخروب. وتفاهمنا

يومها مع سورية وأخذت الخرائط معي ونبهت إلى أن أمين يحاول إيجاد سوق غرب ثانية. ومن الجهة الأخرى، يومها سمحنا للجيش بالمرور على خط واحد فقط وأحبطنا المحاولة لتطويقنا من جهة الإقليم بحجة توجه الجيش إلى الجنوب. يومها التقيت ميشال عون.

■ هل كنتم الطرف البادئ بالمواجهة مع عون؟

- لا، هو الذي أعلن «حرب التحرير».

■ لكنك قصفت المرفأ؟

- غير صحيح، بدأ ميشال عون بحصار المرافئ والجية وانزعج من قصة الهليكوبتر. تلك العصفورة اليتيمة التي جاء بها ضابط لم يعد يحتمل أجواء ميشال عون. في النهاية كانت التسوية أن نعيدها إلى إحدى ثكن الجيش فأعدناها إلى ثكنة حمانا وكانت معطلة. في الأساس ميشال عون مشروع حرب. كان عون جزءاً من معادلة عربية مضادة. هذه المعادلة كانت عراقية - فلسطينية في مواجهة سورية والقوى الوطنية اللبنانية. وطبعاً كان هناك صديقنا المشترك رينيه آلا (السفير الفرنسي) الذي دعمه.

■ قلت إن المواجهة مع عون كانت الأقسى، هل تقصد الناحية العسكرية؟

- كل جولة جديدة كانت أقسى من غيرها. حتى مع أمين الجميل لم يصل عنف المعارك الطاحنة والقصف العشوائي إلى ما وصل إليه مع عون.

■ تقصد معارك سوق الغرب؟

- وكذلك في بيروت. لم يقصر بحق أحد. وفي مرحلة معينة ظن بعض السذج من الوسط الرجعي في بيروت أنني أنا كنت أقصف بيروت. حين اصطدم عون وجعجع انكشفت المسألة وتوزيع الأدوار بين مدفعيتهما. كانت لدى عون شعبية في بيروت لدى بعض الناس.

■ كيف تفسر شعبية الجنرال عون؟

- طرح فكرة تحرير لبنان. طبعاً تحرير لبنان من سورية وليس من إسرائيل. حرَّك مشاعر لدى الفئات المعادية لسورية وكانت تساعده ماكينة مالية وأمنية عراقية. الشبكات العراقية انفضحت اخيراً. وهي تسربت في بعض الوقت إلى مؤسسات أمنية. وكانت هناك ماكينة إعلامية «المؤسسة اللبنانية للإرسال» و«صوت لبنان». إعلامه كان في الأساس أقوى.

■ هل خيار التحالف مع سورية راسخ لديك؟

- خيارنا كان وسيبقى مع سورية وهو خيار طبيعي في السياسة وفي الاقتصاد. إلى أين نذهب؟ إلى غزة - أريحا أم إلى بغداد؟ هذا حكم الجغرافيا والتاريخ؟

■ كيف ترى مستقبل العلاقات بين لبنان وسورية؟

- أنا أعتقد بأن لنا مستقبلاً كبيراً مع سورية إذا أحسنت الإدارة السياسية في لبنان، وحتى لنا سوق كبيرة في سورية للمنتجات الصناعية وغيرها ويمكن حصول استثمار لبناني كبير في سورية.

■ ماذا حققت «الجمهورية الثانية» حتى اليوم؟

- الجمهورية الثانية حققت استقرار النظام السياسي على صيغة، وإن غير متطورة، تتضمن الحد الأدنى من التوازن قياساً على الجمهورية الأولى التي كانت تقوم على تسلط فئة معينة وبالتحديد رئيس الجمهورية الماروني. الآن هناك نوع من المشاركة. طبعاً الأمثل هو عدم الرضوخ للتمييز الطائفي وإلغاء الطائفية السياسية وهذه المسألة تحتاج إلى وقت.

■ ما الذي أوصل الموارنة إلى وضعهم الحاضر؟

- الأخطاء التي ارتكبها قادتهم منذ عهد المتصرفية إلى تاريخ توقيع اتفاق الطائف. إنها أخطاء الحكم الماروني وأخطاء الحاكم الماروني والإصرار على رفض الخيارات الواقعية والدخول في مشاريع لم يكن ممكناً أن تؤدي إلا إلى ما أدت إليه. أخطاء من أيام المتصرفية إلى عهد الانتداب وصولاً إلى عهد الاستقلال. كان على الحاكم الماروني والمحيطين به أن يروا أبعد في ١٩٥٦ و١٩٥٨ وفي محطات كثيرة أخرى. وحتى الآن لا يزال هناك من يرفض أن يرى. إن القيادات الروحية والزمنية المارونية تتحمل كذلك مسؤولية ما حصل. هناك من لا يزال يعيش في عقلية القرن الماضي ويرفض الالتفات إلى كل التغييرات التي حصلت. وهذه مسألة حساسة، خصوصاً في بلد مثل لبنان.

■ متى بدأت علاقتك مع رفيق الحريري؟

- قبل حرب الجبل كنا نبحث عن ممول لإنقاذ معمل سبلين وكان أول لقاء معه. ثم جاءت «حرب الجبل» وصار معمل سبلين بيننا وبين «القوات». ثم بدأ يقوم بوساطات برفقة الأمير بندر بن سلطان.

■ ما هي في رأيك أهمية رفيق الحريري أو أسباب قوته؟

- إنه رجل مؤمن بعمل الخير وبأسلوب المؤسسات، اهتم بتعليم الطلاب الجامعيين وأقام مؤسسات تربوية وطبية كما فعل في كفرفالوس. لديه طموحات سياسية، نعم لديه. ولديه استثمارات مالية، نعم لديه. وأسلوبه قياساً على الطبقة السياسية القديمة عصري. وعنده كادر مقبول. المشكلة هي في غياب الرؤية الاقتصادية - الاجتماعية. لقد حذرت وأكرر من خطر انفجار اجتماعي ما لم تكن لدى الحكومة رؤية اقتصادية واجتماعية وسياسية لإنماء المناطق.

■ علاقتك مع رفيق الحريري مختلفة عن تلك التي ربطتك برؤساء الحكومة كالرئيس رشيد كرامي مثلاً؟

- كانت بين رشيد كرامي وكمال جنبلاط علاقة قديمة. تحالفا في ١٩٥٨ وكانت هناك محبة ولكن حدث خصام في أيام الشهابية وتباين في أيام الوثيقة الدستورية. طبيعة الأشخاص مختلفة. رفيق الحريري تمتع مثلاً بديناميكية لم تكن موجودة لدى رشيد كرامي. كانت له طريقة في الحكم فريدة من نوعها.

■ والعلاقة مع الرئيس صائب سلام؟

- لم تكن بينه وبين كمال جنبلاط مودة كبيرة. كانت العلاقة الشخصية مليحة. وفي المحطات الكبيرة لم تكن مواقفه جيدة معنا، بالتحديد في محطة انتخاب بشير الجميل وكذلك في انتخاب

أمين، والأمر نفسه في «حرب الجبل». ذهبت أنا والشيخ محمد أبو شقرا (شيخ عقل الدروز) رحمه الله والأمير مجيد أرسلان لزيارته وكنا تقريباً في موقع الاستجداء. وكان الغرض أن يتدخل لدى أمين الجميل ليحل عنا. وكانت لدينا ورقة المطالب الدرزية. تقريباً اتهمنا بالعمالة لإسرائيل.

■ حكي في تلك الفترة أن رفيق الحريري وظف إمكاناته المادية لمنع انتخاب بشير الجميل ومن طريق الرئيس سلام؟

- لا أعرف. لكنني أعرف أنه (سلام) بعد خروجنا من بيروت كان أحد عرابي بشير الجميل، بعد خروجي من بيروت بواسطة فيليب حبيب. فشلت الوساطة أول مرة ونجحت في المرة الثانية. قلت لفيليب حبيب: جئت ببشير الجميل فدعنا نغادر البلد لأننا لا نريد أن نعيش تحت النير الديكتاتوري للجيش اللبناني آنذاك و«القوات اللبنانية». أول مرة صعدنا إلى اليرزة ولم يمش الحال، وفي الثانية مشي الحال وتنفسنا الصعداء لدى وصولنا إلى صوفر.

■ بماذا شعرت لدى تبلغك نبأ اغتيال بشير؟

- بالارتياح. لنكن صريحين، المسألة أعطتنا معنويات وطحشنا.

■ هل كان يمكن أن تكون المعركة أقسى لو حكم بشير؟

- مثل بعضها. على كل حال أقسى معركة كانت مع ميشال عون. كل جولة كانت أقسى من سابقتها. لا يتعلق الأمر به كشخص فهو كان جالساً تحت الأرض في اليرزة ولم يكن يجرؤ

على الصعود إلى الجبهة، لكن الإمكانات التي أعطاها صدام حسين للجيش اللبناني كانت هائلة. وتنسيق النيران بين الجيش و«القوات» كان قوياً بفضل مساعدات صدام السخية. وأعتقد أنه كاد أن يرسل لهم صواريخ «سكود» وعرف السوريون بها فلوّحوا بإرسال صواريخ بدورهم وأدى الإنذار السوري الحاسم إلى وقف الصواريخ العراقية في عرض البحر. خط السلاح كان يمر في بلدين عربيين قبل أن يصل إلى حيفا ثم جونية.

■ **توليت مسؤوليات سياسية وخضت معارك عسكرية، ما شعورك تجاه الذين خانوك أو تساقطوا أو استفادوا؟**

- المرارة. من فعل لم يكن أول من يصعد درج المختارة ويخون وليس آخر من يفعل. كثيرون خانوا وكثيرون كانوا أوفياء. هناك أناس أصيلون وهناك خونة. (يضحك) تعودنا.

■ **هل أنت كثير الشكوك والحذر في العلاقات مع الناس؟**

- حسب أي نوع من الناس. هناك أناس أوفياء تاريخياً لهذا البيت ولهذا الخط، وهناك عابرون.

■ **كونك وريث زعامة راسخة، هل يجعل من الصعب عليك التفاهم مع رؤساء الجمهورية الموارنة؟**

- لا، المسألة أنني لا أحب أن أكون مواطناً من الدرجة الثانية، وكمال جنبلاط كان لديه الموقف نفسه. لماذا نكون مواطنين من الدرجة الثانية أو الثالثة نتيجة أن مذهبنا أقلية؟ هذه هي القصة بصريح العبارة. دائماً هناك علامات استفهام حول دور الدروز في

المنطقة من الجهات المتطرفة الدينية وغيرها. هناك شكوك عقائدية أو سياسية. لا أحد أفضل من أحد. المعيار هو الكفاية والمناقبية والمواقف. فهمنا أن هناك دروزاً في فلسطين فماذا بعد. فريق من الدروز يتعامل مع إسرائيل، وماذا بعد؟ كان هناك نحو مليوني جزائري يتعاملون مع السلطة الفرنسية في الجزائر. ونصف لبنان وسورية كان يتعامل مع الفرنسيين وإلى آخره. يستقوون على الضعيف.

■ **لم يثبت أنك ضعيف؟**

- عقائدياً لست مسؤولاً عن الانقسامات الإسلامية. أنا لا علاقة لي بهذه المسألة. أنا درزي في الهوية السياسية وليس في الهوية الدينية.

■ **هل اتخذت قراراً بإعدام أشخاص خلال الحرب؟**

- أعدمنا شخصين. في المراحل الأولى بعد «حرب الجبل» دبت الفوضى. أعدمنا شخصين ونجا الثالث بأعجوبة. الشخصان اللذان أعدما هما من الطائفة الدرزية. واحد قتل شقيقته في شكل شنيع، والثاني ارتكب جريمة شنيعة أيضاً. كان لا بد من هذا الإجراء في تلك الظروف. الثالث كان متهماً بالتعامل مع «القوات» وعمره ١٧ عاماً، وكان من سكان المنطقة الشرقية أصلاً. كان مقرراً أن ينفذ به حكم الإعدام صباحاً. في الليل لا أعرف ماذا أصابني. انتابني أرق وقلت لماذا نقتله. في الثالثة فجراً ثمة شيء دفعني إلى إلغاء التنفيذ.

■ **والاغتيالات السياسية؟**

- لم ندخل هذه اللعبة ونحن أول من ذاق مراراتها. الاغتيالات السياسية والسيارات المفخخة سلاح ذو حدين ولا ينجو منه من يستخدمه.

■ بماذا شعرت حين عرفت أن الجيش اللبناني اقتاد سمير جعجع من منزله إلى وزارة الدفاع؟

- كانت نتيجة حتمية لكل أعماله. يبدو أنه كان يظن أنه قادر على الخروج من الأمر. إذا كنت تذكر أنا أول من قال بعد اغتيال داني شمعون إنها إهدن ثانية. بعدما انهزم ميشال عون وبعدما كان جعجع عراب الطائف على طريقته راوده حلم الزعامة المسيحية وكان له منافس واحد هو داني شمعون.

■ هل تستطيع أن تجزم بأن الماكينة العسكرية والأمنية للحزب التقدمي الاشتراكي لم تتورط في اغتيالات؟

- على الأقل في الجبل أستطيع أن أجزم. في بيروت وفي مرحلة معينة - وهو الأمر الذي أدخلني في حروب ثانوية وسخيفة وظلم فيها أهل بيروت - جهاز الأمن في الحزب ارتكب أموراً شنيعة ولم يكن تحت سيطرتي. ظننت أنه تحت سيطرتي واكتشفت لاحقاً أنه تحت سيطرة آخرين.

■ يقال إن هناك من حاول تنفيذ عملية تفجير تستهدفك داخل قصر المختارة؟

- لا، التفجير الوحيد الذي استهدفني عندما فجر أمين الجميل السيارة (في بيروت) وكان إيلي حبيقة هو المدبر آنذاك وهو الذي أخبرني.

■ **بماذا أخبرك؟**

- أنه هو الذي أعدّ العملية. واعترف بتدبير محاولة قبلها وكنا في مطعم «الماندرين» ونجونا بفضل القدر لأنه كان معنا موريس درايبر وبيل كوانت وغسان تويني. عرفوا بوجود الأميركيين فنجونا. وأبلغني حبيقة عن محاولة ثالثة على طريق المختارة - الدامور قرب ملتقى النهرين وكانت «القوات» لا تزال في إقليم الخروب. يومها حضَّر لي عبوة وصاروخ ميلان. أما لماذا لم ينفذ فعليك أن تسأله.

■ **حكي عن شخص سلمته إلى السوريين؟**

- سلمت مسؤولي جهاز الأمن في بيروت. «أبو هيثم» الذي كان من أمن الحزب وتبين أنه من أمن إسرائيل أو أمن «القوات» أو ما بعرف لمين. وهو مرتكب جرائم كبيرة في بيروت.

■ **هل له علاقة باغتيال الشيخ صبحي الصالح؟**

- هكذا نمي إليّ من أحد المسؤولين السوريين.

■ **هل شارك في اغتيال شخصية أخرى؟**

- لا. هذا ما عرفته.

■ **من أين هو؟**

- مصري الأصل. ذات يوم تعرض لحادث سير في منطقة الأوزاعي فأقفلت بيروت. كان قوياً ويرعب بيروت. هذا مزروع في الحزب من زمان لكنني لا أعرف من زرعه.

■ **هل كان مؤلماً تفكيك الآلة العسكرية؟**

- مؤلم عاطفياً ومؤلم للشباب. ماشي الحال. الفريق الأكبر منهم استوعب. والباقون يعملون. طبعاً كانت هناك علاقة عاطفية. الجيش الشعبي ليس أمراً سهلاً.

■ **هل رتبت الحرب عليك أعباء مالية كبيرة؟**

- هناك عائلات نحو ١٤٠٠ شهيد عدا المعوقين.

■ **وخسارة المساعدات السوفياتية؟**

- إنها خسارة ضخمة. كان (الاتحاد السوفياتي) يعطينا نحو مئتي منحة دراسية في السنة للهندسة والطب، وكذلك بلدان أوروبا الشرقية ولكن على نحو محدود.

■ **يحكى أن جهاز «كي. جي. بي.» أقام علاقات وثيقة بشباب الاحزاب اليسارية، إلى أي مدى حاولوا اختراق حزبكم الاشتراكي؟**

- حين يعطونك ٢٠٠ منحة ويدربون لك كادرات فمن الطبيعي أن تبقى لهم علاقات عندنا وعند الإخوان الشيوعيين وغيرهم. الاتحاد السوفياتي كان دولة عظمى. هنا يهمني أن أسجل أن الرجل الذي ساعدنا كثيراً في إرساء تلك العلاقة هو السفير السوفياتي ألكسندر سولداتوف. كان من خيرة الناس على المستويين الشخصي والسياسي. كان لديه بعد استراتيجي وهو ديبلوماسي قديم من أيام ستالين. أندريه غروميكو لم يكن يحبه فأبعده إلى لبنان. غروميكو لم يكن يحب دوبرينين فاستفاد الأخير وأقام ٢٠ عاماً في أميركا.

■ **ما هذا المسدس الموجود على الطاولة في الزاوية؟**

- هدية من الاستخبارات العسكرية السوفياتية.

■ **هل تحمله دائماً؟**

- لا. أحياناً أضعه في السيارة.

■ **ما وراء علاقتك مع محسن إبراهيم؟**

- محسن إبراهيم صديق. صديق أصيل. على المستوى السياسي وعلى المستوى الشخصي ويستحق الاحترام. فكر مرتب. تحترمه حتى وإن اختلفت معه أحياناً في بعض وجهات النظر.

■ **وجورج حاوي؟**

- جورج صديق أيضاً. اختار الانكفاء عن العمل السياسي. نفذ بيريسترويكا على طريقته. أرى أنه كان عليه ألا يترك الحزب الشيوعي حتى وإن اضطر إلى تغيير الحزب. في النهاية الصف الوطني من شيوعيين واشتراكيين وغيرهم انكفأ وأصابه الانهيار بعد انهيار المركز الرئيسي وهو موسكو. لكن الأمر ربما كان حلقة أو مرحلة.

■ **من كنت تلتقي في موسكو؟**

- دوبرينين وبوناماريوف.

■ **ما آخر ما تذكره من الرحلات إلى موسكو؟**

- شهدت آخر عرض عسكري (في ١٩٨٧) لأكبر جيش في العالم في الذكرى الـ ٧٠ للثورة:

■ **التقيناك في العام ١٩٨٦ في قاعة الأعمدة في موسكو؟**

- آنذاك كان يلتسين رئيساً لبلدية موسكو وعضواً في المكتب السياسي.

■ **هل كانت بينك وبين جوني عبده (المدير السابق لمخابرات الجيش اللبناني) صداقة؟**

- صداقة شخصية صحيح. لكن جوني عبده هو الذي صنع بشير (الجميل). وكان مسيطراً على الرئيس الياس سركيس.

■ **تقصد أنه كان حاكماً؟**

- كان من ضمن فريق خطير وملفه كبير سياسياً وأمنياً.

■ **في المناسبة كيف تنظر إلى سياسي كفؤاد بطرس؟**

- رجل محترم. متشائم تاريخياً ومعه حق. وله وجهة نظره.

■ **وغسان تويني؟**

- من الرعيل الأول السياسي والصحافي الكبير. قلم صريح حتى وإن لم تتفق معه. فكر لامع. لكل واحد شطحاته، منا ومنه. اختلفنا معه في شأن تقويم أمين الجميل وكنا قساة أحدنا ضد الآخر، لكنني أحترمه.

■ **هل هناك علاقة خاصة بينك وبين الوزير مروان حمادة؟**

- علاقة قديمة. وكان مساعدي ومعي في أقسى مراحل الحرب والسلم، وهو طاقة وممتاز.

■ ماذا تقرأ؟

- حين يسمح الوقت أحب قراءة التاريخ. مسألة الوقت صعبة في لبنان. أقرأ الصحافة العالمية «هيرالد تريبيون» و«لوموند» و«الموند ديبلوماتيك» وأتابع ما يجري في العالم.

■ تاريخ الجبل معقّد. هل هو دليل على إمكان التعايش أم على صعوبته؟

- الجبل دليل على التعايش. لكن التعايش انهار بسبب سياسة بشير الشهابي وسياسة الكنيسة المارونية، وهم بالاتفاق معه ركبوا رأسهم ومشوا في مشروع الدويلة المسيحية وحرب ١٨٦٠ وأتوا بالفرنسيين. هناك تشويه كبير للتاريخ. يمكن أن نحكي قبل ذلك عن أيام فخر الدين وعلي جنبلاط وبشير جنبلاط حين كان التعايش موجوداً في الجبل.

■ حين ربحت «حرب الجبل» هل شعرت بأنك ثأرت من أحداث ١٨٦٠؟

- إلى حد ما ولكن ليس من أحداث ١٨٦٠. ربما أخذت بثأر الشيخ بشير جنبلاط ضد بشير الشهابي. وكان بشير الجميل امتداداً لبشير الشهابي، ولذلك أقمت الاحتفال في بيت الدين. بشير جنبلاط كان من الشخصيات التاريخية غير المذكورة في تاريخ لبنان. وكان حليفاً أساسياً وهو الذي جاء ببشير الشهابي. وكان أكبر زعيم اقتصادياً وعسكرياً. نعم أخذت بثأره.

■ هناك قدر يطارد بعض العائلات التي تعمل في

الحقل السياسي. هل تشعر بثقل هذا القدر؟

- كان الوالد يقول إنّ لا أحد في العائلة يموت في فراشه. هناك قدر. ولا تنسَ أن درجة العنف في لبنان فظيعة على رغم قولنا أننا بلد الإشعاع والنور.

■ **هل تراودك الرغبة في إلغاء الخصم؟**

- لم أحاول إلغاء أحد. بخلاف ذلك أنا أحترم خصومي. كان خصمنا حزب الكتائب وقلت لك إننا ارتحنا لدى اغتيال بشير الجميل. وكان عندنا خصم لدود في السياسة هو كميل شمعون، لكن مستوى العلاقة كان مختلفاً، كنا نحترمه ويحترمنا. وخلال حرب الجبل الأولى في ١٩٧٦ حصل اتفاق بين كميل شمعون وكمال جنبلاط على تحييد الجبل. تحاربنا على صخور صنين لئلا يقتل أحد في داخل الجبل.

■ **هناك في المقاومة الفلسطينية من ينفي أن تكون المقاومة قد شجعت كمال جنبلاط على الذهاب بعيداً في الحرب؟**

- هذا السؤال صعب الآن. كان هناك سياستان لدى المقاومة. في مرحلة معينة كان كمال جنبلاط يريد متابعة الحرب في جبال صنين والتقدم قليلاً لأنه كان يعتقد بأن لا بد من إضعاف القوة العسكرية المارونية آنذاك للوصول إلى تسوية. وكان «أبو أياد» يفاوض السوريين في صوفر. كان معنا «أبو صالح» فيما كان «أبو عمار» كعادته. لم أعش تفاصيل هذه المسائل وفي استطاعة محسن إبراهيم أن يجيبك إجابة أدق.

■ هل تعتقد بأن كمال جنبلاط ظُلم؟

- إذا كُتب التاريخ بإنصاف فإن كمال جنبلاط قد يُنصف. وكتابة التاريخ عن طريق احترام الحقائق تحدٍّ كبير أمام اللبنانيين. لماذا نهرب من محطات تاريخنا؟ إعادة كتابة تاريخ لبنان كتابة موضوعية من مهمة إحدى اللجان التي يفترض أن تنبثق من اتفاق الطائف. فلتقل الحقائق وكل وجهات النظر.

■ هناك علاقات قديمة بين الفاتيكان وقصر المختارة؟

- نعم العلاقات قديمة. وهناك رسالة شهيرة من أحد الباباوات إلى علي جنبلاط يوصيه بالمسيحيين في الجبل وبالمحافظة عليهم. أملاك الأديرة الكبيرة في المنطقة معظمها هبات من آل جنبلاط والإقطاع الدرزي خصوصاً عائلة جنبلاط بدءاً بدير المخلص وانتهاءً بغيره.

■ كيف تصف العلاقة مع الفاتيكان اليوم؟

- ليست هناك علاقة جيدة ويمكن القول إنه ليست هناك علاقة عملياً. هناك علاقة جيدة مع القاصد الرسولي. في الحرب كانت هناك علاقة. غريب أنها لم تعد موجودة في السلم. أعتقد بأن جماعة الكنيسة هنا خربطوها، جماعة الكنيسة المارونية اللبنانية.

■ لديك اهتمام بالتراث والآثار؟

- للتسلية والمحافظة على ما بقي من تراث في لبنان. المحافظة على التراث مسألة حيوية تعني الناس وتعني الحكومات.

■ هل تهتم باللوحات؟

- ليس اهتماماً خاصاً. أنا بالمصادفة صرت أعرف قليلاً بالأشياء

الفينيقية والرومانية، الفخار والزجاج الروماني. في الموزاييك اكتشفت كنيسة بيزنطية قديمة على الساحل في الجية. نقلت الموزاييك إلى متحف بيت الدين حيث يوجد جناح خاص للموزاييك وجناح خاص للفخار والزجاج الروماني، ومتحف رشيد كرامي ومتحف الأمير عادل ارسلان.

■ **بماذا كنت تشعر لدى اشتداد القصف على المنطقة أو عندما تتبلغ نبأ وقوع مجازر جماعية؟ ماذا كان الناس يقولون لك؟**

- شعور الشخص في الحرب غيره في السلم. في الحرب هناك الفعل ورد الفعل. لا شعور في الحرب.

■ **هل كنت قاسياً جداً في الحرب؟**

- وهل الحرب مزحة؟ وهل هناك حرب جميلة وحرب بشعة؟ الحرب هي الحرب ونأمل أن نكون تعلمنا. الحرب هي الحرب خصوصاً حرب المدن وحرب الجبال وحرب القصف العشوائي. الحرب التي تدور بلا أي قواعد.

■ **هل كدت تقتل ذات مرة بفعل القصف؟**

- سقطت قذائف كثيرة بالقرب مني. الحظ!

■ **هل يمر الزعيم السياسي بلحظات خوف شخصية؟**

- ومن لا يخاف؟ وحده المجنون لا يخاف.

■ **ما هي أبرز لحظات الخوف؟**

- حين تسقط القذيفة قربك أو تمر فوق رأسك.

■ **هل استُهدف قصر المختارة؟**

- نعم في حرب عون.

■ **أصيب القصر؟**

- لا، نجونا بأعجوبة. أمضى عون نحو شهرين وهو يتسلى بنا. استهدف بيت الدين. بعثنا إليه برسالة عبر السفير الفرنسي في دمشق وقلنا له فيها إن بيت الدين أثر تاريخي حرام أن تضربه. حين تبلّغ الرسالة ضاعف القصف لكن القصر نجا. الجنرال لا تهمه الآثار ولا يهمه التاريخ.

■ **هل كان هناك وسيط بينك وبين عون؟**

- لا، الرسالة الوحيدة كانت عبر السفير الفرنسي.

■ **ألم تحدث محاولات اتصال؟**

- جاءت جماعته ذات مرة، باسكال عزام وروجيه عزام، نصحناهم كثيراً بأن ينضموا إلى الطائف. قلنا لهم انضموا وإلا.. لم يسمعوا.

■ **هل تعتقد بأن الجنرال عون أخطأ في القراءة فكان المنفى، وأن جعجع أخطأ في القراءة فكان التوقيف.**

- أعتقد ذلك. اللعبة الدولية أكبر من كمشة موارنة في لبنان. التسوية أهم بكثير. البترول أهم من ميشال عون وسمير جعجع. وأهم من التفاح والصخور التي تعجب سعيد عقل.

■ ما رأيك لو عاد العماد عون إلى البلد زعيماً لقوة سياسية؟

- سيخرب البلد. جربنا مرة فلماذا نجرب ثانية؟ يكفي. الحقيقة أعتقد بأن الأوضاع تغيرت. كان يومها يمسك بالجيش والآن لم يعد الجيش معه. أتصور أن لدى اللبنانيين ما يكفي من العقل، أتصور أو أظن. ظروف حرب التحرير والتظاهرات أمام بعبدا وخطابات سعيد عقل ظهرت نتائجها وعلى الناس أن تتعلم. آمل ألا نرجع أبداً إلى الجنون الجماعي.

■ هناك مرحلة مقاطعة للرئيس أمين الجميل انتهت بوساطة سورية؟

- نعم حدثت وساطة سورية وشكلت حكومة الوحدة الوطنية التي لم تدم طويلاً. وتخللت عمل الحكومة خلوات عقدت في بكفيا. في آخر مشوار ذهبت أنا وأبو جمال (السيد عبدالحليم خدام) إلى أمين الجميل في محاولة لإيجاد تسوية. لم يكن الجو مهيأ للتسوية لأن أمين الجميل كان لا يزال يراهن على الأميركيين وربما على الإسرائيليين. كان يحاول أن يستقوي. مع أمين كان الأفق مسدوداً. لم يكن هناك امكان لمصالحة فعلية معه.

■ هل صحيح أن محاضر اجتماعات «الحركة الوطنية» كانت تتسرب إلى المكتب الثاني؟

- كان هناك من يسجل محاضر جلسات. تقارير (يضحك). اتفقنا مع محسن إبراهيم على وقف كتابة المحاضر. دام الإجراء لثلاثة أو أربعة اجتماعات. للأسف ومن دون الدخول في الأسماء كان هناك بعض الأشخاص الذين يكتبون.

■ يكتبون ويرسلون إلى أجهزة؟

- أعتقد ذلك.

■ من هي الوجوه البارزة في الحركة الوطنية آنذاك، أقصد أصحاب الأدوار الفاعلة؟

- أبرز الذين كانوا في تلك المرحلة محسن إبراهيم وجورج حاوي، وكان إبراهيم قليلات (زعيم «المرابطون») يشكل حالة خاصة. وكنا نحرص على مراعاة قليلات في بيروت بسبب حالة سياسية ومذهبية معينة.

■ ما قصة قرار ضرب «المرابطون»؟

- حدث تعارض في وجهات النظر السياسية، وكنا في تحالف مع نبيه بري ولم ننسجم مع سياسة قليلات وطموحاته. حدثت حركة مشتركة عسكرية ـ سياسية ضده. وقعت معركتان. في الثانية كنا نحن و«أمل». من الصعب تقويم تلك المرحلة، فالأحداث اتخذت بعداً مذهبياً كبيراً. معركة الجبل و«حركة ٦ شباط»/فبراير ومعركة «المرابطون» اتخذت كلها ابعاداً مذهبية.

■ والحرب التي دارت بينكم وبين «أمل» في بيروت وأدّت إلى عودة القوات السورية إليها؟

- حدث خطأ في الحسابات أيضاً. «حرب الجبل» اتخذت طابع انتصار لوليد جنبلاط، و«٦ شباط» طابع انتصار لنبيه بري. حاولنا أن ننسق وأن نشكل مجلساً سياسياً في بيروت وإدارة وطنية. عرضنا على سليم الحص فرفض. تحولت بيروت إلى جزر سياسية وأمنية ومذهبية وعسكرية. عملياً كانت الحرب واقعة. حدث

اختراق عندنا وعند «أمل». جهاز الأمن عندنا كان مخترقاً ويعمل لمصلحة عرفات و«القوات اللبنانية» وورطني في حربين كبيرتين. فشلت كل محاولات التنسيق لأن الواقع على الأرض كان مختلفاً. لقد أدى دخول القوات السورية إلى الإفراج عن أهل بيروت وكشف اختراقات أمنية خطيرة وقد سلمنا المعنيين بهذه الاختراقات إلى القوات السورية.

■ **بدا آنذاك أنك تجد صعوبة في التعامل مع الدكتور سليم الحص والعكس صحيح؟**

- الإسلام السياسي كان ضد «حرب الجبل» وكان ضد «٦ شباط».

■ **حتى خلال عهد الحكومتين كنت تبدو وبري في جهة والحص في جهة أخرى؟**

- أعتقد بأنه كانت في عهد الحكومتين خطوط مع عون من قبل بعض الإسلام السياسي. كانت هناك مراهنة على الجيش وعلى عون.

■ **هل تقصد الحص؟**

- أعتقد. كان هناك تقويم مختلف لمرحلة ميشال عون. خلال «حرب التحرير» وصل الأمر إلى حد اتهامنا نحن بقصف بيروت.

■ **ما هي قصة «حرب المخيمات»؟**

- صراع على السيطرة في لبنان. صراع بين سورية وعرفات. كان عرفات يريد إرجاع بيروت إلى السابق، أي أن يسحب ورقة

بيروت وقسم من لبنان من السوريين. كان لا بد للسوري من أن يجيب على هذا الأمر فاستخدم كل الوسائل. وبما أن المخيمات محاطة بكثافة شيعية معينة حصل صدام وأخذ طابعاً مذهبياً. في الوقت نفسه كانت هناك فصائل فلسطينية ضد عرفات.

■ **قيل الكثير يومها عن قصف من الجبل لدعم مسلحي المخيمات؟**

- كنا نلعب في الجبل لعبة القط والفأر. نسكت راجمة فتظهر راجمة أخرى. كانت هناك كثافة للوجود الفلسطيني في الجبل وكانوا في حلف عسكري معنا ضد الجيش اللبناني ولم يكن هناك مجال لضرب الفلسطيني في الجبل.

■ **موقفك من «حرب المخيمات» هل رتب انعكاسات عليك؟**

- لا، حصل فتور مع سورية التي عادت وتفهمت واقع الوجود الفلسطيني في الجبل وتحالفه مع الحزب الاشتراكي عسكرياً. لم يكن هناك من حل آنذاك. كان الحل الوحيد دخول الجيش السوري إلى بيروت لإخماد الحروب على أنواعها. وهذا ما حصل. من دون قوة عسكرية نظامية كان الهدوء مستحيلاً. فشلت كل لجان التنسيق. لم يكن ثمة معنى للاجتماعات الكثيرة التي عقدت في دمشق وبيروت. كان لا بد من وجود عسكري سوري كثيف وهذا ما حصل.

■ **هل تعتقد بأننا يمكن أن نواجه انتكاسة أمنية اليوم إذا انسحب الجيش السوري؟**

- لا أعتقد. صحيح أننا في حاجة إلى السوري في تنسيق أمني وعملاني وسياسي على الأرض لكننا نعتقد بأن الجيش اللبناني صار قادراً على السيطرة.

■ **هل تشعر بالاطمئنان إلى الطريقة التي يبنى فيها الجيش اللبناني؟**

- بوجود العماد إميل لحود (قائد الجيش) نعم. كان الجيش اللبناني يشكو دائماً من تصرف الفرد. المؤسسة تحتاج إلى المشاركة في القرار. تحتاج إلى هيئة أركان يرأسها شخص. الصلاحيات لا تزال لدى قائد الجيش. مع إميل لحود لا مخاوف ولكن إذا جاء غيره تصبح المخاوف واردة. المطلوب هيئة أركان وعقيدة واضحة.

■ **هيئة بديلة من المجلس العسكري؟**

- المجلس العسكري في الأساس اختراع من أيام سركيس. إنه مجلس ملّي وليس هيئة أركان بالمعنى الحديث. ويجب أن تعرف صلاحياته. الأفضل أن تكون هناك هيئة أركان.

■ **ماذا تذكر من اجتماعات «الحركة الوطنية»؟**

- إنها كثيرة. الواقع أنه كان لدى محسن إبراهيم صبر هائل في مخاطبة المجتمعين والأحزاب. هذه المهمة لم تكن سهلة. أنا شخصياً لم يكن لدي هذا المقدار من الصبر والجلد. كانت لديه طاقة سياسية ونفسية وكلامية فظيعة. لهذا أمسك محسن بالحركة الوطنية.

■ **هل هناك تفكير في العودة إلى صيغة ما مشابهة؟**

- لا.

■ **المرحلة ليست مرحلة عمل حزبي؟**

- إنها مرحلة مخاض. انتهت الحرب ولننتظر أن ترتاح النفوس ثم نرى كيف ستتبلور الأوضاع وقانون الانتخاب الجديد وتقسيم المحافظات.

■ **بماذا تطالبون بالتحديد؟**

- بتقسيم جبل لبنان إلى محافظتين أو ثلاث. وأعتقد بأنه يتحمل مثل هذا التقسيم، وكذلك إعادة النظر في التقسيم الحالي. بدل أن يكون التقسيم أفقياً على طول جبل لبنان فلنجعله بالعرض أي من ساحل البحر إلى جبل الشيخ. وحدة جغرافية سياسية اقتصادية مختلفة. مثلاً في الشوف من سبلين إلى جبل الشيخ وراشيا وجب جنين وجزين مروراً بدير القمر. هناك اختلاط مذهبي وتنوع. لماذا نبقي على تقسيم المتصرفية القديم وتقسيم الانتداب؟ يمكن ربط عاليه بشتورا. كسروان تصبح مع بعلبك ــ الهرمل.

■ **هل لديك يأس من السياسة؟**

- لا، ليس لدي يأس من السياسة. مهمتي سياسية وهي عودة المهجرين إلى كل المناطق وإعادة بناء المناطق. إنها مهمة جداً لوحدة البلد خصوصاً لإخراج فئة من اللبنانيين من فكرة الغيتو نفسياً على الأقل وإلا استسلموا لهذه الفكرة، موناكو صغيرة في جونيه وضواحيها.

■ **لماذا جرفت المنازل إثر حرب الجبل؟**

- لأنه في مرحلة معينة لم يكن هناك مهرب، لم يكن هناك مجال لوقف المشاعر الطائفية بعد الاحتقان الذي حصل. جرفت منازل وكذلك جرفت أحياء في المنطقة الشرقية وكذلك في الغربية. لكن المسألة كانت أكبر في الجبل. كانت نوعاً من الانتقام قام به بعض الدروز كأنهم يريدون القول: خلصنا من المسيحي. طبعاً كان هذا التفكير قصير المدى وانفعالياً وثأرياً. ثم كانت هناك قرى بمثابة رموز فاستهدفت.

■ **هل هناك عوائق غير مالية تحول دون إعادة البناء؟**

- لا. إذا توافرت الأموال فلن تكون هناك عوائق أخرى. ثم حدث جرف منازل في شرق صيدا ولا نتحمل نحن المسؤولية. الخطف على الهوية وجرف المنازل وسرقة البلاط والشبابيك تقاليد أصيلة ومشتركة ظهرت في كل المناطق بلا استثناء.

■ **تردد أن الجرف كان لمنع طوائف أخرى من الحلول مكان المسيحيين؟**

- لا.

■ **قرأت لك تصريحاً تقول فيه إنك لا تنوي فتح ملف اغتيال كمال جنبلاط إذا فتحت كل الملفات، فهل هذا صحيح؟**

- ملف كمال جنبلاط أغلق بالنسبة إلي مع الذكرى الأربعين. قصة سياسية انتهت. المصلحة العربية والقومية تقتضي إقفال هذا الملف. وهذا ما حصل. سأحاول فتح ملف اغتيال أنور الفطايري، وملف اغتيال الشيخ حليم تقي الدين لنرى من له علاقة بهما،

بسمير أم بأمين أم بغيرهما.

■ **فيمن تشتبه بملف اغتيال الفطايري؟**

- أعتقد بأن لميشال عون علاقة.

■ **وهل اعتقل أحد؟**

- نعم اعتقل ولكن لم يحصل تحقيق رسمي. نحن أجرينا التحقيق.

■ **وماذا قال الذين اعتقلوا؟**

- تحدثوا عن شخص درزي حصل على اللجوء السياسي في فرنسا. وأعتقد بأن المنفذ كان محمياً من ميشال عون.

■ **المنفذ موجود في لبنان؟**

- لا، في باريس.

■ **والشيخ حليم تقي الدين؟**

- أنا أعتقد أن لأمين علاقة. فرنسوا دوغروسوفر انتحر الآن. آنذاك كان أمين موجوداً وفادي افرام (قائد «القوات اللبنانية» يومها)، ويجب أن نسأل عن دور سيمون قسيس (مدير مخابرات الجيش في عهد أمين الجميل). يضاف إلى ذلك ملفات أخرى، ملف اغتيال رشيد كرامي ومحاولة اغتيال الحص. خلينا نشوف شو صار بالتحقيق.

■ **هل لديك شعور بأنك في الحرب أقوى منك في**

السلم بحكم جغرافية منطقتك؟

- ماذا تقصد بالتحديد؟

■ **أقصد أن السلم يفتح ملف الأحجام والعدد السكاني؟**

- لا. ليس لدي هذا الشعور.

■ **في الحرب الجبل عقدة، في السلم للطوائف أحجام؟**

- نعم هناك شيء من هذا. أنا لعبت دوري ويكفي. لا أطالب بالمزيد.

■ **إلى أي حدٍّ هناك احتمال حصول انهيار جديد في لبنان وبماذا ترتبط صلابة الاستقرار؟**

- بالمؤسسات. أقوى مؤسسة اليوم هي الجيش. لا أقصد أننا يجب أن نعيش في عهدة العسكر. الجيش يجب أن يكون احتياطاً للمؤسسات الدستورية. الجيش يجب أن يحمي الديموقراطية، والديموقراطية في لبنان مؤسسات وتوازنات وتفاعل بين كل الطوائف، وهي قيادات بعضها موجود وبعضها غائب، وهي تنسيق بين المؤسسات وتوازنات اقتصادية. لا يجوز تحويل لبنان إلى واحدة من جمهوريات الموز.

■ **هل يمكن أن تلتقي انتخابياً مع الكتائب في لائحة واحدة؟**

- تاريخياً لا مودة بيننا، شو عدا ما بدا ليتغير الوضع؟ لا يحبوننا

ولا نحبهم. شعور متبادل. يمكن أن نلتقي مع فارس بويز (في كسروان) مثلاً. أصلاً فارس من الكتلة الوطنية أو قريب منها. لا بد من ظهور قوى سياسية جديدة. وربما قُسم الجبل كما حكينا من قبل. إذا جاء بطريرك جديد للموارنة قد يكون هناك تنسيق. البطريرك الحالي لا مجال للحوار معه. طبعاً شرط ألا يكون البطريرك الجديد (المطران) بشارة الراعي. إذا جاء الراعي نكون انتقلنا من الدلفة إلى تحت المزراب. ربما طرحت في الانتخابات الدائرة المصغرة وهذه أفضل. الدائرة الكبرى مستحيلة وهي اختراع غريب. الدائرة الكبرى على صعيد البقاع والجنوب فيها طغيان لطائفة معينة أو لإقطاع مالي أو سياسي.

■ **هل يمكن أن تكون الدائرة المصغرة مشروعكم؟**

- إنها أفضل. في غياب خدمات الدولة أي نائب لا يستطيع الاهتمام بمنطقة كبيرة. حتى الشوف صار كبيراً علينا.

■ **هل هناك مشكلة أصولية في إقليم الخروب؟**

- في النهاية الأصولية شعور ينطلق من الحرمان والغبن السياسي أو المالي أو القومي. في غياب المشروع القومي العربي تأخذ الأصولية مجالها. وغياب الديموقراطية هو من الأسباب أيضاً. كذلك الشعور بأن العالم العربي مكبوت ومحروم ومرهون للغرب. الحالة تعتير.

■ **كيف ترى مستقبل الأقليات في المنطقة؟**

- إذا دخلنا في لعبة الأقليات نجد أنفسنا أمام حروب أهلية لا تنتهي في المنطقة. لا بد من توسيع الإطارات، مثلاً طرح سوق عربية مشتركة وأطر سياسية مشتركة. هذه الأطر تساعد على

تحاشي الحروب الأهلية. الاستسلام لهواجس الأقليات ومخاوفها لا ينتج غير الحروب الطويلة والمدمرة. فحروب الأقليات تستدعي الحمايات الأجنبية. لذلك كان أحد أسباب انهيار العالم العربي سقوط الإمبراطورية العثمانية. جماعة البوسنة اليوم يترحمون على الإمبراطورية النمسوية.

■ ليس لديك حليف كبير بعد انهيار الاتحاد السوفياتي؟

- كان الاتحاد السوفياتي حليفنا عبر سورية ولا تزال سورية موجودة. كانت التحالفات ضرورية يوم كان هناك خطر علينا. اليوم هناك مؤسسات، لا أشعر اليوم بخطر على الوجود الدرزي.

■ مجمل العلاقة مع موسكو كان عبر دمشق؟

- شيء عبر دمشق وشيء لا.

■ هل ترك كمال جنبلاط أوراقاً غير تلك التي نُشرت؟

- القسم الأكبر من تراثه لم ينشر بعد. ترك الكثير من الأوراق. الاهتمام بها يحتاج إلى فريق عمل خاص.

■ هل عدم النشر سببه حساسيات معينة؟

- لا. ولكن لم يتح لنا بعد التفرغ لها. لم يكن يخبئ أفكاره. ولم يكن يشعر بالخجل لدى الحديث عن طروحاته إن بالنسبة إلى لبنان أو بالنسبة إلى العالم العربي.

■ في أي مرحلة عايشته سياسياً؟

- كنت مراقباً للحياة السياسية ولم أكن معايشاً عن قرب. حين توفي أكملت.

■ هل صحيح أنك كنت تتمنى حياة أخرى؟

- هناك شيء اسمه القدر. القدر فرض بغيابه المفاجئ، أن أتحمل المسؤولية مع فريق العمل، المرء يعتاد.

■ هل يستحق هذا السلام كل هذه الحرب؟

- أنا أعتقد بأننا يجب أن نتجاوز الكلام على هذا السلام. وحتى التسوية مع إسرائيل صارت ثانوية قياساً على الكوارث التي ستأتي، الطبيعية والبيئية وحروب المياه والجوع. أنا أعتقد بأن الكوكب بأسره يتجه نحو كارثة. «غزة ــ أريحا» مجرد تفاصيل.

■ كنت أقصد السلام اللبناني؟

- لا، لا يستحق، لم نكن نحن من قرر. دول تحاربت على الأرض اللبنانية، وكان هناك غباء من جانب القيادة المارونية. غباء مطلق.

■ ما هي في نظرك أكبر غلطة ارتكبها الموارنة، الاصطدام بالقضية الفلسطينية أم بسورية؟

- أكبر غلطة هي أنهم لم يقدّروا مطالب اليسار اللبناني والمسلمين وضرورة المشاركة وتنمية المناطق. هذه أكبر غلطة. من هذا الغباء دخل العامل الفلسطيني ودخل العامل السوري والعامل السوفياتي والفرنسي والإسرائيلي والعراقي. الاستئثار بالسلطة السياسية والعسكرية ورطهم وورط لبنان في الحروب، وكذلك عدم كتابة

التاريخ كتابة صحيحة. حتى الآن التاريخ مزور. لا حقائق في كتاب التاريخ، تعلم التلميذ أن حرب ١٨٤٠ بدأت بسبب خلاف على لعب الكلة بين ولد درزي وولد مسيحي. هذا شيء سخيف. لماذا لا تقال الحقائق: النفوذ البريطاني، والنفوذ الفرنسي، سياسة الكنيسة المارونية التي أرادت التوسع على حساب الوجود الدرزي والدويلة الطائفية المحمية من فرنسا وسياسة إبراهيم باشا. يجب أن تقال الحقائق. الكتب السخيفة التي صدرت ككتاب عادل إسماعيل مجرد جمع للوثائق التي لا تزعج أحداً. سكرتيرة تستطيع جمع هذه الوثائق.

■ **هاجمت فؤاد أفرام البستاني بعد وفاته؟**

- ولا أزال أصر على هجومي، هو وكلّ طرحه السياسي العنصري. وهناك شارل مالك، لا رحمة عليه. هؤلاء من أسباب غلطة الموارنة، أي بدعة التعددية الحضارية.

■ **إلى أي درجة لديك حقد على الموارنة؟**

- لا حقد عندي على الموارنة.

■ **قصدت لأنك تحمّلهم مسؤولية الحرب والانهيار؟**

- الإسلام السياسي لم يقصر إطلاقاً. حين تقول المارونية السياسية فإنها كانت تضم رموزاً درزية وسنية وشيعية. ما الفارق بين بيار الجميل وصائب سلام أو بين بشير الجميل وكامل الأسعد؟ الذي قتل حليم تقي الدين درزي.

■ **لكل منطقة من خريطة لبنان شهيدها الكبير ورمزها،**

كيف يمكن توحيد هذه الذاكرة ووقف الحروب والثارات فيها؟

- بكتابة التاريخ كتابة موضوعية وقول الحقيقة، كل الحقيقة، من بشير جنبلاط إلى بوسطة عين الرمانة.

■ ماذا تقول لابنك عن لبنان؟

- عليه أن يهتم أولاً بالمختارة وتراثها السياسي. إذا كان يريد أن يكون له دور سياسي. فهو وحظه! وإذا لم يعمل في السياسة فهذا أفضل. يتفرج على العالم فهذا العالم كبير. لا سياسة في القرن الواحد والعشرين. هناك اقتصاد وبيئة وخطر حروب نووية. آخر الأنباء اكتشاف قنبلة نووية بحجم كرة البيسبول. غداً تصل إلى يد المافيا أو مجموعة إرهابية. بدها ملجأ نووي في المختارة، لنرى العالم على الأقل ربع ساعة بعد الكارثة.

■ هل بدأ ابنك يسألك عن السياسة؟

- يسأل طبعاً. دعه بعيداً.

■ هل عرف أعداءك؟

- أفضل أن يتعلم الآن. هل نورثه العداوات منذ الآن. حرام. في النهاية يكتشف المرء أن الأمور لا تستحق.

■ لو طبق «الاتفاق الثلاثي» (١٩٨٥) هل كان قد وفر كل هذه الحروب وهل كان صيغة قابلة للحياة؟

- مع مرور الزمن وبالنظر إلى القوى الموجودة آنذاك يمكن القول إنه لم يكن في استطاعة الاتفاق الثلاثي أن يعيش. لكنها كانت

محاولة خرق للصف المسيحي عبر أحد رموزه الأساسية آنذاك، أي «القوات اللبنانية» التي كانت بزعامة إيلي حبيقة. وقد حضرت حفلة التوقيع رموز أخرى: كريم بقرادوني وفؤاد بطرس وميشال إده ومخايل الضاهر وغيرهم. القوى الرافضة للاتفاق الثلاثي من مسيحية وإسلامية كانت محافظة وأقوى. هناك أمين الجميل وكان عون قائداً للجيش ويحضّر نفسه. وكان الإسلام السياسي التقليدي السني ضد الاتفاق مثل اللقاء الإسلامي، وحتى رشيد كرامي لم يكن متحمساً.

■ **هل كان أول اجتماع (ثلاثي) ساعة التوقيع أم سبقته اجتماعات تحضيرية؟**

- لم أعد أذكر بدقة، أعتقد بأنه كان وقت التوقيع.

■ **تبدو العلاقة مع سورية من الثوابت في سياستك، لكنها تمر أحياناً بفترات اضطراب؟**

- نعم إنها من الثوابت في سياستي ولكن يحصل اختلاف في وجهات النظر في بعض المحطات مثل الاتفاق الثلاثي. لم أكن في الأساس مقتنعاً بالصيغة، لا بإمكان نجاحه ولا بمن وقّعنا معهم، وبالتحديد الفريق المسيحي.

■ **هل صحيح ما نقل آنذاك من أنك قلت سأوقع الاتفاق وينفذه ابني؟**

- هناك شيء من ذلك.

■ **لمن قلت العبارة؟**

- لعبدالحليم خدام. يومها أعطى خدام ملاحظة حول إمضائي، فقلت على كل حال إمضائي واضح. وعندما وضعت النظارة قال لي: شو ما عمبتشوف؟ فأجبت: بالعكس عمشوف لبعيد. لطّشنا بعضنا شوي. قصة تكتكة.

■ لنرجع إلى الموارنة. ثمة من يقول إنهم انتحروا عندما خلا مركز الرئاسة عام ١٩٨٨، بمعنى أنه لو حصل انتخاب لتجنبوا، ومعهم البلد، الحروب التي حصلت.

- ربما كانوا وفروا «حرب التحرير» و«حرب الإلغاء». لكن القوى السياسية الداخلية والخارجية التي شجعت الموارنة على الشروع في حرب التحرير والمحاولة الانقلابية كانت أقوى: العراق ومصر وأبو عمار وفرنسا.

■ تقصد أن محوراً ما كان يعارض الانتخابات الرئاسية؟

- المحور كان يريد إزعاج سورية وتجميدها في لبنان. وترجم هذا الأمر في قمة عمان وقمة الجزائر. كان المطلوب من وجهة نظرهم وضع سورية في الزاوية. انتظر الرئيس حافظ الأسد فتحسنت الظروف وجاءت حرب الخليج الثانية فاشترك فيها وطار ميشال عون.

■ أفهم من كلامك أن عون سقط حين جاء جيمس بيكر (وزير الخارجية الأميركي السابق) إلى دمشق؟

- نعم.

■ **هل كانت هناك مشاورات معك أثناء انعقاد لقاء النواب اللبنانيين في الطائف؟**

- قليل. رأينا أن التسوية ماشية. كان الموضوع تحسين الحصة الطائفية أو المذهبية للدروز وقد فشلنا في ذلك. هذا كان اعتراضنا الوحيد. أما الباقي فكانت التسوية مقررة وماشية.

■ **هل وقّع النواب على حل جاهز؟**

- لا، عدّلوا بعض التفاصيل ولكن كان واضحاً وجود إرادة للحل. مطلوب سلام في لبنان واقتلاع ميشال عون وتجريد الميليشيات من السلاح. حل عربي ودولي مثلث الأطراف. النواب ناقشوا التفاصيل من نوع توزيع السلطات والحصص الطائفية. حاولنا أن نحسّن أوضاعنا فلم نقدر.

■ **لماذا؟**

- لأننا أقلية.

■ **ما هو حجم الهواجس الأقلية لدى الدروز؟**

- موجودة. لدى كل أقلية هواجس بعضها كبير وبعضها صغير. نحن اعتدنا على ذلك، أما الموارنة فلديهم عقدة سياسية. نحاول أحياناً أن نحسّن شروطنا في بعض الوظائف. نحن لدينا شعور بالانتماء إلى المجموعة الأكبر. العروبة تحمي وتساعد. الموارنة لا يزالون يشعرون كأنهم جسم غريب. تمسكهم بعقلية الأقلية جعلهم أقلية.

■ **كيف ترى مستقبل الموارنة إذاً؟**

- لديهم إمكانات وفرص كبيرة جداً في السياسة والاقتصاد والثقافة. الحل بالانفتاح وإعادة ترجمة دورهم التاريخي في شكل متقدم وليس انعزالياً، لكن الأمر يحتاج إلى قيادة وهي غير موجودة. لديهم كل الطاقات والمؤهلات والإمكانات وعلاقات عامة مع العرب والعالم والغرب ولكن تنقصهم القيادة.

■ **لماذا ليس لديك حليف ماروني؟**

- لأنه ليست هناك قيادة مارونية تستطيع أن تبرم معها صفقة وطنية تاريخية وليست درزية ــ مارونية. الصفقة الدرزية - المارونية غير واردة ولا معنى للكلام فيها. مع من تبرم صفقة؟ من هو القائد الماروني اليوم؟

■ **هل عرضت عليك صفقة درزية - مارونية؟**

- لا ولكن دائماً يفكر بعض الأوساط الانعزالية على طريقة ما كان في أيام المتصرفية والانتداب ويحكي عن العلاقة المميزة بين المسيحيين والدروز. علماً أن هذا الكلام خطأ في التاريخ. الدروز هزموا سياسياً بعد ١٨٦٠ وكان هناك تطبيع للدروز من خلال القيادة المسيحية في عهد المتصرفية وفي عهد الانتداب. تطبيع وتغيير لسياسة الدروز وتهميش لدورهم السياسي.

■ **إلى أي حد تستطيع احتمال وجود زعامة درزية منافسة لك؟**

- لا مشكلة، فطبيعة مجتمعنا تفرض وجود زعامة ثانية. طبيعة المجتمع الدرزي نفسه تفرض ذلك. أساساً أحادية الزعامة لم تكن مطروحة. فُرضت خلال الحرب إذ كان هناك قرار عسكري لا بد

من اتخاذه ومصير الدروز على المحك وآنذاك كان كل الدروز في الحرب بغض النظر عن الانتماء السياسي. والآن جاء السلم.

■ **في الحرب حققت للدروز انتصاراً تاريخياً في صراعهم مع الموارنة، فهل تقبل في السلم بشركاء؟**

- طبيعة الأمور تدفع المرء إلى القبول. المهم أن تكون الكفاءة متوافرة لدى أي شريك لئلا تذهب تضحيات الدروز الهائلة هباء.

■ **يقال إنه أمكن تفكيك كل الطوائف الاّ الطائفة الدرزية، فكل اختراق لها بدا محدوداً. ما هو رأيك؟**

- صحيح، والدليل أننا نجونا من الحروب الدرزية ــ الدرزية. في رأيي أن لا زعامة واحدة بل زعامات أو محاور عدة. الدروز اليوم غير ما كانوا عليه في القرن التاسع عشر والزعامات التقليدية الإقطاعية. اليوم هناك كفاءات علمية ونقابية واقتصادية. من حق كل هذه الكفاءات أن تعطي رأيها وأن تشارك في القرار السياسي والاقتصادي والداخلي. العودة إلى الماضي مستحيلة. حتى الثنائية مستحيلة وتجاوزها الزمن. بفضل الاتحاد السوفياتي خرّجنا مئات وآلاف الأطباء والمهندسين وتخرج غيرهم من الجامعة الأميركية وجامعات أخرى. لم يعد الدرزي مهتماً بالبعكور. تغيرت الأيام.

■ **هل هذا يعني علاقة جديدة بين الزعيم والناس؟**

- طبعاً الزعيم اليوم هو من يقدم الخدمات ومن يكون متواضعاً ومنسجماً مع روح العصر. أيام الماضي راحت. وكما قلت هناك محاور عدة في حاصبيا ووادي التيم والجبل. كل واحد يحق له التقدم إلى النيابة والوزارة وهناك كفاءات كثيرة.

■ **ما هي القرارات الصعبة التي اتخذتها؟**

- كثيرة.

■ **كيف تصف العلاقات مع ليبيا؟**

- كانت لنا مع ليبيا علاقة مميزة. ليبيا ساعدت الحركة الوطنية وساعدت الحزب الاشتراكي بالمال والسلاح في مرحلة معينة من الحرب. هذا قبل «حرب التحرير» التي شنها عون. خلال تلك الحرب كان هناك جفاء مع ليبيا. وقتها كان موقف العقيد معمر القذافي غريباً ولم أفهمه، لم يكن منسجماً مع طروحاتنا. ربما كان لديه في تلك المرحلة موقف من سورية وترجم هذا الموقف ضدنا. بمعنى أنه لم يساعدنا. الآن لا علاقة بالمعنى المعروف.

■ **ماذا تذكر من زيارات الحركة الوطنية لليبيا والنقاشات مع القذافي؟**

- أوه! زيارات ونقاشات وحوارات (يضحك). هذه القضية من اختصاص محسن إبراهيم وجورج حاوي وإنعام رعد.

■ **العلاقات مع العراق؟**

- كانت هناك علاقات بين العراق والحركة الوطنية ابتداء من ١٩٧٥. آخر زيارة قمت بها لبغداد كانت في ١٩٧٨ على ما أذكر. ومن يومها كان لا بد من الاختيار بين تيار معين في لبنان معادٍ لسورية وتيار مؤيد لها.

■ **هل التقيت صدام حسين في تلك الزيارة؟**

- لا. كان أحمد حسن البكر لا يزال موجوداً.

■ **وكانت لكم علاقة مع الجزائر؟**

- نعم كانت الجزائر موجودة وأحد العناصر الأساسية في حركة التحرر العربي وحركة التحرر الأفريقي. للأسف لم تعد الجزائر موجودة. كانت العلاقة معها ممتازة. وقدمت منحاً دراسية وأعتقد أنهم أرسلوا أسلحة ذات مرة إلى الحركة الوطنية، لكنها كمية محدودة. المهم أنهم كانوا يتفهمون قضايانا ونتفهمهم. كانوا ممتازين.

■ **مرت العلاقة مع القيادة الفلسطينية بمراحل من التحالف الكامل إلى الجفاء الكامل؟**

- الحقيقة أننا قمنا بواجبنا في لبنان حيال القضية الفلسطينية والشعب الفلسطيني، وفي المقابل لم نلق تجاوباً موازياً. كانت هناك تكتلات مختلفة. القيادة الفلسطينية كانت اتجاهات عدة «أبو عمار» و«أبو جهاد» و«أبو اياد» و«أبو صالح».

■ **يبدو أنك كنت تكنّ تقديراً كبيراً لـ «أبو جهاد»؟**

- صحيح.

■ **والعلاقة مع إيران؟**

- جديدة ومقبولة.

■ **هل يمكن أن تقوم مع إيران علاقة شبيهة بتلك التي كانت مع ليبيا؟**

- هناك جدية أكبر مع إيران. دولة عريقة والأصالة والتقاليد مهمة. ديبلوماسية قديمة. صحيح أن ليبيا مهمة لكن إيران دولة

كبيرة في المنطقة. نعرف مع إيران على ماذا نتفق وعلى ماذا نختلف. مع ليبيا كان هناك أحياناً نوع من المزاجية حول العقيد وهناك نظريات مش ظابطة. لكن الليبيين ساعدوا.

■ **متى ذهبت للمرة الأولى إلى الاتحاد السوفياتي؟**

- في ١٩٦٧ مع الوالد وكان ذلك في العيد الخمسين للثورة.

■ **هل كنت معجباً بالاتحاد السوفياتي آنذاك؟**

- نعم كنت معجباً به.

■ **هل فاجأك الانهيار السوفياتي وهزّ قناعاتك؟**

- لم يفاجئني. كان الانهيار متوقعاً لكن ليس بهذه السرعة. كنت أذهب تقريباً سنوياً، وكان المنظر نفسه يستوقفني: الصفوف الطويلة أمام المتاجر في انتظار اللحم أو الخبز. ولفتني أن الطوابير ظلت على حالها من سنة إلى أخرى.

■ **ما الذي فجّر الاتحاد السوفياتي، غياب الحرية أم الفشل الاقتصادي؟**

- الاثنان معاً، ما الذي أوقع ألمانيا الشرقية؟ أليس التلفزيون الألماني الغربي ولم يستطع جدار برلين رده؟ الحرية والخبز هما السبب.

■ **هل لديك شعور بأن كلمة الاشتراكية باتت من التاريخ؟**

- لا فالاشتراكية هي نتيجة ظلم الرأسمالية الجشعة، الظلم اللاحق بالطبقات الفقيرة. الظلم عائد وبدأ يستشري في كل العالم. حتى الغرب في مأزق.

■ **هل تعتقد بأن النظام الدولي الجديد سيفرز معارضة شبيهة بما حدث في بدايات القرن؟**

- على خضات أكبر بسبب الترابط العالمي للشأن الاقتصادي. سيحدث جوع واسع وربما حروب كبرى. لاحظ ماذا يجري في أفريقيا. قارة بأكملها تنتهي لحساب بعض الشركات الغربية الكبرى. لم تعد المشكلة محصورة.

■ **هل تابعت دورة تدريب عسكري؟**

- فقط في الـ «آي. سي.» ولدى الجيش اللبناني عندما كانوا يأخذوننا إلى المدينة الرياضية (يضحك) النظام المرصوص.

■ **قصدت خلال الحرب؟**

- لا.

■ **لكنك تحب السلاح؟**

- اضطررنا إليه في مرحلة.

■ **لديك اهتمام بالتحف والأشياء القديمة؟**

- بالصدفة لأن ثروات لبنان تسرق ولأن الدولة بعظمتها ليست قادرة حتى الآن على أن توقف سرقة الموزاييك والفخار والزجاج الروماني من صور، رحت أشتري قليلاً وأقمت متحف بيت الدين في انتظار أن تشتري الدولة هذه الأغراض وتضعها في متحفها. هذا اهتمام نشأ بالصدفة لكنني حافظت على جزء من الثروة الوطنية.

■ **والهوايات الأخرى؟**

- شوية مطالعة حين يسمح الوقت والتصوير والسفر. السفر جميل.

■ **إلى أين تسافر؟**

- حيثما تتيسر.

■ **عندما كنت تلميذاً في الجامعة الأميركية كيف كنت تفكر سياسياً؟**

- كنا في عز التفاعل الوطني ـ اليساري ـ الفلسطيني وكانت تظاهرات التأييد للقضية الفلسطينية بعد معركة الكرامة. كانت الحركة ضد اليمين اللبناني وكانت الرابطة اللبنانية، أي الكتائب، قوية في الجامعة وحصل ٢٣ نيسان/أبريل ١٩٦٩. تلك الأيام كانت أحلى أيام الجامعة والمكتب الثاني والشهابية المتخلفة.

■ **الشهابية المتخلفة؟**

- الشهابية بدأت متقدمة وانتهت متخلفة أيام شارل حلو.

■ **بمن أعجبت من السياسيين اللبنانيين أو العرب في تلك المرحلة؟**

- بعبدالناصر. في لبنان صعب أن يعجب الإنسان بأحد. كانت هناك صداقة كبيرة مع ريمون إده ولا تزال.

■ **علاقتك مع ريمون إده تمر بشهور عسل وشهور انتقادات؟**

- لا. له وجهة نظره ولي وجهة نظري، لكن الصداقة موجودة.

■ **ما هي أهمية ريمون إده في السياسة اللبنانية؟**

- لذيذ. رجل مرتب. نزيه. آدمي. على طريقته. لم يؤلف ميليشيا ولم يتعاط بالدم ولم يتعاط مع إسرائيل. ألا يكفي؟

■ **هل لديك علاقات خاصة مع سياسيين لبنانيين؟**

- ليست موجودة.

■ **هذا يعني غياب الحلفاء؟**

- أكثر راحة.

■ **ما هي المحطات التي ساهمت في تكوين شخصيتك وفكرك السياسي؟**

- المحطة الأساسية يوم تعرفت إلى عبدالناصر سنة ١٩٦٤ وكنت مع الوالد. والمحطة الثانية كانت خيبة أمل وحسرة بفعل هزيمة ١٩٦٧، والمحطات الأخرى حين بدأ الجيش اللبناني يضرب المخيمات الفلسطينية في لبنان وقبلها ٢٣ نيسان ١٩٦٩، ومقتل معروف سعد. وهناك محطة في ١٩٥٧ حين أرسل كميل شمعون ضابطاً من الدرك اسمه سامي الحشيمة وحاصروا قصر المختارة وكان عمري ٧ سنوات. هناك سلسلة محطات وهناك محطات الحرب وهي كثيرة.

■ هل كان كمال جنبلاط يعدّك لدور سياسي؟

- لا. كان مهتماً بأن أتابع دروسي.

■ الهاجس الأمني جزء من يومياتك؟

- إذا خاف المرء يصاب بالشلل. في ظل المواكب والجيوش وحشد المرافقين لا يستطيع السياسي أن يتصرف تصرفاً طبيعياً. أنا تعودت.

■ هل لديك مخاوف على مستقبل النظام اللبناني؟

- لبنان من العالم الثالث. الأصح أنه من العالم الرابع.

■ في السياسة سقوط الخصم يثير المخاوف أحياناً؟

- عملت واجباتي ويكفي، هل مفروض أن أمضي كل عمري في السياسة؟ هناك وقت للتقاعد.

■ بكير؟

- أنا تعبت.

■ هل هناك خطر أن يسبقنا السلام فلا يكون لدينا مركز مالي مهم ولا جامعة مهمة، أي أن نكون من ضحايا السلام؟

- الجواب يحتاج إلى اختصاصيين خصوصاً في الموضوع المالي. لا أعرف ماذا ينقصنا إذا كان لدينا تخطيط. اللبناني شغلته المال أساساً وكذلك السياح والعلاقة العامة، لكن الأمر يحتاج إلى تخطيط.

■ متى بني قصر المختارة؟

- على مراحل. نحن هنا من سنة ١٦٢٠ تقريباً.

■ تعرض لعمليات حرق خلال النزاعات؟

- نعم في عهد بشير الشهابي. كان هناك جامع في المختارة عمَّره بشير جنبلاط فدُمر. فكك بشير الشهابي الحجارة وبنى بها قسماً من قصر بيت الدين. وبعد ١٨٦٠ هجر سكان القصر فقد نفي زعماء الإقطاع الدرزي إلى سارايیفو وكان هناك من يطالب بإعدامهم ولكن حدثت تسوية سياسية لاحقاً.

■ ومن عاد إليه؟

- أجدادي. نسيب جنبلاط. ثم أخذ القصر دوره في أيام الست نظيرة.

■ أريد أن أسأل قليلاً عن أوروبا الشرقية؟

- كانت هناك أوروبا الشرقية. ما يوجد اليوم هو أوروبا شرقية أخرى.

■ ألم تذهب إلى هناك بعد التغيير ولو سائحاً؟

- ذهبت إلى برلين الشرقية. تلاحظ الفرق: برلين الشرقية أجمل من الغربية. ولكن مع الوقت ستتأمرك. الغربية ليس لها طابع.

■ بماذا كنت تشعر لدى الوقوف قرب جدار برلين من جهة الاشتراكيين؟

- بالسجن. كنت أشعر بالسجن. كان التقسيم غير طبيعي. كانت

لديهم إنجازات ثقافية واجتماعية وسياسية. اليوم الرأسمالية المطلقة تحكم العالم. ثقافة السوق الأميركية تجتاح كل شيء. الثقافة الشعبية والملتزمة والنزيهة ولت كلها.

■ التقيت تشاوشيسكو.. ماذا كان انطباعك؟

- كان إمبراطوراً يعيش في عزلة عن العالم، وكانت زوجته هي الحاكمة. أعتقد بأن ما حكوه عن عشرات آلاف القتلى في الثورة عليه لا صحة له، ربما عشرات القتلى. شاهدت فيلم إعدامه. كان شجاعاً حتى اللحظة الأخيرة. والجنرال الذي أعدمه مات أيضاً.

كنت أذهب إلى الاتحاد السوفياتي أكثر مما أذهب إلى أوروبا الشرقية. موسكو ولينينغراد. الثانية أحلى من الأولى. فيها تراث وحضارة من بطرس الأكبر إلى لينين.

■ ماذا عن جلسات مجلس الوزراء في عهد رفيق الحريري؟

- لا أذهب عادة. أذهب مرة كل ستة أشهر وعندما يكون هناك ما يتعلق بوزارة المهجرين. جدول الأعمال سخيف غالباً والباقي حكي حكي حكي.



جنبلاط يستعرض «الجيش الشعبي»



جنبلاط مع نبيه بري



جنبلاط مع الرئيس الراحل رينيه معوض



مع نبيه بري ورشيد كرامي وسليمان فرنجية في مؤتمر لوزان

جنبلاط في المختارة مع عدد من المشاركين
في المؤتمر الخامس للحزب الشيوعي اللبناني



موقعو «الاتفاق الثلاثي» مع عبد الحليم خدام



مع إيلي حبيقة



ميشال عون

هكذا ينتهي الجنرالات. بالقصف والرصاص وبقع الدم. وبتصفيق الخصوم وبكاء الأنصار. في سفارة على طريق المنفى أو أمام قوس محكمة أصدرت حكمها سلفاً.

إنها قصة الجنرالات. يصعدون بالانضباط الصارم وإخفاء اللعاب والأحلام. بطاعة القادة واحترام الدستور وبغض السياسة. وحين يجلسون في مكتب الجنرال يكتشفون مرارة الدساتير وقساوة الجلوس في الصف الثاني وتأدية التحية لمدنيين لم يلامسهم الموت في معركة ولا عادوا من هدير الدبابات بوسام.

عتمة الثكن تسهل ارتكاب الأحلام القاتلة وتكاثر النجوم يغري بموقع النجم. وعندما يتحول الضابط الصغير جنرالاً ويصرخ «الأمر لي» يكتشف أن للجمهورية رئيساً وأن الأمر هو في النهاية للرئيس. وإذا كان بعض الجنرالات يكتفون بالتقاعد وتدبيج

المذكرات فإن بعضهم لا تستهويه السلامة ولا يرى بعد الجنرال رتبة غير الجنرال المنقذ والجنرال الرئيس أو الجنرال القتيل. يحاول الجنرالات التقدم أحياناً عبر اللعبة الدستورية وتحديداً عبر إنهاكها إلى درجة الالتجاء إليهم وحين تستعصي يجذبونها من شعرها يدخلون الإذاعة والقصر ويبسطون دستورهم وشرعيتهم. لكن ما يصلح هنا قد لا يصلح هناك وبعض الجنرالات يخطئون في التصويب حتى ولو تخرجوا من سلاح المدفعية.

في مقر السفارة الفرنسية في الحازمية يجلس الجنرال ميشال عون مع زوجته وبناته الثلاث مع حفنة من الضباط الذين انتحروا به وانتحروا معه. لم تعد للجنرال مطالب أو مواعيد. مطلب واحد هو فتح الطريق إلى المنفى. وموعد واحد مع الذكريات والمرارات. وهاجس وحيد وأخير هو النجاة من محكمة من كان يردد دائماً أنهم يستحقون المحاكمة.

لقد خسر الجنرال. وكان لا بد له أن يخسر. فحسابات المدفعية شيء والتباسات السياسة شيء آخر. وحجم المبتهجين بخسارته كبير ويفوق حجم الجماهير التي كانت تبتهج بحضوره. ساعة الحقيقة. ساعة المرارات.

المسافة التي تفصل قصر بعبدا عن السفارة الفرنسية تكاد تعادل المسافة بين القصر نفسه ومقر قيادة الجيش في اليرزة. قبل عامين استجارت الجمهورية بالجنرال ليمنع الفراغ فأصر على أن يملأه بنفسه، ولهذا لم يجد بعد عامين غير الاستجارة بحصانة السفارة الفرنسية. لجأت الجمهورية إلى قائد الجيش ليحرس ما تبقى من الشرعية بانتظار تسليم الأمانة فتسلم الجنرال القصر وامتنع عن تسليمه. منحته الجمهورية تفويضاً دستورياً محدداً فانتزع لنفسه تفويضاً شعبياً بلا حدود. دخل الجنرال القصر من بين سطور

الدستور وحين التفّت السطور عليه التفّ عليها، وبعدما استند سابقاً إلى توقيع الرئيس أمين الجميل استند لاحقاً إلى تحيات الضباط والجنود فانتقل من الشرعية الدستورية إلى الشرعية الانقلابية.

كلهم باتوا يطالبون بمحاكمته. الحكومة الشرعية التي كان يسميها «تجمع سبينس» في إشارة إلى المقر المؤقت لرئيس الجمهورية. ومع الحكومة أولئك الذين حاربهم وحاربوه وحاول اقتلاعهم وحاولوا اقتلاعه. وليد جنبلاط الذي خاض أكثر من مواجهة مع الجنرال على حدود سوق الغرب يريد أن يثأر لمن قتلوا. وسمير جعجع الذي خاض المعركة الأعنف ضد عون يريد أن يراه في قفص الاتهام. وسورية التي حاول عون إخراجها من لبنان بهدير المدافع لا تخفي رغبتها في رؤية من تجرأ على المس برموزها يصنف في خانة المختلسين والقتلة. لقد قاتل الجنرال الجميع وقاتله الجميع، ولجوؤه إلى السفارة فتح الدفاتر القديمة والحسابات. ووسط ارتفاع أصوات المنادين بمحاكمته لا يملك عون غير سلاح وحيد وأخير اسمه السفير الفرنسي في بيروت رينيه ألا الذي أعلن أن الجنرال بات في حماية فرنسا التي منحته حق اللجوء السياسي.

وسجلّ الجنرال طويل وحافل. ففي دفتره الصغير حربان خاسرتان، الأولى في الجمهورية والثانية في الشرقية. وبين الحربين حروب صغيرة على النواب والسياسيين وكل رموز المدرسة التي كان عون يتهمها بالإفلاس والتسبب في ضياع الأرض والشعب.

كل هذا الذي يحدث ما كان ليحدث لو اختار عون التطابق مع تصريحاته، لو اختار الموت تحت جدران القصر كان حرم خصومه من فرصة المحاسبة أو التشفي، وربما كان لجثته دوي يفوق ما فعلته مدافعه نظراً لطبيعة الانتصار عليه. قد يكون العماد عون اختار التسليم بشرعية قيادة العماد إميل لحود لإنقاذ ما تبقى، على حد

قوله. لكن الأكيد هو أن خياره هذا لم ينقذ كثيرين ولم ينقذ صورة الجنرال.

مرارة جنرال ومرارات من ارتكبوا الحلم معه. فهؤلاء المساكين الذين سحرتهم شعاراته البسيطة وسارعوا إلى قصر بعبدا كلما أحدق الخطر بالجنرال لم يتوقعوا يوماً أن ينتهي الرجل الذي قادهم وذهب بهم بعيداً في صورة لاجئ في السفارة. كانوا بفضلون بالتأكيد بقاءه في القصر وإلا خروجه منه محمولاً، فالناس كالجنرالات يحبون طعم الانتصار أو البكاء على الضحية.

جنرال يذهب وصفحة تطوى. الجمهورية التي قال إنه جاء لإنقاذها لجأت إلى التاريخ قبل أن يلجأ إلى السفارة، والجيوش التي هدد بإخراجها وصلت إلى القصر نفسه وأخرجته. والميليشيات التي حاول نزع سلاحها أطلقت امس زخات من الرصاص ابتهاجاً بهزيمته.

لقد سقط الجنرال والسؤال الآن هو عما سيحدث بعد سقوطه طبعاً مع التساؤل عمن سقطوا معه. فهل سقطت الحرب مع سقوط العماد عون أم أن الذي سقط هو فصل من فصول الحرب؟ وهل رصاص الابتهاج الذي أطلقته الميليشيات فرحاً بهزيمته كان بمثابة الإعلان عن هزيمتها أيضاً؟ فحالة الانقسام التي كان عون يمثلها كانت فرصة جديدة لاستمرار الميليشيات وديمومتها فهل يلتجئ جنرالات الميليشيات فعلاً إلى الشرعية وعلى قاعدة التسليم بشروطها والاتعاظ أيضاً بمصير الجنرال؟ لقد أنهت معركة الجنرال الكثير من المعارك والسؤال الآن عن الصفحة الجديدة؟ هل يسترجع الجيش لحمته فتهب الشرعية لتقديم ضمانتها للجميع

فتبطل أي حاجة لهذه الجيوش التي ولدت من الانهيار وتسببت في المزيد من الانهيارات؟ وهل تصنع الشرعية من بيروت الكبرى نموذجاً افتقده اللبنانيون منذ ١٥ عاماً فيسارعون إلى المطالبة بتوسيع النموذج جنوباً وشمالاً وإلى كل شبر؟ هل يرجع الجيش ضمانة للدستور وضمانه لكل مواطن ولكل شبر؟ هذا ما تعلنه الشرعية وهذا ما تقول إنها تنوي أن تفعله وهذا ما يجب.

انتهت معركة «الجمهورية الثانية» مع الجنرال وها هي تبدأ معركتها مع الجنرالات الآخرين ومع نفسها. تم تجاوز عقدة عون والآن جاء دور العقد الاخرى. تم انهاء «الجنرال المتمرد» والآن حان موعد استرداد «كل المتمردين». إنها أسئلة صعبة وكثيرة لكنها أسئلة حقيقية ومطروحة في فرصة أخيرة للشرعية التي هي الفرصة الأخيرة للبنان. وفي كل معركة يبقى الأهم من الانتصار هو ما سيفعله المنتصرون بانتصارهم. وليست القصة هنا محاكمة جنرال من هنا وجنرال من هناك. إنها قبل كل شيء إنهاء أثر الانهيارات التي أدت إلى ولادة هذا الحشد من الجنرالات ووقفها. فالجميع يعرفون أن هذه «الجمهوريات» ولدت من بقايا الجمهورية التي تطايرت على خط الزلازل فتخاطف الملاحون أخشاب السفينة وأسسوا عليها دويلاتهم فتابعوا الحرب وبها استمروا.

انتهت المعركة مع الجنرال لتبدأ المعركة مع الشعارات التي طرحها وهي تتمحور على اثنين: السيادة والدولة القوية، أي استرجاع الأرض ووضعها في عهدة المؤسسات الشرعية اللبنانية وتغليب الدولة على الدويلات. والشعاران هما في النهاية برنامج حكومة الوحدة الوطنية. ألم يهدف الاتفاق على الإصلاح إلى تسهيل قيام الدولة وتأكيد السيادة بمبدأ الانسحابات وصولاً إلى فتح الطريق

لعودة لبنان بأسره إلى عهدة الشرعية؟

إنها معركة ما بعد الجنرال وهي المعركة الأصعب وكان لا بد من الانتصار على الأول لخوض الثانية. وهي معركة تأتي في ظروف بالغة الحرج أعادت فتح ملف المخاوف والخرائط. وبعدما دفع لبنان ضريبة الإقامة على خط الزلازل العربي ـ الإسرائيلي يجد نفسه الآن أمام خط الزلازل الذي رسمه الاجتياح العراقي للكويت، ولعل مسارعة اللبنانيين إلى الالتجاء إلى الشرعية هي السبيل الوحيد للاحتماء من الحمم المتطايرة هنا وهناك.

من الأحاديث والخطب التي ألقاها العماد ميشال عون خلال توليه قيادة الجيش من ١٩٨٤ إلى ١٩٨٨ يمكن استخلاص أربع ركائز لتفكيره انطلق منها لاحقاً إلى حروبه وهي:

١ ـ في الحفاظ على الوطن: «يجب أن يبقى الوطن لتبقى الرئاسات.. إن تحرير الإرادة الوطنية يتم عبر تحرير مجلس النواب من الضغوط الحزبية والامنية. خارجية كانت أم داخلية.. ويجب أن تكون الإرادة الوطنية حرة بمعنى أن تكون متحررة من الضغوط الإقليمية والدولية.. ولكي تبقى الجمهورية، يجب قبل أي شيء تعزيز الركائز الصمودية في الوطن وهي الأمن والعملة الوطنية.. لا شيء يجمع الشعب المفكك والأرض المقسمة سوى القبضة الأمنية الشرعية العادلة.. إن استمرار سيطرة السلاح غير الشرعي هو الذي يعطي العالم المبرر والذريعة للتنصل من مساعدتنا وإدارة ظهره لنا وإلقاء التبعة علينا.. إن بندقية الجيش هي وحدها قادرة اليوم على الحؤول دون ذهاب الوطن جوائز ترضية وحلول تسوية لمشاكل الآخرين على حساب مصلحتنا ووجودنا.. ولن يكون تقسيم في

لبنان بل تقاسم، الأرض ستبقى ونحن يمكن أن نبقى، لكن أفراداً يفتشون عن هوية..».

٢ ـ في التحرير: «على المطالبين بالتحرير أن يبدأوا بتحرير الوطن من ثقل بنادقهم وفوضاها أولاً، والانخراط في الجيش ثانياً.. أن الجيش هو القوة الوحيدة المؤهلة لتحرير الوطن ولا امن خارج السلطتين الشرعية والقضائية.. إن استعادة الوطن تبدأ باستعادة طاقاته، وتحرير أرضه يبدأ بتحرير شبابه، وتوحيد شعبه يبدأ بتوحيد بنادقه.. إن هاجس الجيش هو إنقاذ الوطن من لعبة التجاذب والتقاسم وإنقاذ المواطن من التشرذم والاذلال... يجب إزالة المتاريس ومناطق النفوذ وخطوط التماس والأحزمة الأمنية، ويجب القضاء على البطالة والانحلال الخلقي التي هي من رواسب الحرب القذرة... نستنتج من ذلك أن الجيش هو الوحيد القادر على الوقوف في الساحة اللبنانية وطرح السؤال عالياً: حربكم لماذا، ولمن؟ وإلى اين؟ أن الحل يبدأ من هنا، من اليرزة».

٣ ـ في دور الجيش: «إن واجب الجيش تحرير الأرض، كامل الأرض، وفرض السيادة الوطنية.. لذا لا يمكن زج الجيش في الداخل وسط خلافات طائفية أو حزبية حادة.. لا خوف على هذا الجيش لأن النصر حليفه، فهو في جانب الحق، ولا خوف على لبنان لأن جيشه دائم الجهوز للذود عن كل أرضه وكل شعبه.. أن الجيش جاهز لحماية كل وفاق وطني يصل إليه اللبنانيون عبر قياداتهم، ولا تنقص هذا الجيش المناقبية الراقية أو الوعي الوطني اللازم أو الاستعداد للتضحية من أجل وحدة الوطن واستقراره وسيادته..».

٤ ـ في الجيش والحكومة: «ينفذ الجيش القرارات المتخذة على الصعيد الوطني والتي تنسجم مع مصلحة المواطن والوطن، وهو في هذا الحالة ليس بحاجة إلى ضوء أخضر من الخارج أو من أحد... والجيش من هذا الشعب والبرهان الكبير هو شمولية شهادته... الجيش لم يدمر ولم يقتل على الهوية ولم يخطف، بل على نقيض ذلك حاول بكل جهده أن ينقذ ما يمكن إنقاذه... كل التنظيمات أفلست عسكرياً ووطنياً، وانقسمت مذهبياً وقاتل بعضها بعضاً، مما يدل على إخفاقها...».

كان السياسيون يتشاكسون ويقاطعون وكان الجنرال يعد عدته. صمت طويلاً وهو قائد «الصامت الأكبر» وحين نطق تحدثت المدافع وتناسلت الحروب. قصة الجنرال تشبه قصة جنرالات كثيرين لكنها قبل كل شيء قصته وقصة الجمهورية التي سقطت تحت آلاف الضربات وإلى حد الاستعانة به فقادها إلى حروبه وقادها إلى نهايتها.

ضابط صغير يراقب الانهيارات

قبل الأخطاء الكبيرة والخطيرة التي ارتكبها أخيراً كانت لهذا العسكري سيرة لامعة. هكذا يقول أحد كبار العسكريين اللبنانيين وأحد الخصوم الألداء للجنرال. ويضيف: لقد سقط ميشال عون ضحية حلمه بالرئاسة وضحية هؤلاء الذين راحوا يصفقون له لفرط يأسهم من السياسيين ولشدة حنينهم إلى دولة قوية. ويقول: لقد أحب ميشال عون الجيش إلى درجة قتل الجيش وأحب لبنان إلى حدود نحر لبنان. ويضيف: لم أحببه يوماً ولكنني كنت أحترمه. كان يكفي أن يدعو رينيه معوض إلى قصر بعبدا ليدخل في ذاكرة

الجيش وذاكرة اللبنانيين. لعبة الجماهير قاتلة وعون قُتل حين قُتل معوض لكنه أصر على إرجاء مراسم الدفن.

من أين جاء الجنرال الذي لا يشبه أحداً في التاريخ المستقل لهذه الجمهورية الصغيرة؟

حزيران (يونيو) ١٩٦٧ على تلة قرب الحدود اللبنانية ـ الإسرائيلية ضابط صغير ومنظار وجهاز ترانزيستور. بدأت الحرب وراح الضابط يراقب. بدأ العدوان الإسرائيلي ثم التحمت الجيوش ولم تتأخر النتائج. نجحت الضمانات الدولية في الحيلولة دون بتر أجزاء من لبنان ولكن البتر سيأتي لاحقاً. والواقع هو أن قصة الجنرال تبدأ من هناك. شعر الضابط الصغير بمزيج من الخوف والقلق فالدولة الصغيرة تتكئ على جيش صغير. وهي تتكئ في الواقع على الضمانات التي لم يطمئنّ هذا الضابط إليها يوماً. شعر أن زلزالاً ضرب المنطقة وتمنى لو كان من «جيش قوي لوطن قوي» وهو الشعار الذي سيطلقه بعد ربع قرن تقريباً حين سيدخل مكتب قائد الجيش ويصبح اسمه العماد ميشال عون.

في العام التالي «سيغلق الضابط مكتبه بمرارة». أغارت الطائرات الإسرائيلية على مطار بيروت. وشرب رفول إيتان زجاجة كوكاكولا على أرض المطار نفسه. لم يقاوم الجيش وارتفعت أصوات تلومه. وكان الضابط الصغير يفضل «معركة خاسرة ولو محدودة ليسجل الوطن الصغير رفضه لاستباحة أرضه». وفي العام الذي تلاه يشتبك الجيش اللبناني مع المنظمات الفلسطينية فتندلع أزمة سياسية حادة. يرفض لبنان أن يمنح المقاومة حقوقاً لا تحصل عليها في الأراضي العربية الأخرى ويرفع الصوت فلا يجد آذاناً

صاغية. وفي النهاية يوقع لبنان «اتفاق القاهرة» الذي ينظم الوجود الفلسطيني المسلح في لبنان لكنه يخرج في الواقع المخيمات الفلسطينية من عهدة الدولة اللبنانية ويعطي المقاومة «أرضاً محررة» قرب الحدود لتنطلق منها في عمليات ضد إسرائيل. وأكثر من ذلك فإن الرجل الذي وقّع الاتفاق عن الجانب اللبناني كان قائد الجيش آنذاك العماد إميل بستاني. وثمة من يقول إنه فعل لأسباب عدة بينها أحلامه الرئاسية.

دولة لم تحارب

في تلك الأيام سقطت الدولة. لم تذهب إلى الحرب على الحدود فجاءتها الحرب إلى أحشائها. فضلت سلامة الأرض على شهادة الوطنية ونامت على حرير الضمانات. وتبين لاحقاً أن دول خط الزلازل تستطيع التعايش مع احتلال جزء من أرضها ولكنها لا تستطيع العيش بدون شهادة الوطنية. كان من شأن تلك الشهادة أن تحصن الدولة وعاصمة الدولة وأن تمكنها من مخاطبة المقاومة الفلسطينية من موقع آخر. لم تذهب الدولة إلى الحرب في ١٩٦٧ لكنها ذهبت إليها متأخرة بعد عامين، فعلى الصعيد العملي شكل «اتفاق القاهرة» خروجاً على اتفاق الهدنة وفتح الباب لتحويل لبنان الوطن إلى لبنان الساحة. هكذا صارت الدولة متهمة ومع الدولة جيشها ولم يكن باستطاعة دولة تتكئ على توازن داخلي قابل للاختراق وتوزيع للسلطة بات يتعارض مع التغييرات الديموغرافية أن تقاوم الأعاصير المقبلة.

وبعد أحداث أيلول/سبتمبر ١٩٧٠ في الأردن تدفق المقاتلون الفلسطينيون إلى لبنان الذي بدا وكأنه اختير مسرحاً وحيداً

للحروب الحقيقية والحروب البديلة. وفي العام ١٩٧٣ سيصطدم الجيش اللبناني مجدداً بالمقاومة الفلسطينية فتندلع أزمة حادة داخل الحكم تمنع الجيش على الأقل من إثبات وجوده. وضاعف الرئيس سليمان فرنجية الآلام بتشكيل حكومة عسكريين برئاسة نور الدين الرفاعي وجّه سقوطها السريع ضربة موجعة للجيش الذي بات دوره موضع خلاف داخلي حادّ أدى إلى تآكل ما بقي من هيبته.

وإذا أضفنا إلى ذلك أن عهد فرنجية (١٩٧٠ ـ ١٩٧٦) بدأ بتفكيك «سلطة المكتب الثاني» أي مخابرات الجيش رداً على تجاوزاتها في العهد السابق ندرك مدى ما حل بالمؤسسة العسكرية التي صارت موضع اتهام كثيرين ولأسباب كثيرة.

وجاء اغتيال نائب صيدا معروف سعد في ١٩٧٤ خلال مظاهرة عمالية اصطدم المشاركون فيها مع الجيش ليضع المؤسسة العسكرية أمام محاكمة جديدة، فتصاعد الانقسام حول الجيش وبدأ يتسرب إلى الجيش مرة بفعل التظاهرات التي نظمت ضده وأخرى بفعل المظاهرات التي نظمت تأييداً له. تظاهرات اللون الواحد أساءت إلى صورة المؤسسة المكلفة بصهر جميع اللبنانيين وهددت ما تبقى من رصيدها.

حروب أكبر منه

في تلك الفترة كان لبنان قد انزلق إلى حروب أكبر منه وأكبر من قدرته على احتمالها أو التعايش معها. المقاومة الفلسطينية تنطلق من جنوب لبنان في عمليات لإثبات الوجود، فتردّ إسرائيل بقصف القرى وتهجير سكانها والدولة اللبنانية لا تملك القدرة على منع الهجمات ولا على جبه الردود عليها. المقاومة تنطلق من

الجنوب وتحصن مواقعها في بيروت. عقدة الخوف من التصفية دفعتها إلى الخوض في اللعبة الداخلية فأبرمت تحالفات مع بعض اللبنانيين وتوهمت أن ضمانتها الفعلية تكمن في شل الحكم اللبناني وخصوصاً مؤسساته الأمنية. وتصاعدت حرب القرار الفلسطيني المستقل. وتصاعدت الحرب على هذا القرار وراحت الجمهورية تستجدي أمنها في اتفاقات لم تكن أكثر من مجرد طرف فيها على أرضها وبدأت مأساة استجداء الأمن تمهيداً لاستعارته.

الجيش المتهم

هكذا سقطت الدولة وهكذا سقطت أدواتها الأمنية. لم يعد الجيش مقبولاً هنا ولم يعد ضمانة هناك. وراحت كل منطقة تحاول تقريب الجيش من لونها وراح يحاول عبثاً المحافظة على لونه. وبدأ القلق في صفوف الجيش. استياء في صفوف الضباط الكبار ومرارة ونقمة في صفوف صغار الضباط والعسكريين. خرجت بعض المناطق على سلطة الدولة وراحت مناطق أخرى تستعد. وبدأ عهد الحدود السائبة التي تخترقها خطوط عسكرية لا قدرة للدولة على مراقبتها ولا قدرة لها على إغلاقها.

تحالفت المقاومة الفلسطينية مع الأحزاب اليسارية وامتلكت جاذبية كاملة في بعض المناطق التي بحكم تركيبتها راحت تشعر أن الجيش يعيش خارج موقعه الطبيعي أو انحرف عن مساره. وبدأت تتردد داخل الجيش ولو في صورة محددة أصداء لمشاعر المناطق والطوائف. لم يكن في استطاعة منطق الدولة أن يتعايش إلى ما لا نهاية مع منطق الثورة. ولم تكن الدولة متماسكة.

وتسللت الرياح من الخلل القائم في بنيتها. وغرقت الثورة في حروبها وفي الحروب عليها. وبدت بيروت وكأنها مسرح لكل التجاذبات العربية ـ الإسرائيلية والعربية ـ العربية وللتجاذبات الدولية أيضاً. ترافق كل ذلك مع تحركات مطلبية داخلية ومظاهرات نظمتها الأحزاب اليسارية والنقابات العمالية والطلابية. وبدا وكأن لبنان يتجه إلى التغيير المرفوض من أكثر من طرف إقليمي ودولي أو إلى الحرب التي ستطحن لاحقاً أطرافاً كثيرين.

كان الجيش اللبناني يشعر بالخوف. وفي الثكن كان الحديث يدور ولو همساً حول الأخطار المتصاعدة. وظهر بين صغار الضباط اتجاه متشدد لا يقبل «بدولة تستجدي الأمن» وبدأت النقمة على «إهانة الجيش وتحميله أخطاء السياسيين». وكان عون من هذا التيار. بدأ حديث السيادة والخوف عليها وكثر اللغط في أوساط الجيش حول مسألة «الدولة ضمن الدولة». وكان هذا التيار يتساءل لماذا يسمح للمقاومة الفلسطينية في لبنان بما يمنع عليها في دول عربية أخرى. وتراجعت الثقة بالقيادة بعد أن دفعت أكثر من مرة ثمن التجاذب بين السياسيين، وللمرة الأولى بدأ الجيش اللبناني يغلي من الداخل. وكان عون ومعه عدد غير قليل من الضباط يرون أن على الجيش أن يستعيد حضوره لكن عبر قرارات تصدر عن السلطة الشرعية. لم تظهر محاولات تمرد أو انشقاقات وظل التململ محصوراً داخل الحلقات الضيقة في الثكن. لم يكن ميشال عون من دعاة تصفية المقاومة كما يقول لكنه كان «من دعاة السيادة الكاملة»، وهو رأى دائماً أن «المقاومة الحقيقية تكون في الداخل وليس من وراء الحدود». وفي وقت لاحق وحين تولى منصب قائد الجيش سيكرر عون الكلام

نفسه ناقماً على قيام «القوات اللبنانية» بتخريج ضباط وتوزيع سيوف قائلاً: «المقاومة تكون داخل الأراضي المحتلة لا بتوزيع السيوف خارجها».

تآكل هيبة الجيش وتآكل الثقة به مهّدا الأرض لظهور الميليشيات وبحجة الدفاع عن الطائفة والمنطقة. لن يغفر عون للميليشيات «ما فعلته» وهو سيخاطبها لاحقاً بالرصاص والقذائف.

منذ تلك الأيام حمل عون نقمة صريحة على السياسيين «الذين أسسوا مزرعة بدل تأسيس دولة». وهو شهد تراجع الجيش وانكماشه ومراراته. حين اغتيل معروف سعد كان عون ضابطاً في صيدا أي في الجنوب الذي انطلقت منه الشرارة الأولى التي مهدت للرصاصة الأولى في الحرب الطويلة. وظل عون في ثكنة صيدا إلى ما بعد اندلاع الحرب في ١٣ نيسان/أبريل ١٩٧٥ وحتى اجتياح الدامور في ١٩٧٦ ويومها لم يستطع سلوك الطريق الساحلي وصولاً إلى مقر وزارة الدفاع في اليرزة فتولت طائرة هليكوبتر عسكرية نقله إلى هناك.

رأى ميشال عون الجيش يتفكك وسط «الجدل العقيم بين السياسيين» ورأى الميليشيات «تتقاسم أسلحة الجيش وتنتزع منه الأرض ودوره» ورأى «رقعة انتشار الجيش اللبناني تضيق لتتسع رقعة انتشار الجيوش الأخرى». منذ تلك الأيام حمل عون حقداً مزدوجاً: حقد على السياسيين الذين نظر إليهم دائماً بأنهم السبب في الانهيار لأنهم لم يبنوا دولة، وحقد على الميليشيات لأنه يتهمها بالارتهان للأطراف التي تزودها بالمال والسلاح.

لم أفكر بانقلاب

في قصر بعبدا سألت العماد عون: هل كنت تخطط لانقلاب أو تدعو لانقلاب؟ فأجاب: لا، فالجيش اللبناني معروف بتمسكه بالشرعية والدستور كان الأهم من كل شيء الحفاظ على وحدة الجيش. ويضيف: أعرف الجيش بضباطه وثكنه وأعرف كل المناطق اللبنانية من الجنوب إلى البقاع إلى الشمال وأعرف مشاعر العسكريين. لم ينقسم الجيش. قسّم قسراً تحت وطأة الخلافات السياسية وغياب القرار. كان الجيش هو المستهدف الأول في الحرب لأن المؤامرة لا يمكن أن تمر إلا إذا تفتت.

كان ميشال عون يشعر أن السياسيين تهاونوا في مصير الجيش وفرطوا بوحدة البلاد وسيادتها، وأن الميليشيات لا تملك قراراً مستقلاً لتكون نواة الغد، وبدأ يراهن على الجيش وحده «لإعادة توحيد البلاد واسترداد السيادة». ويوم تسلم قيادة الجيش في ١٩٨٤ قال في أول كلمة وجهها إلى العسكريين: «إما أن تكونوا جنود طوائف ومرتزقة للعبة دولية أو تكونوا جنود وطن وهوية».

وهو حذرهم من «ازدواجية الانتماء العسكري والتحول لقوة تتأقلم مع سلبيات البيئة».

ومنذ تلك الأيام وحتى الأيام الأخيرة كان عون يرى أن «خطوط التماس مصطنعة ومفروضة». وكان يعتقد أن اللبنانيين لن يقبلوا بالتقسيم وهو الذي أطلق شعاراً وزع في ملصقات فيها صورة لخريطة لبنان وعليها عبارة: «أكبر من أن يبلع.. أصغر من أن يقسم».

تأييد الصيغة

تسأل عون عن التقسيم فيردك إلى الشعار الذي أطلقه ولا ينسى أن يخبرك أنه ولد في حارة حريك (١٩٣٥) أي في الضاحية الجنوبية في منطقة تعايش.

لهذا أكد دائماً «أن اللبنانيين لا يريدون الطلاق لكن هناك من يدفعهم إليه» مشدداً على أنهم يستطيعون «العيش والتفاعل في دولة عادلة وسيدة وحديثة». وبهذا المعنى ظل عون على تأييده للصيغة متهماً الميليشيات بأنها «أدوات التقسيم والتجزئة» وقائلاً: «لست خائفاً من التقسيم إنما هناك خطر التقاسم».

وتسأل عون: هل كنت تعتقد أنك ستتسلم السلطة ذات يوم؟ فيجيب: لا لكنني كنت أشعر أنني قد أقوم بدور ما داخل المؤسسة العسكرية التي أعطيناها شبابنا وأعمارنا.

بعد تولّيه قيادة الجيش سيرسل العماد عون أكثر من إشارة إلى رهانه على أن يكون الجيش هو البديل للجميع. فبعد العودة إلى المطالبة بإعادة تأهيل «الجيش» كتب في مجلة الجيش في ١٩٨٧: «إن الهدف من هذه العودة هو شعور البعض أن الجيش سيكون الحل الذي لا بد منه نتيجة إجماع المواطنين، كل المواطنين على المطالبة به كحل منقذ من سلسلة التجارب والاختبارات والبدائل الأمنية التي دفعوا ثمن فشلها غالياً من أرواحهم وممتلكاتهم ومستقبل أولادهم ووطنهم. حيال هذا الإجماع وجد المتضررون أنفسهم في موقف حرج فحاولوا وضع الجيش في موضع الشك والتشكيك وفي الموقع الدفاعي لإجهاض الحل الذي يطمع إليه الشعب، وبالتالي إرغام المواطن على الإذعان والقبول بأمر واقع

جديد يفرضونه عليه. فعلى الذين يصرّون على هذه النغمة أن يقلعوا عن محاولة تعميم فشلهم وفشل تجاربهم وبدائلهم على الجيش. عليهم إذا كانوا حقاً يريدون المصلحة الوطنية والقومية العليا أن يكفّوا عن محاولة صبغ الجيش بألوانهم المتعددة، المصطنعة والمستوردة، وهو يتكفل بإعطائهم الأمن الحقيقي الذي يحتاج له وينشده الشعب اللبناني بمختلف فئاته ومناطقه وانتماءاته، فليس أبرّ من ابن البيت بأمن بيته وسلامة أهله وعياله».

وأضاف: «نحن لم نتسكع على أرصفة العواصم الخارجية ولم نمد أيدينا إلى شبابيك المصارف المالية والسياسية.. لذلك يحق لنا التساؤل، لمن يجب أن يكون التأهيل، تقنياً كان أم وطنياً أم قومياً؟ يجب أن يقتنع الجميع، وقد آن لهم ذلك بعدما وصل الوطن إلى المفترق الخطر، أن الجيش اللبناني الذي هو من أفضل جيوش المنطقة، هو وحده الأمن الآمن للأرض والشعب، وعليهم ألّا يعمموا فشلهم عليه فليكفوا عن المتاجرة بهذا الجيش تأكيداً لحرصهم على المصلحة والكرامة الوطنية، وهو مؤهل لإعطائهم الأمن الحقيقي الذي يطمع إليه الشعب اللبناني بعد عذاباته ومعاناته واختباراته الطويلة، المريرة، والمكلفة».

من سوق الغرب إلى اليرزة

عندما تخرج ميشال عون في المدرسة الحربية في ١٩٥٨ وتسلم السيف كان اسم رئيس الجمهورية اللواء فؤاد شهاب. وقد يكون ذلك الضابط الصغير الذي لا تعوزه الأحلام قد شعر منذ تلك اللحظة بأنّ قائد الجيش يمكن أن يصبح رئيساً للجمهورية. وربما زادته محاولة فؤاد شهاب تحديث الدولة اللبنانية ببناء المؤسسات

قناعة بأن ضابطاً متجرداً هو الأصلح للحكم في بلد يصعب اتهام الكثير من سياسيية بالتجرد. في ظل رئيس ـ جنرال دخل ميشال عون إلى الثكنة ومن دون أن يتوقف طويلاً عند مسألتين وهما أن فؤاد شهاب انتخب رئيساً للجمهورية لأنه كان قائد الجيش الذي لم يحارب في أحداث ١٩٥٨ وأن شهاب نفسه كلّف من قبل برئاسة حكومة انتقالية فسارع بعد أيام إلى تسليم السلطة لرئيس الجمهورية المنتخب. جاء فؤاد شهاب في تسوية أميركية ـ مصرية تشكل نوعاً من اللقاء في منتصف الطريق هندسها روبرت مورفي وهي أطلقت يد الرئيس اللبناني في الشؤون الداخلية ووضعت قدراً من الضوابط على سياسة لبنان الخارجية فكانت الشهابية. بعد ٣٠ عاماً سيراهن ميشال عون ولو من دون البوح على دخول قصر الرئاسة بلقاء أميركي ـ سوري يهندسه في منتصف الطريق ريتشارد مورفي لكن الرياح هبت في اتجاه آخر وكانت المأساة.

خصوم ميشال عون من العسكرين يستغربون ما فعله الرجل في العامين الأخيرين. يحملون عليه ولكنهم يحدثونك عن ميشال عون الآخر ذلك الضابط الصارم الملتزم بقوانين الجيش والذي بدا طويلاً الابن الوفي والنموذجي لهذه المدرسة العسكرية.

في بداية حياته العسكرية تابع عون دورة في المدرسة التطبيقية للمدفعية في شالون ـ سور ـ مارون في فرنسا وتابع بعدها دورة متقدمة في سلاح المدفعية في معهد فورت سيل في الولايات المتحدة. وبين الدورتين شارك في تأسيس ثكنة عسكرية في بعلبك في البقاع عام ١٩٦٤ وكان لدى اندلاع حرب يونيو/حزيران على الحدود اللبنانية ـ الإسرائيلية.

عندما صار اسمه في لبنان «الضابط المتمرد» بدا وكأن الضابط قد تغير كثيراً. وعندما سألناه عن التمرد ابتعد عن الدستور ليغرق في العموميات: إنهم يعيّرونني بأفضل ما فيّ، إن التمرد على الظلم واجب. طاعة الظلم هي ذل وانكسار. أنا لا أبحث عن السلامة وأنا عسكري. كان يمكن أن أقتل من قبل ويمكن أن أقتل اليوم أو غداً. الموقف هو الموقف وحجم الثمن لا يغير قراري.

في ١٩٦٨ ينال ميشال عون رتبة نقيب ويتزوج من ناديا الشامي من مدينة زحلة البقاعية وينجب ثلاث بنات ميراي وكلودين وشانتال.

الضابط المتقشف

ولم يكن أمام هذا الضابط الصغير غير أن يرتقي بمقدرته وجهوده. فهو لم يرث عن والده المزارع غير حب الأرض. ويرى أن طفولته سعيدة وإن غابت عنها الألعاب. وفي مدرسة الفرير في بيروت حيث تابع دروسه، كان هذا الطالب يظهر ثقة في النفس مع ميل إلى الانطواء. وفي الثكنة سيبدأ ميشال عون ببناء العلاقة مع العسكريين. هذا الضابط القصير القامة مع ميل إلى البدانة سيصل دائماً إلى مكتبه قبل الموعد. استيقاظ مبكر وبعض الرياضة ثم الثكنة. افتقاره إلى الإطلالة العسكرية الجذابة لم يمنعه من اجتذاب مرؤوسيه، ففي الخدمة صارم لا يتهاون وفي التعامل لا ينسى «الجوانب الإنسانية». لم يظهر في حياته العسكرية أي ميل إلى الإثراء. ولم يرد اسمه مرة في لوائح المستفيدين من شراء السلاح. لا يميز بين العسكريين وينحاز ضمناً إلى القبضايات الذين لا يتلكأون أو يترددون. ميله إلى التقشف رافقه حتى حين أقام في

القصر. لا مظاهر بذخ ولا رغبة في الانتماء إلى نادي الأثرياء. لميشال عون حلم آخر اسمه السلطة وهي المفتاح الأهم لقراءة صعوده وأفول نجمه.

في ١٩٧٨ تابع ميشال عون دورة تدريبية في مدرسة الحرب العليا في باريس وهي من أبرز معاهد العلوم العسكرية. وعند عودته في عام ١٩٨٠ رقي إلى رتبة عقيد. وعن تلك الدورة يقول إنها جمعته بعسكريين من جنسيات مختلفة ربطته بهم علاقات صداقة وتولى بعضهم لاحقاً مواقع قيادية. العسكريون المؤيدون له يقولون إنه ضابط لامع والعسكريون المعارضون له يقولون إن نتائجه لا تصنفه في خانة الكبار وإنه شجاع وعنيد أكثر مما هو لامع.

الضباط الذين خاضوا المعارك إلى جانبه يقولون إنه قائد. ويضيفون أنه يحاول تفادي المعركة ولكن حين تبدأ يخوضها بلحمه وعظمه.

أكره الحرب

وعون يقول أنا عسكري ولأنني كذلك أكره الحرب. أوليست مأساة أن تحارب داخل حدود الوطن بدل أن تحارب على حدوده؟ ويضيف: أنا أعرف ما هي الحرب.. دماء وخراب وشبان يذهبون، لكن لا بد أحياناً منها لأن الثمن الذي يترتب على عدم خوضها هو أكبر بكثير من ثمن معاركها. ويقول الجنرال: لقد كنت دائماً في موقع الدفاع. لم أكن البادئ بإطلاق النار ولم افرح يوماً بقذيفة تطلق وتسقط على أرض لبنان حتى ولو كانت رداً على قذيفة. ويضيف غاضباً: يحاولون تصويري وكأنني المسؤول عن كل شيء، وكأن العماد عون هو المسؤول عن الحرب في لبنان! هل ينسون أن هذه الحرب بدأت قبل ١٥ عاماً؟ ويقولون إنني

عقبة! صحيح أنا عقبة أمام سلام سينتج قهراً وحروباً وستقول الأيام كلمتها في ما أقوله.

يرن جرس الهاتف في مكتب الجنرال الجالس في مكتب رئيس الجمهورية. يحزن وينقبض وجهه: تلوح دمعة في عينيه. وبرغم أن اللياقة تقضي بعدم الاستفسار تسأله فيجيب: ضابط وعسكري مرا على مكان ملغوم، قتل الثاني وبترت يد الأول وساقه. تسأله متى تنتهي قصة الألغام والقتل والبتر فيستعيد لهجة الجنرال ليقول: هذا ما أحاول أن أفعله. هذا ما سأفعله.

تحالفات وأدوات

عندما اندلعت الحرب في لبنان في منتصف السبعينيات كانت الأرض قد مهدت تماماً لإضرام الحريق الكبير. هكذا انقسمت السلطة التنفيذية وقبل أن تعلن انقسامها صراحة، ومعها انقسم الجيش. وقع اللبنانيون مداورة في أوهام الحسم والنصر في بلاد لا تتسع للانتصارات ولا للمنتصرين. وقع اللبنانيون في الفخ وراحوا يبرمون تحالفات سرعان ما كانوا يتحولون إلى مجرد أدوات لها. وفيها افتقرت المقاومة الفلسطينية إلى الواقعية وساهمت في إضرام النار على المسرح الذي مكّنها من إثبات وجودها وتحقيق نجاحات سياسية ودبلوماسية. وخصوم المقاومة ارتكبوا بدورهم خطيئة التورط في حرب ضد قضية. وامتزجت الأسباب الداخلية للصراع بأسبابه الخارجية وكان هناك من يراقب ويصب الزيت على النار ويمنع أي انتصار إلى أن تحين ساعته ويأتي دوره.

الجمهورية التي لم تحارب على حدودها في ١٩٦٧ رأت خطوط التماس تنبت في عاصمتها في منتصف السبعينيات. جاءت خطوط

التماس فانقسم اللبنانيون حولها وتقاتلوا عبر متاريسها ووجدوا دائماً من يعطيهم من البنادق والقذائق ما يكفي لمنع كل فريق من الخسارة الكاملة ومنع أي فريق من الانتصار الكامل ومنع اللبنانيين من التقاط أي فرصة لاستعادة سلامهم. هكذا وجد الجيش نفسه داخل أتون الحرب. سقط منطق الدولة وساد منطق المناطق. فضل عسكريون الحياد وفضل آخرون الدفاع عن حدود مناطقهم. أفرغت ثكن وهوجمت ثكن والتحقت ثكن. وفي حرب تختلط فيها الأسباب الداخلية بالخارجية وبنادق اللبنانيين ببنادق غيرهم كان من الصعب على الجيش أن يذهب موحداً إلى الحرب وكان من المستحيل عليه أن لا يكون طرفاً في الحرب بل أطرافاً في حروبها.

انقلاب عسكري

العماد عون ليس المتمرد الوحيد في تاريخ الجيش اللبناني، لكنه أول متمرد على مستوى قائد الجيش. فأسلافه درجوا على التقيد بأوامر السلطة السياسية بل وعلى الانصياع حتى حين كان يبدو لهم أنهم يدفعون ثمن أخطاء السياسيين.

ليلة رأس السنة ١٩٦١ ـ ١٩٦٢ تحركت دبابات من الجيش اللبناني بقيادة ضابطين صغيرين هما فؤاد عوض وشوقي خيرالله في محاولة انقلاب نظمها الحزب السوري القومي الاجتماعي. وسقطت المحاولة ليس فقط بسبب الأخطاء التي ارتكبها الانقلابيون في التنفيذ بل أيضاً لأن ما يصلح خارج لبنان لا يصلح في لبنان. عدا أن سورية الكبرى لا يمكن أن تبدأ من بيروت إذا كان لها أن تبدأ. يومها أحبط الجيش الانقلاب وبدا كحارس

للشرعية الدستورية ولتلك الديموقراطية التي كانت تبدو كأنها شواذ في ذلك الجزء من العالم.

حاول فؤاد شهاب بناء دولة المؤسسات وحاول جهاز المخابرات في الجيش «المكتب الثاني» الإمساك باللعبة السياسية الداخلية وتابع نهجه في عهد الرئيس شارك حلو (١٩٦٤ ـ ١٩٧٠). ضاق اللبنانيون بالافتئات على الحريات. وهي تجاوزات أقل بكثير وكثير مما ارتكبته كل الأطراف لاحقاً، فجاء سليمان فرنجية ليفكك سطوة مخابرات الجيش وفي وقت كان لبنان ينزلق فيه إلى التحول ساحة.

في بداية «حرب السنتين» ١٩٧٥ ـ ١٩٧٦ تجدد الجدل حول إنزال الجيش لضبط الأمن وتصاعد لاحقاً. وفي تلك الحرب سجل ظهور عدد غير قليل من المتمردين داخل الجيش خصوصاً في حرب الشكن في ١٩٧٦. في ٢١ يناير/ كانون الثاني من ذلك العام تمرد الملازم أول أحمد الخطيب مع بعض العسكريين في منطقة دير زنون في البقاع. ولم تكن حركة الضابط الصغير صغيرة فـ«جيش لبنان العربي» الذي أعلنه كان يحظى بدعم أطراف رئيسية في المقاومة الفلسطينية المتحالفة مع الأحزاب اليسارية. لم تستطع قيادة الجيش معالجة التمرد الذي بدا واضحاً أنه يتخطى حدود غضب ضابط على سياسة قيادته ومواقفها. وفتح ذلك التطور الباب لسلسلة انتفاضات وأعمال تمرد فظهرت «الطلائع» في البقاع والتي بدت أقرب إلى سورية، كما ظهر في الشرقية «جيش لبنان» بقيادة الرائد فؤاد مالك ثم حركة «لواء عكار» وحركة العقيد أنطوان بركات ثم بيان سلاح الجو. في تلك المرحلة يقول عون «ضربت المؤامرة في الصميم وحاولت تغييب

الجيش ليسهل تمزيق لبنان وتمرير الحلول على حسابه». ويرى عون أن «الغالبية الساحقة من العسكريين لم تتنكر لقسمها» وأن أخطاء السياسيين والإرادات الخارجية هي التي فعلت بالجيش ما فعلته. ويضيف: لم أيأس من الجيش أبداً وكنت أعتقد أنه قادر على استعادة وحدته، لا بل إنني أشعر أنه كان لا يزال موحداً وإن منعت المعابر الاتصال. ويقول: العسكريون الذين تربوا في مدرسة الجيش لا يمكن أن يتنازلوا عن أمرين أساسيين: حق لبنان في السيادة الكاملة على أرضه وحق البندقية الشرعية في أن تكون البندقية الوحيدة فيه.

كبار اللاعبين

لم تكن سورية في وارد السماح بقيام دولة في لبنان تمسك بقرارها أحزاب متحالفة مع المقاومة الفلسطينية وتحديداً حركة «فتح». ولم تكن الولايات المتحدة في وارد السماح بذلك لأنه يعني اختراقاً سوفياتياً جديداً في المنطقة. أما إسرائيل فقد نفذت من خلال نيران الحرب لتذكي الخلافات وتقدم الوعود والأسلحة رغبة في ضرب المقاومة الفلسطينية وفي ضرب الصيغة اللبنانية أيضاً. دخلت قوات الردع العربية إلى لبنان في ١٩٧٦ وبمظلة عربية ومنعت القوات المشتركة اللبنانية ـ الفلسطينية من الانتصار. وتحولت قوات الردع العربية إلى قوات سورية فقط.

بدا للوهلة الأولى أن لدى الرئيس الياس سركيس الذي دعمت دمشق وصوله إلى الرئاسة فرصة لإعادة بناء الدولة ومؤسساتها، لكن الحسابات لم تكن دقيقة أو كانت أكثر تعقيداً، والتحالفات التي ظهرت عشية دخول القوات السورية إلى لبنان بدلتها زيارة

الرئيس أنور السادات للقدس، فمن كانت لهم مصلحة في السلام صارت لهم مصلحة في زعزعة الاستقرار والإمساك بالأوراق أو على الأقل لم تعد لهم مصلحة إلا في سلامهم.

ثلاث محطات

ثلاثة أحداث لا بد من التوقف عندها في العام ١٩٧٨. ففي ٧ شباط/فبراير ١٩٧٨ وقع اشتباك قرب ثكنة الفياضية شرق بيروت بين الجيشين اللبنانين والسوري وتحول إلى مواجهة عنيفة في المنطقة، وطالبت دمشق بتسليمها الضباط اللبنانيين الذين عدّتهم مسؤولين عن الحادث. وفي تلك المواجهة الصغيرة ادخلت إلى صفوف صغار الضباط وتحديداً إلى صفوف قسم منهم فكرة مواجهة محتملة بين الجيشين. وهي فكرة ستتحول لاحقاً إلى حديث هامس عن «حرب تحرير» يقول بعض الضباط إن عون سرقه لاحقاً ليخوض الحرب على أساسه. ويضيف هؤلاء أن الفكرة كانت تشمل حرب تحرير ضد كل الجيوش غير اللبنانية المرابطة في لبنان وفي صورة عمليات كوماندوس يرعاها الجيش سراً بانتظار اكتمال ظروف المواجهة السياسية قبل العسكرية. وبعد شهر تقريباً اجتاحت إسرائيل الجنوب اللبناني لتحتفظ بـ«الشريط الحدودي» وتنصب عليه ضابطاً من الجيش اللبناني هو الرائد سعد حداد، ولم ينجح مجلس الأمن الدولي منذ ذلك التاريخ في تنفيذ القرار ٤٢٥ الذي يقضي بانسحاب إسرائيل إلى الحدود الدولية.

أما الحدث الثالث فكان اغتيال النائب طوني فرنجية في إهدن في ١٣ حزيران/يونيو وهو نجل الرئيس سليمان فرنجية الرئيس اللبناني الوحيد الذي أقام حتى آنذاك علاقات سياسية وشخصية مع القيادة

السورية تصل إلى حدود التحالف. وردّت سورية بحزم على الحادث وبدأت معركة الأشرفية بين القوات السورية و«القوات اللبنانية» والتي كانت بداية الصعود الفعلي لبشير الجميل. في تلك الحقبة الصعبة لم يكن ميشال عون في موقع القرار في المؤسسة العسكرية. ولم يكن حتى في موقع حسّاس. كان يرى أن الجيش هو الحل ولم يصل تعاطفه مع خصوم سورية إلى درجة التسليم بحق الميليشيات في وجود دائم، وأقصى ما كان يمكن أن يقبل به هو أن تكون نوعاً من أنصار الجيش. وفي ١٩٨٠ عيّن ميشال عون قائداً لقطاع عين الرمانة ـ بعبدا الذي كان في عهدة لواء الدفاع، ومع إعادة بناء الجيش ستكون تلك القوة نواة اللواء الثامن بقيادة عون وهو اللواء الذي عُدّ الأفضل تسليحاً وتدريباً في الجيش اللبناني والأكثر تماسكاً.

الغزو الإسرائيلي

في العام ١٩٨٢ يضرب الزلزال الإسرائيلي لبنان في ٦ حزيران/ يونيو وتبدأ معركة بيروت التي تنتهي بخروج المقاومة الفلسطينية وانسحاب القوات السورية منها. ويبدو الغزو كأنه مشروع انقلاب كبير على التوازنات في لبنان والمنطقة. في ظل المعادلات الجديدة ترتكب الجمهورية اللبنانية خطأ قاتلاً بتسليم الرئاسة وبالانتخاب لبشير الجميل (٣٤ عاماً) الذي سيقتل بدوره قبل تسلمه مهام منصبه فتقع مجازر صبرا وشاتيلا وتعود القوة المتعددة الجنسيات إلى بيروت مؤلفة من أربع دول أطلسية هي الولايات المتحدة وفرنسا وإيطاليا وبريطانيا. ومرة جديدة اجتمع المجلس النيابي لينتخب رئيساً بعدما كان الياس سركيس قد رفض كل عروض التمديد أو التجديد، فانتخب النائب أمين الجميل شقيق بشير ونجل

بيار الجميل مؤسس حزب الكتاب رئيساً للجمهورية. تحت مظلة القوة المتعددة، وفي برهان كامل على الدور الأميركي بدأ الرئيس الشاب ما سماه «مغامرة الإنقاذ» لكنه تسلم حطام دولة ودخل القصر في وقت لم يكن الحاجز الإسرائيلي يبعد فيه عنه سوى بضع مئات من الأمتار. عاد الجيش إلى بيروت الغربية بعد خروج المقاومة لكن عودته اقترنت بتجاوزات ارتكبها أفراد منه وأخرى ارتكبها آخرون وألصقت باسمه. بدأت عملية تسليح الجيش وتدريبه وتجميعه بقيادة العماد إبراهيم طنوس لكن المعركة التي كانت تنتظر الجمهورية كانت أكبر من حجم هذه الدولة التي تحاول أن تطل من تحت الركام، ومن حجم الجيش الذي يحاول لملمة صفوفه.

لم يقبل الاتحاد السوفياتي برؤية الطائرات الإسرائيلية تدمر في سهل البقاع الصواريخ السوفياتية وتسقط في أجوائه طائرات «الميغ» وكأنه يستعد لدفع موسكو إلى خارج المنطقة. ولم تقبل سورية برؤية جيشها يخرج من بيروت على أيدي الإسرائيليين. ومرة جديدة التقت ظروف الخارج مع الخلل الداخلي، فصعود «القوات اللبنانية» إلى الجبل أثار سخط سكانه الذين يتزعمهم رئيس الحزب التقدمي الاشتراكي وليد جنبلاط.

في هذه المرحلة بلغ التجاذب أقصاه. اختلاف في الحسابات في لبنان بين الولايات المتحدة وإسرائيل ظهر صريحاً من خلال مبادرة الرئيس رونالد ريغان التي سبقت القمة العربية في فاس، وحاولت إسرائيل اجتذاب لبنان إلى مثلث سلام مصري ـ لبناني ـ إسرائيلي فرفض الجميل واستجار بواشنطن التي رعت مفاوضات اتفاق ١٧ أيار/مايو اللبناني ـ الإسرائيلي.

الرد على الغزو

في سبتمبر/أيلول ١٩٨٣ جاء الرد. انسحاب إسرائيلي من الشوف وعاليه من دون التنسيق مع الجيش اللبناني أشعل بعد ساعات فقط «حرب الجبل» التي أعادت النزاع الداخلي إلى الواجهة وإن كانت بالتأكيد أكبر بكثير من نزاع داخلي. لم يستطع الجيش اللبناني الصعود إلى الجبل فوقعت مذابح وعمليات تهجير. لم توجه تلك الحرب ضربة إلى هيبة الشرعية ومؤسساتها فقط بل وجهت ضربة قاسية إلى الصيغة اللبنانية نفسها والتي استعانت دائماً لتبرير وجودها بتجربة التعايش في الجبل وهو قلب لبنان. بدا الانهيار كبيراً وواسعاً ودخل الجيش الحرب مرة جديدة. وميشال عون، الذي كاد يقتل في كمين لدى قيامه مع ضباط آخرين بعملية استطلاع لإمكان انتشار الجيش في الجبل ويحمل مقربون منه إسرائيل مسؤولية الكمين، سيدخل الحرب هذه المرة ومن بوابة الجبل، أيضاً.

ظهر سريعاً أن الهجوم الذي قادته المعارضة المسلحة بدعم من سورية يتخطى حدود إسقاط الجبل إلى إمكان سقوط النظام بأسره، وبدا لأيام أن مصير هذا النظام وما تبقى منه معلق على مصير موقع واحد هو بلدة سوق الغرب في شرق بيروت.

سوق الغرب

لم تكن سوق الغرب أكثر من بلدة جبلية بطقسها وجمال موقعها وتلك العشيات التي يغشاها الضباب لكن. للجغرافيا ثمن، فبلدة سوق الغرب هي مفتاح الطريق المؤدي إلى مقر قيادة الجيش في اليرزة ومقر القصر الجمهوري في بعبدا أي إلى الرمزين الأخيرين لما

تبقى من الجمهورية. طرح مصير سوق الغرب فسارعت قيادة الجيش إلى تكليف اللواء الثامن بالدفاع عنها، فصعد ميشال عون على رأس قواته واستولى على المرتفعات القريبة منها مقيماً خطاً دفاعياً اتفق العسكريون والمدنيون على أن سقوطه يعني سقوط اليرزة وبعبدا معاً وضرب توازنات داخلية وخارجية.

مصير القصر

في سبتمبر/ أيلول ١٩٨٣، يقول ميشال عون، كان الرئيس أمين الجميل في ملجأ القصر الجمهوري في بعبدا بسبب كثافة القصف وحدّة المعارك، وكان مع الرئيس بعض أركان عهده ومستشاريه الأمنيين والعسكريين. شعر الجميل أن مصير عهده معلق على مصير سوق الغرب واستبد به القلق. وتوقع الحاضرون أن تسقط البلدة وبدأ سيناريو الكارثة الكبرى. يومها دخل ميشال عون إلى الملجأ وقال للرئيس: سوق الغرب لن تسقط. وعاد إلى مقر العمليات. دافع ميشال عون عن سوق الغرب حيث قتل عدد غير قليل من الضباط والعسكريين. وعُدّت معركة سوق الغرب أكبر معركة في تاريخ الجيش اللبناني. لم يكن نجاح عون آنذاك يتمثل في محافظته على البلدة ذات الموقع الاستراتيجي بل أيضاً في محافظته على لواء مقاتل مكون من مختلف الطوائف وفي وقت سيجد الجيش فيه نفسه مجدداً أمام الانقسام إلى ألوية طوائف ومناطق. في تلك الأيام شعر عون أنه أنقذ اليرزة فلماذا لا يكون جنرال اليرزة، أي قائداً للجيش؟ وأنقذ قصر بعبدا فلماذا لا يكون رئيس القصر؟ وسيسعفه الحظ في الأولى وسيخونه في الثانية وسيموت كثيرون في حروب الجنرال.

وفي وقت لاحق حين قال كثيرون إن الخطوط الحمر الدولية هي التي منعت سقوط سوق الغرب رد عون «إنها الخطوط الحمر المرسومة بدماء جنودنا» ومن سوق الغرب سينزل الجنرال إلى اليرزة ومنها إلى بعبدا وسيموت كثيرون.

قائد الجيش يراقب تفكك الشرقية والجمهورية

لم يكن باستطاعة الرئيس أمين الجميل أن يحكم في ظل تجاذب إسرائيلي ـ سوري حادّ حول لبنان رافقه تجاذب أميركي ـ سوفياتي حادّ وزاده تعقيداً اختلاف الحسابات بين واشنطن وتل أبيب وعدم تطابقها تماماً بين موسكو ودمشق. ولم يكن باستطاعة أمين الجميل أن يربح فلا هو رجل إسرائيل ولا هو حليف سورية ولبنان ليس مدرجاً أصلاً في لائحة الأولويات الأميركية التي تستحق الذهاب إلى الحرب.

يضاف إلى ذلك أن لبنان الذي صار بلا دولة أو بشبه دولة تحول إلى خط تماس بين دولتين أساسيتين وإلى أحد خطوط التماس بين المعسكرين. وكان من الخطأ الاعتقاد أن اتفاقاً كاتفاق ١٧ أيار/ مايو اللبناني ـ الإسرائيلي يمكن أن ترضى به دمشق. هذا عدا أنه اتفاق أقل من سلام، ورأت إسرائيل منذ البداية أنه لا يستحق حرباً جديدة للدفاع عنه. لم تنجح إسرائيل في اجتذاب لبنان إلى «مثلث السلام» فقررت الرد بتفكيكه. وبدأت سورية حرب إزالة آثار الغزو، وبدت واشنطن في كل ذلك أكثر واقعية مما تصوره الرئيس اللبناني واللبنانيون.

على قاعدة هذه الحسابات المعقدة وقعت «حرب الجبل» في أيلول/ سبتمبر ١٩٨٣ وكان من السذاجة الاعتقاد أنها يمكن أن تتوقف

هناك، فالمعركة الفعلية تدور في بيروت ومصيرها يتقرر هناك. وكان من البساطة التوهم أن لقاءً للحوار بين الأطراف اللبنانيين يمكن أن يوقف حروباً ليسوا أصحاب القرار فيها. وهكذا في ٦ شباط/فبراير ١٩٨٤ استيقظ اللبنانيون على انتفاضة بقيادة السيد نبيه بري رئيس حركة «أمل» فعاد خط التماس إلى بيروت وعادت ألوية الجيش لتأخذ ألوان مناطقها وتدخل في عملية الفرز الطائفي والمذهبي.

رحيل المظلة

هكذا وجد أمين الجميل نفسه وحيداً. القوة المتعددة الجنسيات انسحبت من المستنقع اللبناني خصوصاً بعد الهجمات على مقر مشاة البحرية الأميركية والوحدة الفرنسية. وألغى أمين الجميل في ١٥ آذار/مارس ١٩٨٤ اتفاق ١٧ أيار/مايو الذي كان المجلس النيابي قد أقره بأكثرية ساحقة، لكن إلغاءه لم يكن كافياً لطي صفحة أخرى. ولم يكن الغرض من تشكيل حكومة الوحدة الوطنية مشاركة أمين الجميل في الحكم بقدر ما كان منعه من الحكم في ما تبقى له من ولايته إذا تعذر اختصار تلك الولاية.

مرة جديدة سقط الجيش وكان لا بد من تغيير قائده العماد ابراهيم طنوس الذي راح يسلحه ويدربه من دون أن يتوقع أن يكون الامتحان الكبير قريباً إلى هذه الدرجة. كان لا بد من الإتيان برجل يعيد ثقة العسكريين بقيادتهم ويحافظ على خيط بين هذه الألوية الموزعة على جمهوريات الميليشيات. كان لا بد من ضابط لم يتورط في معركة طائفية ولم يقترب من الخيار الإسرائيلي في أيام الغزو.

ولادة جنرال

في ٢٢ حزيران/يونيو ١٩٨٤ رن جرس الهاتف في مكتب قائد اللواء الثامن في ثكنة الفياضية. والواقع أن ذلك الضابط كان قد تحول بفعل معارك سوق الغرب إلى أبرز ضابط في الجيش. أبلغ العماد طنوس إلى العميد الركن ميشال عون أنه عيّن قائداً للجيش ثم اتصل به الرئيس الجميل مهنئاً. القائد التاسع للجيش اللبناني منذ الاستقلال في ١٩٤٣ وأصغر ضابط يتولى هذه المهمة. فحين دخل ميشال عون مكتب قائد الجيش في اليرزة كان عمره ٤٩ عاماً. لم تكن لدى الآخرين مآخذ فعلية على الجنرال فهو شارك في القتال بناء على أوامر القيادة ولم يكن ثمة شك في ولائه للمؤسسة العسكرية. ولم يكن أحد يدري آنذاك أن هذا الضابط لن يكتفي بلقب الجنرال وأن إصراره على الإنقاذ سيكلف البلد غالياً وإصراره على دور المنقذ سيكلفه غالياً أيضاً.

لم يبكر ميشال عون في كشف أوراقه وطموحاته. وكأنه ترك للآخرين مهمة التمتع بالأضواء حتى الاحتراق تاركاً لنفسه وللظروف مهمة اختيار لحظة التصويب. راح ميشال عون يعيد الروابط بين الألوية المتباعدة مستعيناً على ذلك بضباط من هذه الألوية عايشوه وعرفوه ورأوا فيه يوم تعيينه «قائداً جديراً بالثقة». وبرغم عدم قبوله أصلاً بمبدأ «الأمن بالتراضي» وافق عون على سلسلة خطوات أمنية تستند إلى هذا المبدأ، لكن هذه الخطوات سرعان ما اصطدمت بحسابات تتخطى من اصطدمت بهم مباشرة. عبر انتفاضة ٦ شباط/فبراير عادت سورية إلى بيروت سياسياً وستعود إليها عسكرياً في وقت لاحق وبنداء من رئيسي المجلس النيابي والحكومة ومن دون استشارة رئيس الجمهورية.

عادت لتوقف مذبحة بين الميليشيات المتحالفة معها وهي حركة «أمل» والحزب التقدمي الاشتراكي لكنها عادت في الواقع إلى قلب القرار اللبناني.

ضربة جديدة

في ١٩٨٥ كان الجيش اللبناني قد تلقى ضربة جديدة. ففي شباط /فبراير انسحبت إسرائيل من صيدا فدخلها الجيش وهب الناس لاستقباله وحمل المتظاهرون أمين الجميل على الأكتاف. وقال عون لجنوده: «بدخولكم الجنوب تجسدون إرادة الشعب وأمانيه بالتحرر والتحرير». لكن اليوم التالي سيحمل ما يجهض الأحلام: مسيرة مسلحة رفعت شعارات ضد الحكم والجيش وأطاحت بزهو هذه الخطوة والقدرة على توسيعها. وتوجه عون إلى دمشق لإدراكه أن الضمانة هناك لكن الحسابات كانت أكثر تعقيداً. وعندما انسحبت إسرائيل من شرق صيدا وإقليم الخروب اجتاح المسلحون المنطقتين وكانت جولة جديدة من التهجير ووقف عون محتجاً: «لا يجوز سحب الجيش وإبقاء الساحة حرة واسعة أمام الميلشيات».

سقط السلام الإسرائيلي بعدما تحولت مجازر صبرا وشاتيلا إلى زلزال في قلب الجهة التي أطلقت زلزال الغزو. عادت سورية إلى قلب القرار وستسعى للمرة الأولى إلى صنع سلامها أو سلام برعايتها الكاملة.

غليان في الشرقية

في هذه الأثناء كانت الانهيارات تنتقل إلى قلب الشرقية. المهجرون العائدون من الجبل ناقمون على الرئيس لأنه لم يتمكن

من إرسال الجيش لإنقاذهم. وهيبة الحكم ضاعت مذ راحت القذائف تتساقط في صورة شبه يومية على مدخل القصر في بعبدا. غياب بيار الجميل مؤسس حزب الكتائب خلق فراغاً في هذه المؤسسة التي قادها نحو نصف قرن من دون حصول انشقاق في صفوفها ومن دون أي تشكيك في قيادته. وقيادة «القوات اللبنانية» التي انتقلت من فادي افرام إلى الدكتور فؤاد أبو ناضر ابن شقيقة الرئيس الجميل تعاني من ثقل هزيمة الجبل ومن التجاذب مع رئيس الجمهورية.

يراقب من مكتبه

من مكتبه في اليرزة كان ميشال عون يراقب هذا التآكل المتزايد في الجمهورية والشرقية معاً. في ١٢ آذار/مارس ١٩٨٥ انتفاضة في حزب الكتائب حملت إلى الواجهة ثلاثة أسماء: سمير جعجع وإيلي حبيقة وكريم بقرادوني. ولم يجد أبو ناضر أمامه غير الخروج من مقر قيادة «القوات» لتسليمه لرموز الانتفاضة. وبعدما خسر أمين الجميل معركة القرار في الجمهورية ها هو يكاد يخسره في الشرقية. وسرعان ما دب الخلاف بين أركان الانتفاضة وسلك حبيقة طريق دمشق.

«الاتفاق الثلاثي»

في أواخر العام أدارت دمشق مفاوضات بين قادة الميليشيات الرئيسية الثلاث: إيلي حبيقة ونبيه بري ووليد جنبلاط، فكان الاتفاق الثلاثي الذي وقع في العاصمة السورية في ٢٨ كانون الأول/ديسمبر ١٩٨٥. لم يرفض عون الاتفاق واكتفى بالتحفظ على البند المتعلق بتأهيل الجيش اللبناني على يد الجيش السوري.

وتسارعت الأحداث في الشرقية. جعجع يعدّ أنصاره لإسقاط الاتفاق عبر إسقاط حبيقة والرئيس الجميل لا يوافق على سلام لا يمر عبر المؤسسات الشرعية ويرى أن الموقعين ذهبوا بعيداً في موضوع العلاقات اللبنانية ـ السورية.

في ١٣ كانون الثاني/يناير ١٩٨٦ يذهب الجميل إلى قمة لبنانية ـ سورية جديدة. ذهب حاملاً تعديلات ومقترحات أهمها مناقشة المشروع في المجلس النيابي لكن دمشق كانت تطالبه بالتوقيع. ومنذ الساعة التي ذهب فيها الجميل إلى دمشق كانت قوات حبيقة تحاول السيطرة على معقل آل الجميل في المتن وكأنها كانت توحي للرئيس بأنه لن يبقى رئيساً إذا عاد من دون أن يوقع.

إسقاط الاتفاق

لم يتدخل عون للدفاع عن المتن وصنف ما يجري في إطار الخلافات الحزبية، لكنه قال إنه سيدافع عن رموز الشرعية إذا هوجمت أي القصر الجمهوري ووزارة الدفاع ومواقع الجيش. فشلت القمة اللبنانية ـ السورية وعاد الجميل. وفي فجر ١٥ كانون الثاني/يناير تحركت قوات جعجع من الشمال لتلتقي بأنصار الجميل في المتن وتتقدم للاستيلاء على مقر حبيقة في المجلس الحربي. لم يتدخل عون لمنع الضربة الموجهة إلى حبيقة وتدخل بعد حسم المعركة لينقذ حبيقة نفسه وبعدما تلقى اتصالاً من العماد حكمت الشهابي رئيس أركان الجيش السوري.

هكذا انتقل حبيقة إلى وزارة الدفاع، وفي اليوم التالي إلى قبرص ومنها إلى دمشق، ليعود إلى منطقة المتن لكن بعد سقوط عون هذه المرة.

العلاقات المميزة

لم تكن معركة إسقاط «الاتفاق الثلاثي» عابرة ولم يكن الاتفاق مجرد اتفاق عابر. فللمرة الأولى أدخل تعبير «العلاقة المميزة» في صلب مشروع للسلام اللبناني. واصطدمت العلاقات المميزة بعدم موافقة رئيس الجمهورية عليها ولهذا لن تحصل انتخابات الرئاسة بعد عامين. إما رئيس لجمهورية العلاقات المميزة أي سليمان فرنجية أو مخايل الضاهر، وإما لا رئيس. وفي المعسكر المقابل كان هناك من يرى أن الفراغ الرئاسي ليس أكثر خطورة من «خطورة» وصول رئيس جمهورية العلاقات المميزة. معركة إسقاط الاتفاق الثلاثي نسفت الجسور بين بعبدا ودمشق وأدّت إلى ولادة «جنرال» لـ«القوات» اسمه سمير جعجع أكثر قوة ودهاء من أسلافه. والقطيعة بين الجميل ودمشق تحولت إلى مقاطعة حكومية للرئيس أعلنها رئيس الحكومة رشيد كرامي وهي ستستمر حتى اللحظة الأخيرة من عهد الجميل أي لحظة ولادة حكومة عون.

أعقبت سقوط الاتفاق الثلاثي اشتباكات خصوصاً على محاور المتن. ووصلت في حدود آذار/مارس إلى تراشق مدفعي وصاروخي عنيف ومحاولات اقتحام. وأصدرت قيادة الجيش يومها بياناً قالت فيه إنه «يبدو من الأسلحة الثقيلة المستعملة أن هناك قوى جديدة اشتركت في تصعيد عمليات القصف». كان المقصود بالإشارة مشاركة الجيش السوري الذي ردت ألوية الجيش على مواقعه لكن لم يُشر إليه بالاسم فقد بدأ الجنرال حساباته للمواعيد الآتية.

اختراق الأشرفية

لم يُسقط عون «الاتفاق الثلاثي» ولم يشارك في إسقاطه. لكنه لم

يشارك أيضاً في منع سقوطه وسيدخل لاحقاً هذه المعركة من زاوية محدودة حين اخترقت قوات حبيقة في ٢٧ أيلول/سبتمبر ١٩٨٦ منطقة الاشرفية على خطوط التماس في بيروت محاولة العودة إلى الشرقية فشارك الجيش في إغلاق الثغرة وفي معركة شاركت فيها قوات جعجع أيضاً. ذلك الحادث ترافق مع حادث آخر لا يقل خطورة. فبعده بقليل اصطدم حاجز للجيش بعناصر من «القوات» وقتل اثنين منهم وجاء الرد بعد ساعات إذ اغتيل العقيد خليل كنعان قائد اللواء الخامس في الجيش وهو صديق لعون، ومقرب منه. ومنذ تلك اللحظة أقسم عون ألّا يمر اغتيال كنعان بلا ثمن وبعد أربعة أعوام سيخوض عون حرباً طاحنة ضد «القوات» في شوارع الشرقية تنتهي بقيام شرقيتين واحدة تحت سيطرته والأخرى تحت سيطرة «القوات» طبعاً مع الالتفات إلى أن تلك الحرب لم تكن بهدف الثأر لكنعان بل للإمساك بالشرقية بعدما تعذر الإمساك بالجمهورية.

القطيعة والمقاطعة

بدأت المقاطعة الحكومية وانقسمت السلطة التنفيذية على نفسها. منذ تلك الأيام راحت الجمهورية تركض في اتجاه موعد انهيارها. سقطت السلطة فعلاً. بلاد تدار بالمراسيم الجوالة وبمجموعة من البدع تفتقت عنها ذهنية الموظفين الذين حاولوا إنقاذ مصالح الناس اليومية وسط انشطار حاد في أعلى هرم الحكم. لقد دفع أمين الجميل ثمن سقوط اتفاق ١٧ أيار/مايو ودفع لاحقاً ثمن سقوط «الاتفاق الثلاثي». ولم يكن الجميل وحده هو الذي دفع بل رئاسة الجمهورية التي ظهر جلياً أن لا بد من الإمساك بها لتمرير سلام ما أو لمنع هذا السلام من المرور.

كان جنرال اليرزة يراقب من مكتبه ذلك الزلزال الذي ضرب الجمهورية الأولى. كل ذلك لم يحدث من قبل. والأحداث المشابهة كانت أقل حدة وأقصر مدة. رئيس للجمهورية يقيم في قصر بعبدا ويعجز عن جمع الوزراء حول طاولة مجلس الوزراء. ورئيس الوزراء الشرعي متمرد على الرئيس والمراسيم تعبر خط التماس جيئة وذهاباً لتحظى بتواقيع من تفرقوا.

وفي الحلقات الضيقة كان ثمة من يقول إن أمين الجميل هو آخر رئيس للجمهورية. وكان القصد أنه آخر رؤساء الجمهورية الأولى فبعده ستكون جمهورية وسيكون رئيس ولكن في ظل برنامج آخر وتوازنات أخرى.

غياب النجوم

كان قائد الجيش يراقب. اظهرت المقاطعة أن رئيس الجمهورية لا يستطيع أن يحكم إذا كان على خلاف مع دمشق لا بل أظهرت أنه لا يستطيع عقد اجتماع مكتمل لحكومته. وأظهرت في نظر الجنرال أن هذه الطبقة من السياسيين أفلست ولم يعد عندها ما تقدمه أو تقوله غير المزيد من الانقسامات والخلافات. والتفت الجنرال من مكتبه في الشرقية إلى الوضع في الشرقية. غاب البارونات الذين أقاموا طويلاً ولم تقتلع عاصفة زعاماتهم بل كانت تجددها. غاب بيار الجميل وصار هم رئيس الحزب جورج سعادة تأكيد انتقال الكتائب من عهد المؤسس إلى عهد المؤسسة. غاب كميل شمعون ذلك «البطريرك» الذي كان يتقن لعبة التشدد وفنون العثور على المخارج. خلفه داني شمعون لكن داني ورث الساحر ولم يرث السحر.

سليمان فرنجية يقيم في الشمال، زعامته قائمة لكنها تبدو بعيدة عن القصر الذي تركه في ١٩٧٦ تحت دوي المدافع في غرفة نومه. أما «القوات» فكانت لا تزال تعاني من ذيول الجبل وشرق صيدا والمواجهة داخل صفوفها حول «الاتفاق الثلاثي». وكان الجنرال يشعر أن التعايش بين جعجع والجميل هشّ ومؤقت وبدأت في الشرقية حسابات المثلث الصعب المؤلف من رئيس الجمهورية وقائد الجيش وقائد لـ«القوات».

انعكست المقاطعة على الجيش وعلى بعض الشؤون الحياتية للعسكريين. وكان ميشال عون يحاول تخليص «لقمة العسكر من دوامة الانقسام السياسي». وعندما أصر عون على إبقاء الروابط بين الألوية والى حدود الولاء جاءته سلسلة رسائل دامية عبر اغتيال عدد من الضباط في مناطق مختلفة.

حرب المخيمات

لم تكن المناطق الغربية أفضل حالاً من الشرقية لا بل كانت ظروفها أصعب وأكثر تعقيداً. ذهب الوزير بري إلى حرب المخيمات مصطحباً معه اللواء السادس في الجيش وكانت الحرب مريرة وطويلة انتهت بإخراج المقاتلين المؤيدين للرئيس الفلسطيني ياسر عرفات من مخيمات بيروت بعد تدميرها كما انتهت بإنهاك حركة «أمل». وكان لا بد من اندلاع حرب أخرى. فالمسلحون الإيرانيون الذين دخلوا لبنان من دون استشارة سلطته وعبر حدود مشرعة الأبواب والنوافذ راحوا يمارسون نشاطاتهم ودعواتهم والتدريبات العسكرية. وعندما حاول «حزب الله» التحول إلى لاعب رئيسي ومستقل عن الاتفاقات

التي سهلت وجوده اندلعت حرب «أمل» و«حزب الله».

الجيش هو البديل

من مكتبه في اليرزة راح الجنرال يراقب. سلطة تنفيذية انقسمت على نفسها ومجلس نواب لم يستطع توفير المخارج وصارت رئاسته جزءا من التجاذب والمقاطعة. وفي الوقت نفسه ميليشيات بموانئ وأشباه مطارات وجمارك وأشباه وزارات. فرز طائفي ومذهبي وقتال داخل الطوائف والمناطق. من تلك الأيام راح عون يرسل الإشارات وكان محورها انه لم يبق غير الجيش مؤسسة تضم الجميع وتتسع للجميع. وفي مقالاته في مجلة «الجيش» كان العماد عون يكتب ليقول بتلميح ينتظر التصريح أن الجيش هو البديل والضمانة، وكان يقصد أن قائد الجيش هو الضمانة والبديل. لقد أدار الجنرال معركته بنجاح حتى تلك اللحظة. ولاء للشرعية من دون الانزلاق إلى حروب قد تكون حروب رموزها، وصمت وإخفاء نيات وكلام عبر نافذة المجلة التي تنطق باسم المؤسسة العسكرية.

اغتيال كرامي

حادث واحد عارض هذه الحسابات وأقلقها تمثل في اغتيال رئيس الحكومة رشيد كرامي في ١ حزيران/يونيو ١٩٨٧ وأثناء انتقاله في طوافة عسكرية للجيش. أمر عون بفتح تحقيق لكنه رفض اتخاذ إجراءات ضد الضباط والعسكريين لأسباب سياسية وقبل ظهور نتائج التحقيق. صحيح أن رشيد كرامي كان يقلق الرؤساء لكنه كان ابن النظام وأبرز صمامات الأمان فيه. ومع اغتياله بدا واضحاً أن التجاذبات بلغت حداً يصعب الاعتقاد معه بأن الجمهورية ستكون قادرة على تأمين انتقال طبيعي للرئاسة حين يغادر أمين

الجميل قصر بعبدا. استمرت المقاطعة وجاءت سنة الاستحقاق الكبير وراح الجنرال يجمع الضباط ويرسل الإشارات. وفي تلك الليلة لن يدخل رئيس جديد إلى القصر بل سيدخله الضابط الذي دافع عن سوق الغرب ونزل منها إلى اليرزة في انتظار الوصول إلى بعبدا.

في مكتب الرئيس

بعد أيام من توليه رئاسة حكومة العسكريين ليل ٢٢ ـ ٢٣ أيلول/ سبتمبر ١٩٨٨ التقيت العماد ميشال عون في بعبدا، وهو أظهر منذ اللحظة الأولى رغبة في استقبال الزائرين والصحافيين في مكتب رئيس الجمهورية. سألت الجنرال عما إذا كان يحمل في تلك الليلة في أحد جيوب بزته العسكرية مشروع انقلاب ونص «البيان رقم واحد» فأجاب: لا. ثم ضحك الجنرال ليضيف: «لكني ما كنت لأسمح بحصول فراغ ودفع البلاد إلى المجهول».

وفي اليوم التالي قال لي أحد السياسيين: بلغني أن الجنرال عون يجلس في مكتب رئيس الجمهورية وأنه يخلط في لهجته بين لهجات رئيس الجمهورية ورئيس الحكومة وقائد الجيش، كان من الأفضل أن يختار مكتباً آخر ليؤكد أنه رئيس حكومة انتقالية همها تأمين انتخاب رئيس يجلس في مكتب الرئيس. وستظهر الأيام أن خوف ذلك السياسي، الذي لم يكن من خصوم الجنرال، كان في محله.

حسابات القصر

قبلها بشهور كان الجنرال ومن مكتبه في اليرزة يغرق في

حسابات القصر. انتخاب أي رئيس آخر لن يعني سوى تمديد الأزمة، هكذا كان يقول لصفوة المقربين منه. وهو كان ينطلق من حسابات صحيحة مع ميل إلى تجاهل حسابات أكثر تعقيداً. في مكتبه المزين بشعار «الانتصار دون إذلال الخصم والخسارة دون الانسحاق» راح ينزلق إلى «حرب الرئاسة». كان يجيل النظر في المشهد اللبناني ويرجع بانطباع وحيد، الرئيس المدني سيكون من باب تجريب المجرب ولم يعد لبنان قادراً على احتمال التجريب.

اقتنع الجنرال أن عنوان الحل هو فخامة الرئيس العماد ميشال عون. ففي لبنان لا يبقى بعد اليرزة غير بعبدا. وأسلافه ارتكبوا الحلم لكنهم لم يدخلوا القصر على ظهر دبابة. والوحيد الذي دخله كان فؤاد شهاب وهو جاء من صندوقة اقتراع وتسوية بين أطراف من خارج الحدود.

جنرال الحل

وربما كان لذلك الحلم تبريرات في نظره وفي نظر عدد غير قليل من السياسيين كانوا يهمسون أنه الحل. كان يحدق ثم يكتشف أنه الرجل الوحيد الذي يمتلك قوة مسلحة شرعية تضم أبناء كل الطوائف وكل المناطق. وهو كان في الواقع صاحب رصيد واسع داخل تلك المؤسسة. ليس من رموز الحرب الأهلية ليشكل انتخابه استفزازاً للمشاعر فهو يطمئن الخائفين هنا وهناك. في بداية عهد أمين الجميل بدأت الولايات المتحدة بتدريب الجيش اللبناني وتسليحه، وحتى عندما ابتعدت ظلت على قناعتها بأن الجيش يجب أن يكون العمود الفقري لأي حل ينهي الميليشيات ويبطل

مبررات وجود الجيوش غير اللبنانية. واستنتج الجنرال من ذلك أنه يجب أن يكون أقرب المرشحين إلى واشنطن بل ومرشحها. وفي المقابل لم يصنف عون أصلاً في خانة أعداء سورية، إذ قبل شهور أرسل إشارات وتلقى إشارات فازداد طموحه لأن يكون مرشح التفاهم الأميركي ـ السوري. وهو رأى أيضاً أنه الرجل الوحيد القادر على التوصل إلى اتفاق مقبول مع سورية «والوحيد القادر على حماية اتفاق مقبول معها».

تلك كانت حسابات الجنرال في حرب الرئاسة والتي سيشتد التجاذب فيها إلى حد الحيلولة دون انتخاب رئيس. وفي جمهورية بلا رئيس سيدخل العماد عون قصر بعبدا لكن كرئيس لحكومة عسكريين وسيبدأ فصلاً جديداً من حروب الجمهورية والشرقية معاً.

غلطة اسمها لبنان

بعض الأسئلة موجع وإلى حد الرغبة في إرجاء الإجابات أو تركها للتاريخ. ولكن أي غلطة ارتكبها لبنان ليصير إلى ما صار إليه؟ وهل صحيح أن ذلك الحلم افتقر دائماً إلى الجذور وتغطى بما هو أقل؟ هل هي أخطاء التاريخ امتزجت بخطايا الجغرافيا فضربت لسكان تلك البقعة موعداً طويلاً مع الآلام؟ وهل تقتصر وظيفة ذلك البلد الصغير على تصدير أبنائه إلى المنافي ولماذ تحول إلى ما يشبه مصنعاً للنعوش؟ وما هو السلام فيه؟ هل هو مجرد استراحة بين حربين لشحن النفوس وشحذ السيوف؟.

الأكيد هو أن تلك الدولة التي استقلت في ١٩٤٣ حملت عطباً رافقها منذ الولادة. فهي كانت نوعاً من التسوية واللقاء في

منتصف الطريق. وشيدت على تنازلات متبادلة وتواطؤ ضمني ولولا ذلك لما قامت على الأقل بصيغتها الحاضرة.

وهل هذه البقعة من العالم هي المكان الأفضل للقاء ثقافات وحضارات وليتفاعل المختلفون فيغتني وطنهم بدل أن يغرق في دمهم؟.

لقد ارتكبت تلك الجمهورية أخطاء قاتلة، أولها أنها بكرت في المجيء، صدقت أن باستطاعتها أن تصنع لونها وطريقها وأن تتفرد من دون أن تنفصل أو تنفصم. صدقت أنها مسوّرة بما يقيها من الرياح العاتية. لعبت لعبتها ولعبت بدمها. تذهب إلى صناديق الاقتراع وترجع ترتكب الأفكار وترتكب الأحزاب. تقرأ وتكتب. تسأل وتشكك. مخيلة جموحة ولسان طويل. خطباء وعناوين صحف وإذاعات وملجأ للهاربين من هنا وهناك. لم تكن تشبه الزمن السائد. كانت الزمن المضاد. وكان عليها أن تصيبه أو يصيبها. تبيع «أمراضها» أو تستورد الأمراض. بكرت في المجيء. وتلك اللعنات التي كانت تصنع سحرها ستحفر لها قبرها. كان لا بد من إسكاتها وإغلاق كتابها. وهذا ما حصل.

ولكن ما لنا وللأسئلة الصعبة. هل كان باستطاعة تلك التجربة أن تقاوم التهديد الذي يشكله قيام إسرائيل على حدودها؟. وهل كان في استطاعتها احتمال ثمن احتضان قضية ستبقى أكثر من أربعة عقود قضية بلا حل؟. وهل كان باستطاعة تلك الجمهورية المقيمة على خط الزلازل أن تبقى بمنأى عن تلك التقلبات والانقلابات التي عصفت بالمنطقة؟. هل تستطيع تلك الجمهورية احتمال أربعة

حروب عربية ـ إسرائيلية وظهور تلك المنعطفات بدءاً بالناصرية مروراً بكامب ديفيد ووصولاً إلى التغيير الإيراني واستضافة ثورة في أحشائها من دون أن تسقط أو تنفجر؟. لم يكن في وسع تلك التسوية الهشة على تلك البقعة الضيقة أن تحتمل كل هذه البراكين في منطقة تعاني الجغرافيا فيها من هواجس التاريخ ومن هشاشة الحدود أمام الشهيات التي لا حدود لها.

صحيح أن العالم يتجه اليوم إلى ما يشبه تلك المبادئ التي قامت عليها الجمهورية: التسوية. لكن الصحيح أيضاً هو أنها لم تستطع أن تصمد وأن تنتظر لترى ما يبرر وجودها وينفي عنها صفة الحلم العابر أو الخطأ العابر.

على أطراف البركان راحت الدولة الصغيرة تحاول أن تبني نفسها ومؤسساتها. لكنها افتقرت دائماً إلى تلك القامات التاريخية التي تستشعر الأخطار فتستعد لها وتتكيف معها وتكيفها. ولم يكن في استطاعة لبنان أن يغلق نافذته فهو قام أصلاً على نافذة مفتوحة يفتقد بخسارتها بعض مبررات وجوده.

دوامة الرياح

قيام إسرائيل على حدود لبنان الجنوبية كان يشبه زرع عبوة في جسد المنطقة وفي جسد لبنان. فعلى «شماعة» هذه القضية سيعلق كل الطامحين إلى السلطة رغباتهم وسيخرج كثيرون من الثكن إلى الإذاعات وستكون القضية دائماً في «البيان رقم واحد» الذي كانت الناس تعيش تحت وطأته بانتظار «البيان رقم واحد» الآخر على يد «منقذ» جديد. لكن أول تجربة فعلية للجمهورية اللبنانية مع رياح المنطقة بدأت مع صعود جمال عبد الناصر وانجذاب

الشارع العربي إلى نهجه ولهجته. وحين أساء الرئيس كميل شمعون القراءة والتقدير ومشى في الاتجاه المعاكس للرياح اندلعت أحداث ١٩٥٨ التي انتهت بتسوية. لم يجدد شمعون ولايته ولم يسقط قبل انتهاء ولايته. وأسندت رئاسة الجمهورية إلى اللواء فؤاد شهاب قائد الجيش اللبناني الذي رفض زج الجيش في تلك الأحداث.

الناخب العربي

كان وصول شهاب نوعاً من التسوية بين الولايات المتحدة، التي حلت تقريباً مكان فرنسا، والقوة العربية الأبرز آنذاك وهي مصر. وهكذا اتضح أن الرئيس ينتخب في البرلمان اللبناني لكن بعد أن تزكي المشاورات بين القوة العربية الأبرز والعواصم الغربية المعنية مرشح التسوية في نظرها. وإذا استثنينا انتخاب سليمان فرنجية الذي يمكن تفسيره بمعظمه بحسابات داخلية وبانعكاسات حرب ١٩٦٧ فإن القاعدة استمرت وإن تبدل فيها اسم القوة العربية الناخبة. فتحت الرصاص انتقل النواب المؤيدون للسيد الياس سركيس لانتخابه وكانت سورية هذه المرة هي الناخب العربي وراء وصوله. مع الغزو الإسرائيلي للبنان في ١٩٨٢ اختلت المعادلة داخلياً وإقليمياً فكان وصول بشير الجميل إلى الرئاسة حدثاً لا طاقة للتوازن الداخلي بقبوله ولا قدرة للناخب العربي على التسليم به. اغتيل بشير الجميل وانتخب أمين لكن بعد أن سقط مع بشير مشروع بشير، لم يكن أمين رجل إسرائيل وإن كانت لم تمانع في انتخابه. فأمين ينتمي أصلاً إلى جناح الحمائم في حزب الكتائب وهو الجناح الذي لم يسقط في وهم «الخيار الإسرائيلي». ولم يكن أمام الرئيس غير البحث

عن المظلة الأميركية فهو ليس رجل إسرائيل وليس حليفاً لدمشق.

صفحة جديدة

في العام ١٩٧٦ دخلت القوات السورية إلى لبنان ومنعت سقوط النظام ومنعت انتصاراً عسكرياً للقوى المتحالفة مع المقاومة الفلسطينية كان يمكن أن يؤدي إلى إخلال نهائي بالتوازنات الداخلية التي يتعذر استمرار لبنان من دونها. لم تستمع دمشق إلى النصيحة السوفياتية التي دعتها إلى عدم التدخل ورأت أن البركان اللبناني يهدد دورها. وكان هذا التدخل يحمل في طياته الطموح للتحول إلى لاعب أساسي على مسرح المنطقة وهو طموح ستتزايد فرص تحقيقه في ظل التوازنات الجديدة التي قامت إثر خروج مصر من النزاع العربي ـ الإسرائيلي.

كان ذلك التدخل بداية تحول سورية إلى دولة كبرى محلية قادرة على القيام بأدوار أمنية خارج حدودها. وزاد من أهمية هذا الدور أن الورقة الفلسطينية كانت موجودة بالفعل في بيروت وأن كانت المقاومة تطل على النزاع العربي ـ الإسرائيلي من خلال جنوب لبنان.

ومنذ تلك اللحظة سينشأ نوع من الربط بين ثقل سورية الإقليمي ووجودها العسكري والسياسي في لبنان وهو وجود كان يعني الحضور في الساحتين اللبنانية والفلسطينية معاً أي في جوهر النزاع الدائر في الشرق الأوسط وفي المسرح الملتهب لحروبه واختباراته. وهكذا ستتحول سورية إلى ناخب كبير في المصير اللبناني ومن دون أن تعوزها الرغبة في دور الناخب الوحيد، لكن دائماً مع قراءة

دقيقة وعميقة للحسابات الإقليمية وانعكاسات التجاذب الدولي.

دمشق والرؤساء والرئاسة

ساهمت سورية في وصول إلياس سركيس ولم يمر عهده من دون الاصطدام به. ومرت ولاية الرجل المعتدل الهادئ من دون أن يعثر على المعادلة التي تضمن علاقات قوية بين البلدين خالية من ضوابط صارمة للقرار اللبناني.

ولم تكن مسألة العثور على صياغة جديدة للعلاقات اللبنانية سهلة. فهناك الجغرافيا وهناك التاريخ أيضاً. يضاف إلى ذلك أن سورية هي التي منعت ذات يوم انهيار تلك الجمهورية التي تمثل رئاسة الجمهورية المفتاح الرئيسي فيها.

دخلت سورية لبنان وصارت طرفاً في معادلته. لم تنته الحرب ولم تسترجع المؤسسات وحدتها الصلبة وتحول الدور السوري إلى ما يشبه الضرورة الدائمة. وسيعترف العالم في بداية النصف الثاني من الثمانينيات بأن على السلام اللبناني لكي يقوم فعلاً أن يمر بـ«المعبر السوري».

في كانون الثاني/يناير ١٩٨٦ ستصطدم سورية مجدداً برئاسة الجمهورية في لبنان عندما عارض أمين الجميل «الاتفاق الثلاثي» الذي لم يكن يعالج مشكلة الإصلاح الداخلية فقط، بل كان يقترح للعلاقات السورية ـ اللبنانية حلاً دائماً يقوم على «العلاقات المميزة». والواقع أن أمين الجميل كالياس سركيس لم يعارض دوراً سورياً كبيراً في لبنان. لكن، وربما بحكم انتماء الرئيس إلى المشاركة الدولية في اختياره كانا يسعيان إلى تفادي توقيع اتفاقيات

نهائية في شأن هذه العلاقات لعلمهما أنهما يوقعان ياسم طرف هو الأضعف. وفي الحالتين سلم الرئيس اللبناني بدور كبير لسورية لكنه حرص على إبقاء الجيش اللبناني بعيداً عن أي معادلة جديدة قامت على أرض الواقع وتستعد للقيام في النصوص. ولهذا سيتضح لاحقاً أن الصياغة الجديدة للعلاقات اللبنانية ـ السورية تستلزم قيام جمهورية أخرى وبصلاحيات أقل لرئيس الجمهورية وإن كان واضحاً أن التحولات الديموغرافية في لبنان تفرض هي الأخرى توزيعاً جديداً للمواقع والصلاحيات.

خريف الرئاسة

أسباب كثيرة جعلت الاستحقاق الرئاسي في مطلع خريف ١٩٨٨ يرتدي أهمية استثنائية. فالعالم راح يتغير. ولم يعد باستطاعة سورية أن تمضي ست سنوات جديدة في البحث مع الرئيس الجديد أو التجاذب معه. وهي لا تستطيع القبول بوصول رئيس معاد لها لا بل إنها تعدّ حياد الرئيس اللبناني تجاهها نوعاً من العداء لها بعد كل الذي قدمته للبنان، ولهذا لم يكن أمام دمشق غير أن تكون الناخب الأكبر في انتخابات الرئاسة وبحيث يكون الرئيس قريباً من دمشق ومقبولاً من واشنطن بدل أن يكون قريباً من واشنطن ومقبولاً من دمشق.

وفي موازاة ذلك كانت الصورة الإقليمية تتغير. رجحت الشهور الأخيرة من الحرب العراقية ـ الإيرانية كفة العراق الذي بدأ على الفور التطلع إلى دور سياسي مواز لانتصاره العسكري الذي سيؤكده وقف إطلاق النار ودخلت بغداد المسرح اللبناني وهذه المرة من باب تصفية الحسابات مع دمشق.

الانتفاضة الفلسطينية أعادت القرار الفلسطيني إلى حيث يجب أن يكون ومنظمة التحرير الفلسطينية تتقدم للدخول في اللغة الدولية الجديدة. ومصر ترجع إلى العواصم العربية بعد أن عادت جزئياً من قبل عبر نافذتين: الموضوع الفلسطيني والحرب العراقية ـ الإيرانية. ففي العام ١٩٨٣ ولدى إخراجه من طرابلس في شمال لبنان اختار عرفات التوقف في مصر للقاء الرئيس حسني مبارك ملوحاً بقيام توازنات جديدة في المنطقة أي بانقلاب على التوازنات العربية التي كانت قائمة.

ومنذ بداية النصف الثاني من الثمانينيات بدا الوجود العسكري السوري في لبنان وكأنه ضرورة لأكثر من سبب. فسورية هي الوحيدة القادرة على منع عودة لبنان إلى ما كان عليه عشية دخولها في ١٩٧٦. وهي الوحيدة القادرة على منع قيام دويلة أصولية في لبنان. وهي الوحيدة القادرة على المساعدة في الإفراج عن الرهائن الغربيين حين تنضج ظروف الإفراج عنهم. وفي عام ١٩٨٨ كان الدور الإسرائيلي قد انحسر فلم تعد إسرائيل ناخباً واقتصرت حساباتها تقريباً على «أمن حدودها الشمالية» وترسيخ وجودها في الشريط الذي تحتله في جنوب لبنان.

الرئيس والجنرال

في أيار/مايو ١٩٨٨ لم تعد رغبات الجنرال بحاجة إلى توضيح. وحين نشر الجيش حواجز له في بيروت الشرقية بحجة ضبط المخالفات شعر أركان الشرقية بأنه انتشار رئاسي هدفه إمساك عون بالشرقية التي كانت واحداً من ثلاثة ناخبين في معركة الرئاسة إضافة إلى دمشق وواشنطن. يومها سارع قائد «القوات اللبنانية»

الدكتور سمير جعجع إلى نشر حواجز مضادة ودخل الرئيس الجميل في شبه اختبار قوة مع الجنرال الذي عينه وانتهى الاختبار ببعض التراجع من جانب عون ولكن باتفاق الجميل وجعجع على الوقوف ضد عون الذي رحجا أن يكون «المرشح السوري ـ الأميركي» لانتخابات الرئاسة.

في حزيران/يونيو وعلى هامش القمة العربية في الجزائر التقى الرئيس الجميل بالرئيس السوري حافظ الأسد وتم الاتفاق على أن يرسل الجميل إلى دمشق لائمة ببضعة أسماء تحظى بتأييد رئيس الجمهورية وفاعليات الشرقية، وكانت الدبلوماسية الأميركية تتحرك في هذا الإطار على خط بيروت دمشق، وبدا أن الوصول إلى اتفاق حول الشخص ممكن وبحيث لا يكون اسمه مرادافاً لانتصار أو لتحدّ بمعنى أن يكون في منتصف الطريق بين واشنطن ودمشق ومقبولاً في الشرقية وفي الجمهورية.

الحد الأقصى

شهر آب/أغسطس سيعير الانتخابات الرئيسية الكثير من حرارته وسيعيد اللعبة إلى منطق الحد الأقصى. أعلن الرئيس الأسبق سليمان فرنجية ترشيحه وباركت دمشق الخطوة. وحدد موعد جلسه الانتخاب في ١٨ من ذلك الشهر. سارع جعجع إلى المجاهرة برفضه لترشيح خصمه وخصم «القوات» وخصم آل الجميل أيضاً وصارت المعركة بالنسبة لمعارضي فرنجية هي معركة منع اكتمال النصاب لانعقاد الجلسة. وكانت للجنرال مصلحة في منع اكتمال النصاب وحصول الانتخابات ومن هنا سيدخل في فصل جديد من حرب الرئاسة.

مورفي ورصاصة الجنرال

فشل الجلسة طرح احتمال مرور الفترة الدستورية بلا انتخاب لكن الأكثرية استمرت في المقابل في الرهان على دور أميركي يعيد اللعبة من منطق الحد الأقصى إلى منطق التسوية. وفي تلك الأيام ذهبت لوائح وعادت لوائح وأخطأ كثيرون في تقدير الحسابات المعقدة.

وعندما دخلت المهلة الدستورية أسبوعها الأخير ولاح خطر الفراغ توجه مساعد وزير الخارجية الأميركي لشؤون الشرق الأوسط ريتشارد مورفي إلى دمشق وأجرى محادثات «ماراتونية» انتهت بلقاء مع الرئيس الأسد وباتفاق على أن يكون النائب مخايل الضاهر مرشحاً وحيداً للرئاسة. هذا ما أبلغه مورفي للرئيس الجميل وما ذهب دبلوماسي أميركي لإبلاغه للجنرال. وحين خرج الدبلوماسي من عند عون أطلق الجنرال قذيفته الأولى بإعلان معارضته «تعيين» رئيس للبنان. وكان تصريح عون بمثابة إطلاق النار على اتفاق مورفي.

في قصر بعبدا سألت الجنرال لاحقاً عن ذلك التصريح فقال: خرج الدبلوماسي الأميركي فسألتني ابنتي عما حصل فقلت لها: لقد تحول لبنان إلى محافظة. وردّت عليه: لقد حرمتنا منك منذ ١٣ عاماً لتقول لي اليوم أن لبنان تحول إلى محافظة؟ ويضيف الجنرال: شعرت أن مرور الاتفاق يعني الموت وقررت أن أقتل بطريقة أخرى وأن أقاوم.

محاولة أخيرة

وتسارعت الأحداث: في ٢١ أيلول/سبتمبر، يذهب الجميل إلى

دمشق في محاولة أخيرة فيرد عون بالاجتماع مع جعجع والاتفاق على معارضة التعيين. عاد الجميل إلى بكركي وصارح النواب المجتمعين هناك وفي ظل القلق نامت الجمهورية.

في ٢٢ وهو اليوم الأخير من ولاية الجميل كانت الخيوط قد اتضحت. الرئيس سليم الحص لا يرى أن الحكومة التي تولى رئاستها إثر اغتيال الرئيس رشيد كرامي مستقيلة ولن يعترف بأي حكومة انتقالية يؤلفها الجميل. وكذلك الأمر بالنسبة إلى دمشق.

ساعة الجنرال

وفي قصر بعبدا اعتذر الرئيس السابق شارل حلو عن عدم تشكيل حكومة انتقالية وفشل النائب بيار حلو في تشكيلها. وفشلت محاولة لتوسيع حكومة الحص وضم جعجع وداني شمعون إليها. لم يبق غير الجنرال. سألوه إذا كان يقبل فأجاب بالإيجاب لكن بحكومة لا حزبيون فيها ولا مدنيون أي بحكومة من «المجلس العسكري». عارض جعجع «حكومة العسكريين» لكن الوقت كان ينفد. وقبل نحو نصف ساعة من نهاية ولاية الجميل تشكلت حكومة برئاسة عون وعضوية الأعضاء الخمسة في المجلس العسكري فسارع ثلاثة وزراء إلى الاستقالة أو الاعتذار ودخل عون القصر بحكومة من لون طائفي واحد لن تتعدى صلاحياتها حدود الشرقية وبدأت حروب الجنرال.

مدافع الجنرال

هكذا تموت الجمهوريات. تفقد جاذبيتها وتفقد أنيابها وتفقد صمامات الأمان.

يشغر القصر فيتنازع أبناء الشرعية عليها فتقوم جمهورية أخرى وشرعية أخرى مهما طالت الآلام. لم يكن هناك من يضبط تلك اللعبة الصعبة.

محطة الرئاسة هي محطة تسوية وحين حاول الفرقاء تحويلها محطة انتصار وهزيمة تعذر الانتخاب.

مساعد وزير الخارجية الأميركي لشؤون الشرق الأوسط ريتشارد مورفي لم يعزه الوضوح، قال للرئيس أمين الجميل ما معناه أنه لم يكن بالإمكان أفضل مما كان. وقال له أيضاً: «مخايل الضاهر أو الفوضى». واختارت الجمهورية «الفوضى» عندما رفضت الضاهر رئيساً وهي ستشعر لاحقاً بالندم أو ببعض منه.

في قصر بعبدا يجلس الجنرال بنصف حكومة. تسأله عن السبب فيجيب أن الضباط الثلاثة «ارغموا» على الاعتذار وأنه كان يغلق سماعة الهاتف بعد تلقيه ردوداً إيجابية منهم حين سمع بالإذاعة نبأ اعتذارهم.

وكان ميشال عون يشعر أن سورية حرمته فرصة الإطلال على اللبنانين بحكومة عسكرية مكتملة تمثل كل العسكريين وكل اللبنانيين. ولم يكن مقدراً أن يسمح للجنرال بهذه الإطلالة التي كانت ستضيف إلى الشرعية الدستورية التي يمثلها مرسوم التكليف شرعية المؤسسة العسكرية وشرعية تمثيل مختلف العائلات الروحية في لبنان.

ليلة الاسئلة؟

سيظل قدر من الغموض يحيط بما جرى فعلاً في الليلة الأخيرة من

عهد أمين الجميل. ولم تتضح كل الخيوط برغم أسئلة طرحتها مرات ومرات على الرئيس الجميل والعماد عون ورئيس الوزراء الدكتور سليم الحص ورئيس المجلس النيابي السيد حسين الحسيني وقائد «القوات اللبنانية» الدكتور سمير جعجع والمحامي كريم بقرادوني.

من اختار الفراغ في آخر أيام العهد وهل كان في استطاعة هؤلاء اجتناب الانزلاق إلى الأسوأ؟. والأكيد هو أن اللعبة أفلتت من أيدي هؤلاء جميعاً. وحتى ولو سلمنا بضياع الفرصة لصيغة إنقاذية ألم يكن باستطاعة أمين الجميل تشكيل حكومة أخرى؟ ولماذا رفض عون المشاركة في حكومة تضم مدنيين كانت سترتدي على الأقل صفة تمثيلية واسعة في الشرقية إذا افتقدت إلى هذه الصفة في الجمهورية؟ من ترك اللعبة تتعقد لكي لا يبقى في اللحظة الأخيرة غير اللجوء إلى الجنرال؟ ولماذا وافق أمين على تكليف العماد بعدما كان سعى منذ شهور إلى منعه من تولي الرئاسة، وهل حكومة العسكريين هي إحدى التشكيلات الحكومية التي كان الرئيس يقول إنها جاهزة في جيبه، أم أنها كانت التشكيلة الوحيدة الجاهزة؟ لعبة معقدة يصعب تحميل مسؤوليتها لشخص واحد.

عندما خرج جعجع تلك الليلة من القصر الجمهوري ليصف حكومة عون بأنها «حكومة استقلال وأكثر» لم يعرف اللبنانيون أن قائد «القوات» قال قبل ولادتها وأمام عون نفسه أنها أسوأ حكومة يمكن أن تشكل في هذه الظروف. تلك الليلة انتحرت الجمهورية وانتحرت «الشرقية». انفجر «مثلث» الجميل ـ عون ـ جعجع. فبعد عشرة أيام من تسليم القصر لعون ستدخل «القوات» إلى منطقة المتن معقل آل الجميل لتضع أمين الجميل على طريق المنفى،

وبعد عامين ستدخل وحدات من الجيشين السوري واللبناني إلى منطقة بعبدا لتضع عون على طريق المنفى.

عهد الحكومتين

في ٢٣ أيلول/سبمتبر استيقظ اللبنانيون ليجدوا أنفسهم وللمرة الأولى في ظل حكومتين تتنازعان الشرعية والسلطة. لم يكن باستطاعة أحد إنكار أن حكومة الجنرال ولدت من بين سطور الدستور ولكن لم يكن باستطاعة أحد تجاهل أنها حكومة لون واحد. ولم يكن باستطاعة أحد إنكار أن لحكومة الدكتور سليم الحص صفة تمثيلية حتى ولو في صورة حكومة أمر واقع وهي في النهاية حكومة يطغى عليها اللون الواحد أيضاً. وفي لبنان ثمة ما هو أعمق من الدستور وأبعد. فالقاعدة الذهبية هي التسوية وفي غيابها تتحول كل شرعية إلى ما هو أقل من شرعية في الجمهورية حتى ولو تسلحت بالمراسيم والأختام.

عندما حاول المهندس داني شمعون في الساعات الأخيرة من عهد أمين الجميل التفاوض مع الرئيس الحص ليوسع الأخير حكومته بحيث تمثل فاعليات الشرقية وتكون هي الحكومة الانتقالية، كان بين الحاضرين رجل يجلس وراء ابتسامة خفيفة لأنه يعرف القصة وكان اسم ذلك الرجل رينيه معوض. كان يعرف أن القصة أبعد من منزل الدكتور الحص في حي عائشة بكار. لم يكن موقف سورية غامضاً أو ملتبساً فهي أعلنت أنها لن تعترف بغير حكومة الحص ولن تتعامل مع غيرها. لن يقبل العماد عون في سره أن حكومته هي في النهاية «حكومة الشرقية» حتى ولو تسلحت بمرسوم، وحين سيحاول لاحقاً اختراق خطوط التماس ستضيء

المدافع ليل الشرقية والجمهورية محولة نهاراتها إلى ليل طويل.

من مورفي إلى بيكر

في الشهور التي سبقت انتخابات الرئاسة كان العماد عون يأمل أن يكون هو مرشح التفاهم الأميركي ـ السوري. وكان يكفي أن توافق دمشق على اسمه ليحمل مورفي إليه البشرى. لكن الناخب الأكبر لم يطمئن لهذا الجنرال. وسيسقط عون لاحقاً لسبب رئيسي وكبير وهو تحوله إلى الخصم الوحيد أو الأبرز للتفاهم السوري ـ الأميركي بشأن لبنان. وإذا كانت زيارة مورفي لدمشق في صيف ١٩٨٨ ستنسف آمال الجنرال بدخول القصر رئيساً فإن زيارة وزير الخارجية الأميركي جيمس بيكر لدمشق في خريف ١٩٩٠ ستنسف آخر أمل له بالبقاء في القصر. لقد خاض الجنرال حروباً أكبر منه وسقط بفعل حروب أكبر من حروبه.

لم يكن العماد عون في عزلة عربية أو دولية حين تولى رئاسة حكومة العسكريين، لكن حكومته لم تنتزع الاعتراف الذي كان يأمله. وحتى تلك الدول الكبرى التي اعترفت بشرعية تكليفه من الناحية الدستورية حرصت على إبقاء اتصالاتها مع حكومة الدكتور الحص. وعلى الصعيد العربي لم يكن من الوارد تجاهل حكومة الحص بسبب طبيعتها ولأن تجاهلها كان يعني في الوقت نفسه تجاهل دور سورية التي تدعمها. وكان من الصعب تجاهل حكومة عون لأنها تمثل على الأقل فريقاً من اللبنانيين ولم تولد بانقلاب ولأن هذه الحكومة كانت تحظى بدعم الأطراف المناهضة لدور سورية في لبنان وفي طليعتهم العراق العائد من الحرب بإصرار على دور سياسي مواز لانتصاره العسكري وبمشروع زعامة مكلف هو الآخر.

حصل الانقسام الكبير في لبنان ولاحت بوادر تقسيم طويل ومرير. وتحركت جامعة الدول العربية وكانت اللجنة الوزارية السداسية التي التقت عون والحص والحسيني في تونس في أواخر كانون الثاني/يناير ١٩٨٩. ولم تكن محصلة اللقاء سلبية بالنسبة إلى عون الذي أبدى استعداده للالتقاء بالآخرين أمام اللجنة وقدم طروحات تقوم على الوحدة والسيادة مع استعداد للحوار مع دمشق.

وستشهد محطة تونس حدثاً مهماً بالنسبة إلى عون ومكلفاً في الوقت نفسه. فقد أعرب الرئيس الفلسطيني ياسر عرفات عن رغبته بالاجتماع بالحسيني والحص وعون. اعتذر الحسيني والحص لأسباب يمكن تفسيرها بالقطيعة بين عرفات ودمشق ووافق عون والتقى الرئيس الفلسطيني وبدا وكأن محطة تونس دعمت موقعه محاوراً ويسرت له تحقيق اختراق عربي سيزيد من انزلاقه إلى التجاذب بين المحاور العربية. تناسى عون حدود التفويض الممنوح لحكومته والتي يفترض أن يكون همها الأول توفير الظروف المؤاتية لانتخاب رئيس للجمهورية. فالعماد الذي انتظر طويلاً في اليرزة لا يثق بالمدنيين ويرى أن انتخاب أي واحد منهم لن يكون أكثر من تمديد للأزمة. كان يعتبر أن الجيش هو البديل وها هو الجيش قد جاء، وأن العماد هو البديل وها هو القصر يعيش تحت قبعة العماد.

انفجر «مثلث» الشرقية في بداية تشرين الأول/أكتوبر ١٩٨٨ وغادر أمين الجميل لبنان. لم يبق في الشرقية إلا عون وجعجع. جنرال في بعبدا وجنرال في المجلس الحربي الكتائبي في الكرنتينا. الأول يريد الشرقية والجمهورية والثاني يبني بهدوء مؤسسات مدنية

وعسكرية. الأول جنرال دخل السياسة بمرسوم. والثاني «جنرال» يجمع في شخصه صلابة الجنرالات وبراعة السياسيين.

لم ينعقد الود يوماً بين الرجلين. ومنذ توليه قيادة الجيش في اليرزة راح عون يعبئ الجيش ضد الميليشيات. ولأن عبور خط التماس ممنوع كان ذلك الكلام يعني بالنسبة للألوية المرابطة في الشرقية مشروع مواجهة مقبلة مع «القوات» ولم يكن باستطاعة رئيس حكومة العسكريين أن يثبت أهليته لتسلم الجمهورية إن لم يثبتها في الشرقية، ووقع في خطأ الاعتقاد أن من يمسك الثانية يمسك الاولى متجاهلاً ما طرأ من التعقيدات الداخلية والخارجية.

وبرغم لقاءات دورية بين عون وجعجع كان هاجس الثاني خلالها ترتيب تعايش مع الجنرال بانتظار انتخاب رئيس وقعت المواجهة. في ١٤ شباط/فبراير ١٩٨٩ حصل اشتباك بين الجيش و«القوات» امتد ليتحول إلى حرب مصغرة. مدافع ودبابات وهجمات، شعر جعجع بخطورة المعركة، بخطورة الخسارة الكاملة والانتصار الكامل. لذلك توجه إلى القصر وكاد يقتل على طريقه حين أطلقت النار على موكبه وقتل مرافقه في السيارة في سن الفيل. لم يكن أمام جعجع غير أن يتنازل، ففعل وتسلم الجنرال بعض مرافئ الدولة ومرافقها وظهرت صيغة تعايش في الشرقية ولكن على قاعدة معادلة جديدة تغلب الجيش على «القوات». لكن جعجع الذي بدا يومها مستعداً لتقديم كل ما يطلبه الجنرال بدأ ومنذ ذلك اليوم يعد العدة للحرب الكبيرة الآتية والتي ستندلع في ٣١ كانون الثاني/يناير ١٩٩٠ بعدما فقد عون غطاء الشرعية، وهي حرب ستحول الجنرال إلى زعيم لبعض الشرقية لم يبق له من المواعيد غير موعد سقوطه.

منذ اندلاع الحرب في لبنان لم يتخذ أي قائد للجيش قراراً بشن حرب على إحدى الميليشيات ولم يتخذ أي رئيس للجمهورية قراراً بشن حرب على ميليشيات الشرقية. كانت الضربة المحدودة التي وجهها عون إلى «القوات» رسالة موجهة إلى الناخبين الكبار. إذا كنتم تريدون حل الميليشيات فها هو الجنرال بدأ بتقليم أظافرها وتطويعها. وكانت تلك المعركة أكبر من معركة في الشرقية. فوراء خطوط التماس تصاعدت شعبية الجنرال، والعسكريون المقيمون في ثكن الغربية وغيرها لم يخفوا تعاطفهم معه، وبعض النواب هناك عادوا للحديث عن أن عون ربما يكون الرئيس الوحيد الذي يمكن أن يقيم في الشرقية من دون أن تقيده ضغوط الشرقية.

من موقعه قائداً لحكومة العسكريين قاد عون انقلاباً على التوازن الذي كان قائماً في الشرقية على علاقات تعايش وإن صعبة بين «حارس الجمهورية» وقائد «القوات».

الجنرال يصطدم بخطوط التماس

وذهب عون بعيداً في تفسير قدرته على توظيف النجاح الذي حققه هذا الانقلاب. وفي قصر بعبدا سينزلق الجنرال إلى انقلاب في الجمهورية يقوده سريعاً إلى حرب طويلة ومنهكة. وثمة من يرى أن عون ارتكب خطأ قاتلاً حين توهم أن في استطاعته اختراق خطوط التماس أو القفز فوقها بالانقلاب عليها. وخطوط التماس ليست في النهاية مجرد أكياس رمل ومتاريس وأسلاك شائكة. إنها قبل كل شيء حدود التوازنات الداخلية وحدود التوازنات الخارجية داخل الساحة اللبنانية، وخطوط التماس ليست مكاناً لانتظار الحسم. إنها رسالة على أن الحسم ممنوع ومتعذر.

إنها حدود الحرب والحدود التي تؤكد أن السلام مؤجل. لم ترسم خطوط التماس فقط بدماء هؤلاء الشبان المساكين الذين سرعان ما كانت الميليشيات تعلق صورهم على الجدران فيسارع الشتاء إلى محوها لتتسع الجدران للمزيد من الشهداء. رسمت بدم هؤلاء وبألاعيب من يقفون وراءهم من هنا وهناك وهنالك.

توهم العماد عون ذات يوم أن خطوط التماس هي حدوده مع ميليشيات الحزب التقدمي الاشتراكي بزعامة السيد وليد جنبلاط وميليشيات «أمل» بزعامة السيد نبيه بري. نسي أو تناسى أن محاولة اختراق خطوط التماس تقود إلى مواجهة مع كبار اللاعبين، فرأى أن الضربة التي وجهها إلى «القوات» تعطيه جواز مرور لترويض الميليشيات الأخرى وأن «إسقاط منطق الدويلة» في الشرقية يمنحه حق إسقاط منطق الدويلات خارجها.

أخطأ الجنرال في القراءة والجنرالات يخطئون. وبالغ في الرهان على مشاعر الترحيب التي ظهرت وراء خطوط التماس حين استعاد وللمرة الأولى بعض مرافق الدولة وبالقوة عند الجانب الآخر من خطوط التماس.

الخطوط والمظلة

مشكلة الجنرال أنه لا يستطيع أن يتوقف ولا يستطيع أن ينتظر. هكذا يقول أحد مستشاريه. لم يكن عون يستمع إلى مستشاريه وهذه كارثه. وهي كانت ستحصل بالتأكيد لو استمع إليهم يضاً. وبنشوة النجاح الذي حققه في «الشرقية» قرر عون فرض حصار بحري على المرافئ غير الشرعية في المنطقتين معاً. وهذا لا يعني التصدي لميليشيات جنبلاط وبري فقط، بل يعني قبل ذلك اختراق

المظلة السورية المنصوبة فوق حليفي دمشق ومناطق وجودهما. ولم تكن دمشق في وارد السماح للجنرال باختراق تلك المظلة. ورضوخ جنبلاط وبري في امتحان المرافئ لإرادة عون كان سيعني ببساطة أن حكومة العسكريين ليست حكومة الشرقية بل هي حكومة الجمهورية وكان سيعني بكل بساطة أن حكومة الحص هي مجرد تجمع تدعمه دمشق.

ويقول كثيرون إن الجنرال أسرع وتسرع، وأنه كان في استطاعته استكمال نجاحه ضمن حدود الشرقية وإقامة نموذج هناك يوفر الأمن في ظل الدولة ويشكل نقطة جذب للمقيمين وراء خطوط التماس. وربما كان من شأن ذلك أن يحوله إلى رقم صعب في الجمهورية لا يمكن القفز فوقه في أي انتخابات أو أي تسوية. لكن الجنرال أضرم النار في ثيابه حين قرر إحراق المراحل وإضرام النار في ثياب من لا قدرة له على إحراقهم.

كان من شأن نجاح محاولة اختراق خطوط التماس أن يحسم النزاع حول الشرعية وبحيث يجعل من عون المحاور الوحيد باسم الجمهورية التي لن تجد في هذه الحالة مفراً من تسميته رئيساً لتحاول بسطور الدستور وقف اندفاع الجنرال نحو التحول إلى ما هو أخطر من رئيس قوي. وكان من شأن نجاح المحاولة أن يعيد جذب ألوية الجيش المقيمة خارج الشرقية إلى الولاء للقيادة المقيمة في اليرزة ولم تكن تعوز بعض ضباط تلك الألوية الرغبة في طي صفحة الميليشيات وسلاحها. وكان من شأن أي نجاح من هذا النوع أن يضع دمشق أمام خيار صعب فإما التفاهم مع عون أي التفاهم الصعب مع رجل صعب، وإما الحرب الصعبة مع رجل صعب.

وستظهر الأيام لاحقاً أن العماد سينقذ خصومه. وأن أبرز حليف لهم سيكون تسرعه في قراءة الأحداث وموازين القوى ومبالغته في الرهان على قوته وقدرته على تغيير مواقف دولية وحسابات تتعدى حدود لبنان.

فرض الجنرال حصاراً على المرافئ غير الشرعية فرد جنبلاط بقصف أي باخرة تدخل مرفأ بيروت الخاضع لسلطة العماد عون. تصاعدت حرب التصريحات وترجم جنبلاط تهديداته بإرسال بضع قذائف. انزلق الجنرال إلى اختبار قوة يصعب التراجع فيه ويصعب التقدم حتى الانتصار. ليلة ١٣ آذار/مارس ١٩٨٩ كان المقيمون في مقر قيادة «القوات اللبنانية» في الكرنتينا يتخوفون من هجوم وشيك على المقر، أي من أن يختار عون استكمال الانتصار في الشرقية للخروج من «حرب المرافئ». وفي ساعة متأخرة جاء من يطمئن المجتمعين إلى أن عون لن يهاجم وأن حربه ستكون أبعد وأكبر. وما أن طلع الصباح حتى دوت مدافع الجنرال. في ذلك الوقت كان مبعوث عربي من إحدى الدول المشاركة في اللجنة السداسية يحاول إقناع سورية بالتحاور مع عون تمهيداً للقبول به رئيساً.

في ١٤ آذار/مارس أعلن العماد عون «حرب التحرير» على القوات السورية المنتشرة في لبنان. كان القرار مفاجئاً وكان انتحارياً أيضاً. لم يسبق لمسؤول لبناني أن اتخذه ولم يبلّغ أحد به مسبقاً بمن فيهم رئيس غرفة العمليات في الجيش. وسع الجنرال دائرة الانقلاب. ومن ملجأ القصر سيدير حرباً مكلفة للجيش والشرقية والجمهورية. دوت مدافع الجنرال وستتطاير حجارة الشرقية والجمهورية.

مدافع بيروت
وبنود الطائف

عندما أعلن العماد ميشال عون «حرب التحرير» على القوات السورية المنتشرة في لبنان بدا واضحاً أن أقصى ما يتطلع إليه هو «حرب تحريك» للملف اللبناني. ومنذ الأسبوع الأول ظهر جلياً أن الكسب الوحيد الذي يتطلع إلى تحقيقه فيها هو قرار من مجلس الأمن الدولي يفرض وقفاً لإطلاق النار ويعترف صراحة بأن القتال يدور بين الجيشين السوري واللبناني. كان من شأن ذلك القرار في حال صدوره أن يثبت شرعية عون دولياً وأن يحرم القوات السورية في لبنان من صفة الأداة الأمنية الموضوعة في تصرف الشرعية اللبنانية. بمعنى آخر كان من شأن القرار أن يضع القوات السورية على طريق الانسحاب حتى ولو تأخر. لكن صدور مثل ذلك القرار كان يحتاج إلى حليف كبير وتحديداً إلى الولايات المتحدة. وسيخسر عون «حرب التحرير» على الجبهة الأميركية قبل أن يخسرها على خطوط التماس.

لقد سقط عون في ما سقط فيه كثيرون من قبله وهو المبالغة في تقدير قيمة لبنان بالنسبة للآخرين، وخصوصاً بالنسبة إلى الدول الكبرى وفي طليعتها الولايات المتحدة. لقد تناسى هؤلاء أن لبنان تحول إلى ساحة للحلول ولمحاولات اسقاطها وأنه تحول إلى ساحة للتجاذب الإقليمي والدولي، وأنّ تدخل الكبار كان يحصل بين الفينة والأخرى لا لإنقاذ لبنان بل لضبط اللعبة حين تصل إلى حدود تهدد بإشعال حروب أكبر من لبنان. ولم يكن لدى لبنان ما يقدمه لتدرج قضيته بين الأولويات التي تستحق الذهاب إلى الحرب أو المواجهة في سلم اهتمامات هذه الدولة الكبرى أو تلك.

تجاهل مسؤولون لبنانيون وقياديون أن لبنان كان مهماً بغيره لا بنفسه، أي يوم كان يحتضن المقاومة الفلسطينية ويهدد أمن إسرائيل وتنطلق منه هجمات إرهابية تقلق العالم. وعندما رحلت المقاومة الفلسطينية في ١٩٨٢ وأعادت «الانتفاضة» لاحقاً الورقة الفلسطينية إلى أرضها لم يبق في لبنان إلا الورقة اللبنانية وهي لا تكفي لإقناع الدول الكبرى بالذهاب بعيداً في الدفاع عنه. هكذا وجد لبنان نفسه أمام الحقيقة المؤلمة: دولة غير أساسية بين دولتين أساسيتين تملكان عدداً غير قليل من مفاتيح الحرب والسلام في المنطقة.

يصعب على اللبنانيين الاقتناع بأنهم دولة يستطيع العالم أن يتعايش مع تمزقها وربما مع غيابها. وهم ذهبوا بعيداً في الحديث عن حاجة العالم إلى لبنان وإلى تجربته الفذة متناسين أن اللعبة الدولية سبق وأسقطت أكثر من دولة وأكثر من وطن.

ومنذ الأيام الأولى لـ«حرب التحرير» اتضح أن هذه الحرب لا تحظى بإجماع داخل «الشرقية»، وبدأ التباعد بين عون والفاعليات النيابية والحزبية وظهر أن واشنطن نفضت يدها من حرب الجنرال وهو ما سيظهر عبر محطات عدة. ولأن مدافع العماد عون بدأت الحرب بقصف المواقع الموجودة وراء خطوط التماس سقط لبنانيون بنار قذائفها، وهكذا راح الرصيد الذي جمعه عون عبر ضرب «القوات» يتبدد بفعل الحرب التي تحولت حرباً عبر خطوط التماس.

لم يحاول عون التقدم شبراً واحداً ولم تحاول سورية اقتحام مناطقه. ويستحيل أن تفتح محاولة التحرير عبر التحريك طريق

الحل من دون وجود حليف بحجم الولايات المتحدة. وبعقلية من يتوهم القدرة على قلب مسار الأشياء، راح عون يتطلع إلى تغيير موقف الإدارة الأميركية عبر استثارة الرأي العام لكن الحسابات كانت أكثر تعقيداً. ربما كان عون يراهن على أن خروج العراق منتصراً من حربه مع إيران، وبغداد لم تبخل على الجنرال بالدعم، وعودة مصر إلى الساحة العربية وتقارب المنظمة مع بغداد، كلها عوامل ستؤدي إلى إضعاف موقع سورية العربي. ولم يلتفت إلى أن مشروع الزعامة الذي لم تخف بغداد رغبتها فيه قد يزيد من الحاجة إلى سورية كقوة توازن أو كعامل من شأنه كبح تزايد الثقل العراقي على الصعيد الإقليمي.

كانت حسابات الولايات المتحدة أكثر تعقيداً. وكانت واشنطن تقرأ الوجود العسكري السوري في لبنان من زاوية أخرى. وكان من الصعب على معظم العرب المطالبة بانسحاب سوري من لبنان في وقت لا تزال إسرائيل فيه تحتل جزءاً من الجنوب اللبناني. ولم يكن في استطاعة سورية أن تخسر تلك الحرب، فخسارتها تعني الكثير. ولم تكن دمشق في وارد الإنسحاب تحت دوي مدافع الجنرال، فهي لم تدخل لبنان في عام ١٩٧٦ لتنسحب في ١٩٨٩ وبهذه الصورة. لم يضمن عون مخرجاً لنفسه وحاول وضع الآخرين أمام مخرج يستحيل عليهم القبول به.

يستحيل أن تنسحب سورية من لبنان وفي القصر جنرال من هذا النوع وعلى رأس الجيش جنرال من هذا النوع وفي لبنان جمهورية كالتي كانت. وأقل ما يمكن أن تقبل به دمشق للموافقة على الإنسحاب ضمانات وتطمينات لا توفرها النصوص فقط بل معادلة جديدة في الجمهورية ووضع جديد في الشرقية لا يسمح

بالانقلاب على المعادلة التي صارت «العلاقات المميزة» جزءاً جوهرياً من إعلان ولادتها.

منذ اللحظة التي أعلن فيها «حرب التحرير» أطلق عون النار على آخر حظوظه في أن يكون رجل الحل أو رجل التسوية أي الرئيس. ومنذ تلك اللحظة سيتحول عون من مشروع رئيس إلى مشروع لمنع انتخاب رئيس، خصوصاً أن الطريقة التي انتهت بها تلك الحرب أظهرت استحالة العودة إلى رئيس في منتصف الطريق.

يضاف إلى ذلك كله أن العماد عون أعلن الحرب باسم حكومة انتقالية لا يمكن أن يصل التفويض المعطى لها إلى حدود الحق في إعلان الحرب خصوصاً حين تكون «نصف حكومة» ونصفاً من لون واحد وبغض النظر عن الظروف التي جعلتها نصف حكومة. لا يمكن خوض حرب تحرير بنصف حكومة ونصف جيش ونصف شعب ومن دون إطلاق النار على الجيوش الأجنبية الأخرى ومن دون الالتفات إلى موازين القوى الإقليمية ومن دون التوقف طويلاً عند الشعار الذي ترفعه معظم الدول الكبرى وهو «إنسحاب كل الجيوش الأجنبية من لبنان». لم يكن وضع العماد عون يسمح له بخوض حرب من هذا النوع وبهذا الحجم ولم تكن التركيبة اللبنانية لتسمح أصلاً بمثل هذا الانقلاب الكبير خصوصاً بعد ١٤ عاماً من انهيارها.

في آذار/مارس ١٩٨٩ سيرتكب الجنرال خطأ يعادل الخطيئة. توهم أن انتصاره المحدود على «القوات» في الشرقية يعطيه جواز مرور للانتصار على الميليشيات المقيمة وراء خطوط التماس. قرر محاصرة المرافئ وانزلق إلى لعبة سيجعلها قاتلة له بإعلان «حرب التحرير»

ومن دون حليف يضمن له سريعاً تحويلها إلى حرب تحريك ذات نتائج. وقع الجنرال في الفخ. وخصومه يقولون إنه وقع في لعبتهم تقريباً وإنه كان في استطاعته فرض هيبة الدولة في الشرقية والانتظار. بدأ الجنرال المعركة بفرض الحصار على الموانئ وانتهى بعد ستة شهور من دوي المدافع بمنطقة محاصره ومرافئ محاصرة. كان يطالب بثمن ليوافق على رفع الحصار الذي فرضه وها هو يدفع ثمن الحصار الذي فرض عليه.

خسر العماد عون الحرب منذ اللحظة التي فشل فيها في تدويل الأزمة. صحيح أنه أدخل سورية في مواجهة مباشرة فضلت دائماً خوضها بالواسطة، ولكن الصحيح أيضاً هو أن كل ردود الفعل جاءت أقل وبكثير من الحد الذي يبرر له الحديث عن انتصار. فالاهتمام الدولي بوضع متفجر شيء والقرار الدولي بإنهاء ذلك الوضع المتفجر شيء آخر، ومن ملجئه في القصر كان عون يدير الحرب. الفاعليات النيابية والسياسية والدينية ميزت موقفها عن موقفه واستشعرت حجم الكارثة. ولم يكن في استطاعة «القوات» أن تكون محايدة في وقت تتعرض فيه «الشرقية» لجبال من النار، لكنها تصرفت وكأن الحرب هي قبل كل شيء حرب الجنرال وهي كانت كذلك. ذهب الجنرال بعيداً في الاتهامات والتصريحات وبدا لبعض الوقت أن حربه اندرجت في حرب تصفية الحسابات بين بغداد ودمشق. ولن تنسى سورية له ما فعله وما قاله وحين ستحاول ميليشيات مؤيدة لها لاحقاً تزويده ببعض الوقود وبعض الأغذية وقع الجنرال في خطأ التفسير ولم يفهم أن الغرض ليس إنقاذه بل تأخير موعد سقوطه ولكي يكون هذا السقوط كبيراً ويترجم على الأرض معادلة جديدة في الجمهورية ومعادلة جديدة في الشرقية

تغلق الباب على احتمال قيام جنرال آخر يشبه الجنرال.

كان لا بد للعالم العربي من أن يسارع إلى إطفاء النار التي كانت تتأجج في لبنان. ولم يكن في استطاعته القبول بزوال الدولة اللبنانية في وقت يحاول فيه انتزاع الدولة الفلسطينية. وبعد وقف إطلاق النار الذي دعا إليه مجلس الجامعة العربية في نيسان/أبريل انعقدت في الأسبوع الأخير من أيار/مايو القمة العربية الطارئة في الدار البيضاء وكان قرار تشكيل اللجنة الثلاثية العربية من السعودية والمغرب والجزائر.

وهكذا بدأت اللجنة الثلاثية تحركها انطلاقاً مما تمثله دولها واستناداً إلى تفويض عربي ودعم دولي. وإضافة إلى وقف إطلاق النار وفك الحصار، دعت اللجنة البرلمانيين اللبنانيين إلى الاجتماع في ٣٠ أيلول/سبتمبر وكان لقاء الطائف.

لقاء الطائف

في الطائف يلتقي النواب اللبنانيون في ظل قرار عربي ودولي بإحياء مؤسسات الدولة اللبنانية وطي صفحة الحكومتين المتنازعتين. وفي لبنان كان العماد عون قد خسر الحرب وخسر الفرص. لم يكن ثمة خيار آخر غير العودة إلى المؤسسات لتأكيد الصفة الشرعية للحل. ولم يبق من المؤسسات خارج الانقسام إلا المجلس النيابي. صحيح أن هذا المجلس انتخب عام ١٩٧٢ وراح يجدد لنفسه بفعل الحرب. وصحيح أن بعض قادة الميليشيات أكثر شعبية من النواب ولكن قادة الميليشيات لم يخرجوا من صندوقة اقتراع وهم جاؤوا بالبنادق وبها يقيمون.

كانت العودة إلى مجلس النواب أشبه بالعودة إلى الحكماء. ربما كان ذلك المجلس يتحمل بعض المسؤولية عما حل بالجمهورية والسلطة والجيش، لكنه حاول في الواقع أن يبقي الخيط قائماً بين اللبنانيين. المجلس كان الفرصة الوحيدة للرجوع إلى منتصف الطريق أو نقطة قرب منتصف الطريق على الأقل في الملف الداخلي وهو ملف الإصلاح. فقد كان بين النواب الذين التقوا في الطائف من يعرف سر قيامة لبنان وقصة تلك التسوية المعقودة بين الجغرافيا والتاريخ وقصة ذلك القدر الضروري من التنازل لكي يتسع لبنان للجميع ويبقى للجميع.

وكان للحكماء دور في تبريد منطق الحد الأقصى الذي كان يطل بين وقت وآخر خلال المشاورات والنقاشات الماراثونية. وكانت اجتماعات كثيرة وطويلة في أجنحة الرئيسين حسين الحسيني وصائب سلام والنائب كاظم الخليل. إحدى النقاط البارزة في سير المناقشات كانت أن الميثاق الجديد أو الدستور الجديد يعقد في غياب القيادات المارونية التي شهدت ولادة الميثاق السابق، فقبل أعوام غاب بيار الجميل وغاب بعده كميل شمعون.

مهمة مستحيلة

وظهر وكأن الطرف الذي سيوقع الميثاق الجديد عن الموارنة هو رئيس حزب الكتائب الدكتور جورج سعادة. ولم تكن مهمة سعادة سهلة إطلاقاً ولن تكون لاحقاً سهلة. كانت الشرقية تعيش في ظل الجنرال وتحت وطأة ما أثارته الحرب من خسائر بشرية ومشاعر غضب. وبهذا المعنى كان على سعادة أن يسعى إلى تقريب الاتفاق من صيغة يقبل بها الجنرال، ولو على مضض، أو لا

يجد فيها على الأقل ما يمكّنه من تأليب أنصاره عليها ووضعهم في وضع المعرقل للحل. وكان في الشرقية «رقم صعب» يتعذر تجاهله وهو الدكتور سمير جعجع وهو جنرال حاول قراءة موازين القوى والانتظار والالتفات إلى التجاذبات الإقليمية والرياح الدولية. وكان على سعادة أن يأخذ في الحسبان موقف البطريرك الماروني نصرالله بطرس صغير من تسوية لا بد أن يقدم الموارنة تنازلات لمرورها والمناقشات لا تدور على مبدأ التنازل بل على حدود التنازلات ولمن. كان على سعادة ونواب آخرين أن يسعوا إلى صيغة تحظى بموافقة صفير وجعجع وعون لكي لا تطل الحرب مجدداً بعد إعلان الحل، وإذا تعذر ذلك كان عليهم أن يسعوا إلى حل يحظى بتأييد صفير وجعجع وهذا ما حصل.

في ملف الإصلاحات لم تكن المناقشات سهلة خصوصاً أنها جرت قبل معرفة الصيغة النهائية للفقرة المتعلقة بالعلاقات اللبنانية ـ السورية التي بدا ومنذ اللحظة الأولى أنها لا يمكن أن تكون إلا «مميزة» وسيدور جدل طويل حول مضمون هذه الكلمة لكن خارج قاعة الاجتماعات.

النواب والجنرال

قد يكون العماد عون وافق على توجه النواب إلى الطائف لأنه لم يكن باستطاعته آنذاك أن يرفض، وربما لاعتقاده أن المناقشات ستتعثر وأن بعبدا ستكون معبراً إلزامياً لأي تسوية. وثمة من يقول إن عون استبعد أن يوقع نواب «الشرقية» على اتفاق لا ينص على برنامج زمني لانسحاب كامل القوات السورية من كل الأراضي اللبنانية. ولم يتردد عون في الطعن بشرعية النواب والتشكيك

بصدق تمثيلهم للشعب اللبناني واستبعد أن يوقعوا أي نص لا يمكنه العثور فيه على ما يبرر الحرب التي خاضها. ومرة جديدة سيخطئ الجنرال فقد اتفق النواب على الاصلاحات وجاء ما يتعلق بالسيادة والانسحابات مزيجاً من الواقعية والسعي إلى حصر انعكاسات الأمر الواقع فتم تأكيد حق السيادة على كل الأراضي وتسجيل ضرورة إنسحاب سورية إلى البقاع خلال عامين وترك موضوع الوجود العسكري السوري للحكومتين وللوقت. لكن النص تضمن صراحة «علاقات مميزة» مع سورية ستدخل في الدستور وحق استعانة السلطات الشرعية بالقوات السورية لبسط سلطتها، وسيغادر عون القصر لاحقاً تحت دوي قذائف الطيران السوري وبفعل عملية مشتركة للجيشين اللبناني والسوري.

يصعب إقناع العماد عون. يحارب ولا يربح ويحاور كأنه لم يحارب ولم يخسر. وموفد اللجنة الثلاثية العربية إلى لبنان السيد الأخضر الإبراهيمي يعرف القصة. فقد كان الجنرال عقدة يصعب حلها برغم براعة هذا الدبلوماسي الهادئ في حلحلة العقد بخطوات صغيرة تعالج وتؤجل ثم تعالج وتؤجل على أمل اكتمال ظروف المعالجة الكاملة.

عشية إعلان اتفاق الطائف في ٢٢ كانون الثاني/يناير ١٩٨٩ كان السؤال الكبير في أوساط النواب والصحافيين هل يأتي العماد عون؟ وكالعادة في هذه الحالات تصاعدت الشائعات والسيناريوهات. ولم يكن سراً أن بعض النواب أو أكثرهم كان يقلب هذا الاحتمال وانعكاساته.

كان مجيء عون سيعدّ بمثابة اكتمال للمصالحة الوطنية. وكان

سيوفر له فرصة ومخرجاً. وكان من الصعب استبعاده عن أي حكومة في حال حضوره. وربما كان في استطاعته القول إنه حرك بدوي المدافع الملف اللبناني حتى أوصله إلى حل. وكان الحل يتسع للعماد عون لو حضر وهو اتسع له لاحقاً برغم عدم حضوره. لكن الجنرال لم يكن يبحث عن حل يتسع له وكان يصر على حل يكون هو عنوانه. ولم يكن سراً آنذاك أن الحل يشبه رينيه معوض ولا يشبه الجنرال، وأن معوض سيحاول التقدم إلى القصر حاملاً الحل الذي يشبهه.

وثمة من يقول إنه كان في استطاعة الجنرال توفير مخرج لائق أيضاً لو غلّب إغراءات الزهد على غوايات الحكم. كان في استطاعته مثلاً أن يقف في قصر بعبدا قائلاً إنه حارب من أجل حل آخر، لكنه لن يعرقل الحل الذي توافق عليه اللبنانيون أو أيدته غالبية اللبنانيين. وكان باستطاعته أن يقول إنه ليس متمسكاً بالقصر وأنه ذاهب ويترك للتاريخ أن يفصل بينه وبين النواب. وكان باستطاعته أيضاً أن يستعير لهجة ديغولية فيقول إنه ذاهب إلى منزله لكنه يبقى «مستعداً لتلبية النداء إذا دعتني فرنسا» كما كان يقول الرجل الذي ذهب أكثر من مرة إلى كولومبي لا دو زيغليز وعلى أمل الدخول ذات يوم إلى قصر الإليزيه.

لم يدرك الجنرال حجم القرار الدولي الدولي القاضي بإنهاض مؤسسات الشرعية اللبنانية وعلى قاعدة حسابات واقعية تأخذ في الحسبان ضرورة إنهاء الحرب وما افرزته الحرب وما أكدته. كان من عادة الجنرال أن لا يستمع إلى مستشاريه، وكان من عادته أن لا يصغي إذا استمع وما كان اخذه برأيهم ليخلصه ويخصلهم. فبمقدار ما وقع الجنرال في فخ صورة الجنرال وقع المستشارون في

الفخ نفسه ووقع عدد غير قليل من اللبنانيين، ومذذاك سيتحول الجنرال مشكلة لأنصاره ومشكلة لخصومه ومأساة للاثنين.

أضاع الجنرال فرصة المشاركة في الوقت المناسب وفرصة الغياب في الوقت المناسب. وبعدها سيكون من الصعب عليه أن يشارك متأخراً أو يقبل بغياب طوعي كان أفضل لو حصل في السابق. لن يوقع الجنرال لكن موقعه سيقع. وقبل ذلك سيذهب إلى حرب أخرى وستدوي مجددا مدافع الجنرال.

أمام محكمة التاريخ

عشية توجهه إلى لبنان حيث سينتخب رئيساً للجمهورية في ٥ تشرين الثاني/نوفمبر انتظر رينيه معوض في باريس عودة ابنه ميشال الذي تأخر. وحين عاد قال له: «أنا ذاهب غداً إلى لبنان، يمكن ينتخبوني رئيس ويمكن بعدها يغتالوني، انتبه للعائلة».

كان الزغرتاوي الهادئ كمن يقرأ في كتاب مفتوح. لقد اختار الحل رجلاً يشبه الحلم. لكن هذا الحلم القديم الذي يقترب من موعد ترجمته سينفجر بالرجل الحالم.

في القاعدة الجوية في القليعات في شمال لبنان سيختار النواب شمالياً معتدلاً اسمه رينيه معوض ليطوي صفحة الحرب وعلى قاعدة الاتفاق الذي توافقوا عليه. وفي آخر أيام مناقشات البرلمانيين اللبنانيين في الطائف بدا واضحاً أن معوض هو الخيار فهو يشبه النص مع قدرة على تطبيقه وتلطيفه وتمريره.

كان رينيه معوض الابن الشرعي للتركيبة اللبنانية. فهذا «الشهابي»

الذي يتقن لغة الصمت والصبر يعرف كيمياء تلك التركيبة بأسرار قوتها ومواطن ضعفها. لهذا لم ينزلق يوماً إلى ما ينسف الجسور. ولعل ذلك هو ما جعل الفرصة تسنح له برغم الانطباع أن فرصته اغتيلت يوم اغتيل صديقه رئيس الوزراء رشيد كرامي في حزيران/ يونيو ١٩٨٧. كان اختيار هذا الشمالي المقيم أصلاً في الشرقية يشبه اللقاء في منتصف الطريق. فهو من زغرتا أي من معقل يصعب التشكيك في تمسك أبنائه بالثوابت في أكثر من مجال وعلى أكثر من صعيد.

وقبل كل ذلك كان معوض يعرف حدود الهزائم. قبل انتخابه بقليل اختار العماد ميشال عون السير في المواجهة إلى حدود اللاعودة وأقدم على حل مجلس النواب. لكن المسألة ليست مسألة دستورية أو قانونية، فالعالم لن يعترف أبداً بما فعله الجنرال إذ كان يحاول نسف الأساس القانوني للحل الوافد برغبة لبنانية ومدعوماً بإرادة عربية ودولية. دارت صندوقة الاقتراع على النواب وخرج الرئيس منها وابتسم الرجل الهادئ الذي انتظر طويلاً.

شيء من القلق كان يخالط فرحة الرئيس المنتخب. إنه رئيس جمهورية بلا قصر. وحتى لحظة اغتياله كان معوض يقلب الاحتمالات ويبحث عن الطريق الأقرب. كان يعرف أن عليه أن يستعيد القصر ويفضل أن يفتح القصر نفسه له الأبواب. ولم يكن يعارض توفير مخرج لائق للجنرال سواء كشريك في المصالحة أو في صورة انسحاب هادئ ولائق. كان يريد الشرقية من دون أن يدخلها في صورة المنتصر عليها. وكان يريد ألوية الجيش هناك من دون أن يقهرها قبل اجتذابها إلى سلطته.

ولم يكن يريد فتح طريق القصر بالقوة وكان يفضل أن «يأكل»

الجنرال على مهل ومن الداخل.

والواقع أن موقع الجنرال بدأ بالتآكل منذ لحظة انتخاب معوض. فمنذ تلك اللحظة سيتحول رئيس حكومة العسكريين إلى ضابط «متمرد». والشرعية في النهاية هي حجم الاعتراف بها في الداخل والخارج حتى ولو كان لخصومها تحفظات وملاحظات.

وعلى تلك الطريق أرسل معوض أكثر من إشارة عبر أكثر من وسيط. وفي الوقت نفسه كان يتحرك لمحاصرة الجنرال من دون فرض الحصار عليه. فهو كان يسعى لترتيب مصالحة بين قائد «القوات اللبنانية» الدكتور سمير جعجع والسيد سليمان طوني فرنجية حفيد الرئيس السابق سليمان فرنجية وإشراك الاثنين في حكومة وحدة وطنية واسعة التمثيل تضع الجنرال أمام خيار المشاركة أو العزلة حتى داخل مناطقه.

دم الاستقلال

في تلك الساعة من ذلك النهار (٢٢ تشرين الثاني/أكتوبر ١٩٨٩) كان لبنان يحتفل بذكرى استقلاله، على طريقة من يتذكر حلماً ضاع ولاحت بعض فرص استرجاعه فامتدت يد الحرب إلى رجل الحل.

تطاير جسد معوض وتطايرت فرصة واختلط دم معوض بدم الاستقلال فرجع إلى زغرتا ملفوفاً بالعلم الذي كان يحلم أن يعيده إلى كل شبر من أرجاء تلك الجمهورية المستباحة.

من قتل معوض؟ سؤال مضحك عن واقعه مؤلمة. سيظل القاتل

الحقيقي مجهولاً حتى ولو عثر على القاتل الصغير الذي زرع العبوة أو كبس على زر التفجير.

من قتل معوض؟ ولكن من قتل الكثيرين قبله ـ ولا جواب على تلك الأسئلة النائمة في ملفات نائمة في ادراج يعرف من يغلقها أن العثور على القاتل الصغير لا يغير مجرى الأحداث ولا يمكن من اعتقال القرار الكبير.

قتل معوض وقتل الجنرال معه. قتل الرئيس المطالب بالقصر وقتل الجنرال المعتصم في القصر. قتل الأول لأنه اغتيل وقتل الثاني لأن الذي اغتيل كان فرصة للجمهورية تساعدها على التصحيح والتوضيح ولأنه كان فرصة لمخرج لائق للجنرال وللحيلولة دون المزيد من تغيير المعادلات. كان يمكن أن تسقط الجمهورية في فراغ كبير. فمعوض لم يشكل حكومته، ربما لأنه يبحث عن حكومة تشبه الحل.

وكان من شأن الفراغ أن يعيد لبنان إلى لعبة التنازع على الشرعية. لكن القرار الدولي لم يسمح بالفراغ، وبعد أقل من ٤٨ ساعة سيجتمع مجلس النواب لكن هذه المرة في شتورة، أي في البقاع، لينتخب النائب إلياس الهراوي رئيساً للجمهورية.

وبعد ٤٨ ساعة سيوجه الرئيس الجديد إنذاراً شديد اللهجة إلى الجنرال الذي سيبرع هذه المرة في ارتداء ثوب الضحية وسيتحول إلى حالة شعبية في الشرقية أكدتها المظاهرات أمام القصر الذي سماه عون «بيت الشعب».

خسر عون الشرعية الدستورية وراح يستعيض عنها بشرعية شعبية في الشرقية وهي في النهاية شرعية انقلابية برغم كل شيء وبرغم كل ما قاله الجنرال.

خسر الجنرال حرب الجمهورية وستندلع حرب الشرقية. لم يكن سراً أن جعجع يؤيد الحل. وحين وافق رئيس حزب الكتائب جورج سعادة في الطائف على الاتفاق إنما فعل لأنه كان يعرف موقف «القوات». لم يشارك جعجع في الحكومة ليتفادى حرباً طاحنة في شوارع الشرقية. ومنع عون النواب من العودة ومنع الوزراء الجدد من الإقامة في الشرقية التي رأت نفسها وللمرة الأولى منذ عقود خارج الشرعية ورموزها.

عزلة القصر

ذهب نواب الشرقية إلى الحل. وبدأت عزلة الجنرال. السفراء الذين كانوا يزورونه في قصر بعبدا غابوا وصار عليهم من الآن فصاعداً أن يحصلوا على إذن من حكومة الدكتور سليم الحص وبحجة أنهم يسعون إلى حل عقدة الجنرال أي السعي إلى إقناعه بالخروج من القصر إلى مقعد حكومي أو إلى الخروج إلى مقعد في المعارضة الشعبية. غياب السفراء ضرب آخر آمال عون بأن «يتدخل العالم» لتصحيح الأوضاع التي كان يصر على تصحيحها. وراح عون ينظر إلى وجود «القوات» وكأنه اختراق خطير ولغم مزروع لينفجر به في الوقت المناسب.

خسر عون معركة الجمهورية ولم يكن أمامه غير التحصن بالشرقية لتمديد إقامته في القصر أو لتعزيز أوراقه في أي مفاوضات محتملة حول الحل أو موقعه فيه، وهو كان يريد الاثنين معاً.

ورأى عون أن عودة «القوات» إلى الكلام بعد صمت طويل، بدأ مع «حرب التحرير» واستمر إلى ما بعد انتخاب الهراوي، هي

رسالة موجهة إلى العالم ومفادها أن عون الذي لم يعد جنرال الجمهورية ليس في الوقت نفسه جنرال كل الشرقية.

وفتح عون الباب لاختبارات قوة. حظر على وسائل الإعلام استخدام لقب الرئيس في الحديث عن الهراوي. ففضلت وسائل الإعلام التابعة لـ«القوات» الامتناع عن إذاعة نشرات الأخبار وكأنها اختارت عدم الرضوخ من جهة وعدم تقديم مبرر لإندلاع شرارة المواجهة من جهة أخرى. وبدا واضحاً أن «القوات» لم تعد تعترف بشرعية عون الذي لم تعد لديه أي وسيلة لفرض شرعيته عليها باستثناء ألوية الجيش التابعة له، وهي ألوية تشكل النواة الصلبة أصلاً في الدفاع عن الشرعية، وسيأخذها الجنرال هذا المرة إلى مأساة لها وللجيش وللوطن.

حرب الشرقية

نفد صبر الجنرال فدوّت مدافعه. في ٣١ كانون الثاني/يناير ١٩٩٠ بدأت «حرب الشرقية». نسي الجنرال أنه كان عليه أن يربح هذه الحرب في ١٤ شباط/فبراير ١٩٨٩ حين وجه إلى «القوات» ضربة محدودة فاختارت التنازل لكنها شعرت في الوقت نفسه أن حرباً مع الجنرال ستقع سواءاً خرج منتصراً من «حرب التحرير» أم خاسراً.

ففي الأولى ستكون الحرب حرب استكمال الانتصار وفي الثانية ستكون حرب التعويض أو الاحتماء من الهزيمة الكاملة. وعلى كل تلة في الشرقية وفي كل شارع ستدور الحرب الأعنف في تاريخ الحرب.

سيقتل كثيرون في «حرب الشرقية» وستقتل الشرقية أيضاً. كان ثمة من يعتقد أن الجمهورية ستعود ابتداء من الشرقية لكن الشرقية انتحرت أو نحرت في أكثر من مناسبة ويوم، لهذا لن تأتي الجمهورية منها بل ستأتي إليها، وبين الصورتين فارق كبير وثمن كبير. وثمة من يعتقد أن الحرب استمرت بسبب عقدة الشرقية وتماسك تلك النواة هناك حول ما تبقى من بنية البلد الاقتصادية. وذلك الواقع والأمن النسبي سابقاً أعطيا للشرقية، حين تجمع، نوعاً من ممارسة حق النقض على سلام ما كان يطرح عليها بين وقت وآخر فتعارضه وتستمر الحرب.

هذه المرة ستهدأ المدافع بعد فوات الأوان. وبعد خطوط التماس المزمنة التي زرعت في جسد الجمهورية ستنبت في الشرقية خطوط تماس رسمت بدم أبنائها. للمرة الأولى ستتحول الشرقية إلى شرقيتين وستفقد قدرتها على النقض وحقها في النقض. ذهب الجنرال إلى الحرب ولم يترك الباب مفتوحاً ولو قليلاً خلفه. لم ينتصر ولم يعد باستطاعته أن يتراجع. «حرب الشرقية» جعلت منطقة الجنرال بلا مرافئ ولم يكن أمامه كي يستمر، ولو مؤقتاً، غير التعاطي مع البر أي مع البر الذي حاربه في «حرب التحرير».

لم يعد الجنرال قوة حل بل صار أكثر من أي وقت مضى أشبه بقدرة على العرقلة. واعتقد أن الحل لا يمكن أن يقوم إلا على الجيش وأن ولاء نصف ألوية الجيش له سيمنحه ورقة لا يمكن انتزاعها منه. ولم يكن الهدف من تلك «الهدايا» التي كانت تصله براً إنقاذه بل تأجيل سقوطه ومنعه من ارتكاب مفاجأة التراجع الكامل أي إلغاء خطوط التماس في الشرقية الذي كان سيعني استعادة حق النقض ولو في صورة أضعف.

وهكذا سيذهب السفير الفرنسي إلى بعبدا وسيرجع. ومثله سفير الفاتيكان. لم ينتصر الجنرال في حروبه ويحاور وكأنه لم يخسر. ولا شيء في قانون اللعبة يفيد أن جنرالاً يستطيع أن يأخذ بالحوار ما تعذر عليه أن يأخذه بالمدفع. لا يربح حربه ولا يقبل سلام الآخرين. لا ينتصر ولا يوقع.

مشكلة ومأساة

هكذا تحول الجنرال إلى مشكلة. مشكلة لأنصاره ومشكلة لخصومه ومأساة للاثنين. مأساة لأنصاره لأنهم يؤمنون بشعاراته ولأن أساليبه كانت أقل من أن تحقق تلك الشعارات ولأنه حارب حين كان عليه أن ينتظر وحاور بعدما خسر أوراقه. ومأساة لخصومه لأنه متمرد وليس خائناً. فهو رجل بلا حليف كبير. جنرال بلا مظلة. ولو كانت له مظلة راسخة لما حدث ما حدث وكان الذي كان. ومأساة لخصومه لأنه أكثر من جنرال ولأنه أيقظ تياراً. وفي لبنان يمكن قهر رجل ويصعب قهر تيار لأن ذلك يؤدي إلى ظهور جنرال جديد وإن تأخر.

في أواخر تموز/يوليو سألت العماد عون في قصر بعبدا عما ينوي أن يفعله. فرد سائلاً: «شو رأيك بقصة العراق والكويت؟» وأجبت أنها قصة تبدو معقدة، لكن ماذا يمكن أن ينتج منها حتى ولو وصلت إلى أقصى مداها. فاكتفى الجنرال بالقول: «تبدو القصة كبيرة». وبدا لي وكأن الجنرال الذي خسر الكثير من الأوراق في الداخل لم يعد أمامه غير الرهان على زلزال يخربط اللعبة والمعادلات. ولم يتأخر الزلزال. ففي ٢ آب/أغسطس اجتاح العراق الكويت. لقد وقع الزلزال لكن لن تكون للجنرال القدرة على

الإفادة من شراراته بل سيكون أول ضحاياه.

عندما حصل الاجتياح العراقي للكويت وعقدت القمة العربية الطائرة في القاهرة كان على الجنرال أن يحتمي من نار ذلك النزاع. كان عليه أن يقبل بما رفضه قبل ٢ آب/أغسطس، أو كان عليه ببساطة أن يغادر القصر بلا شروط باستثناء أن يترك معقله في عهدة العماد إميل لحود. وعندما زار وزير الخارجية الأميركي جيمس بيكر دمشق كان على الجنرال أن يعرف أن قوانين اللعبة القديمة تغيرت وكذلك قصة «الخطوط الحمر». كان على الجنرال أن يعرف أن الوقت يفلت من بين أصابعه وأن ما كان ممنوعاً من قبل سيصبح مسموحاً الآن.

وإذا كان واضحاً أن خصوم الجنرال وافقوا قبل الزلزال على حل يلحق به وبصورته خسارة محدودة فإنهم بعد الزلزال ما كانوا ليقبلوا له بأقل من خسارة شبه كاملة. والواقع هو أن الجنرال كان أمام خيار صعب: إما أن يخسر بمفرده، أي أن يعلن تسليم منطقته للعماد لحود ويذهب، ويمنع بذلك الخسارة المحدقة بالألوية الموالية له أو يحد منها، وإما أن يختار الخسارة له ولأنصاره من عسكريين ومدنيين. وعندما اندفع العماد عون نحو الخسارة الثانية بدا واضحاً أنه لا يزال يقرأ في كتاب ما قبل الزلزال.

في ١٣ تشرين الأول/أكتوبر سيغادر الجنرال القصر تحت دوي قذائف الطيران السوري هذه المرة. وسيطلب من مبنى السفارة الفرنسية في شرق بيروت ومن الألوية التابعة له أن تأتمر بأوامر العماد لحود ولكن في تلك الساعة كان قد تأخر فعلاً وما كتب قد كتب. فقد كان ذلك البيان كافياً قبل أيام لضمان خسارة

محدودة، أما الآن فلم يعد صالحاً لرد الخسارة الكاملة.

وهكذا خسر العماد مع مؤيديه من عسكريين ومدنيين.

يكتب التاريخ بحبر المنتصرين. ولكنه لا يكتب مرة واحدة وأخيرة. وغالباً ما تعاد كتابته في ضوء ما يفعله المنتصرون بانتصارهم وهو ما يحدد قدرتهم على جعل الانتصار نهاية فعلية للحرب أو مجرد محطة كبيرة فيها. وفي لبنان كل الانتصارات صعبة وكل الانتصارات مؤلمة للخاسر وللرابح معاً، خصوصاً أن الانتصارات تترافق غالباً مع ما يسيء إليها وينال من صورتها.

يكتب التاريخ بحبر المنتصرين لكنه لا يكتب مرة واحدة. ومن المبكر الجزم بنتائج ما حدث في ذلك النهار وإن كان يمكن الجزم بأن الجنرال قد خسر. لم تنته معركة الشرعية عند حدود القصر. إذ عليها أن تثبت أنها المنتصر الكبير لتكون في النهاية المنتصر الوحيد.

فالشرعية التي انتصرت على العماد عون مطالبة بسلسلة من انتصارات تبدأ بطمأنة من انتصرت عليهم أو اضطرت إلى مثل ذلك الانتصار. وتبدأ أيضاً بنموذج ناجح للدولة والأمن ومع ذلك بتقديم الدليل بأنها الأفضل لتحقيق تلك الشعارات التي رفعها الجنرال فوق حروبه، وهي السيادة وتغليب الدولة على الدويلات.

ما حدث في ذلك النهار قد يطوي صفحة الحرب أو قد يكون الحدث الأبرز في مسارها لأنه رسم خريطة جديدة لأشياء كثيرة. لكن الأكيد هو أن اللبنانيين اليوم أحوج منهم في أي يوم إلى الاحتماء تحت مظلة الشرعية من حروب بعيدة عنهم وأكبر منهم،

لكنهم ليسوا بعيدين عن نتائجها وذيولها.

أخطأ الجنرال. هذا صحيح. لكن فتح ملف أخطائه وخطاياه سيفتح ملف كل الأخطاء وكل الخطايا. لهذا تبدو محاكمة الجنرال صعبة لأنها ستكون من تلك المحاكمات التي لا تنتهي. ولأن ذلك كذلك يبدو وكأن الجنرال سيترك للتاريخ أي لتلك المحاكمة المؤجلة.

ذات يوم اعتقد الجنرال أنه فرصة الجمهورية. واعتقد لبنانيون أنه الجنرال الفرصة. واكتشفوا لاحقاً أنه أضاع أكثر من فرصة. وقد أثبت اللبنانيون على مدار الحرب الطويلة أنهم جنرالات الفرص الضائعة فهل يتعلمون؟

صارت القصة من الماضي. تهرب القصة إلى التاريخ الذي يكتب على نار حامية ثم تعاد كتابته.

أخسر ولا اوقّع

في أواخر تموز/يوليو ١٩٩٠ ذهبت إلى بيروت موفداً من «الشرق الأوسط» في إطار الإعداد لجزء جديد من ملف «لبنان.. قصة جمهورية على خط الزلازل». والواقع هو أنني كنت أسعى إلى الربط بين الأحداث الدائرة على ثلاثة محاور هي الشرقية والجمهورية والشرعية. وفي ضوء ما سمعته تضاعف اهتمامي بمصير العماد عون.

في المقر المؤقت للرئاسة اللبنانية في بيروت الغربية قال لي الرئيس الياس الهراوي: أرسلت للعماد عون بواسطة صديق مشترك نصيحة

هي الآتية: إذا كنت شارل ديغول فتذكر ما فعله شارك ديغول (حين افتعل أستفتاء لترتيب مخرج لائق لنفسه) وإذا كنت نابوليون فتذكر ما حل بنابوليون (الذي انتهى في المنفى). وسألت الرئيس الهراوي متى سنزورك في القصر فقال ليس المهم المكان لكن موضوع عقدة عون شارف نهايته بوسيلة أو بأخرى.

من مقر الرئيس الهراوي انتقلت إلى منزل رئيس الوزراء الدكتور سليم الحص الذي قال بهدوئه المعتاد: قطار الوفاق انطلق ولن يستطيع العماد عون عرقلته وإن كان يستطيع بالتأكيد التسبب في المزيد من المآسي. وبدا الحص واثقاً من أن الوقت يعمل لمصلحة الشرعية.

في اليوم التالي ذهبت لمقابلة قائد «القوات اللبنانية» الدكتور سمير جعجع الذي قال بلهجة حاسمة: عون انتهى، تحول منذ زمن إلى جثة سياسية ولم يبق غير المراسم.

هذا الإجماع على أن سقوط عون بات وشيكاً دفعني إلى الاتصال بالقصر الجمهوري في بعبدا. وفي الموعد المحدد استقبلني الجنرال ودار حوار طويل توقف خلاله ليسألني لماذا تركز على الشخص في اسئلتك بدل الأحداث ولم يكن من الممكن التبرير بأن الجميع يتوقعون رحيله فقلت له إنني أفعل ذلك بسبب أهمية الشخص في صنع القرار وأحداثه. بعد اللقاء الذي عقد في المكتب المخصص أصلاً لرؤساء الجمهورية سألت العماد عون إذا كان يمكن عقد لقاء ثان معه قبل عودتي إلى لندن فطلب من الضابط تحديد الموعد الذي حصل بعد ثلاثة أيام. في الموعد الثاني قال العماد عون إنه يفضّل الجلوس تحت فقلت له ممازحاً لماذا اللقاء في الملجأ؟ هل سيعود

اللبنانيون قريباً إلى الملجأ؟ فأجاب: لا لكن التبريد أفضل تحت.

وقلت في نفسي. لقد اعتاد الجنرال على الملجأ الذي أقام فيه خلال حربين خاضهما منذ توليه ليلة ٢٢ ـ ٢٣ أيلول/سبتمبر ١٩٨٨ رئاسة حكومة العسكريين. وعلى مدى أكثر من ساعتين تحدث عون مخفياً مرارات كانت تلوح في حديثه فيسارع إلى طردها بلهجة الجنرال. وشعرت في الواقع أن الجنرال خسر فعلاً وأن حماسة أنصاره لن تستطيع رد المصير المحتوم. قال: أفضل الخسارة الكاملة على التوقيع. وحين سألته عن احتمالات الخسارة الكاملة فقال: ربما حدث ذلك لكن الخسارة الكاملة لا تعني الهزيمة.

وقال عون: يحارب الناس للدخول في الوزارة. أنا يشنون الحرب عليّ لدخولها.

وقبل أن أغادر القصر قلت للعماد عون: أنا ذاهب إلى لندن وسأعود بعد ثلاثة أشهر فأين أتصل بك حين أعود في مكتبك بالوزارة (في حكومة الحص) أم في منزلك في بيروت أو في باريس؟ ففكر قليلاً قبل أن يجيب مبتسماً: اتصل على الرقم نفسه. وكان يقصد رقم القصر الجمهوري في بعبدا.

وهنا نص الحوار:

■ **الحديث يدور حول مخرج من الوضع الحاضر فأين وصلت الوساطات وما هي ملامح هذا المخرج؟**

ـ أنا أبحث عن حل نهائي ولا أبحث عن مخرج لشخصي. لو

كنت أبحث عن حل لميشال عون أو مطالب له لكانت المسألة مختلفة. لقد وجهوا إنذارات كثيرة وحددوا لي مواعيد كثيرة للمغادرة. لكن الخطأ في كل هذه الحسابات واضح. أنا لست موجوداً هنا بالقوة العسكرية لكي يمكن معالجة وضعي بالوسائل العسكرية. أنا موجود بفعل حالة شعبية عبرت عن حالها مرات عدة. ويذكر الجميع كيف قال الناس كلمتهم عندما سئلوا عن رأيهم. المسألة تتعدى شخص ميشال عون. إن الحالة اللبنانية التي تشكلت في الجيش انتقلت بعد تولي رئاسة الحكومة إلى الشعب. إنها حالة تتجاوز حدود منطقة وحدود طائفة ولهذا يتصدى الكثيرون لها. وللمرة الأولى تلاحم الجيش مع الشعب حول قضية أساسية هي السيادة وحول ضرورة إنهاء الميليشيات والدويلات لمصلحة الدولة التي يجب أن تكون عصرية وعادلة.

■ لكن حكومة الرئيس الياس الهراوي تحظى باعتراف العالم بأسره؟

ـ قصة اعتراف العالم بنظام ما صارت معروفة. هناك من لا يريد الاهتمام بلبنان فيفضل القول إنه يعترف بالشرعية. هناك من يرى أن لبنان الذي يرفض أن تكون أرضه جوائز ترضية هو لبنان مزعج ومقلق. نحن نقول إن الشرعية تبدأ من الشعب قبل كل شيء. ونقول أيضاً ليست عندنا أراض للتوزيع، والوطن ليس شركة مساهمة. وأريد أن أسأل ما هي الجريمة في أن نقول إننا نريد سيادتنا أو أن نقول إننا نريد الدولة لا الدويلات. إنهم يعاقبوننا لأننا رسخنا هذه الحالة الشعبية التي لم يعد بالإمكان قهرها وتجاهلها. وسواء بقي العماد عون أو ذهب فإنني اعتقد أن هذه الحالة ستبقى وستقاوم وهي تستند إلى عمق التاريخ وحق الشعب

اللبناني وحقوق الإنسان أيضاً. وتقول الدول الكبرى وأنا أسألك عن حجمها في محكمة الضمير والاعتبارات الإنسانية. أو ليس غريباً أن يتحدثوا عن ولادة عالم جديد ويسقط الجدار الألماني ويمنعون إرادة الشعب من إسقاط الجدران المصطنعة بين المناطق؟

■ لكن معظم اللبنانيين لا يشاطرونكم مواقفكم؟

ـ صدقني لو أتيح للبنانيين أن يعبّروا بصراحة عن رأيهم وموقفهم لقالوا كلمتهم. أنا ابن هذا الشعب وأعرف لبنان من أقصاه إلى أقصاه. لقد خدمت ضابطاً في أقصى الجنوب وجالست المزارعين هناك وخدمت في الهرمل وأكلت مع الناس البسطاء وأعرف مشاعرهم. هل تصدق أن لبنانياً واحداً يمكن أن يقف ضد ما نطرحه. لماذا لا يوافقون على إجراء استفتاء ولماذا لا يقبلون بإجراء انتخابات. فلنحتكم إلى الشعب. اوليس العالم بأسره يتجه اليوم إلى حق تقرير المصير. لماذا يحجب عنا هذا الحق؟

■ يقولون إنك تتمسك بالبقاء في قصر بعبدا وإن هذه هي المشكلة؟

ـ الموضوع ليس الإقامة في بعبدا، فإما أن يكون رمز الشرعية هذا رمزاً لقرار حر وإما يجب أن تستمر المقاومة. إما أن تكون بعبدا رمزاً لتسوية تعكس إرادات وطنية وفي مثل هذه الأحوال لا داعي للقوة ولا لغيرها، وإما على اللبنانيين أن يتابعوا تحركهم للوصول إلى الهدف نفسه. كان يمكن أن أترك بعبدا بعد ١٥ يوماً من تعييني رئيساً للحكومة ويمكن بعد ١٥ سنة. لقد كلفت برئاسة حكومة وأخذت على نفسي أن أفعل كل ما أستطيع لأعيد للقصر موقعه وللجمهورية هيبتها وللشرعية والمؤسسات وجودها.

■ **لكن الشرعية قالت إن الحل يتسع لك؟**

ـ هذا الحل لا يتسع لي. لقد صنعوا حلاً ويعرضون عليّ التوقيع عليه. لن أوقع. يعرضون عليّ حقيبة وزارية. لقد رفضت من قبل أربع حقائب. لا يمكن أن تصنع حلاً وتدعوني للجلوس وفق قواعده علماً أنني أمثل تطلعات الناس. يرفضون الإجابة على أسئلة أطرحها. المسألة ليست مسألة إعطائي حصة. رفضت عروضاً أكثر سخاء. وليست قصة شخصية لنحلها بتبويس اللحى. يعتقدون أنني في عزلة وهم أنفسهم في عزلة.

■ **كيف ستستطيع الاستمرار من دون موارد مالية؟**

ـ ألم تسمع بما حصل هنا في ساحة القصر؟ جاء الناس بالليرات التي وفروها وقدمت النساء الأساور والعقود لأنهم وجدوا في ما ندافع عنه دفاعاً عن تطلعاتها. ومن يدري فقد يفلس البنك المركزي قبل أن نفلس نحن.

■ **والحلول العسكرية؟**

ـ فليجربوا.

وماذا لو وصلت الدبابات إلى القصر؟

ـ أخسر ولا أوقع.

■ **وماذا تفعل في هذه الحالة؟**

ـ ما يمليه علي ضميري لكنني أؤكد لك أنني لن أوقع.

■ **ومصير الناس؟**

ـ الأسوأ هو أن نجهض آمالهم ونسلمهم لما يمكن أن ينتج المزيد من الحروب.

■ **هل تشعر بالقلق؟**

ـ لا.

■ **هل أنت خائف من محاولة اغتيال؟**

ـ لقد حصلت محاولات عدة. من يقم بدوري يجب ألّا يستبعد هذا الاحتمال. وفي النهاية لكل فرد نهاية. وأنا عسكري يمكن أن أقتل هنا أو هناك. لقد حصلت محاولات عدة.

■ **هل تنام والمسدس تحت وسادتك؟**

ـ لا، لماذا؟.

■ **لأن الاغتيال يأتي دائماً من شخص قريب. من جندي أو ضابط مثلاً؟**

ـ بيني وبين العسكريين علاقة أكثر من وطيدة. ولا يعقل أن تسلم أمنك للناس ولا تثق بهم. لا أنام والمسدس تحت رأسي. وهاجس الاغتيال لا يلاحقني لكنني أتخذ سلسلة احتياطات وقد أحبطنا أكثر من محاولة لتنفيذها.

■ **هل أنت أسير القصر بمعنى أن اعتبارات الأمن تمنعك من مغادرته؟**

ـ لا. فأنا أنتقل من وقت إلى آخر لكن الأعمال كثيرة.

■ **هل تتجدد حرب الشرقية؟**

ـ من جهتي أقول إنها انتهت. لقد حاولت «القوات اللبنانية» ضرب الجيش بوصفها أداة للعبة دولية لكنها لم تنجح. لقد طعنت «القوات» الجيش في ظهره لتبقى دويلتها ودويلات الميليشيات الأخرى. المسألة ليست برقعة الأرض وأنا حاذرت إلحاق الخسائر بالمدنيين.

■ **حصل تغيير في لهجتك حيال دمشق فما هو السبب؟**

ـ في بعض الظروف يكون لا بد من المواجهة، وفي ظروف أخرى لا بد من الحوار. لكنني أذكرك: لقد دعوت ومنذ اليوم الأول إلى حوار صريح مع سورية يحفظ مصالح البلدين وسيادة كل منهما. وعلى الصعيد الداخلي دعوت دائماً إلى الحوار مع كل الأطراف في الداخل وبلا شروط مسبقة.

■ **يصفونك بالجنرال المتمرد؟**

ـ التمرد أكبر فضيلة احتجاجاً على الظلم. يعيّرونني بأفضل ما عندي.

■ **ما هي أصعب اللحظات في حياتك؟**

ـ لحظة اتخاذ القرار وبعدها أنسى كل الصعوبات.

■ **يقولون إنك تحب الحرب إلى درجة البحث عنها؟**

ـ تاريخي يشهد أنني كنت دائماً في موقف الدفاع. فأنا أعرف حدود المدفع.

■ **ما هو راتبك؟**

ـ نحو نصف مليون ليرة لبنانية.

■ **قائداً للجيش أم رئيساً للحكومة؟**

ـ مثل بعضهم.

■ **وهل يكفيك؟**

ـ الحمد لله. عشت دائماً وأنا مقتنع أن الإستغناء أفضل من الاقتناء. أرجو أن لا تكون صدقت حكاية الأرصدة والدولارات. الناس تعرفني. لو أردت ذلك لحصلت على ما هو أكثر بكثير.

■ **من تحب من الفنانين؟**

ـ الأخوين رحباني. صوت فيروز عظيم. والحالة اللبنانية أنجبت أعمالاً شعرية وموسيقية وغنائية.

■ **ومن تحب من الشعراء؟**

ـ المتنبي وأبو العلاء. الأول لتماسك قصائده وبنائها والثاني لعمقه.

■ **وأي الأبيات لا تزال في ذاكرتك؟**

وصرت إذا أصابتني سهام تكسرت النصال على النصال
أنام ملء جفوني عن شواردها ويسهر الخلق جرّاها ويختصم.

■ **وماذا أيضاً؟**

الخيل والليل والبيداء تعرفني والسيف والرمح والقرطاس والقلم

وأيضاً:

كم قد قتلت وكم قد متّ عندكم ثم انتفضت فزال القبر والكفن

■ هذا يعني أنك مولع بالمتنبي فما هو السبب؟

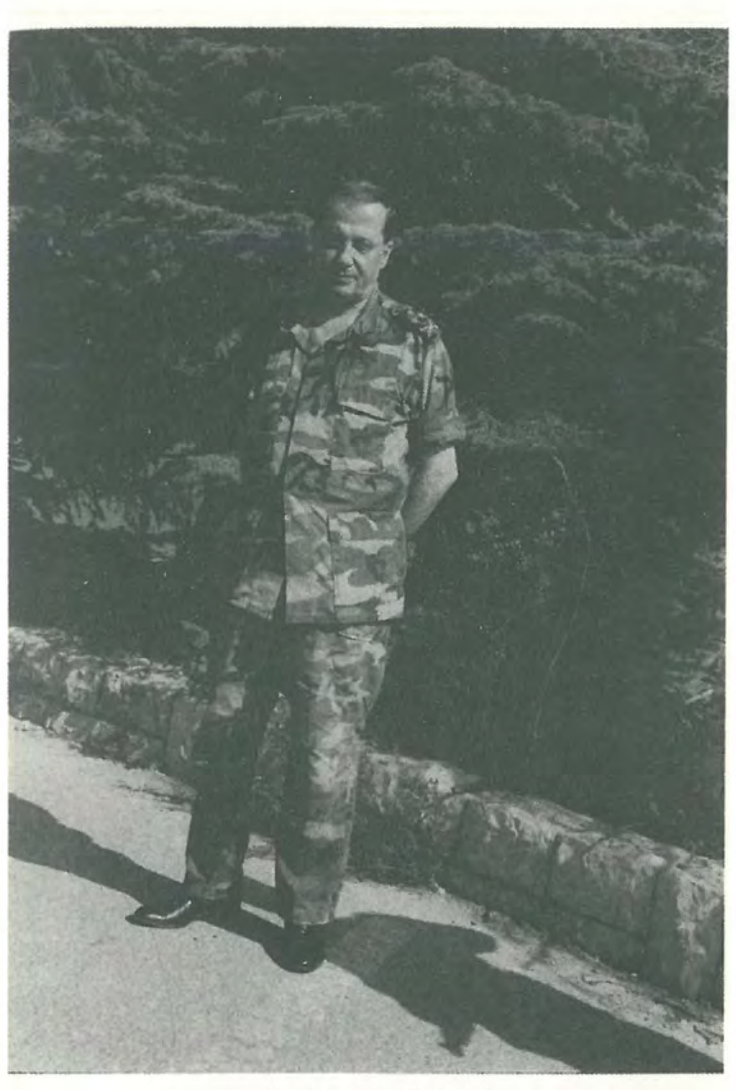
- كان يمثل الثقة بالنفس. كان متمرداً وقتَله تمرده.

مع زوجته ناديا

الجنرال في مكتبه مع جعجع وجورج عدوان
ومدير مخابرات الجيش العميد عامر شهاب



مع مبعوث اللجنة الثلاثية السفير الأخضر الإبراهيمي



الجنرال الذي فاجأ السياسيين

الـمؤلف

صحافي وكاتب لبناني. بدأ حياته الصحافية في «**النهار**» اللبنانية ثم عمل في «وكالة الصحافة الفرنسية» وصحيفة «**الشرق الأوسط**» ومجلة «**الوسط**». يتولى منذ ٢٠٠٤ رئاسة تحرير صحيفة «**الحياة**».

شارك في تغطية عدد من الأحداث العربية والدولية واهتم عبر سلسلة «يتذكر» بتوثيق عدد من المحطات اللبنانية والعربية على لسان أصحاب القرار فيها.

صدر له عن «دار النهار»:

- **جورج حاوي يتذكر** «الحرب والمقاومة والحزب».

- **خالد مشعل يتذكر** «حركة حماس وتحرير فلسطين».

وعن «دار رياض الريّس»:

ـ ذاكرة الاستخبارات، ٢٠٠٧.

ـ لعنة القصر، ٢٠٠٨.

ـ أسرار الصندوق الأسود، ٢٠٠٨.

ـ العراق من حرب إلى حرب: صدام مرّ من هنا، ٢٠٠٩.

فهرس الأعلام

أ

ح

ز

س

ش

ص

ض

ط

ع

غ

ف

هـ

ي

فهرس الأماكن

أ

ب

ق

ك

ل

م

و

ن



إنها قصة أربعة رجال شاركوا في الحرب وفي فصولها الأكثر قسوة. رأيت عون قائداً للجيش وحاورته رئيساً لحكومة العسكريين وبعدها في المنفى، ثم التقيته بعد عودته إلى لبنان. والتقيت حبيقة المطرود من المنطقة الشرقية ثم حاورته بعدما عاد نائباً ووزيراً قبل أن يخسر مظلتـه وعمـره. والتقيـت جنبـلاط قبل اتفاق الطائـف وبعده وقبل انعطافاته وبعدها. والتقيت جعجع على الثلوج في الجرد وفي معقله السابق في غدراس وكذلك في سجنه وبعد خروجه منه تشابكت مصائر الأربعة وساهموا كل من موقعه في إنهاك الجمهورية الأولى أو قتلها. حاورتهـم في التسعينيات في إطار محاولتي جمع بعض الروايات عن الحرب قبل تواري اللاعبين.

(من مقدمة الكتاب)

